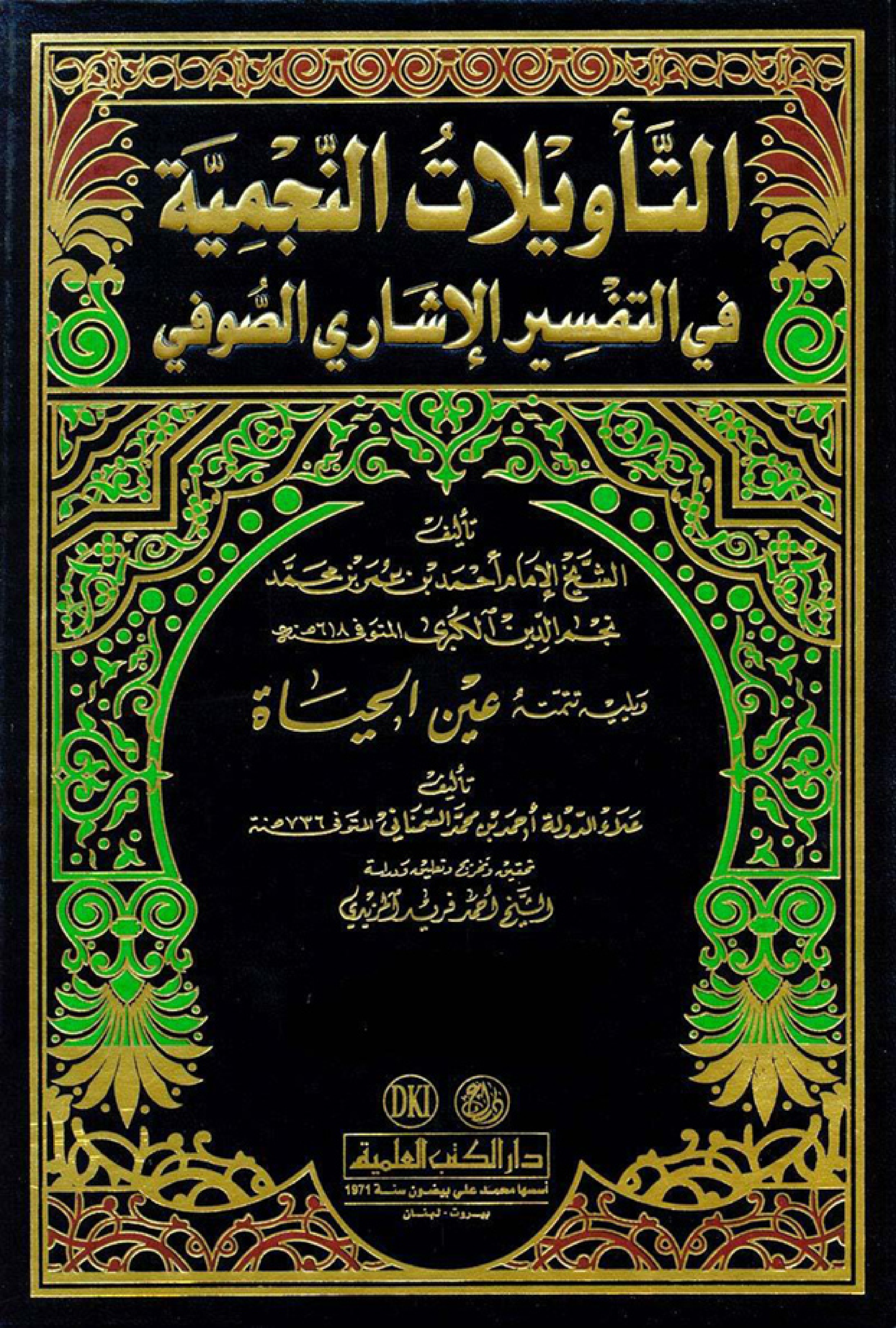

التأويلات النجمية
في التفسير الإشاري الصوفي
تأليف
الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد
نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨ هـ
ويليه تتمته عين الحياة
تأليف
علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني المتوفى ٧٣٦ هـ
تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة
الشيخ أحمد فريد المزيدي
DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

التأويلات النجمية

في التفسير الإشاري الصوفي

تأليف

الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد

نجم الدين الكبرى

المتوفى ٦١٨ هـ

ويليه تتمة

عين الحياة

تأليف

علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني

المتوفى ٧٣٦ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الرابع

المحتوى:

من أول سورة الحجر - إلى آخر سورة العنكبوت



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Fondée par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : AL-TA'WĪLĀT AL-NAJMIYYAH *Followed by: 'AYN AL-HAYĀT*	الكتاب : التأويلات النجمية ويليه تتمه : عين الحياة
Classification: Exegesis of the Qur'an	التصنيف : تفسير قرآن
Author : Najmuddin al-Kubra and: 'Alā'uddawlah al-Simnâni	المؤلف : نجم الدين الكبرى وعلاء الدولة السمناني
Editor : Ahmad Farid al-Mizyadi	المحقق : أحمد فريد المزيدي
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiayh	الناشر : دار الكتب العلميــة - بيروت
Pages : 2464 (6 volumes)	عدد الصفحات : 2464 (6 أجزاء)
Size : 17*24	قياس الصفحات: 24*17
Year : 2009	سنة الطباعة : 2009
Printed in : Lebanon	بلد الطباعة : لبنــان
Edition : 1st	الطبعة : الأولى



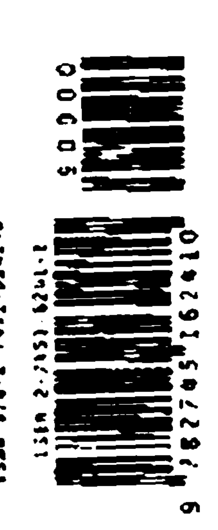
Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beirut-Lebanon No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah** Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.


ISBN 978-2-7451-6262-0

سورة الحجر

مكية وآياتها تسع وتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)﴾ [الحجر: 1 - 10].

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:1] إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ﴾ [الحجر: 8].

قوله: ﴿الر تِلْكَ﴾() يشير بكلمة تلك إلى قوله: ﴿الر﴾ أي: كل حرف من هذه الحروف حرف آية من ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ وهي ﴿قُرْآنٍ مُبِينٍ﴾.

() قال روزبهان: ﴿الر﴾ فهم النقد بما يرى من فلق الإلهام إخبارًا كثير بصورة الألف واللام والراء، إن الله سبحانه بيّن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خبر عن الأولية، ألا ترى كيف قدمها على أول اسمه الله، وبيّن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبيّن بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فمَنْ لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إبهامًا، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان كيف كانت أولها «بلا إله»، ثم ذكر محل الإثبات بالألف: «لا الله»، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء مخبرًا بمجموعة عن أسرارها بلسان صاحب الواقعة ﷺ.

والألف إشارة إلى آية: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:255].

واللام إشارة إلى آية: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح:14].

والراء إشارة إلى آية: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:23] فالله تعالى أقسم بهذه الآيات الثلاث بإشارة هذه الحروف الثلاثة، ثم أقسم بجميع القرآن بقوله: ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] [الحجر:1-2] يشير إلى النفس الكافرة وصفاتها المتمردة وتمنيها أن ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:2] أي: مستسلمين لأحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه، كما استسلم من مؤمني القلب والروح وصفاتها، وذلك يكون عند استيلاء سلطان الذكر على الروح والقلب ونشور صفاتها وتبدلت أحوالها من الأمارية بالمطمئنة، فتمنت حين ذاقت حلاوة الإسلام وطعم الإيمان أن كانت من بدء الخلقة مسلمة مؤمنة كالقلب والروح.

وأما قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ﴾ [الحجر:3] التهديد للنفس ذاقت حلاوة الإسلام، ثم عادت المشئومة إلى طبعها واستحلت مشاربها من نعيم الدنيا، واستحسنت زخارفها فيهددها بأكل شهوات الدنيا والتمتع بنعيمها، ثم قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما خسروا من أنواع السعادات والكرامات والدرجات والقربات، وما فات منهم من الأحوال السنية والمقامات العلية، وما أورثتهم الدنيا الدنية من البعد من الله والمقت وعذاب نار القطيعة والحرمان.

ثم قال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الحجر:4] أي: وما أهلكنا بالخذلان من عاد من قوله: ﴿قَرْيَةٍ﴾ المولى إلى قرية الدنيا ﴿إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: إلا ولها مكتوب في أم الكتاب ما كان معلوماً الله في الأزل من سوء أعماله وأحواله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [الحجر:5] حتى يظهر منه ما هو سبب هلاكه واستوفت نفسه من الحظوظ ما يبطل

---

(1) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخفَّفة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، وداوتهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

الحقوق ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر:5] بحظه بعد استيفاء أسباب هلاكه وعذابه ﴿وَقَالُوا﴾ [الحجر:6] يعني: النفوس المرتدة المتمردة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر:6] هذا الخطاب مع القلب الذاكر ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:6] إذ توقعت من المتمردة الإسلام.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ [الحجر:7] أي: هلا تأتينا بصفات الملائكة المنقادين، وحتى إذا اتصفنا بصفاتهم نؤمن بما أنزل إليك من مواهب الحق تعالى، فيه إشارة إلى أن النفس الأمارة بالسوء لا تؤمن بها أنزل الله إلى القلوب من الأنوار الإلهية حتى تصير مطمئنة موصوفة بصفات الملائكة، وتنورت بإشراق أنوار تجلي صفات الله تعالى ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:7] أنك تريد لنا الهداية فأجابهم القلب: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الحجر:8] أي: ما تنزل الصفات الملائكية ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:8] أي: إلا بالنفس مطمئنة مستحقة مستعدة بهذه الصفات ولو أنزلت قبل أوانها وكمال استعدادها القبول ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر:8] أي: مؤخرين من الهلاك والتلف لضيق نطاق طاقتهم.

ثم أخبر عن سطوة سلطان الذكر أي: أنها محفوظة بكلام الحق بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1] [الحجر:9] إلى قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 15]

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر:9] أي: في قلوب المؤمنين وهو قوله: ﴿لاَ

---

(1) الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزّلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإنا له لحافظون، من غالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصدّيقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضمائر بالخطرات المذمومة، وأيضًا كاشفنا عن أسراره في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.

قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاءً وبيانًا وقرآنًا وفرقانًا؛ ليهدي به من كان موسومًا بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإنا له لحافظون، وإنَّا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا. يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقراءته، فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن في تضييعهم تضييع كتابه.

إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [الصافات:35] نظيره ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة:22]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:4] والمنافق يقول: لا إله إلا الله، ولكن لم ينزله الله في قلبه فلم يحصل فيه الإيمان ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9] أي: في قلب المؤمن، ولو لم يحفظ الله الذكر والإيمان في قلب المؤمن لما يقدر المؤمن على حفظه؛ لأنه ناسٍ وأسلكه الله في قلبه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ [الحجر:10] أي: أسلكنا الإيمان والكفر في قلوب ﴿شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:10] فمن أسلكنا في قلوبهم الكفر.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحجر: 11 - 20].

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر:11] ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ [الحجر:12] أي: الكفر ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر:12].

﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الحجر:13] بواسطة جرمهم فإنهم بالجرم يسلك الكفر في القلوب كما يسلك الإيمان بالعمل الصالح في القلوب فنظيره قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [النساء:155]، ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:13] أي: سنة الله مع الأولين فهكذا سنة الله مع الآخرين.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الحجر:14] أي: على الذين أسلكنا الكفر في قلوبهم ﴿بَاباً﴾ من سماء القلب ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: يصعدون سماء القلب ﴿لَقَالُوا﴾ من سفاهة الكفر: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر:15] أي: سدت أبصار قلوبنا وسحرت بتوهم الصعود في السماء ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:15] في رؤية فتح باب السماء وليس هناك فتح باب الهيبة.

ثم أخبر عن حفظ السماء بالنجوم عن الشيطان المرجوم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر:16] إلى قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:20].

قوله:﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر:16] أي: في سماء القلب بروج الأطوار فإن للقلوب أطوارًا كما للسماء بروجًا، وكما أن البروج منازل السيارات فكذلك الأطوار منازل شموس المشاهدات، وأقمار المكاشفات، وسيارات اللوائح والطوالع ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ [الحجر:16] بهذه الأنوار ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:16] السائرين إلى الله من أهل النظر(1).

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾(2) [الحجر:17] من وسواس الشيطان

(1) قال الورتجبي: أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظّار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسير في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سبحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصيل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصيل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانبساط، وتحصيل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة ووجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيات ثمار المشاهدات ولطائف المكاشفات؛ لأن منابعها الصفات المنزهة عن الحدود و العلات، ومَنْ سار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحان من عظم شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته وذاته عن أوهام الخليقة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيهه: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾.

(2) قال الورتجبي: منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطّالين والمدّعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، فسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج منورة مزينة بزينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في تراثيها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر منها فائدة في القلوب من المواجيد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرهبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فنعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء
-

وهواجس النفس الأمارة المرجومة؛ لئلا تسترق النفس السمع من ملائكة صفات الروح والقلب من أوصاف المشاهدات وأصناف المكاشفات كلمات حق وتضم إليها من تسويلاتها وتلقيها إلى الإخوان وتتفاخر بها عليهم.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر:18] أي: ولكن من استرق السمع من النفس والشيطان ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:18] أي: أدركته شعلة من أنوار تلك الشواهد فتحرق الباطل وتبين الحق.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر:19] أي: أرض البشرية بسطت على وجه ماء الروحانية ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر:19] أي: جبال صفات القلب والعقل فإن أرض البشرية تميد كنفس الحيوانات، أي: لهن أرساها الله بجبال العقل وصفات القلب ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ [الحجر:19] في أرض البشرية ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:19] بميزان الحكمة، يشير إلى أن بنايات الحق فيها بنيت وهي من صفات كل شيء بقدر ما يحتاج إليه الإنسان في تكميل نفسه والسير إلى الله وهو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الحجر:20] وهي أسباب الوصول والوصال ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:20] وهو جوهر المحبة فإنه ليس غذاؤه من أوصاف الإنسان ولا من كسبه وإنما غذاؤه من مواهب الحق وتجلي جماله.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر: 21 - 25].

الأرواح الوجد والهيجان والهيمان والوله والزفرات والعبرات، صواحبها أوتاد الأرض ونقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شمائلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين مأواهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضله وجود حفظ تلك البروج من هواجسات النفوس ووساوسات الشياطين.

ثم أخبر عن دقائق خزائنه كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾[1] [الحجر:21] إلى قوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25].

قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر:21] يشير إلى أن لكل شيء خزائن مختلفة متناسبة له كما لو قدرنا شيئًا من الأجسام، فله خزانة لصورته وخزانة لاسمه، وخزانة لمعناه، وخزانة للونه، وخزانة لرائحته، وخزانة لطعمه، وخزانة لطبعه، وخزانة لخواصه، وخزانة لأحواله المختلفة الدائرة عليه بمرور الأيام، وخزانة لنفعه وضره وخيره، وخزانة لظلمته ونوره، وخزانة لملكوته وغير ذلك وهو خزانة لطف الله وقهره، وما من شيء إلا وفيه لطف الله وقهره مخزون وقلوب العباد وخزائن صفات الله تعالى بأجمعها.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21] أي: وما ننزل أشياء مما في خزائنه إلا بقدر ما هو معلوم منا في الأزل لحكمتنا البالغة المقتضية لإيجاده وإنزاله ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ﴾ [الحجر:22] أي: رياح العناية ﴿لَوَاقِحَ﴾ يلقح في أشجار القلوب ليحمل بأزهار الشواهد وأثمار الكشوف، كما قال بعضهم: رياح الكرم إذا هبت على أسرار العارفين أعتقتهم من هواجس أنفسهم ورعونات طباعهم وفساد هواهم ومراداتهم، وتظهر في القلوب نتائج الكرم وهو الاعتصام بالله والاعتماد عليه والانقطاع عما سواه إليه

---

(1) قال الورتجبي: قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم.

وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وغيبه ومحل نظره، فمَنْ حفظ تلك الخزانة بالذكر الدائم والمراقبة عمّر الله قلبه بالرجوع إليه على دوام الأوقات والإعراض عما سواه.

وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراته وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث.

ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزانة جواهر من كل صنف، فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنّة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء عن مطالبة الفقراء منهم شيئًا، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا الله.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحجر:22] أي: سماء الهداية ﴿مَاءً﴾ [الحجر:22] بالحكمة والموعظة ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:22] ليربي به الأخلاق الحميدة والأوصاف الكريمة ويثمر الأعمال الصالحة ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ﴾ [الحجر:22] أي: لماء الحكمة ﴿بِخَازِنِينَ﴾[1] [الحجر:22] في أصل الخلقة وأنه لفي خزانة الحق تعالى ينزل على من يشاء لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:269] والحكمة صفة من صفاته ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وليست الحكمة من صفات المخلوقين، وإنما سمى الفلاسفة الحكمة هي المعقولات وهي من نتائج العقل والعقل من صفات المخلوقين فكما لا يجوز أن يقال لله: «العاقل»، لا يجوز أن يقال للمخلوق: «الحكيم» إلا بالمجازات أتاه الله الحكمة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ قلوب أوليائنا بأنواع رجالنا ﴿وَنُمِيتُ﴾ نفوسهم بسطوة نظرات جلالنا ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾[2]

(1) قال البقلي: غرس في قلوب أوليائه أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه بكشف جماله لها؛ فتلقح بشمال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت، كل غصن منها حكمة من حكمه، وعلمًا من علومه، وخبرًا من غيبه، وسرًّا من أسراره، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف القدس، وزهرها من لوائح الاتصاف، وورده‍ا من لوامع الذات، وفواكهها حياة مرضى المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل سالك عارف عاشق محب واله سقاه الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأقداح الأرواح؛ فيصير سكران جماله من حب جلاله هائمًا من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

(2) قال البقلي: نحيي بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضًا نحيي الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحيي أسرار العارفين بجمالنا ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها من أحكام العبودية.
قال الواسطي: نحيي مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه.
قال بعضهم: نحيي أقوامًا بالطاعة ونميت أقواما بالمعصية.
وقال البراق: نحيي القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس بإتباع الشهوات.
وقال أبو سعيد الخرّاز: الحي من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كأنه بقاؤه. وقيل: نحيي القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستتار.
وقال الجريري: كم مَنْ حي حياته موته، وميت موته حياته.
وقال سهل: نحيي أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا.

بعد إفناء وجودهم ليبقوا ببقائنا.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر:24] أي: علمنا في الأزل من المستقدم إلينا بنا ومن المستأخر منا بالخذلان، وأيضًا من المستقدم عند خروجه من العدم ومن المستأخر، وأيضًا من المستقدم إلى الوجود ومن المستأخر في العدم، فإن في العدم من مقدورات الحق ما لا نهاية له ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ [الحجر:25] أي: يحشر المستقدمين إلى حظائر قدسه بفضله وكرمه ويحشر المستأخرين إلى أسفل السافلين بقهره وعزته ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ [الحجر:25] بحكمته يحشر كل طائفة من الفريقين إلى ما هم مستحقين به ﴿عَلِيمٌ﴾ [الحجر:25] باستحقاق كلا الفريقين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: 26 - 33].

ثم أخبر عن استحقاق كلا الفريقين أنه من تركيب الجنسين مختلفين لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ [الحجر:26] أي: قوله جزء مقسوم وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1] [الحجر:26] ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ

وقال: أيضًا نحيي النفوس السعيدة بمتابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات.

وقال الأستاذ: نحيي القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة. ويقال: نحي المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره. ويقال: نحيي قومًا بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوما بأن يحجبهم عن نيل أفضاله.

(١) غلط الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا يبالي بأن يشد على وسطه الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقًا على محبوبه بأن يخلص عبادته له،

﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:27] يشير إلى أن خاصية نفس الإنسان ما تتولد من الصلصال ومن الحمأ المسنون بما يتولد من نار السموم وهي صفات شيطانية وما تغرس فيه الملائكة داؤه بنظر الملكية في ملكوته و﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 31] لأنهم نظروا إلى شخصه وهيكله ولم يشاهدوا اختصاصه بإضافة روحه إلى حضرته، وخلقته بيده، واستقامة تساوي قالبه ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] وتعليم الأسماء والإشراف على الغيوب بأنوار القلوب، فما زاد على ما تولد من إنسانية فهو من نتائج تعليم الأسماء واختصاصه بالإضافة والنفخة وغيرها من المواهب ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:28] أي: من هذا الصلصال الذي شاهد نموه وطعنتم فيه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ [الحجر:29] بجعله قابلاً لنفختي وللروح المضاف إلي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ يشير بتشريف هذه الإضافة إلى اختصاص الروح بأعلى المراتب من الملكوت الأعلى وكمال قربه إلى الله، كما قال: ﴿وَنَحْنُ

فإذا رد قوله ونازع إرادته، كيف له شفقة على محبوبه؟ يا ليت لو رأى في مكان الأمر جلال الأمر؛ فإن آدم عليه السلام كان قبلة الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ولا مقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجهال ما هو إلا هو، ولو كان نظره صحيحًا لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع، الدليل والمدلول واحد من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط أيضًا إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوبًا بنظرين، نظر إلى آدم عليه السلام، ونظر إلى نفسه؛ فأما نظره إلى آدم عليه السلام قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوحدانية يسقط عنه رؤية الغير في البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدنى المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثان، عرفه أنه لم يكن أيضًا مبتدأ من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقًا في إرادته لأكل تراب قدم آدم عليه السلام؛ لأن المريد ملهوف واله بإرادته ومحبته لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مريدًا لا مراداً؛ لأنه كان معجبًا برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفيائه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:16] وإلى اختصاصه بقبول النفخة فإنه شُرِّفَ بهذا التشريف وخُصَّ به من سائر المخلوقات ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29] وذلك لأن الروح لما أرسلت من أعلى مراتب القرب بنفخة الحق تعالى إلى أسفل سافلين القالب كان عبورها على الروحانيات والملائكة المقربين، وهم خلقوا من النور فاندرجت أنوار صفاتهم في نور صفاتها كما تندرج أنوار الكواكب في نور الشمس، ثم عبر على الجن والشياطين فاتخذ زبدة خواص صفاتهم، ثم عبر على الحيوانات فاستفاد منهم الخواص والقوى، ثم تعلق القالب بالمخلوق بيد الله بالتخمير وقهره المستعد لقبول التجلي، فلما خلق الله آدم تجلى فيه، قال لأهل الخطاب وهم الملائكة والجن: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29] لاستحقاقه كماله في الخلقة ولشرفه بالعلم وقابليته للتجلي.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:30] لما فيهم من خصوصية العبادة، عبادة النورية واختصاص العلم بقبول النصح ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:31] لاختصاصه بالتمرد، تمرد التأدبة والجهل الذي هو مركون فيه ولحسبانه أنه عالم إذ قال له ربه: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:32] أي: ما حجتك في الامتناع عن السجود؟ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:33] أي: حجتي أنك خلقتني من نار وهي جوهر لطيف نوراني علوي وخلقته من طين وهو كشف ظلماني سفلي، فأنا خير منه بهذا الدليل. فاستدل بهذا الاستدلال لرأي آدم ينبغي أن يسجد له لفضله عليه، ومن غاية جهالته وسخافة عقله فهم من بين كلامه إن الله أخطأ فيما أمره وأمر الملائكة بسجود كرم، وحسب أن الله تعالى جعل استحقاق آدم السجود للملائكة في بشرية آدم وخلقته من الطين وهو بمعزل عما جعل الله استحقاقه للسجود في سر الخلافة المودعة في روحه المشرف بشرف الإضافة إلى حضرته المختص باختصاص نفخة العلم بالأسماء كلها المستعد لتجلي جماله وجلاله فيه.

ومن هاهنا قيل لإبليس أنه أعور؛ لأنه كان بصيرًا بإحدى عينيه التي يشاهد بها بشرية آدم، وما أودع فيه من الصفات الذميمة الحيوانية السبعية المؤذية المتولد منها الفساد وسفك الدماء، وإنه كان أعمى بإحدى عينيه التي يشاهد بها سر الخلافة المودعة في

روحانيته، وما أكرم به من علم الأسماء والنفخة الخاصة وشرف الإضافة إلى نفسه وغير ذلك من الاصطفاء والاجتباء.

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾ [الحجر: 34 – 48].

فلما أبى السجود متعللاً بهذه العلامات ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الحجر:34] أي: من صورة الملائكة وصفاتها ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر:34] أي: غاية البعد ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ [الحجر:35] مطرودًا مردودًا من قرب الجوار بالنار ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: 35] وهو يوم الجزاء وإنجاز الوعد بالوفاء، وفيه أيضًا إشارة إلى أن إبليس النفس مأمور بسجود آدم الروح ومن دأبه وطبعه الإباء عن طاعة الله والاستكبار على خليفة الله والامتناع عن سجوده وذلك في بذر خلقتها على ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30] فلما أمر إبليس للسجود وأبى ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الحجر:34] أي: من فطرة الله المستعدة لقبول الكفر والإيمان ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر:34] مطرود من جوارنا؛ لأنك قبلت الكفر دون الإيمان.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ [الحجر:35] وهي من نتائج صفات القهر، أي: مقهورًا مبعدًا عن صفات عبادنا المقبولين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر:35] أي: إلى أن يولج الدنيا في نهار الدين، وتطلع شمس شواهدنا من مشرق الروح، وتصير أرض النفس مشرقة بأنوار الشواهد، فتكون مطمئنة متبدلة صفاتها الذميمة الحيوانية المظلمة بالأخلاق الروحانية الحميدة النورانية المستحقة لخطاب ﴿ارْجِعِي﴾ [الفجر:28].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر:36] أي: الأرواح في قيامة العشق

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:37-38] وهو وقت يتجلى فيه لأرواح العشاق فينعكس نور التجلي من الأرواح المقدسة له ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:30] أي: جواري وقربي ﴿قَالَ﴾ [الحجر:39] إبليس النفس ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر:39] أضللتني عن طريق الهداية ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر:39] أي: أزين للأرواح في أرض البشرية من الأعمال الصالحات التي تورث الأخلاق الحميدة وبها تربية الأرواح وترقيها إلى أعلى درجات القرب ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:39] عما كانوا عليه من الأعمال الروحانية الملكية التي لا ترقى إلا بها ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(1) [الحجر:40] الذين أخلصتهم عن حبس الوجود بجذبات الطاعة وأفنيتهم عنهم بهدايتك.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:41] معناه هذا مقام أهل الاستقامة في السير في الله المعتصمين بالله المنقطعين عن غيره ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:42] أي: حجة تتعلق بهم بتلك الحجة للهداية، أو العناية فإنهم بلا هم، وإن من خصوصية العبودية المضافة إلى الحضرة المحمدية عما سوى الحضرة ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:42] الذين بلا هم وإن من خصوصية العبودية أضلوا عن السير في الله بالله ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الحجر:43] البعد والاحتراق من الفراق ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

---

(1) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدِّيقون؛ بمعنى أنهم تخلّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلّصوا عن شوائب النفسانية، فهم فانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلب عاصم على غيره من القُرَّاء في قراءة الفتح، ولله دَرّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضًا ممّن يتذكّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمَّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقًا بين المقامين.

[الحجر:43] ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر:44] من الحرص والشر والحقد والحسد والغضب والشهوة والكبر ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأزواج المتبعين بصفاتها ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بحسب الاتفاق بصفاتها.

ثم أخبر عن المتقين بأنهم آمنون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر:45] إلى قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر:84].

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الحجر:45] الاتقاء على ثلاثة أوجه: اتقاء عن محارم الله بأوامر الله، واتقاء عن الدنيا وشهواتها بالآخرة ودرجاتها، واتقاء عما سوى الله بالله وصفاته. والمتقون هم الفانون عن أنفسهم وصفاتهم الباقون بالله وصفاته ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر:45] أي: جنات حظائر القدس وعيون الحكمة الإلهية والعلوم اللدنية ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر:46] أي: بجذبات العناية والسلام من الله هو الجذبة الإلهية آمنين من موانع الدخول والخروج بعد الوصول وفيه إشارة إلى أن السير في الله لا يمكن إلا بالله وجذباته كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج تأخر عنه جبريل في سدرة المنتهى وبقي عند الرفرف في مقام قاب قوسين ما وصل إلى مقام أو أدنى وهو كمال القرب إلا بجذبة أدن مني فبسلام الله سلم من موانع الدخول والخروج بعد الوصول.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر:47] من موانع الدخول والوصول يشير إلى أن أهل الدخول والوصول هم المنزوعون عن صدورهم على أوصاف البشرية من أمارة النفس وصفاتها الذميمة، وأنها لا تنتزع من النفس إلا بنزع الله إياها ومن لم يُنزع عنه الغل لم يأمن من الخروج بعد الدخول كما كان حال آدم عليه السلام لما دخل الجنة قبل تزكية النفس ونزع صفاتها أخرج منها بالغل الذي كان من نتائجه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [طه:121-122] ونزع عنه الغل بالتوبة وهداه إلى الجنة ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47] في المراتب بعضهم لبعض أي: لكل قوم من أهل التقوى إخوان على قدر تقربهم متقابلين في الدرجات ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر:48] من الحسد لبعضهم على درجات بعض ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:48] يشير إلى أن أهل

كل درجة مقيمون في تلك الدرجة لا خروج لهم منها إلى درجة تحتها ولا فوقها وهم راضون بذلك؛ لأن غل الحسد منزوع منهم.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝ ﴾ [الحجر: 49 - 56].

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:49] لأنه يشير إلى أن المختصين بعبوديته هم الأحرار عن رقّ عبودية ما سواه من الهوى والدنيا والعقبى وهم مظاهر صفات لطفه ورحمته ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:50] ذلك لمن يكون عبد الهوى والدنيا وما سوى الله وأنه مظهر صفات قهره ووعيده، وفيه إشارة أخرى إلى أن سير السائرين وطيران الطائرين في هواء العبودية وقضاء الربوبية إنما يكون على قدمي الخوف والرجاء وبجناحي الأنس والهيبة معتدلًا فيها من غير زيادة إحداهما على الأخرى.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر:51](1) قد مضى تحقيق هذه القصة وقصة لوط في سورة هود. فأما في قصة إبراهيم ﷺ فإشارة أخرى إلى أن بشارته ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:53] مع كبره وكبر امرأته بشارة للطالب الصادق أنه وإن كان مسنًا وقد ضعف جسمه وقواه وعجز عن جهاد النفس ومكابدتها واستعمالها في مباشرة الطاعات والأعمال البدنية يوسوسه الشيطان من نيل درجات القربة، لأن أسباب تحصيل الكمال قد تناهت ومعظمها العمر والشباب؛ ولهذا قال المشايخ: الصوفي بعد الأربعين نادر ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ [الحجر:56](2).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ

(1) من آية «52» إلى آية «55» لم يتعرض المصنف ﷺ لشرحها.

(2) من آية «57» إلى آية «74» لم يتعرض المصنف ﷺ لشرحها.

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: 57 - 74].

ويتقرب إليه بالأعمال القلبية ليتقرب إليه وبه بأصناف ألطافه الربوبية وجذبات أعطافه، فيخرج من صلب روحه ورحم قلبه غلامًا عليمًا بالعلوم اللدنية والرسوم اللدنية، وهو واعظ الله الذي في قلب كل مؤمن، وفي القصص المذكورة في الآيات أيضًا إهلاك الأمم الماضية، وإنجاء الأنبياء والمؤمنين منهم اتعاظ وانتباه ووعد ووعيد وتأديب لهذه الأمم المعتبرين منهم.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 75](1).

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: 76 - 84].

وهم أصحاب القلوب المتوسمة بشواهد أحكام الغيب المكفوفة في غيب الغيب ليعتبروا بأحوالهم ويجتنبوا عن أفعالهم؛ لئلا يكونوا من المنتقمين الذين قال الله فيهم: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الحجر:79] ويتفرقوا بمعرفة بعض مرتبة من مراتب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر:72] وأنه لمرتبة ما نالها أحد من العالمين إلا سعيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ من الأزل إلى الأبد وهي أنه تعالى قسم بحياته وذلك، لأنه ﷺ كان حيًا بحياته فانيًا عن نفسه باقيًا بربه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر:30] أي: ميت عنك

(1) من آية «76» إلى آية «84» لم يتعرض المصنف ﷺ لشرحها.

حي بنا وهو مختص بهذا المقام المحمود.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: 85 - 88].

ثم أخبر عن الإحسان مع المحسن والإساءة مع المسيء بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:85] إلى قوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:88].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي: لإظهار الآيات الحق بالحق لأرباب الحق المكاشفين بصفات الحق فإنه لا شعور للسماوات والأرض وما بينهما غير الإنسان بأنها مظهر لآيات الحق، وإنما الشعور بذلك للإنسان الكامل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190] وهم الذين خلص لبّ أخلاقهم الربانية عن قشر صفاتهم الإنسانية، وفيه معنى آخر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾ أي: سماوات الأرواح ﴿وَالأَرْضَ﴾ أي: أرض الأشباح وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار والخفيات إلا بالحق ومظهره، فإن الإنسان مخصوص به من بين سائر المخلوقات والمكونات؛ لأنه بجميع مبانيه الظاهرة ومعانيه الباطنة مرآة لذات الحق تعالى وصفاته فهو مظهره عند التزكية والتنقية، ومظهره عند التحلية والتجلية به لشعوره بذلك، كما كان حال من صقل مرآته عن صدأ أنانيته وتجلى بشهوة هويته عند تجلي ربوبيته بالحق، فقال أنا الحق، ومن قال بعد فناء أنانيته عن بقائه بسبحانيته سبحاني ما أعظم شأني.

وفي قوله: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ [الحجر:85] إشارة إلى أن قيامة العشق لآتية لنفوس الطالبين العارفين من أصحاب الرياضات في مكابدة النفس ومجاهدتها؛ لأن الطلب والصدق والاجتهاد من نتائج عشق القلب، وأنه سيهتدي إلى النفس لكثرة الاجتهاد في رياضتها، فتموت عن صفاتها في قيامة العشق، ومن مات فقد قامت قيامته

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْـجَمِيلَ﴾ [الحجر:85] يا أيها الطالب الصادق عن النفس المرتاضة بأن تواسيها وتدارسها، ولا تحمل عليها إصرًا، ولا تحملها ما لا طاقة لها به، فإن قيامة العشق تحصل من تزكية النفس في لحظة واحدة ما لا يحصل بالمجاهدة في سنين كثيرة؛ لأن العشق جذبة الحق، وقال ﷺ: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»(1) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ [الحجر:86] يشير بالخلاق وهو للمبالغة إلى أنه تعالى خالق لصور المخلوقات ومعانيها وحقائقها العليم بمن خلقه مستندًا لمظهرية ذاته وصفاته ومظهريته، فلما كانت السموات والأرض وما بينهما مظهر الصفات الحق تعالى دون ذاته ولا شعور لها به، ولم تكن مظهرًا لذاته وصفاته وكان الإنسان الكامل.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ [الحجر:87] وأي سبع صفات ذاتية لله تبارك وتعالى وهي السمع والبصر والكلام والحياة والعلم والإرادة والقدرة ﴿مِّنَ المَثَانِي﴾ [الحجر:87] أي: من خصوصية المثاني وهي المظهرية والمظهرة لذاته وصفاته المختفية بالإنسان، فإن في غير الإنسان لم يوجد إلا وحدانًا من المظهرية، كما شرحنا ولو كان ملكًا، ومن هاهنا يكشف سر من أسرار ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] فمنها أسماء صفات الله وذاته؛ لأن آدم كان مظهرها، وكان الملك مظهر بعض صفاته تعالى ولم يكن مظهرها، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:31] فلما لم يكونوا مظهرها وكانوا مظهر بعضها ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: 32] ولهذا السر أسجد الله تعالى الملائكة لآدم عليه السلام فاعلم جدًّا.

ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ﴾ [الحجر:87] أي: حقائقه القائم بذاته تعالى وخلق من أخلاقه القديمة بأن جعل القرآن العظيم خُلُقَهُ العظيم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4] ولما سُئِلَت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، وفي قوله: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:88] إشارة إلى أن الله تعالى إذا أنعم على عبده ونبيه ﷺ بهذه المقامات الكريمة والنعم العظيمة

(1) ذكره العجلوني في كشف (1/ 332).

يكون من نتائجها ألا يمدن عينيه عين الجسماني ولا عين الروحاني إلى ما متع الله به أزواجًا من الدنيا والآخرة ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهلها ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر:88] أي: على ما فاته من مشاركتها فيهما كما كان حاله ﷺ ليلة المعراج ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:16] من نعيم الدارين ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ [النجم:17] برؤيتها ﴿وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17] بالميل إليها.

ثم قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:88] في هذا المقام قيامًا بأداء شكر نعم الله تعالى وتواضعًا له ليزيدك بهما في النعمة والرفعة، وفيه إشارة إلى معنى آخر أي: واخفض بعد وصولك إلى مقام المحبوبية جناحك لمن اتبعك من المؤمنين المحبين لتبلغهم على جناح همتك العالية إلى مقام المحبوبية يدل على هذا التأويل قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31].

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: 89 - 91].

ثم أخبر عن وعيد من أعرض وتولى وتهديد من كذب بهذه المرتبة العليا بقوله تعالى ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر:89] كان النبي ﷺ مأمورًا بإظهار مقامه وهو النبوة وبتعريف نفسه أنه نذير للكافرين، كما أنه بشير للمؤمنين وأنه لما أمر بالرحمة والشفقة ولين الجانب للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:88] إظهارًا للطفه وأمر بالتهديد والوعيد والإنذار بالعذاب ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾[الحجر: 90] وهم الذين اقتسموا قهر الله المنزل على أنفسهم بأعمالهم الطبيعية غير الشرعية، فإنها مظهر قهر الله وخزائنه كما أن الأعمال الشرعية مظهر لطف الله وخزائنه، فمن قرع باب خزانة اللطف أكرم وأنعم عليه ومن دق باب خزانة القهر أهين به وعذب. ثم أخبر عن أعمالهم التي اقتسموا قهر الله بها على أنفسهم بقوله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر:91] أي: جزؤه أجزاء في الاستعمال، فقوم: قرؤه وداوموا على تلاوته ليقال لهم القراء وبه يأكلون وقوم: حفظوه بالقراءة ليقال لهم الحفاظ وبه يأكلون.

وقوم: حصلوا تفسيره وتأويلاته ابتغاء طلب الشهرة وإظهارًا للفضل ليأكلوا.

وقوم: استخرجوا معانيه واستنبطوا فقهه وبه يأكلون وقوم: شرعوا في قصصه وأخباره ومواعظه وحكمه وبه يأكلون وقوم: أولوه على وفق مذاهبهم وفسروه برأيهم فكفروا بذلك.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: 92 - 99].

ثم قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:92-93] إنما عملوا بالله وفي الله ولله أو بالطبع في متابعة النفس لمنافع دنيوية بقهره نظير قوله: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:8] ثم أمر ﷺ العمل بالإخلاص في التبشير والإنذار وإظهار الدعوة، وقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:94] نظيره ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112] ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:94] الذين أشركوا في أعمالهم لله غير الله، فإن اليسير من الربا شرك ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:95] الذين يستعملون الشريعة بالطبيعة للخلق ويراءون أنهم لله يعملون استهزاء للدين ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:15] إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:16] لأنهم ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الحجر:96] وهو الخلق والهوى والدنيا في استعمال الشريعة بالطبيعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:96] حين يجازيهم الله بما يعملون لمن علوا كما قيل:

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ   أفرسٌ تحتك أم حمارُ

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر:97] من ضيق البشرية وغاية الشفقة وكمال الغيرة ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر:97] من أقوال الأخيار ويعملون أعمال الأشرار ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر:98] إنك لست منهم ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:98] لله سجدة الشكر ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ [الحجر:99] بالإخلاص ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:99] أي: إلى الأبد وذلك لأن حقيقة اليقين المعرفة، ولا نهاية لمقامات المعرفة فكما

أن للواصل إلى مقام من مقامات المعرفة يأتيه يقين بذلك المقام في المعرفة كذلك يأتيه شك بمعرفة مقام آخر في المعرفة فيحتاج يقين آخر في إزالة هذا الشك إلى ما لا يتناهى، فثبت إلى اليقين هاهنا إشارة إلى الأبد.

سورة النحل

مكية وآياتها مائة وثمانية وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل: 1 - 4].

﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:1] إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:4] الإشارة فيه أن قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ الله﴾ كلام قديم كان الله في الأزل به متكلما، والمخاطبون به في الله محبوسين وهم طبقات ثلاث: منهم الغافلون والعاقلون والعاشقون.

فكان الخطاب مع الغافلين: بالعتاب إذا كانوا مشتاقين إلى الدنيا وزخارفها ولذاتها وشهواتها وهم أصحاب النفوس.

والخطاب مع العاقلين: بوعد الثواب إذا كانوا مشتاقين إلى الطاعات والعبادات والأعمال الصالحات التي تبلغهم إلى الجنة ونعيمها الباقية وهم أرباب العقول.

والخطاب مع العاشقين: بوصل رب الأرباب إذا كانوا مشتاقين إلى مشاهدة جمال ذي الجلال. فتستعجل أرواح كل طبقة منهم للخروج من العدم إلى الوجود لنيل العقود وطلب المقصود فكلم الله تعالى في الأزل بقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ الله﴾ أي: سيأتي أمر الله للخروج من العدم لإصابة ما كتب لكل طبقة منكم في القسمة الأزلية ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه لا يفوتكم يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:34] أي: في العدم وهو يسمع خفيات أسراركم ويبصر خبايا سرائركم المعدومة ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: هو منزه في ذاته ومتعالٍ في صفاته أن يكون له شريك يعمل عمله وسببه يكون بدل.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل:2] أي: بالوحي بما يحيي القلوب من مواهب الربانية ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: من أمر الله وأمره على وجوه:

منها: ما يرد على الجوارح بتكاليف الشريعة.

ومنها: ما يرد على النفوس لتزكيتها بالطريقة.

ومنها: ما يرد على القلوب لتصفيتها بالإشارات.

ومنها: ما يرد على الأسرار بالمراقبة للمشاهدات.

ومنها: ما يرد على الأرواح بملازمة الحضرة للمكاشفات.

ومنها: ما يرد على المخفيات بتجلي الصفات لإقبال الذوات على من يشاء من عباده من الأنبياء والأولياء ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [النحل:2] أي: اعلموا أن أوصاف وجودكم يبذلها من أنانيتي أنه لا إله إلا أنا ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عن أنانيتكم بأنانيتي.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ [النحل:3] سماوات الأرواح ﴿وَالأَرْضَ﴾ أرض الأشباح ﴿بِالْحَقِّ﴾ وجعلها مظهرة أفاعيله فهو الفاعل فيما يظهر على الأرواح والأشباح، فالأرواح تحيل الأفاعيل إلى الأشباح إذ هي مظهرها، والأشباح تحيلها إلى الأرواح إذ هي مصدرها، وهي أفاعيله تعالى إذ هو منشأها وخالقها ﴿تَعَالَى﴾ ذاته وصفاته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الأرواح والأشباح في إحالة أفاعيله إلى غيره، بل عما يشركون في رؤية غيره.

ثم قال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:4] أي: جعل أصل الإنسان من نطفة ميتة لا فعل لها ولا علم لوجودها، فإذا أعطيت المقدرة والعلم صارت خصيمًا لخالقها مبينًا وجودها مع وجود الحق وادعت الشركة معه في الوجود والأفاعيل.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النحل: 5 - 9].

ثم أخبر عن بالإنعام على الإنسان بخلق الأنعام بقوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:5] ولو شاء لهداكم أجمعين، قوله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ يشير أن المخلوقات كلها خلقت لصالحكم ومنافعكم؛ يدل عليه قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:29] وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:13] وخلقتم لي بيانه قوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41] ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ أي: لتنتفعوا بها حين اطلاعكم على صفاتها الحيوانية الذميمة التي هي مودعة في جبلتكم مما يخالف صفاتكم الروحانية الملكية، فتجتهدوا في تبديل الصفات الحيوانية الذميمة بالصفات الملكية الروحانية الحميدة احترازًا عن الاحتباس في حيزها واجتنابًا عن شبهتها بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:44] ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لتكون بدل ما يتحلل منكم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:6] بأن تعتبروا منها، ولا تجعلوا همتكم مصروفة في استيفاء حظوظكم الحيوانية الشهوانية فترتعوا في رياض مستلذات الدنيا كالأنعام والبهائم، ويشير بقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ [النحل:7] إلى أن الصفات الحيوانية إنما خلقت فيكم لتحمل أثقال أرواحكم إلى بلد عالم الجبروت الذي ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ لحمل أعباء الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال عن حملها وأشفقن منها وشق الأنفس نقضها بإفنائها في عالم الجبروت ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:7] إذا أفنيتم أنفسكم في جبروته يبقيكم ببقاء عظمته.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ [النحل:8] أي: صفاتها خلقت فيكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل:8] عند السير إلى عالم الجبروت فهي مركب الروح ﴿وَزِينَةً﴾ [النحل:8] له عند رجوعه بالجذبة إلى مستقره الذي أهبط بالنفخة وهو المحل المضاف إليه الروح بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [ص:72] ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:8] أي: ويخلق فيكم بعد رجوعكم بالجذبة إلى مستقركم ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قبل الرجوع إليه وهو قبول فيض نور الله بلا واسطة.

﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:9] بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] ليس لغيره قدرة على الإفناء عنك والإبقاء به، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يعني: نفوسكم تجير عن الفناء وبذل الوجود ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ﴾ بالجذبة إلى فناء وجودكم وبقاء وجوده ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لأن جميعكم مستعدون لنيل هذه الدرجات والكمالات، وإنها لمشيئته وقعتم في الدَّركات ورضيتم بهذه النقصانات.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل: 10 - 17].

ثم أخبر عن النقم بعد النقم والكرم بعد الكرم بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم﴾ [النحل:10] إلى قوله: ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17] للإشارة فيه ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [النحل:10] سماء الكرم ﴿مَاءً﴾ [النحل:10] الفيض ليكون لكم أي: لمصالحكم ومنافعكم ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل:10] المحبة لقلوبكم ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [النحل:10] قوى البشرية ودواعيها ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:10] ترعون مواشي نفوسكم.

﴿يُنبِتُ لَكُم﴾ [النحل:11] أي: لفداء أرواحكم ﴿بِهِ الزَّرْعَ﴾ زرع الطاعات ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ [النحل:11] زيتون الصدق ﴿وَالنَّخِيلَ﴾ [النحل:11] نخيل الأخلاق الحميدة ﴿وَالأَعْنَابَ﴾ [النحل:11] أعناب الواردات الربانية ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل:11] أي: ثمرات المعقولات والمشاهدات والمكاشفات والمكالمات والأحوال كلها

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:11] بنظر العقل في هذه الصنائع الحكمية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ [النحل:12] أي: ليل البشرية ﴿وَالنَّهَارَ﴾ [النحل:12] نهار الروحانية ﴿وَالشَّمْسَ﴾ [النحل:12] شمس الروح ﴿وَالْقَمَرَ﴾ [النحل:12] قمر القلب ﴿وَالنُّجُومُ﴾ [النحل:12] نجوم القوى والحواس الخمس ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: 12] وهو خطاب كن وتسخيرها واستعمالها على وفق الشريعة وقانون الطريقة يعالجها الطبيب الحاذق صاحب البصيرة والولاية كامل التصرف في الهداية مخصوص بالعناية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [النحل:12] شاهدات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:12] بشواهد الحق من غير التفكر بل بالمعاينات.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ [النحل:13] أي: خلق لمصالحكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل:13] أرض جبلتكم من الاستعداد أي: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [النحل:13] منها ملكية ومنها شيطانية ومنها حيوانية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل:13] أي: يتذكرون عبور أرواحكم على هذه العوالم المختلفة وتتلون في كل عالم بلون ذلك العالم من عوالم الملكية والشيطانية والحيوانية إلى أن ردت إلى أسفل سافلين القالب ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ [النحل:14] بحر العلوم ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل:14] أي: الفوائد الغيبية والمواهب السنية ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ﴾ [النحل:14] جواهر المعاني ودرر الحقائق ﴿حِلْيَةً﴾ [النحل:14] لقلوبكم ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل:14] أي: تلبسون بها أرواحكم النور والبهاء ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ [النحل:14] سفائن الشرائع والمذاهب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل:14] أي: جاريات في بحر العلوم ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [النحل:14] وهو الأسرار الخفيات عن الملائكة المقربين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:14] هذه النعم الجسيمة والعطيات العظيمة التي اختصكم بها عن العالمين.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل:15]، أرض البشرية ﴿رَوَاسِيَ﴾ [النحل:15] أي: جبال الوقار والسكينة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:15] أي: لئلا تميل صفات البشرية عن جادة الشريعة والطريقة ﴿وَأَنْهَارًا﴾ [النحل:15] من ماء الحكمة ﴿وَسُبُلًا﴾ [النحل:15] أي: طرق الهداية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:15] إلى الله تعالى ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ [النحل:16]

من الشواهد والكشوف ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ [النحل:16] أي: بنجم الهداية من الله ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:16] إلى الله وهو جذبة العناية يخرجكم بها من ظلمات وجودكم المجازي إلى نور الوجود الحقيقي.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ [النحل:17] يعني: الله فيكم هذه الكمالات منكم ﴿كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ [النحل:17] فيه من الملائكة ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17] لتعرفوا قدر هذه النعم المخصوصة بكم.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النحل: 18 - 29].

ثم أخبر عن غاية هذه النعم أنها بلا نهاية بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [النحل:18] إلى قوله: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:29].

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [النحل:18] إشارة إلى أن النعمة نعمتين: إعطاف إعطائه ونعمة ألطافه، فنعمة إعطاف إعطائه ما يتعلق بوجود النعمة وهو على ضربين: نعمة ظاهرة، ونعمة باطنة، ونعمة ألطافه ما يتعلق بوجود المنعم وهو على ضربين: نعمة ذاته بالألوهية، ونعمة صفاته بالربوبية، وهي بلا نهاية فلا تعد ولا تحصى،

وقال ابن عطاء: إن لك نفسًا وقلبًا وروحًا وعقلاً ومحبةً ودينًا ودنيا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحينًا وأصلًا وفصلًا

فنعمة النفس: الطاعات والإحسان والنفس فيهما تتقلب.

ونعمة الروح: الخوف والرجاء وهو فيهما يتقلب.

ونعمة القلب: اليقين والإيمان وهو فيهما يتقلب.

ونعمة العقل: الحكمة والبيان وهو فيهما يتقلب.

ونعمة المعرفة: الذكر والقرآن وهو فيهما يتقلب.

ونعمة المحبة: الألفة والمواصلة والأمن من الهجران وهو فيهما يتقلب، وهذا تفسير قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ﴾ [النحل:18] لمن عجز عن شكر نعمة وجوده ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:18] لمن عجز عن شكر نعمة وجوده.

﴿واللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ [النحل:19] من أداء شكر نعمه بالقلوب ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:19] من القيام بشكر نعمه بالأجساد ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ [النحل: 20] من الهوى والدنيا ﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:20] من قضاء الحوائج ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل:20] يعني: الهوى والدنيا وما تعبدون من دون الله ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:21] أي: لا حياة للهوى والدنيا ليشعروا متى يبعثها دواعي البشرية ﴿إِلَهُكُمْ﴾ [النحل:22] أي: الذي خلقكم وخلق ما يعبد من دون الله ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [النحل:22] وهي ما في الغيب وهم مستكبرون ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ [النحل:22] لا يعرفون الله؛ لأنهم أهل الحس الحيواني لا يؤمنون بها في الغيب فينكرون غيب الغيب ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:22] على أهل الحق عند إظهار الحق والله الحق ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ [النحل:23] من الإنكار للحق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النحل:23] من الاستكبار عند قبول الحق: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:23] فيوقعهم بالخذلان في الطغيان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ [النحل:24] أي: للمستكبرين ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النحل:24] على قلوب المتواضعين لله من حقائق الأنوار وكشف الأسرار ﴿قَالُوا﴾ [النحل:24]

يعني: المستكبرين الذين لهم قلوب منكرة ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [النحل:24] يعني: يعدون درر أنفاس أهل الحقيقة من جملة الأباطيل والمناكير، ويضلون الضعفاء في الدين بهذه المنكرات وتقديره المحالات ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ [النحل:25] من حجب الإنكار والاستكبار ﴿كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النحل:25] عند ابتلاء السرائر بإفشاء ما في الضمائر ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل:25] من حجب الإنكار والاستكبار، أي: من حجب إضلالهم إياهم وحجب ضلالتهم بإضلالهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:25] بل بمحض الجهل ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:25] يحملون من أنواع الحجب ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم﴾ [النحل:26] أي: الذين بنوا بالمكر ﴿مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل:26] أي: خرب بنيان مكرهم من أصوله ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:26] وقع سقف مكرهم عليهم فأهلكهم ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل:26] أي: عذاب مكرهم ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:26] يعني: أهلك الله أرواحهم بعذاب مكرهم بجهلهم حيث لا شعور لأجسادهم به.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النحل:27] وهو العرض الأكبر ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل:27] بإظهار عذاب الأرواح على الأجساد ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [النحل:27] من الهوى والدنيا وغيرها ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل:27] ليدفعوا عنكم العذاب الخزي ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [النحل:27] من الأنبياء والأولياء ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل:27-28] بالإنكار والاستكبار ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ [النحل:28] استسلموا في الآخرة وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل:28] يريدون أن يبرءوا أنفسهم مما عملوا في الدنيا فتقول لهم الملائكة ﴿بَلَى﴾ [النحل:28] ما ألذ مكر الخزي والعذاب ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:28] في الدنيا وبما يقولون اليوم دفعًا للعذاب ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [النحل:29] لا من باب واحد؛ لأن لأهل كل عمل من أنواع المعاصي والكفر والنفاق بابًا يدخل بذلك العمل فيه وأنتم عملتم من أنواع المعاصي ما استحققتم دخول الأبواب كلها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [النحل:29] لأنكم أهل التكبر وجزاء المتكبر الخلود ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى

﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:29] المستوجبين لنار القطيعة أبدًا.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) ﴾ [النحل: 30 - 34].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل:30] أهل الصدق والإرادة الذين ﴿أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:26] ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النحل:30] أي: على قرب أهل الحق من المواهب ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل:30] أي: أثنوا عليهم وصدقوا بما أنزل إليهم من ربهم.

ثم أخبر من جزاء أهل الحسنات في الدنيا أنه درجات الجنات في العقبى بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل:30] أي: من أحسنوا أعمالهم بالصالحات وأخلاقهم بالحميدات، وأحوالهم بالانقلاب عن الخلق إلى الحق ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: من الله له أن ينزل منازل الواصلين الكاملين في الدنيا ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: 30] أي: خير لهم حين كشف عنهم غطاء صورة البشرية عند مفارقة الأجسام وارتفاع بقايا حجب نفوسهم فأكرمهم الله وأمنهم وبقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:30] يشير إلى أن للأتقياء الواصلين دارًا غير دار الدنيا ودار الآخرة وأنهم فيها، كما صرح بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54- 55] فدارهم مقعد الصدق في مقام العندية ونعم الدار بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [النحل:31] أي: الأتقياء ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [النحل:31] يشير إلى أن من الأتقياء من مشيئته الجنة ونعيمها ومن مشيئته العبور على الجنة والخروج إلى مقعد الصدق في مقام العندية فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل:31] أي: ما يختارون من الجنة ومقعد الصدق ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:31] كل طائفة منهم على حسب همته

ومشيئته.

ثم وصف الأتقياء فقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل:32] أي: طيبي الأعمال عن دنس الشهوات والمخالفات، وطيبي الأخلاق عن المذمومات الملوثة بالطبيعيات دون الشرعيات، وطيبي الأحوال عن وصمة ملاحظات الكونين لما يتخطى يد الثقلين ﴿يَقُولُونَ﴾ [النحل:32] الملائكة ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:32] أي: يبلّغون إليهم سلام الله، ثم يشير بقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:32] إلى أن دخول الجنة للأتقياء جزاء إصلاح أعمالهم، والعبور عليها جزاء إصلاح أخلاقهم، والخروج إلى المقعد الصدق جزاء إصلاح أحوالهم، فلكل متقٍ مقام بحسب معاملته مع الله.

وبقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [النحل:33] يشير إلى خواص الأتقياء أن مقامهم في الجنة لا يكون لحظوظ النفوس ولا للإقامة فيها، وإنما وقوفهم فيها لانتظار إتيان الملائكة لجواز العبور عليها فإنهم دخلوا بجوارهم فينظرون أن تأتيهم الملائكة ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل:33] أي: جذبات الحق للوصول والخلوة التي لا يسعهم فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج حين بقي عند جبريل في سدرة المنتهى وعبر بالرفرف إلى قرب قاب قوسين، وبقي الرفرف ثمة فكان ينتظر أمر ربه بقوله تعالى: «ادن مني» فجذبة الأمر أنزله مقام أو أدنى، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:33] من الأنبياء والأولياء انفصلوا عما سوى الله ليتصلوا به اتصالاً بلا انفصال.

ثم أخبر عن حال المسرفين الظالمين محرومي هذه المقامات والكرامات، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ [النحل:33] بجريان الاستعداد الذي أكرم به أولياءه، ثم كلفهم بما كلف به أولياءه ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:33] باستعمال استعدادهم في غير موضعه وهو صرفه في طلب الدنيا وشهواتها، واستيفاء لذاتها والاستهزاء بالأنبياء والأولياء ودعوتهم ونصحهم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [النحل:34] فازدادوا كفرًا ونفاقًا واستهزاء ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ [النحل:34] أي: بإفساد استعدادهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل: 34].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: 35 - 37].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [النحل: 35] هذا المعنى بالاستهزاء ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ [النحل: 35] أي: ما عبدنا غير الله ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ [النحل: 35] أي: ما عبدنا غير الله ولا حرمنا من دونه من شيء؛ أي: ما حرمنا على أنفسنا نعمة طلب الله بطلب غيره هذا كلام حق أريد به باطل ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: 35] أهل الأهواء عبدوا أهواءهم واتخذوا إلههم وأمالوا التقصير إلى الله، فهل على الله إلا أن يرسل الرسل، وينزل الكتب فيأمرهم بالتبليغ والإنذار والتبشير ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾ [النحل: 35] أي: بلاغ يبين لهم طريق السير إلى الله ويهديهم إلى صراط مستقيم.

ثم أخبر عن بعثه الرسل وهداهم إلى السبيل بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36] إشارة إلى أن شريعة الأنبياء - عليهم السلام - إلى الخلق بأن يأمروهم بعبادة الله واجتناب طاغوت الهوى، وما يعبدون من دون الله ويعلموهم كيفية العبادة الخالصة عن شوائب الرياء والسمعة وكيفية الاجتناب عما سوى الله ليصلوا بهذين القدمين إلى حضرة الجلال.

كما قال بعضهم: خطوتان وقد وصلت فالخطوة الأولى: عبادة الله بالتوحيد وهو التوجه إلى الله بالكلية طلبًا وشوقًا ومحبة، والثانية: الخروج عما سوى الله بالكلية صدقًا واجتهادًا بليغًا؛ لينالوا ما نال من قال لربه: «كلي لكلك مشغول»، فقال: «كلي لكلك مبذول».

وفي قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل:36] إشارة إلى أن الهداية إلى الله مطلقًا وليس لأحد فيها شركة، ومن لم يهد الله إلى حضرة جلاله بالوصول والوصال، فإنه يبقى ضالاً في تيه الضلال قال: حتى قال لخير خلقه وحبيبه ونبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:7] وتلك الضلالة هي التي من نتيجة ظلمة الخلقية قبل إصابتها رشاش النور الذي من نتيجة الهداية ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [النحل: 36] أي: فاعتبروا من حال منكري البعث، فإن إنكارهم البعث لحرمانهم عن إحيائهم برشاش النور إذ لم يصبهم، فإن من أصابه ذلك النور فقد صار حيًّا بنور الله، ومن أخطأه بقي ميتًا كما قال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ [الأنعام:122]، فاعلم أن الإيمان بالبعث من نتيجة ذلك الإحياء، والكفر بالبعث من نتيجة حرمان ذلك الإحياء.

ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ [النحل:37] أي: هدى من لم يصبه ذلك النور وأضله الله بخذلانه في ظلمة الخلقية ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:37] عن إصابة النور ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل:37] أي: على الهداية، ولو اجتمعت الإنس والجن لنصرتهم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾ [النحل: 38 -42].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:38] وهذا من نتيجة ظلمة الخلقية عند عدم إصابة النور ﴿بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل:38] فيه إشارة إلى أن أكثر الخلق محرومون عن إصابة رشاش النور؛ لأنهم أنكروا البعث، وهو وعد صادق ووقوعه حق.

ثم أقام البينة على القدرة بالبعث وعلى كذب من اختلف فيه، كما قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:39] بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:40] أي: من كمال قدرتنا أنا لا نحتاج في إحداث شيء وإيجاده إلى استعمال آلة يشق علينا استعمالها، وإنما هي مشيئته القديمة بمقتضى الحكمة القديمة لتعلق الإرادة القديمة بالقدرة القديمة التي هي عبارة عن قولنا: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهو إخراج الشيء المعدوم من العلم إلى الوجود بلا تعب ولا نصب، وفي الآية دلالة على أن المعدوم الذي هو في علم الله إيجاده أنه قبل إيجاده شيء بخلاف المعدوم الذي في علم الله عدمه أبدًا.

ثم أخبر عن درجات المهاجرين الصابرين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [النحل:41] إلى قوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:47] ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ﴾ أي: بالله إلى الله، فهاجروا في الله بالأبدان عما نهى الله عنه بالشريعة، وهاجروا بالله بالقلوب عن الحظوظ الأخروية برعاية الطريق، وهاجروا إلى الله بالأرواح عن مقامات القربة ورؤية الكرامات بجذبات الحقيقة، بل هاجروا عن الوجود المجازي مستهلكًا في بحر الوجود الحقيقي حتى لم يبقَ لهم في الوجود سوى الله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [النحل:47] أي: من بعد ما ردوا إلى أسفل السافلين ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل:41] أي: ننزلهم أعلى مراتب القرب في حال حياتهم ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ﴾ [النحل:41] أي: بعد الخروج عن الدنيا والخلاص عن حبس أوصاف البشرية وتلوناتها ﴿أَكْبَرُ﴾ [النحل:41] أي: أعظم وأجل وأصفى وأهنأ وأحرى فما كان لهم من حسنات الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:41] قدره ويؤدون شكره ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [النحل:42] على الائتمار بالأوامر وعن الانتهاء عن النواهي، بل صبروا على المجاهدات والمكابدات والمشاهدات والمواصلات ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:42] فيما يتأملون صبروا بالله في طلبه، وتوكلوا على الله في وجدانه، فبالصبر ساروا وبالتوكل طاروا، ثم في الله حاروا حيرة لا نهاية لها إلى الأبد.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50)﴾ [النحل: 43 - 50].

وفي قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:43] إشارة إلى أن الرسالة والنبوة والولاية لا تسكن إلا في قلوب الرجال الذين ﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور:37] وهم أهل الذكر الذين قال الله فيهم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:43] فإنهم الرجال في طلب الحق وترك ما سواه وإنهم يعرفون الرجال ليتبينوا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [النحل:44] التي من خصائص نور الذكر ﴿وَالزُّبُرِ﴾ [النحل:44] يعني: فيما قراءوا في الكتب، ثم جعل الله نبيه وحبيبه أهل الذكر وشرفه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ [النحل:44] يعني: كان يصعد الذكر إلينا فبمقتضى قولنا: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152] أنزلنا إليك ذكرنا ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:44] بنور ذكرنا ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:44] ما نزل إليهم بنور ذكرنا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44] فيما يستمعون من بيان القرآن والأحكام منك على أنك أمي ما قرأت الكتب المنزلة، ولا تعلمت العلوم. وإنما يتبين لهم من نور الذكر ما يجعلهم يلازمون الذكر ويواظبون عليه ليصلوا إلى مقام المذكورين في متابعتك ورعاية سنتك.

ثم أخبر عن المنكرين الماكرين الممكورين تهديدًا لهم بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [النحل:45] أي: آمنوا بمكر الله أن يمكر بهم بشؤم سيئات مكرهم أن يخسف الله بهم الأرض؛ أي: أرض البشرية ودركات السفل ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل:45] بالمكر والاستدراج ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:45] أنه من أين آتاهم من قبل الأعمال الآخرة بالرياء أو من أعمال الآخرة إلى الدنيا بالهوى الدنيوية أو من قبل الأعمال الأخروية ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ [النحل:46] من أعمال الدنيا ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل:46] أي: بمعجز الله على تعذيبهم ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل:47] أي: ينقص من مقاماتهم ودرجاتهم بلا شعورهم عليه ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:

47] بالعباد إذا أعطاهم حسن الاستعداد رحيم عليهم عند فساد استعدادهم بالمعاصي بألَّا يأخذهم في الحال ويتوب عليهم في المآل، وتقبل توبتهم بالفضل والنوال.

ثم أخبر عن الإجلال لسجود الظلال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:48] يشير إلى أن المخلوقات على نوعين: منها ما خلق من شيء كعالم الخلق وهو عالم الأجسام، ومنها ما خلق من غير شيء كعالم الأمر وهو عالم الأرواح، كما قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:54] دائمًا سمي عالم الأرواح بالأمر؛ لأنه خلقه بأمر كن من غير شيء بلا زمان، كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] يعني: خلقت روحك من قبل خلق جسدك ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [مريم:9].

ومنه قوله ﷺ: «إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي ألف عام»(1) ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لله وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:48] يتفيأ الظلال إلى ما أودع الله في كل شيء من عالم الأجسام خاصية، وهي ظل ذلك الشيء يميل بها عن يمين السعادة أهل الشقاوة، وهم أصحاب اليمين أو عن شمال الشقاوة أهل الشقاوة وهم أصحاب الشمال، وهذه الخواص في الأشياء، ويسجدون لله انقيادًا لما خصهم به مسخرين متذللين، وإنما وحد اليمين وجمع الشمال؛ لغلبة أصحاب الشمال على أصحاب اليمين، ثم خرج به.

وقال: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:49] بل يتذللون لكل شيء من بين يدي صانعه ساجد سجود يلائم حاله كما أن كل شيء يسبح بحمده تسبيحًا يلائم حاله، فتسبيح بعضهم بلسان المقال، وتسبيح بعضهم بلسان الحال، والله يعلم لسان حالهم كما لسان مقالهم.

واعلم أن الله تعالى أعطى لكل شيء من أصناف المخلوقات من الحيوانات إلى الجمال سمعًا وبصرًا ولسانًا وفهمًا به يسمع كلام الحق ويبصر شواهد الحق ويكلم الحق ويفهم إشارته، كما أخبر الله تعالى عن حال السموات والأرض وهما في العدم أعطاهما سمعاً به سمعا قوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [فصلت:11] وأعطاهما فهمًا به فهما كلامه

---

(1) رواه البيهقي في الأسماء (2/ 317)، وذكره العجلوني (1/ 113).

وأعطاهما لسانًا به قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان ويسجد له بذلك الطوع، فمن هذا اللسان الملكوت بمعجزة النبي ﷺ كانت الحصى تسبح له في يده، وكذلك الأحجار الثلاثة كلمت داود عليه السلام، وأوبت الجبال معه لما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44].

﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَٰنَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل: 51 – 60].

فلا يبعد أن يسجد لله ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل:51] إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:60].

﴿وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل:51] يشير إلى إله الهوى، فإن أكثر الخلق اتخذوا مع الله إلهًا آخر وهو الهوى لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43] فلهذا قال: ﴿إِلَهَيْنِ﴾ وما قال: آلهة؛ لأنه ما عبد من عبد إلهًا آخر إلا بالهوى، وكذلك قال ﷺ: «ما عبد إله أبغض على الله من الهوى»(1).

وقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل:51] أي: الذي خلق الهوى وسائر الآلهة ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل:51] فإني أنا الذي يستحق أن يرغب إليه ويرهب منه لا الهوى والآلهة فإنهم لا يقدرون على نفع ولا ضر، ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النحل:52] مِلكًا وملكًا ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي: الطاعة من كل شيء من السموات والأرض

(1) تقدم تخريجه.

وما فيهما كما ذكر بقوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] طوعًا وكرهًا دائمًا من الأزل إلى الأبد ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ في السراء والضراء.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ [النحل:53] من النعم الظاهرة والباطنة ﴿فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:53] هو الذي أنعم بها عليكم، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:53] تتضرعون ببقاء بعض حسن الاستعداد الفطري.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ [النحل:54] من المحجوبين عن الحق المردودين إلى الخلق ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:54] بأن يروا كشف الضر عن الأسباب لا عن المسبب، ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [النحل:55] من النعم وكشف الضر أي: كفران النعمة برؤية الأسباب دون المسبب ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ [النحل:55] عن الدنيا ونعيمها ولذاتها الفانية ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:55] إذ ترون العذاب بالانقطاع عن الله إن في ذلك من كفران النعمة وحجب الغفلة الشاغلة من رؤية المنعم وكاشف الضر.

يشير بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [النحل:56] إلى أصحاب النفوس والأهواء أنهم يجعلون مما رزقهم الله من الطاعات نصيبًا بالرياء لمن لا علم لهم بأحوالهم شرهًا لنفوسهم بحسبان رفعة منزلتهم عندهم وهم غافلون فارغون عن توهمهم وافترائهم في نفوسهم عليهم.

ثم قال: ﴿تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل:56] فاعلم أن العتاب بالسؤال عن العلامات إنما هو بتبديل الصفات وتغير الأحوال من سمة السعادة إلى الشقاوة، وهو الإخراج من نور الروحانية إلى ظلمات النفسانية لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:257] وفي قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ [النحل:57] إلى ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:59] إشارة إلى كمال جهلهم أنهم لا يرضون بالبنات لأنفسهم مع عجزهم عن تبديلهن بالأبناء ﴿بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح:6] أنه مختار لنفسه البنات مع نقصانهن عن البنين، وهو قادر على تبديلهن بالبنين.

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [النحل:60] يعني لهؤلاء الجهال ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل:60] فيما يختارون لأنفسهم من كراهة البنات ومحبة البنين،

ويظنون بالله الاحتياج بالأولاد اختيارًا للبنات على البنين ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: 60] بالعظمة والعزة والكبرياء والتنزيه عن الأولاد وما نسبوا إليه تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ [النحل:60] الذي لعزته لا يحتاج إلى الولد ﴿الْحَكِيمُ﴾ [النحل:60] الذي أفعاله غير معترضة لخلقه.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل: 61 -65].

ثم أخبر عن حكمته بإبقاء بريته بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل:61] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ [النحل:61] إشارة إلى أن الله تعالى لو كان مؤاخذًا للنفوس الناسية بما ظلمت على القلوب والأرواح ما ترك عليها أي: على أرض البشرية من دابة أي: من صفة من صفات الحيوانية ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل:61] فتأخير أهل السعادة وأرباب السلوك إلى أجل سماه الله بحكمة وسعة في إفناء كل صفة من صفات النفس بتبديلها بصفات القلب والروح في حينه وأوانه، فإن صفات النفس سلم إلى القلب والروح به تصعد النفس إلى عالم الروحانية بقدم إفناء صفاتها في صفات الروحانية بتبديلها بها وتأخير أهل الشقاوة وأصحاب النار إلى أجل سماه الله بحكمته وسنته في إفناء كل صفة من صفات الروحانية بتبديلها بصفات النفسانية الحيوانية في حينه وأوانه، وأن الروح تسلم هذه الصفات وتنزل إلى سفل الحيوانية حتى تنخرط في سلك ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179].

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل:61] أجل كل طائفة من أهل السعادة وأهل الشقاوة، ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل:61] مما سمى الله بحكمته وقت صعودهم ونزولهم، ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل:62] أي: يعاملون الله بأعمال يكرهون أن يعاملهم بها غيرهم، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ﴾ [النحل:62] أي: تسول لهم أنفسهم بالكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى﴾ [النحل:62] أن لهم تلك المعاملة متجنية فيفرطون فيها بغرور النفس ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ [النحل:62] نار الحسرة والقطيعة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:62] الذين أفرطوا في تبديل مشارب الروحانية بمشارب النفسانية بتسويل النفس الكاذبة.

﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ [النحل:63] يعني: في الدنيا فيه إشارة إلى أن من اتخذ الشيطان وليًّا فلا يكون الله له وليًّا في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:63] وفي هذه الآية تعزية للنبي ﷺ وتسلية قلبه بأن يعلم أن في الأمم الماضية سنة الله وحكمته جارية بهداية قوم وضلالة آخرين.

وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل:64] إشارة إلى أن القرآن وهو الكتاب المبين الذي يحكم على جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - ومبين للأمم الماضية فاختلفوا فيه من معارف الدين ومعالم الحق لتتحقق لهم الحقائق المودعة والأسرار التي في القرآن ما لم يتحقق لهم في الكتب الأخرى، وليسمعوا من النبي ﷺ بيانًا ما سموا به من غيره من الأنبياء - عليهم السلام - فتنحل به مشكلاتهم، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:64] أي: ممن آمن بالأنبياء، وممن لم يؤمن بهم ورحمة من الله بهدايتهم بالقرآن وبمحمد ﷺ لهم، وليكون القرآن هدى لمن آمن بمحمد ﷺ.

ثم ضرب بإنزال القرآن مثلاً بالإشارة في قوله: ﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النحل:65] أي: قرآنًا ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ [النحل:65] أي: أرض قلوب الأمم ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل:65] باختلافهم على أنبيائهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ [النحل:65] يعرف بها

الحق من الباطل ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:65] أي: يسمعون القرآن بسمع يسمع به كلام الله، فإن الله تعالى متكلم بكلام أزلي أبدًا ولا يسمع كلامه إلا من أكرمه الله بسمع يسمع كلامه كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:23].

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل: 66 - 70].

ثم أخبر عن الأنعام وبالعبرة من الأنعام بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل:66] الإيقان في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل:66] إشارة إلى اعتبار العاقل فيما سقاه الله مما في بطون أنعام النفوس فإنها ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل:66] كالأنعام ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ﴾ [النحل:66] الخواطر الشيطانية ﴿وَدَمٍ﴾ [النحل:66] الخواطر النفسانية ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل:66] من الإلهام الرباني ﴿سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:66] جائزًا لأهل الشرب على الصراط المستقيم من غير تلعثم.

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ﴾ [النحل:67] أي: نخيل الطاعات وأعناب المجاهدات﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ [النحل:67] من ثمراتها أي: من ثمرات الطاعات المجاهدات، وهي المكاشفات والمشاهدات ووقائع أرباب الطلب وأحوالهم العجيبة ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:67] السكر: ما يجعل منها شرب النفس فتسكر النفس فتارة تميل عن الحق والصراط المستقيم ميلان السكران، وتارة تظهر رعوناتها بالأفعال والأقوال رياءً وسمعةً وشهرةً، والرزق الحق ما يكون:

شربت الحبَّ كأسًا بعد كأس ... فما نفدَ الشرابُ وما رويتُ

وقالوا:

سَقاني شربةً أحيا فؤادي ... بكأس الحبِّ من بحرِ الودادِ

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [النحل:67] أي: في ذلك الاعتبار ﴿لآيَةً﴾ [النحل:67] دلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:67] يدركون بالعقل إشارات الحق من كلماته ويفهمونها.

ثم أخبر عن فهم النحل حين ألهمها مع عدم العقل بقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ [النحل:68] إلى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ إشارة إلى أن تصرف كل حيوان في الأشياء مع كثرتها واختلاف أنواعها إنما هو تصرف الله تعالى وإلهامه على قانون حكمته وإرادته القديمة؛ لأمر طبعه وهواه. وإنما خص النحل بالوحي وهو الإلهام والرشد من بين سائر الحيوانات لأنها أشبه شيء بالإنسان لا بأهل السلوك، فإن من دأبهم وهجرانهم ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً﴾ اعتزالاً عن الخلق وتبتلاً إلى الله، كما كان حال النبي ﷺ كان يتحنث إلى حراء أسبوعًا وأسبوعين وشهرًا، وأن من شأنهم النظافة في المواضع والملبوس والمأكول كذلك النحل من نظافتها تضع ما في بطنها على الحجر الصافي أو على خشب نظيف؛ لئلا يخالطه طين أو تراب ولا يقعد على جيفة ولا على نجاسة احترازًا عن التلوث كما يحترز الإنسان عنه، وفيه إشارة أخرى إلى أن نحل الأرواح اتخذت من جبال النفوس بيوتًا ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ القلوب ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:68].

وقال للسالكين: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51] يعني: قال للأرواح ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل:69] فثمرات البدن: الأعمال الصالحة، وثمرات النفوس: الرياضات والمجاهدات ومخالفات الهوى، وثمرات القلوب: ترك الدنيا وطلب العقبى، والتوجه إلى حضرة المولى، وثمرات الأسرار: شواهد الحق والتطلع على الغيوب والتقرب إلى الله، فهذه كلها أغذية الأرواح فإنها قوتها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ أي: مذللة ومستهلة لها لتسلك فيها إلى أن تصل مقعد صدق عند مليكها فيكون غذاؤها مكاشفات الحق ومشاهدته فتبيت عند ربها يطعمها ويسقيها فحينئذٍ ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾(1) [النحل:69] من الحكم والمواعظ ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾

---

(1) قال روزبهان: شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلاف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، -

[النحل:69] من المعاني والأسرار والدقائق في الحقائق والمعارف ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:69] أي: للقلوب الناسية القاسية عن ذكر الله، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [النحل:69] أي: أحوال النحل ﴿لَآيَةً﴾ [النحل:69] دلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:69] فيها فيخرجون منها أسرار السلوك والوصول.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ [النحل:70] أي: أخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل:70] أي: يرجعكم من الوجود إلى العدم فيه إشارة إلى الفناء بإفنائه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل:70] يشير به إلى البقاء بإبقائه بعد الإفناء ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾(1) [النحل:70] أي: لتكون عاقبة أمره ألا يعلم بعد فناء

ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تتميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»؛ فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، وسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحًا بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة، ويكون شمعه أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده.

(1) في قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علمًا واحدًا هو علمه بالله تعالى فهو أجلّ العلوم كما أن الله تعالى أجلّ المعلومات؛ يعني أن أجلّ العلوم هو ما تعلّق بأجلّ المعلومات، وأمّا ما عداه عما تعلّق بغير الله تعالى فدونه. فظهر أن علم التصوّف أجلّ العلوم ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحثية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلّقة بالأكوان بل كانت عُلوية متعلّقة بما ذكر من ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوّف فرموز، وإشارات، ورسوم. وإنما نُكّر الشيء لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتحد العلم اتحدت الأشياء ولمّا لم تكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خُلقت كتلوّن زوال وشواهد اضمحلّت عند حصول الفناء فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

علمه شيئًا بعلمه؛ بل يعلم بربه الأشياء كما هي ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ [النحل: 70] بها ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل: 70] على أن يجعله عليمًا بها.

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النحل: 71 - 74].

﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: 71] فضل الأرواح على القلوب في رزق المكاشفات والمشاهدات بعد الفناء، والرد إلى البقاء، وفضل القلوب على النفوس في رزق الزهد والورع، والتقوى والصدق، واليقين والإيمان والتوكل والتسليم، والرضا، وفضل النفوس على الأبدان في رزق التزكية، ومقاساة شدائد المجاهدات والصبر على المصائب والبلايا وحمل أعباء الشريعة بإشارات الطريقة، وتبديل الأخلاق الذميمة بالحميدة، وفضل أبدان المؤمنين على أبدان الكافرين في رزق الأعمال الصالحة التي هي أركان الشريعة وقراءة القرآن والذكر باللسان شرفه بإخلاص الجنان، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ [النحل: 71] أي: في الرزق ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ﴾ [النحل: 71] أي: فما الأرواح ترد رزقها من الفناء والبقاء على القلوب، ولا القلوب ترد رزقها من الإيمان والإيقان على النفوس، ولا النفوس ترد رزقها من شدائد المجاهدات، والصبر على البلاء والمصيبات على الأبدان، وقد ملكت أيمان بعضها على بعض ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ﴾ [النحل: 71] التي أنعم بها على أوليائه ﴿يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: 71] منكري هذا الحديث.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: 72] يعني: أزواج الأرواح والأشباح ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ [النحل: 72] وهم القلوب ﴿وَحَفَدَةً﴾ [النحل: 72] وهي النفوس، فإن القلوب والنفوس متولدة من ازدواج الأرواح والأشباح

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل:72] بما رزق الأرواح والقلوب من الواردات الغيبية والمواهب الربانية ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ [النحل:72] وهو وسواس الشيطان وتسويلات النفس ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:72] أهل الدنيا المغرورين بزخارفها ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ﴾ [النحل:72] وهي مواهب الحق ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:72] ينكرون أرباب القلوب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ [النحل:73] أي: الدنيا والهوى ﴿مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ [النحل:73] من سموات القلوب ﴿وَالأَرْضِ﴾ [النحل:73] أي: أرض النفوس، ﴿شَيْئًا﴾ [النحل:73] من الكمالات التي أودع الله فيهن ولا يستخرج منها إلا بعبادة الله ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:73] استخراجها منها بعبادة غير الله.

﴿فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:74] بأن تريدوا أن تصلوا إلى المقاصد بغير طريق سنة الله التي قد خلت من قبل وتطلبوها من المخلوقين فتجعلوهم أمثالاً لله، ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ﴾ [النحل:74] خطأكم وصوابكم ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:74].

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل: 75 - 79].

قد أخبر عن الفريقين من أرباب القلوب وأصحاب النفوس بضرب المثل بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا﴾ [النحل:75] أي: عبدًا للدنيا ﴿مَّمْلُوكًا﴾ [النحل:75] للهوى ﴿لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل:75] من مواهب الله وتوفيقه للطاعات، ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ [النحل:75] أي: من مواهبنا ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:75] أي: ولاية كاملة ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ [النحل:75] أي: من قوة الولاية يتصرف في البواطن المستعدة لقبول

فيض الولاية ﴿سِرًّا﴾ [النحل:75] أي: في السر والخفية سرًا بسر، وإضمارًا بإضمار، ويتصرف في ظواهر أهل الإرادة بالموعظة الحسنة والحكمة البالغة ﴿وَجَهْرًا﴾ [النحل:75] أي: ظاهرًا في العلانية ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل:75] يعني: أهل الولاية وأهل الضلالة.

ثم قال: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ [النحل:75] يعني: على ما أنعم به على أوليائه إنهم كانوا أحق به وأهله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:75] أي: أكثر الناس ممن لا يعلم ما بين الله وبين الأولياء، فإن لهم مع الله أوقات لا يسعهم فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل من غاية صدقهم وإخلاصهم مع الله؛ فلهذا قال: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»[1].

ثم ضرب مثلاً آخر لكمال التفهيم فقال: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ [النحل:76] يشير به إلى النفس الحيوانية غير الناطقة ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل:76] من العقل والعلم والإيمان ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ [النحل:76] ثقل ووبال وعيال ﴿عَلَى مَوْلاهُ﴾ [النحل:76] وهو الروح الذي يسمونه بعضهم النفس الناطقة ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ [النحل:76] لأنها أمارة بالسوء ومن شأنها متابعة هواها ومخالفة مولاها ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل:76] يعني: الروح، فإن من شأنه أن يأمر النفس بطاعة الله وحسن عبوديته كما أن النفس تأمر الروح بمعاصي الله وعبودية هواها ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:76] يعني: الروح مع خصوصيته بمكارم الأخلاق والأمر بالعدل هداه الله إلى الصراط المستقيم إلى الله وهو عليه بتوفيق الله متوجه إليه.

ثم قال: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النحل:77] يشير بغيب السموات إلى الأرواح، وبغيب الأرض إلى النفوس يعني: هو الواقف على خاصية الأرواح والنفوس، فلو وكّل كل جنس منها إلى طبعها وخاصيتها لا ترجع إلى ربها، ولا تهتدي إلى ربها بهداية الله إياها يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:27-28] فرجوعها يكون بالإماتة والإحياء بأن يميتها عن أوصافها ويحييها بصفاته، وهي من

---

(1) تقدم تخريجه.

أمر الساعة فقال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ [النحل:77] في الإماتة والإحياء عند قدرتنا ﴿إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:77] أي: بل هو أقرب؛ لأن الإماتة بتجلي صفة الجلال والإحياء بتجلي صفة الجمال، فإذا تجلى الله لعبد لا يبقى له زمان ولا مكان إذ هو فانٍ عن وجوده باقٍ ببقاء الحق تعالى وتقدس ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:77] من المواهب التي يقربها أولياءه ﴿قَدِيرٌ﴾ [النحل:77]، وإن لم يفهم الأغنياء بقولهم كيفية تلك المعارف والكمالات؛ بل العقلاء بعقولهم السليمة بمعزل عن إدراك تلك الحقائق.

ثم أخبر عن كمال قدرته وجهل الإنسان بحكمته بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(1) [النحل:78] أي من أمور الدنيا والآخرة ولا مما كانت أرواحكم تعلم في عالم الأرواح ولا مما كانت ذرَّاتكم تعلم من فهم خطاب ربكم إذ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ولا مما علمت إذ قالت بالجواب: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف: 172] ولا مما تعلمت الحيوانات حين ولادتها من طلب غذائها ومعرفة أمها والرجوع إليها والاهتداء إلى ضروعها وطريق تحصيل اللبن منها ومشيها خلفها وغير ذلك مما تعلم الحيوانات وتهتدي إليه ولا يعلم الطفل منه شيئًا ولا يهتدي إليه.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل:78] لأجسادكم كما جعل للحيوانات لتسمعوا بها وتبصروا وتفهموا ما يسمع الحيوان ويبصر ويفهم وجعل لأرواحكم سمعًا تسمعون به ما تسمع الملائكة وبصرًا تبصرون به ما تبصر الملائكة، وفؤادًا تفهمون به ما تفهم الملائكة، وجعل لأسراركم سمعًا تسمعون به من الله، وبصرًا تبصرون به الله، وفؤادًا تعرفون به الله، وهذه الحواس مستفادة من قوله تعالى: «كنت له

(1) أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت المعرفة، لا يعلمون شيئًا من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماعًا من نور سمعه، وكساكم أبصارًا من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته. [العرائس].

سمعًا وبصرًا ولسانًا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»(1).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:78] بهذه الآيات نعم الله وإذا شكرتم نعم الله باستعمالها وصرفها في طلب الله وترك الالتفات إلى النعم للمنعم، وفيه إشارة أخرى قوله: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النحل:78] أي: من العدم وهو الأم الحقيقية ﴿لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:78] قبل أن يعلمكم الله أسماء كل شيء ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل:78] حين خطابكم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] فتجلى لكم بربوبيته، فبنور سمعه أعطاكم سمعًا تسمعون به خطابه، وبنور بصره أعطاكم بصرًا تبصرون به جماله، وبنور علمه أعطاكم فؤادًا تعرفون به كماله، وبنور كلامه أعطاكم لسانًا تجيبونه بقولكم: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف:172]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78] فلا تسمعون بهذا السمع إلا كلامه، ولا تبصرون بهذا البصر إلا جماله، ولا تحبون بهذا الفؤاد إلا ذاته، ولا تتكلمون بها اللسان إلا معه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل:79] فيه إشارة إلى طير الأرواح أنها مسخرة في جو سماء القلوب ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ﴾ [النحل: 79] لأن الأرواح علويات، وإنما سكونها في سفل الأجساد بتسخير الله إياها كقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:72].

وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5] وفيه إشارة إلى أن للإنسان مقامًا يرى الله بنور الله قبل رؤية الأشياء، ويرى الأشياء قائمة بقدرة الله، كما قال بعضهم: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله قبله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:79] بالله بنور الله فهذه التأويلات من جملة الآيات التي يهدي بها الله خواص عباده إليه.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ

(1) تقدم تخريجه.

جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل: 80 - 84].

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم﴾ [النحل:80] يشير به إلى الأرواح، ﴿مِّنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النحل: 80] أي: من بيوت الأجساد ﴿سَكَنًا﴾ [النحل:80] أي: مسكنًا وإلا كان مساكنها عالمًا الأرواح ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل:80] أي: جعل بيوتكم أجساد حيوانية ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل:80] أي: تستخف أرواحكم النفوس الحيوانية وقواها وقت السير إلى الله ووقت الوقفة للاستراحة والتربية.

وفي قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا﴾ [النحل:80] إشارة إلى الصفات الحيوانية والحواس الخمسة والقوى أنها آلات للأرواح في السير ﴿وَمَتَاعاً﴾ ينتفع ويبلغ به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين الوصول وإقران الوصال ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ أي: جعل الخلق ظل عالم الأمر لتستظل الأرواح به عند طلوع شمس التجلي وإلا لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره، فافهم جدًا.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ [النحل:81] أي: من جبال القلوب ما يكون الأرواح ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ لأرواحكم ﴿سَرَابِيلَ﴾ من صفاته البشرية ﴿تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾ تحفظكم من حر نار المحبة ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ من صفات الروحانية ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: تحفظكم من سهام وساوس الشيطان وهواجس النفس ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على هذه الحكمة البالغة يحفظكم من الآفات ويربيكم بالكرامات حتى يتم نعمة الوصول عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: تصلون إليه بإسلامه لا يقطع عليكم الطريق قطاع الطريق من الدنيا وما فيها من الزخارف ومن الآخرة وما فيها من المعارف؛ فإنها تمام النعمة وكمال المنحة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [النحل:82] أي: فإن أعرض أهل الباطل عن الحق ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ لتكون يا محمد رسولاً مبلغًا مبينًا طرق السير والوصول وأهل الباطل الذين هم مظاهر القهر ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:83] بتعريفك ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بك وبنعمة الله إظهارًا للقهر.

ثم أخبر عن ندامة أهل الغرامة يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ إشارة إلى أن لأرواح الأنبياء - عليهم السلام - إشرافًا على أممهم فيما يعملون في حال حياتهم وبعد وفاتهم ليشهدوا عليهم بأعمالهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن يعتذروا عما عملوا بقضاء ما فاتهم من الأوامر وبالتوبة والاستغفار عما نوهوا عنه ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني: ولا يتكلفون أن يعرفوا ربهم، وذلك لأن الدنيا مزرعة الآخرة، والأرواح بذور في أرض الأشباح، فمربيها ومنبتها ومثمرها أعمال الشريعة بشرط الإيمان، ومفسدها ومبطلها ومغير أحوالها عن خصيتها الكفر وأعمال الطبيعة والموت حصادها والقيامة بيدرها، فكل نبات فسد في الأرض بطل استعداده لقبول التربية، ولم يتم أمر نباته فلما حصد وحصل في البيدر ولا تفيده أسباب التربية لتغير أحوالها، فافهم جدًا.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

[النحل: 85 - 89].

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [النحل:85] أي: وضعوا الكفر وأعمال الطبيعة في موضع الإيمان وأعمال الشريعة ﴿الْعَذَابَ﴾ جزاء ظلمهم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ الأثقال التي على أرواحهم وهي الأخلاق الذميمة النفسانية الظلمانية السفلية المبدلة بالأخلاق الحميدة الروحانية النورانية العلوية، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لتبديل مذمومها بمحمودها لما ذكرنا.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [النحل:86] وهم عبدة الدنيا والهوى ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ [النحل:86] من الدنيا والهوى والخلق ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ [النحل:86] أي: اتخذناهم آلهة وكانوا شركاؤنا في الأرض عنك، وفيما يدعونا إلى عبادتهم وبتربيتهم في نظرنا ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ [النحل:86] أي: فأجابوهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل:86]، فيما تجعلوننا شركاءكم في الإعراض عن الله، وفيما تدعون إنا دعوناكم إلى عبادتنا فإنا كنا مشغولين بتسبيح الله وطاعته فارغين عنكم وعن أحوالكم ﴿وَأَلْقَوْا﴾ [النحل:87] يعني: المشركين ﴿إِلَى الله يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ [النحل:87] أي: استسلموا لحكم الله لما عجزوا عن الجواب ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: 87] على شركائهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النحل:88] وأسروا الحق على أنفسهم ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله﴾ [النحل:88] أي: ومنعوا الأرواح والقلوب عن طلب الله.

﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل:88] أي: زدناهم عذاب الحرمان عن الكمال فوق عذاب الخسران من النقصان ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:88] حسن الاستعداد لقبول الكمال وحصول الوصال، وفيه أيضًا إشارة إلى أن الجمادات والحيوانات والدنيا والهوى وكل شيء يكون حضوره في الآخرة ينطقهم الله الذي أنطق كل شيء.

كما قال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل:89] وهو أعضاؤهم لقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:65] ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:41] يعني: النبي ﷺ وشهادته عادته عامة على أمة وأعضائهم ونفوسهم وقلوبهم وأرواحهم على جميع الأمم الماضية، بل على ذرات المكونات إذ كل شيء خلق في نظر روحه الشريف قوله أول ما خلق الله وحي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:89] يعني: في الكتاب بيان كل شيء يحتاج إليه السالك في أثناء السلوك والسير إلى الله إلى أن يصل أقصى مقام الكمال المقدر للإنسان نظيره قوله: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 60] والذي يدل على هذا التأويل قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل:89] أي: هذا الكتاب هادٍ يهدي إلى الله عباده جمة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:89] أي: هو بشارة لمن أسلم

وجهه لله وهو تابع النبي ﷺ بالوصول إلى مقام الكمال وحضرة الجلال.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [النحل: 90 - 93].

ثم أخبر عن تفصيل البيان من جملة التبيان بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل:90] وهو صرف ما أعطاك الله من آلات الجسمانية والروحانية، ومن مال الدنيا وجاهها ومن شرائع الدين وأعماله في طلب الله والسير منك به إليه؛ لأن صرفه في طلب غيره ظلم، والإحسان أن تحسن إلى الخلق بما أعطاك الله وإياك سبيل الرشاد وترشدهم وتسلك بهم طريق الحق للوصول والوصال يدل عليه قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:77] وأيضًا العدل صدق التوجه إلى الله بكليتك لكليته، والإحسان أن تستعين بالله في توفيقك للعدل وقطع النظر في المعاملات من نفسك ورديئها منه ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:90] إليك نفسك فصلة رحمها أن تنجيها من المهالك، وترجع بها إلى مالك الممالك.

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [النحل:90] وهي ما يحجبك عن الله ويقطعك عنه ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما ينكر به عليك من إضلال الخلق وإغوائهم وإحداث البدع وإثارة الفتن ﴿وَالْبَغْيِ﴾ ما ثار من سورة صفات نفسك فيصيب الخلق منك ما يضرهم ويؤذيهم ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بأمر هذه المستحسنات ونهي هذه المستقبحات ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] [النحل:

---

(1) قال الورتجبي: إنَّ الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائر، وهو منزَّه
-

90] وتتعظون فتأتمرون بالأمر، وتنهون بالنهي.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ﴾ [النحل:91] بائتمار أوامر الله وانتهاء نواهيه ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل:91] مع الله يوم الميثاق ﴿وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ﴾ مع الله يوم الميثاق ﴿وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:91] وهو إشهادكم على أنفسكم وقولكم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:173] ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل:91] أي: جعلتموه كفيلاً بجزاء أوقاتكم وهو تكفل منكم بالوفاء بما عاهد معكم على الجزاء كما قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:40].

وتفصيل الوفاء من الله والعبد، بما شرح النبي ﷺ في حديث معاذ فقال: «هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» أي: يطلبوه بالعبادة ولا يطلبوا معه غيره ثم قال: «أتدري يا معاذ ما حق الناس على الله إذ فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الناس على الله ألا يعذبهم»[1] يعني: بعذاب الفراق والقطيعة، بل يشرفهم بالوجدان والوصال كما قال: «ألا من طلبني وجدني»[2].

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:91] من نقض العهد والوفاء به، وفي قوله:

عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلاَّه بزينتها يخرج عادلاً محسنًا، رءوفًا رحيمًا، طاهرًا مطهرًا، صادقًا مصدقًا، وليًّا، حبيبًا محبوبًا، مريدًا مرادًا، مراعىً محفوظًا، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، ويأخذ منها الانتصاف بينها وبين عباد الله بألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئنًا في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليقة.

(1) رواه معمر في جامعه (1156).

(2) تقدم تخريجه.

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:92] إشارة إلى المريد الذي تعلق بذيل إرادة صاحب ولاية من المشايخ وعاهده على صدق الطلب والثبات عليه عند مقاساة شدائد المجاهدات، والصبر على مخالفات النفس والهوى، وملازمة الصحبة والانقياد للخدمة، ولتحمل عن الأحوال، وحفظ الأدب معهم ففي أثناء تحمل هذا المشاق تسأم نفسه وتضعف عن حمل هذه الأثقال، فينقض عهده ويفسخ عزمه ويرجع قهقري، ثم يتخذ ما كان أسباب طلب الله من الإرادة والمجاهدة ولبس الخرقة وملازمة الصحبة والخدمة والفتوحات التي فتح الله له في أثناء الطلب، والسير آلات طلب الدنيا وآداب تحصيل شهوات نفسه بالتصنع والمرايات والسمعة ابتلاءً من الله إظهارًا للعزة أن عظمت الدنيا وشهواتها في نظر النفس، وأعرضت عن الله في طلبها، وهذا معنى قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل:92] أي: الدنيا أعلى عندكم من الآخرة، ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:92] من أمر الدنيا والآخرة وأمر الطلب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [النحل:93] في طلب الله ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ [النحل:93] عن طريق الطلب في تيه الحرمان ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النحل:93] إلى حضرة الجلال بالوصول والوصال، وإحالة الضلالة والهداية إلى المشيئة لإظهار القدرة ونفي العجز حتى لا يتوهم أحد أن أحدًا يقدر على شيء بغير مشيئته لعجزه عن المنع ولكن الإرادة القديمة اقتضت بالحكمة القديمة أن يضل بعضهم بأفعال نفسه الخبيثة، ويهدي بعضهم بأفعال روحه الشريف؛ فلهذا قال: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:93] يعني: إنما الجزاء على الأعمال لا على الأحوال فينبغي ألّا يكون العبد جبريًا لا ينظر إلى الأعمال ولا قدريًا لا ينظر إلى إرادة الله ومشيئته.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٞ

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: 94 – 99].

ثم أكد تهديد الطالب الناكث بإعادة قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل:94] أي: لا تتخذوا معاهدتكم مع المشايخ شبكة تصادون بها الدنيا، وقبول الخلق فتزل أقدامكم عن صراط الطلب بعد ثبوتها مدة عليه ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النحل:94] تجارة الدنيا والآخرة ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:94] وطلبه متعرضًا إلى الدنيا ونعيمها ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:94] بالانقطاع والإعراض عن الله، وما ذنب أعظم منه ولا عذاب أعظم من القطيعة عن الله والحرمان منه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:95] أي: بالمعاهدة على طلب الله، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [النحل:95] وهو متاع الدنيا الفانية لقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:77] ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من القربات والكمالات ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:95] قدرها بأداء حقها ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ [النحل:96] لله من الدنيا ونعيمها ﴿يَنفَدُ﴾ [النحل:96] ويفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] [النحل:96] لكم من الكمالات ﴿بَاقٍ﴾ [النحل:96] إلى الأبد ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ [النحل:96] على مقاساة شدائد طلب الله ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:96] يعني: بأوفر أجر كانوا عليه يعملون بأنهم على أجر قد سمعوا به وفهموا منه على قدر عقولهم، وقد قال تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

---

(1) أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الألوهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضًا ما عندكم من المعارف ينفد في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبدو منها جميع المعارف باقية للعارفين المحبين، فإنَّ بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنَّه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

(2) أخرجه أحمد (2/ 313، رقم 8128)، والبخاري (3/ 1185، رقم 3072)، ومسلم (4/ 2174، رقم 2824)، والترمذي (5/ 346، رقم 3197) وقال: حسن صحيح .

ثم أخبر عما أعد للطالبين الراغبين بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ [النحل:97] يشير بالذكر إلى القلب، وبالأنثى إلى النفس، فالعمل الصالح من النفس استعمال الشريعة بتقوى القلب وصدقه على وفق الطريقة تزكية بصفات الله والتخلق بأخلاقه لطلب الله، والإعراض عما سواه، وبقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1] [النحل:97] يشير إلى إحياء كل واحد منهما بالحياة الطيبة على قدر صلاحية عمله وحسن استعداده في قبولها.

فإحياء النفس: بالحياة الطيبة أن تصير مزكاة عن صفاتها متحلية بأخلاق القلب الروحاني مطمئنة بذكر الله راجعة إلى ربها ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:28]،

وإحياء القلب: وحياته الطيبة أن يكون متخلقًا بأخلاق الله، ويكون فانيًا عن أنانيته باقيًا بهويته حيًا بحياته طيبًا عن دنس الاثنينية ولوث الحدوث، فإن الله طيب عن هذا الاتصاف فلا يقبل إلا طيبًا.

ثم اعلم أن صلاحية أعمال العباد إنما تكون على قدر صدقهم في المعاملات، وحسن استعدادهم في قبول الفيض الإلهي فيكون طيب حياتهم بإحياء الله إياهم بحسب ذلك؛ ولهذا اختلف تفسير المفسرين وتحقيق المحققين في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97] على ما مرَّ ذكره، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [النحل:97] في الآخرة

---

(1) معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: التَّبَرُّؤ من الكون وما فيه بنعت تصاغره في عين من يرى القدم، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضًا هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضًا وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضًا هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحييه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنسًا بوصله، محافًا من فضله، فيكون ملبسًا في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروسًا من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجًا من امتحان البلاء، وهذا جزاء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، و في جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغاير النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألذ حاله، طوبى له ثم طوبى له.

﴿أَجْرَهُم﴾ [النحل:97] أي: أجر كل طائفة منهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] أي: بأوفر ما كانوا يطمعون أن يجازيهم الله على أعمالهم بيانه قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:40].

ثم أخبر عن الاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:98] الخطاب مع الأمة وإن خص به النبي ﷺ به؛ لأن الشيطان كان يفر من ظل عمر وهو أحد تابعيه، فكيف يقدر على أن يدور حواليه سيما أسلم شيطانه على يده ﷺ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:99] يعني: سلطان نور الإيمان، والتوكل غالب على سلطان وسوسة الشيطان، فإذا كان هذا حال الأمة مع الشيطان، فكيف يكون كمال النبوة معه؟! فثبت أن المراد بالخطاب الأمة، وإنما خص النبي ﷺ به لتعتبر الأمة وتتنبه أن مثل هذا النبي ﷺ مهما يكون كمال النبوة معه فيثبت آلته مأمورًا بالاستعاذة بالله من الشيطان، فتكون الأمة بها أولى وأحق. فأما تخصيص الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن من الشيطان الرجيم لمعانٍ وفوائد:

فأولها: لكي يتذكر القارئ واقعة الشيطان ويتفكر في أمره إنما صار شيطانًا رجيمًا بعد أن كان ملكًا كريمًا؛ لأنه فسق عن أمر ربه وخالفه وأبى أن يسجد لآدم ﴿وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34] أي: فصار من الكافرين فيتنبه بذلك عند قراءة القرآن ويصفي نيته قبل القراءة على أن يأتمر بها أمر الله في القرآن وينتهي عما نهاه عنه احترازًا عن المخالفة، فإن فيها الطرد واللعن والرجم والفسق والكفر وإنها مظنة للخلود في النار.

وثانيها: لأن العبد لا يخلو من حديث النفس وهواجسها ومن إلقاء الشيطان ووساوسه وقلبه لابد يتشوش بذلك، فلا يجد حلاوة كلام الله فأمره بالاستعاذة تزكية للنفس عن هواجسها وتصفية للقلب عن وساوس الشيطان؛ ليتحلى بنور القرآن فإن التحلية تكون بعد التزكية والتصفية، فافهم جدًا.

ثالثها: ولأن في كل كلمة من كلمات القرآن لله تعالى إشارات ومعانٍ وحقائق لا يفهمها إلا قلب مطهر عن تلوثات الهواجس والوساوس معطر بطيب أنفاس الحق،

وذلك مودع في الاستعاذة بالله فأمر بها لحصول الفهم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99] إشارة إلى أن تصرف الشيطان وقدرته المخلوقة بالإغواء والإضلال على الإنسان إنما تنقطع بقدر قوة الإيمان وقوة التوكل معاً ويكمل الإيمان والتوكل بأن يكون المؤمن زاهدًا عن الدنيا راغبًا في الآخرة متبتلاً إلى الله، فلا يبقى للشيطان عليه سلطان في إضلاله وإغوائه؛ ولكي يئول أمره إلى الوسوسة وفيها صلاح المؤمن فإن إبريز إخلاص قلبه عن غش صفات نفسه لا يتخلص إلا بنار وسوسة الشيطان؛ لأنه يطلع على بقايا صفات نفسه بها تكون الوسوسة من جنسه، فيزيد في الرياضة ومجاهدة النفس مع ملازمة الذكر فتنقض وتنمحي بقية صفات النفس، ويزداد نور الإيمان، وقوة التوكل وقربة الحق بقوله:

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النحل: 100 - 104].

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل:100] أي: يتولون بوسواسه وإغوائه؛ لأنها على وفق طبعهم وهو لعنهم ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:100] أي: بما يوافق طبعهم وهواهم يقبلون إضلاله ويشركون.

ثم أخبر أن من تأثير الإغواء ألا ينسبوه إلى الافتراء بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل:101] إشارة إلى أن الله هو الطبيب والقرآن هو الدواء يعالج به مرض القلوب، كقوله تعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس:57] كما أن الطبيب يداوي المريض كل وقت بنوع من الأدوية على حسب المزاج والعلة لإزالتها ويبدل الأشربة والمعاجن بنوع آخر وهو أعلم بالمعالجة من غيره، فكذلك الله ﷻ يعالج قلوب العباد بتبديل آية وإنزال آية مكانها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل:101] ويعالج به العبد،

فالذين لا يعلمون قوانين الأمراض والمعالجات ﴿قَالُوا﴾ [النحل:101] لمحمد ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل:101] أنت تبدل الآيات من تلقاء نفسك وأنت مفتر ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:101] حكمة التبديل وما فيه من المصالح.

ثم أمر النبي ﷺ أن يجيبهم ويلزمهم بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل:102] أي: معالجة منه ﴿بِالْحَقِّ﴾ [النحل:102] أي: هو محق بهذه المعالجة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل:102] أي: يثبت الإيمان في قلوب المؤمنون بإزالة أمراض الشكوك عن قلوبهم من نور القرآن فإنه شفاء ﴿وَهُدًى﴾ [النحل:102] لصحة الدين وسلامة القلوب ﴿وَبُشْرَى﴾ [النحل:102] بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:102] الذين استسلموا للطبيب، والمعالجة بصحته له منهم.

ثم يشير بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل:103] أي: أن طب القلوب ومعالجتها ليس من شأن البشر بنظر العقل؛ لأن الطب معنى على معرفة الأمراض والعلل وكيفيتها وكميتها، ومعرفة إزالتها بالأدوية ومعرفة الأدوية وخواصها، وكيفية استعمالها ومعرفة الأمزجة واختلاف أحوالها، وإن القلوب بيد الله هو يعلم داءها ودواءها، والتفاوت في أمزجتها، وكيفية معالجتها، ويضيق عن ذلك نطوق عقول البشر بحيث لا يطلع على قوانين معارفها ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ فلهذا كان يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ﴾ [الشعراء:80] لا تطلع على قوته ﴿يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:80] يعني: لا اطلاع لي على المعالجة إلا أن يعلمني الله كيفية المعالجة، فلما علَّم الله النبي ﷺ بإنزال القرآن هذه المعالجة وكيفيتها من علته بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113] ومع هذا كان يقول: «نحن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر»[1] ويقول: «إن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [النحل:103] إنه يعلمك القرآن ﴿أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:103] إشارة إلى أن الأعجمي هو الذي لا

(1) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (8/ 455)، (3955).

(2) تقدم تخريجه بنحوه.

يفهم من كلام الله ما أودع الله فيه من الأسرار والإشارات والمعاني والحقائق، فإنه لا يحصل ذلك إلا لمن رزقه الله فهماً يفهم به اللسان العربي المبين هو الذي يسَّره الله تعالى على لسان نبيه ﷺ وبيَّن له معانيه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم:97] وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:18-19] فالعربي المبين هو الذي أعطاه الله قلبًا فهيمًا ولسانًا مبينًا، فافهم جدًّا.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [النحل:104] وهي ما أودع الله في القرآن من المعاني والحقائق التي تتعلق بمواهب الله وبه صار القرآن معجزًا فمن لم يؤمن ﴿لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾ [النحل:104] إلى فهم القرآن ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:104] إذ لم يهتدوا إلى الإيمان بدفعهم ما فيه.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النحل: 105 – 109].

فلما نفى الافتراء عن النبي ﷺ استدل بقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [النحل:105] ووجه الاستدلالات الافتراء، فإن نفس المؤمن مأمورة، لوامة، مستلهمة من الله، مطمئنة بذكر الله، ناظرة بنور الله، موفقة بآيات الله؛ لأن الآيات لا تُرى إلا بنور الله، كما قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»(1) فإذا كان من شأن المؤمن ألا

(1) جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي - (ج 1 / ص 813)

حديث أبي سعيد: أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (7/ 354)، والترمذي (5/ 298، رقم 3127)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم فى الحلية (10/ 281). وأخرجه أيضًا: الطبري (14/ 46).

حديث أبي أمامة: أخرجه الطبراني (8/ 102 رقم 7497) قال الهيثمي (10/ 268): إسناده حسن. والحكيم (3/ 86)، وابن عدى (4/ 206، ترجمة 1015 عبد الله بن صالح)، والخطيب (5/ 99). وأخرجه أيضًا: الطبراني في الأوسط (3/ 312، رقم 3254)، والقضاعى (1/ 387، رقم 663).

يفتري الكذب إذ هو ينظر بنور الله، فكيف يكون من شأن رسول الله أن يفتري الكذب وهو نور من الله ينظر بالله.

ثم اختص الكذب لمن لا يؤمن بآيات الله، فقال: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل:105] أي: هم المنتسبون إلى الكذب الحقيقي الذي صار اسم العلم لهم بأنهم كذبوا على الله وكذبوا بآياته، وكذبوا على النبي ﷺ وكذبوا به وبما جاء به، وكذبوا بالقرآن والمعجزات، وفيه إشارة إلى أن الكذبات التي تقع في أثناء كلام من يؤمن بالله ورسله وكتبه ولا يكذب عليهم ولا يكذب بهم، فإنها ليست من الكذب الذي يفتري من لا يؤمن بآيات الله وإنه مخصوص بمن يفتري على الله الكذب، وإن الكذبات التي تقع للمؤمن وهي من جملة المعاصي لا تخرجه من الإيمان، وإن ينقص بها الإيمان ثم بالتوبة يرجع الإيمان إلى أصله كسائر المعاصي والذنوب، يدل على هذا قوله ﷺ: «ما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»(1) فثبت أن المؤمن يبغض الكذب في بعض الأوقات إذا لم يكن مصرًا عليه ويتوب.

ثم أخبر عن صاحب الإيمان أنه لا يكفر بإظهار الكفر مكرها مع الاطمئنان بالإيمان بقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ [النحل:106] إشارة إلى مريد يتنسم روائح نفحات الحق بمشام القلب عند هبوبها واحتكاك أهوية عالم الباطن وانخراق سحب حجب البشرية، فلمع كبرق أضاءت به آفاق سماء القلب وإشراق أرض البشرية، فآمن بحقية الطلب واحتمال التعب والنصب، فاستوقد نار الشوق والمحبة، فلما أضاءت ما حوله وبذل في الاجتهاد جده وحوله هبت نكباء النكبات، وبهذا صدأت المرآة، ذهب الله بنوره وانخمدت نار الشوق، فآل المشئوم إلى طبعه، فانطبقت السحب، وأسدلت الحجب فكفر بالنعمة بعد أن أسر بالمحبة.

-

حديث ابن عمر: أخرجه الطبري (14/ 46).

(1) أخرجه البخاري (5/ 2261، رقم 5743)، ومسلم (4/ 2012، رقم 2607). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (9/ 71، رقم 5138)، وابن حبان (1/ 508، رقم 273)، والبيهقي (10/ 243، رقم 20927)، ابن ماجه (1/ 18، رقم 46).

ثم استند الطالب الصدى من جملتهم والمريد العاشق من زمرتهم، فقال: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل:106] أي: أكره على مباشرة فعل يخالف الطريقة من معاملات أهل الطبيعة، فيوافقهم فيها بالظاهر، ويخالفهم بالباطن حتى يتخلص من شؤم صحبتهم، ثم أكد بالوعيد حال من صار بعدما كان فقال: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل:106] أي: نكص على عقبيه راضيًا وكفران النعمة على شكرها، وأعرض عن الله بالإقبال على الهوى ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ﴾ [النحل:106] أي: قهر وخذلان منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:106] بالانقطاع عن الله العلي العظيم.

ثم أخبر عن سبب الخذلان فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [النحل:107] أي: اختاروا محبة الدنيا وشهواتها على محبة الله والشوق إلى لقائه.

﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي﴾ [النحل:107] إلى حضرته ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل:107] بنعمته ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل:108] بكفران النعمة؛ لئلا يفقهوا بها ألطاف الحق ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ [النحل:108] لئلا يسمعوا بها كلام الحق ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [النحل:108] لئلا يبصروا بها لقاء الحق ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل:108] عما أعد الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل:109] يعني: أهل الغفلة في الدنيا هم أهل الخسارة في الآخرة، وفيه إشارة أخرى وهي أن التغافل بالأعضاء عن العبودية يورث خسران القلوب عن مواهب الربوبية.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرْيَةٗ كَانَتْ ءَامِنَةٗ مُّطْمَئِنَّةٗ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٞ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل: 110 - 114].

ثم أخبر عن أهل الامتحان بالافتتان، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ [النحل:110] إشارة إلى طالب صادق هاجر نفسه وأعرض عن متابعة هواها وترك شهواتها واستيفاء حظوظها، وأقبل على الله بصدق الطلب وبذل الجهد من بعد الافتتان بتحصيل شهوات النفس ويتبع هواها في مخالفة أوامر الحق ونواهيه ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل:110] أي: جاهدوا النفس على تزكيتها عن صفاتها الذميمة بموافقة الشريعة ومخالفة الطبيعة وموافقة الطريقة، وصبر على مقاساة شدائد الرياضات والمجاهدات تحت تصرفات المشايخ متمسكًا بذيل إرادتهم ملازمًا بصحبتهم من إقبال إشارتهم مشمرًا بنجدتهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ [النحل:110] أي: من بعد الخلاص عن الفتنة ومخالفة النفس وهواها والإقبال على الله ﴿لَغَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما سلف منهم من السيئات ويبدلها بالحسنات في تزكية النفس وتبديل أخلاقها ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:110] برحمة المشاهدة بعد المجاهدة.

وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[1] [النحل:111] إشارة إلى أحوال أرباب النفوس أن كل نفس على قدر بقاء وجودها تجادل عن نفسها إما دفعًا لعنادها أو جذبًا لمنافعها حتى الأنبياء - عليهم السلام - يقولون: نفسي نفسي إلا محمدًا ﷺ ذاته، فانٍ عن نفسه باقٍ بربه يقول: «أمتي أمتي»[2] لأنه المغفور له من ذنب وجوده المتقدم في الدنيا، والمتأخر في الآخرة بما فتح الله له ليلة المعراج، إذ المواجهة بخطاب: «السلام

---

(1) قال البقلي: الأنفس بالتفاوت، فنفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقائه. والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة تنبسط إلى ربها، وتدل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وحبستني في دار الامتحان مع أعدائي، فأين عدلك وإنصافك؟! أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمديتك حتى أنظر إليك بك أبدًا، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوجة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفسٍ بقدر طاعتها، وهو منزه عن النسيان والظلم والضلال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا ينقص من ملكه مثقال ذرة، يدخل الكل في جواره، ويريهم جماله.

(2) تقدم تخريجه.

عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» تغني عن وجوده بالسلام، وبقي بجوده بالرحمة بوجوده، وكان رحمة مهداة أرسل بركاته إلى الناس كافة، ولكنه رفع الزلة من تلك الضيافة خاصة بخواص متابعة، كما قال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[1] يعني: الذين صلحوا لبذل الوجود في طلب المقصود ونيل الجود فما بقي لهم مجادلة عن نفوسهم مع الخلق والخالق، كما قال بعضهم: كل الناس يقولون غدًا: نفسي نفسي وأنا أقول: ربي ربي.

وفي قوله: ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:111] إشارة إلى أن كل نفس عملت سوء توفى بالعذاب بنار الجحيم ونار القطيعة، وكل نفس عملت خيرًا توفى في الثواب من نعيم الجنان ولقاء الرحمن ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:111] أي: لا يكذب أهل النعيم ولا يثاب أهل الجحيم.

ثم أخبر عن أهل كفران النعمة وما أصابهم من المحبة بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾ [النحل:112] إشارة إلى قرية شخص الإنسان كانت آمنة أي: أهل القرية وهو الروح الإنساني والقلب ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ [النحل:112] اطمئنان بذكر الله ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ [النحل:112] من الطاعات والعبادات ﴿رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل:112] روحاني وجسماني ﴿فَكَفَرَتْ﴾ [النحل:112] النفس الأمارة ﴿بِأَنْعُمِ اللهِ﴾ [النحل:112] بنعم الطاعات والتوفيق واتبعت هواها وتمتعت بشهواتها.

﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ [النحل:112] بسدل الحجب النفسانية، وسد الطرق الروحانية، وقطع مواد التوفيق، فانقطع عن الروح والقلب والنفس مبرة الحق، فأكلوا من جيفة الدنيا وميتة المستلذات، وقوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ [النحل:112] هو خوف العذاب والانقطاع عن الله ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:112] من كفران النعمة وتتبع الشهوة والتمتع بالدنيا الدنية.

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل:113] إشارة إلى رسول

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (2/ 201، رقم 3065)، وأحمد (4/ 393، رقم 19522)، ومسلم (1/ 303، رقم 404)، وأبو داود (1/ 255، رقم 972)، والنسائي (2/ 196، رقم 1064)، وابن ماجه (1/ 291، رقم 901)، وابن حبان (5/ 540، رقم 2167).

الخاطر الروحاني المؤيد بالإلهام الرباني فكذبوه وما قبلوا منه ما أمرهم من الأخلاق الحميدة التي بعث الله تعالى النبي ﷺ لإتمامها على وفق الشرع ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل:113] عذاب الخذلان والهجران ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:113].

وفي قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [النحل:114] إشارة إلى الطالبين الصادقين التائبين على قدم صدق في الطلب، الصابرين على مقاساة شدائد المجاهدات بتناول ما رزقهم الله من أنوار الشريعة، وأسرار الطريقة، وحقائق الحقيقة التي أعرض عنها وحرمها على أنفسهم أرباب النفوس من البطلة والجهلة.

﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [النحل:114] وهي الإيمان وتوفيق الطاعات، وصدق الطلب، وظهور شواهد الحق، والترقي في الدرجات، وعبور المقامات ومزيد الأحوال، وأما شكر هذه النعم برؤيتها عن المنعم، واستعمالها في طلب المنعم للوصول إلى المنعم لا بحصول النعم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:114] تطلبون إياه لأمته.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: 115 - 119].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:115] أن تطلبوا من غيره وهو ﴿الْمَيْتَةَ﴾ [النحل:115] أي: جيفة الدنيا ﴿وَالدَّمَ﴾ [النحل:115] أي: شهواتها ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ [النحل:115] أي: الغيبة والحسد والظلم والمظالم ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل:115] وهو مباشرة عمل مباح لا لله ولا للتقرب إليه، بل لهوى النفس وطلب حظوظها ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ [النحل:115] إلى نوع منها مثل طلب القوت بالكسب الحلال والتأهل للتوالد والتناسل أو الاختلاط مع الخلق للمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أبواب البر ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [النحل:115] أي: غير معرض عن طلب الحق ﴿وَلَا

عَادٍ﴾ [النحل:115] أي: مجاوز عن حد الطريقة ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:115] أي: مجاوز عن حد الطريقة ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [النحل:115] لما اضطروا إليه ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:115] على الطالبين بأن يبلغهم مقاصدهم.

وفي قوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: 116] إشارة إلى ما تقولت النفوس بالحسنات والغرور: إنا قد بلغنا إلى مقام يكون علينا بعض المحرمات الشرعية حلالاً، وبعض المحللات حرمًا ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل:116] إنه أعطانا هذا المقام كما هو من عادة أهل الإباحة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل:116] إنه أعطانا هذا المقام كما بإعطاء مقام وحال لم يعطهم بعد ﴿لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:116] بأن يعطيهم أبدًا والله أعلم.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [النحل:117] أي: التمتع بها يفترون على الله يكون زمانًا قليلاً في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:117] بالحرمان عن مقاصدهم وجزاء الافتراء.

وفي قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل:118] إشارة إلى أهل الطلب يعني أنهم لما توجهوا إلى حضرتنا بصدق الطلب حرمنا عليهم موانع الوصول وهي ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: أشرنا إليك بتحريمها على نفسك في بدء نبوتك حتى كنت محترزًا عن صحبة خديجة وتنحيت إلى حراء أسبوعًا أو أسبوعين ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ [النحل:118] بتحريم ذلك عليهم، بل أنعمنا به عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:118] بالإعراض عنا بعد الإقبال علينا بتسويل النفس ووسوسة الشيطان.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ [النحل:119] وهو الإعراض ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي: بجهالة قدر الإقبال على الله، وإثم الإعراض عنه ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [النحل: 119] أي: رجعوا عن الإعراض، وأقبلوا على الله بصدق الطلب وإخلاص العمل ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ [النحل:119] بالإقبال ما أفسدوا بالإعراض ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ [النحل:119] أي: بعد المراجعة والإصلاح ﴿لَغَفُورٌ﴾ [النحل:119] متدارك بصفة المغفرة ما فاتهم من كمالات المعرفة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النحل:119] بهم بأن يدخلهم في رحمته

بجذبات عنايته.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: 120 - 123].

ثم أخبر عن طالبه أن يكون بانفراده أمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ﴾ [النحل:120] إشارة إلى أن من جذبته العناية الأزلية عن منيته، وقلعته النفحات الربانية عن طينة بنيته، واستخلصه بنار الغيرة عن غش القربة الأزلية، وارتفعت الشركة وبقيت الوحدة، وتحققت خصوصية الخلة والمحبة، واختصه بمراتب جماله وجلاله، يكون بمثابة أمة مطيعة قابلة لمرائية صفاته، وهم زبدة المكونات وخلاصة الموجودات فإنها بجميعها خلقت مظهرة لصفاته ليعرف بها كما قال: «فخلقت الخلق لأعرف»[1]، وفيه إشارة إلى أنه لو لم يكن في زمانه مؤمن إلا هو بنفسه أمة مطيعة اجتمع فيه ما هو المراد أن يكون في أمة زمانه ﴿حَنِيفًا﴾ [النحل:120] أي: ملائمًا عن غير الحق بالحق للحق ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:120] يعني: كان فانيًا في الله باقيًا به لم يمكن ممن له شركة مع الله في الوجود.

﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:121] والإنعام في نعمة النبوة والرسالة، ونعمة الخلة، ونعمة الاجتباء، ونعمة الهداية إلى صراط مستقيم هو صراط إلى الله، ونعمة الخصائل التي جمعها الله فيه ليكون بها أمة بنفسه ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل:122] وهي أنه جعل أكثر الأنبياء من نسله لاسيما محمد ﷺ وأمره باتباعه.

﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل:122] وفيه إشارة إلى استجابة دعائه، فإنه دعا ربه وقال: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء:83] فأجابه وقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ

(1) تقدم.

لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل:122] إلحاقًا بهم في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النحل:123] إشارة إلى أن الله تعالى لمَّا بين كمالات مقام إبراهيم عليه السلام وما أنعم الله عليه بأمره باتباعه؛ ليهتدي بهداه ويقتضي به في بذل الوجود لمولاه؛ إذ رمى في النار وقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:123] لئلا يرضى بالشركة مع الله في الوجود، فلمَّا سلك النبي ﷺ طريق متابعته وسلَّم وجهه لله ليذهب إلى الله، كما ذهب إبراهيم عليه السلام وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات:99] نودي في سفره: إن إبراهيم كان خليلنا، وأنت حبيبنا فالفرق بينكما أن الخليل لو كان ذاهبًا يمشي بنفسه فالحبيب يكون راكبًا أسري به، فلمَّا بلغ سدرة المنتهى وجد مقام الخليل عندها فقيل له: إنها السدرة لمقام الخليل لو رضيت بها لنزينها لك، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:16] لعلو همته الحبيبية ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ [النجم:17] بالنظر إليها ﴿وَمَا طَغَى﴾ باتخاذ المنزل عندها ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:8 ـ 9] وهي مقام الحبيب فبقى مع الله بلا هو في خلوة لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب وهو جبريل ولا نبي مرسل وهو هويته، فلمَّا جاوز حد المتابعة صار متبوعًا، فإن كان هو ﷺ في الدنيا محتاجًا إلى متابعة الخليل، فالخليل يكون في الآخرة محتاجًا إلى شفاعته، كما قال: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي يوم القيامة حتى إبراهيم».

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: 124 - 128].

ثم أخبر عن اختلاف أهل الافتراق بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ

﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل:124] إشارة إلى أن الاختلاف فيما أرشد الله به الناس إلى الصراط المستقيم من الأوامر والنواهي لاستحلال بعضها وتحريم بعضها ابتداعًا منهم على وفق الطبع والهوى، وإن كان التشديد فيه على أنفسهم يكون وبالاً عليهم وضلالاً عن الصراط المستقيم، فالواجب على العباد في العبادات والطاعات والمجاهدات وطلب الحق الاتباع وترك الابتداع كما قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(1).

وفي قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى يحكم بعدله بين أهل البدع وأهل السنة فيقول: «هؤلاء في النار بعدلي ولا أبالي وهؤلاء في الجنة بفضلي ولا أبالي»(2).

ثم أخبر عن أهل الفضل وأهل العدل بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125] إشارة إلى أن دعاء العوام إلى سبيل ربك وهو الجنة بالحكمة وهو بالخوف والرجاء؛ لأنهم يدعون ربهم خوفًا من النار وطمعًا إلى الجنة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ هي الرفق والمداراة ولين الكلام والتعريض دون التصريح وفي الخلاء دون الملأ، فإن النصح على الملأ تفريع، ودعاء الخواص إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة أن يحبب الله إليهم وتؤثر دواعيهم في الطلب، ويرشدهم ويهديهم إلى صراط الله ويسلكهم فيه، فيكون إليهم دليلاً وسراجًا منيرًا، إلى أن يصلوا في متابعتك وحسن تربيتك وتزكيتك إياهم أعلى درجات المقربين وأهنأ مشارب الواصلين.

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:125] لكل طائفة منها فجادل أهل النفاق

---

(1) أخرجه أحمد (4/ 126، رقم 17184)، وأبو داود (4/ 200، رقم 4607)، والترمذي (5/ 44، رقم 2676) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1/ 15، رقم 42)، والحاكم (1/ 174، رقم 329) وقال: صحيح ليس له علة. والبيهقي (10/ 114، رقم 20125). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (1/ 178، رقم 5)، والدارمي (1/ 57، رقم 95).

(2) تقدم تخريجه.

بالسيف وأغلظ عليهم القول، وجادل أهل الوفاق باللطف والرحمة ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:88] واعف عنهم واستغفر لهم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله حين خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره فمن أخطأه ذلك النور، فقد ضل وهو أعلم بالمهتدين الذين أصابهم ذلك النور فقد اهتدوا بذلك النور إلى صاحب النور وهو وليهم الذي أخرجهم من ظلمات وجودهم إلى نور وجوده بجوده.

وفي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:126] إشارة إلى من دعا إلى الله فأجاب وجاهد النفس ونهاها عن الهوى، وسلك طريق الحق بالاتباع دون الابتداع، ثم هبت صرصر البلاء من غريب الابتلاء، واستولت النفس وحجبت في مراتع الدنيا وشهواتها، على وفق طبعها وهواها، حتى غلبت الروح وجنوده، وعاقبتم بأنواع عقوبات مختلفة من التباعد والتقاعد والتقاطع إلى أن نسمت رياح العواطف عن مهب العناية، وطلعت شمس الإقبال عن مشرق الأفضال، وانقلبت الأحوال فأقبل نهار الروح مشرق بأنوار الجمال وأدبر ليل النفس مظلم بقهر الجلال وأسرت النفس وجنودها وعزم الروح وجنوده على معاقبتهم بالفطام عن مألوفاتهم والإقدام على مخالفاتهم وتأديبهم بسياط الجوع والعطش، فنودوا من حظائر القدس ومجالس الأنس ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:126] أي: لا تقصروا المعاقبة وبالغوا فيها كما بالغوا في معاقبتكم ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ [النحل:126] على معاقبتهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126] على معاقبة النفس ومخالفة الهوى.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:127] لأن الصبر من صفات الله ولا يقدر واحد أن يتصف بصفاته إلا به بأن يتجلى بتلك الصفة له ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: 127] أي: على النفس وجنودها عند المعاقبة، فإن فيها صلاح حالهم ومآلهم ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(1) [النحل:127] فإن بمعونة الله عند الفرار إليه يندفع مكرهم ويحيق

---

(1) قال الشيخ البقلي: أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابق على

بأهله ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [النحل:128] بالإعانة على التقوى ﴿وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:128] بالإعانة على الإحسان والتقوى والإحسان ليس من شأن نفس الإنسان.

-

أمر العبودية.

قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولكِنَّ الله تعالى حذَّره ما هو موهوم في البشرية، وإنْ كان هو منزَّهًا عنه. قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله حظرًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلَّى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتَّقٍ صادقٍ شاهدٍ محسنٍ.

سورة بني إسرائيل

مكية

(الإسراء)

وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: 1 - 5].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:1] للتعجب فيها يشير إلى أعجب أمرٍ من أموره جرى بينه وبين أفضل خلقه، وأخص عبيده، وأحبهم إليه، وأقربهم لديه، وأعظمهم قدرًا، وأكملهم مقامًا، وأرفعهم درجة، وأعلاهم رتبة، وأجلهم منصبًا، وأكرمهم مثوى، وأعزهم منزلة، وأوفاهم قربة، وأفناهم عن أنانيته، وأبقاهم بهويته، وأخلصهم لعبوديته، وأوحدهم بوحدانيته، وأفردهم بفردانيته، وأوليهم بتجلي جماله، وأعظميهم من كشف جلاله، وهو العبد المطلق من بين سائر عباده، والحبيب المختص المخلص من أحبابه، والنبي المفضل على أنبيائه، وهو الحر المعتق عن عبودية الموجودات ورق وجوده، فلهذا سماه الله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ عند فناء اسمه ورسمه اسمًا ما سُمي به أحد من خلقه إلا عند بقاء اسمه ورسمه، كما قال ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:2] ومن هنا يقول كل نبي يوم القيامة: نفسي نفسي لبقاء وجودهم وهو ﷺ يقول: «أمتي أمتي»[1] لفناء وجوده في

---

(1) تقدم تخريجه.

وجوده.

وفي قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:1] إشارة إلى أن الحكمة في إسرائه إراءته آيات مخصوصة بذاته تعالى تقديرًا له وشرفاً ما راءها أحدًا من الأولين والآخرين إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين، فإنه تبارك وتعالى أرى خليله ﷺ وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه الملكوت كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75] وأرى حبيبه آيات ربه الكبرى، كما قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:18] ليكون من المحبين المحبوبين.

وفي قوله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1] إشارة إلى أن النبي ﷺ هو السميع الذي «كنت له سمعًا في يسمع وبصرا في يبصر»[1].

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:2] المخصوصة بجمالنا وجلالنا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [الإسراء:2] الذي يسمعنا ﴿الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:2] يبصرنا فإنه لا يسمع كلامنا إلا بنا ولا يبصر جمالنا.

ثم أخبر عن مرتبة كليمه بعد مرتبة حبيبه بقوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء:2] إشارة إلى أن سبب إيتاء التوصية وإنزالها إنما كان هداية بني إسرائيل ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء:2] أي: ربًا وإلهًا كما اتخذ قوم نوح؛ وذلك لأنهم ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:3] فإنهم كانوا مؤمنين لا يشركون بالله شيئًا، فكذلك أردنا أن ذريتهم لا يشركون بالله شيئًا وذلك لأجل ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3] أي: كان نوح ﷺ ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3] فالله تعالى بالغ في ازدياد النعمة جزاء لمبالغته في الشكر حتى أنعم على ذرية من حملهم مع نوح ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3] وهم بنو إسرائيل بإيتاء التوراة الهادية إلى التوحيد وإخراجهم من الشرك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:4] إشارة إلى أنا أنعمنا على بني إسرائيل بالكتاب لنهدينهم إلى التوحيد، ولكنهم يفسدون في الأرض بقتل الأنبياء كفرانًا بنعمتنا، ويبغون العلو في الدنيا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء:5] ليعذبوكم عذابًا شديدًا جزاء كفران النعمة، كما قال: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7] ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء:5] للاستقصاء في القتل والتعذيب للعباد في الظاهر، وجاسوا قهرنا وعذابنا في الباطن خلال قلوبكم لقتل صفاتكم الحميدة واستيلاء نفوسكم الأمارات بالسوء، ليخربوا بيت قدس قلوبكم ويميتوا أبناء أنبياء إيمانكم وصدقكم ويقينكم ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء:5] في الحكمة الأزلية.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: 6 - 10].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء:6] باستيلاء داود قلوبكم وقتل جالوت نفوسكم ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ﴾ [الإسراء:6] أموال الطاعات والعبادات ﴿وَبَنِينَ﴾ [الإسراء:6] هي الإيمان والإيقان ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:6] في العدد والجماعات ممن كان قبلكم الذين أهلكناهم بكفران النعمة، وإنما رددنا الكرة عليهم وأنعمنا عليكم بهذه النعم جزاء الشكورية لنوح.

ثم أخبر عن جزاء أهل الإحسان بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:7] إشارة إلى أن الإحسان ليس من صفات الإنسان إنما هو من صفات الله تعالى، فإنه المحسن على الحقيقة، فمن أحسن فقد اتصف بصفة من صفات الله ففائدة إحسانه راجعة إلى نفسه؛ لأنها صارت محسنته بعد أن كانت مسيئته ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:7] لأنها بقيت على صفة إساءتها، بل ازدادت في الإساءة في البعد وعذاب

الفراق ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ [الإسراء:7] وهي يوم الجزاء ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء:7] وجود قلوبكم بحجب سوء أعمالكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ [الإسراء:7] بخت نصر النفس لتخريب بيت المقدس وهو القلب المقدس من دنس الكفر ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:7] عند استيلاء النفس وصفاتها في أوان البلاغة وعنفوان الشباب ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ [الإسراء:7] أي: وليهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ [الإسراء:7] ما غلبوا عليه من أطوار قلوبكم ﴿تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء:7] يليق بها.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:8] بتعزيز نفوسكم وتقوية قلوبكم فضلاً منه وكرمًا ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ [الإسراء:8] إلى الجهل ﴿عُدْنَا﴾ [الإسراء:8] إلى العدل، بل إلى الفضل، وإن عدتم إلى الندم عدنا إلى الكرم، وإن عدتم إلى النسيان عدنا إلى الغفران، وإن عدتم إلى الإقدام على العبودية عدنا إلى الإنعام بالربوبية، وإن عدتم إلى طلب الهداية عدنا إلى اختصاصكم بالعناية، وإن عدتم إلى التقربات عدنا إلى الجذبات ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ﴾ [الإسراء:8] البعد والطرد ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [الإسراء:8] كافري نعمة القربة والقبول ﴿حَصِيرًا﴾ [الإسراء:8] سجنًا مخلدًا ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [الإسراء:9] أي: هذه الآيات من قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ [الإسراء:7] إلى قوله: ﴿حَصِيراً﴾ [الإسراء:8] ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:9] للوصول؛ لأنها تهدي إلى الخوف والرجاء، وهما خطوتان اللتان بهما يصل السائرون إلى الله، فإن قدم الخوف تهدي إلى الخوف والرجاء وهي الفناء عن الأنانية، وقدم الرجاء تهدي إلى البقاء بالهوية، فافهم جدًّا.

ويؤكد هذا المعنى قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الإسراء:9] وهي قطع مفاوز البعد للقائه في الخوف والرجاء ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:9] وهو إفضاله الكبير المتعال ﴿وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الإسراء:10] بها وعدهم ﴿بِالآخِرَةِ﴾ [الإسراء:10] أي: بآخرة أعمالهم أيضًا تبشرهم هذه الآيات بوعدها ووعيدها ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء:10] وهو عذاب البعد بعد القرب وعذاب الرد بعد القبول وعذاب السخط بعد الرضا.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ

فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 11 - 15].

وفي قوله: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء:11] إشارة إلى أن من خصوصية الإنسان طلب الدنيا والتلذذ بشهواتها والتفاخر بمالها وجاهها والتمتع بها، وأنه يحب العاجلة ويذر الآجلة، ولهذا قال الله تعالى في وصفه: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:11] وهذا كله شر له وهو عجب أنه خير له وهو ملتمس بالدعاء الشر كما يلتمس أهل الوفاء الخير.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء:12] أي: ليل البشرية وآياتها قمر القلب، ونهار الروحانية وآياتها شمس شهود الحق وهما يدلان على الوصول ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء:12] أي: ضوء الروح عن قمر القلب فبقي فيه نور العقل.

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:12] المعنى أن نور القلب وهو العقل يهدي إلى الشرع، وهو شمس شهود الحق، وإذا طلع الصباح استغنى عن المصباح فإنها مظهرة للحق ومبصرة لها ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء:12] تجلي ذاته وصفاته تبارك وتعالى، وقد اختص الإنسان به دون سائر المخلوقات ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ [الإسراء:12] أي: أيام الطلب وامتدادها عند قطع المنازل ﴿وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء:12] أي: حساب الترقي من مقام إلى مقام ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ [الإسراء:12] يحتاج إليه السالك ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ [الإسراء:12] بيناه بالإشارات ﴿تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:12] تبينًا يبلغ الطالب إلى المطلوب والمحب إلى المحبوب.

ثم أخبر عما قدر للإنسان من الإحسان والخذلان بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:13] يشير إلى ما طار لكل إنسان في الأزل وتعد بالحكمة الأزلية والإرادة القديمة من السعادة والشقاوة ويجري عليه من الأحكام المقدرة، والأحوال التي

جرى بها العلم من الخلق والرزق والأجل، ومن صغائر الأعمال وكبائرها المكتوبة له، وهو بعد في العدم وطائره ينتظر وجوده، فلما أخرج كل إنسان من العدم إلى الوجود وقع طائره في عنقه ملازمًا له في حياته ومماته حتى يخرج من قبره يوم القيامة وهو في عنقه، وذلك قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:13] أي: ينشر بعدما كان منطويًا، ثم إن كان من أصحاب اليمين أوتي كتابه بيمينه، وإن كان من أصحاب الشمال أوتي كتابه بشماله، أو من وراء ظهره، ويجوز أن يكون هذا الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها نسخة نسخها الكرام الكاتبون بقلم أعماله في صحيفة أنفاسه من الكتاب الطائر في عنقه، ولهذا يقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء:14] أي: كتابك الذي كتبته.

﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:14] فإن نفسك مرقومة بقلم أعمالك إما برقوم السعادة أو برقوم الشقاوة ﴿مَنِ اهْتَدَى﴾ [الإسراء:15] إلى الأعمال الصالحات ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [الإسراء:15] فيرقمها برقوم السعادة ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ [الإسراء:15] عنها بالأعمال الفاسدة ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:15] فيرقمها برقوم الشقاوة ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:15] أي: لا يرقم راقم بقلم أوزاره نفس غيره برقوم الشقاوة.

وبقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:15] يشير إلى أن الأعمال الصالحة والفاسدة التي ترقم النفس برقوم السعادة والشقاوة لا يكون لها أثر إلا بقبول دعوة الأنبياء أو بردها، فإن السعادة والشقاوة مودعة في أوامر الشريعة ونواهيها.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا

﴿٢٢﴾ [الإسراء: 16 - 22].

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء:16] أي: من قرى النفوس ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء:16] وهي النفوس الأمارة بالسوء ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء:16] أي: فخرجوا عن قيد الشريعة، ومتابعة الأنبياء بمتابعة الهوى واستيفاء شهوات النفس ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء:16] أي: فوجب لها الشقاوة بمخالفة الشريعة ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:16] بإبطال استعداد قبول السعادة إذا صارت النفس مرقومة برقوم الشقاوة والأبدية.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:17] أي: أبطلنا حسن استعدادهم لقبول السعادة برد دعوة الأنبياء ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ [الإسراء: 17] إذا لم يقبلوا دعوة الأنبياء ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:17] فإنه المقدر في الأزل والمدبر إلى الأبد أسباب سعادة عباده وأسباب شقاوتهم.

ثم أخبر عن أمارة أهل السعادة والشقاوة بقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ﴾ [الإسراء:18] إشارة إلى أن إرادته إنما كانت العاجلة؛ لأنا عجلنا له هذه الإرادة ﴿فِيهَا﴾ [الإسراء:18] أي: في الدنيا ﴿مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء:18] أي: بقدر ما نشاء على مقتضى حكمتنا ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:18] أن يكون من أهل الدنيا ومظهر صفة قهرنا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا﴾ [الإسراء:18] أي: عذبناه بعذاب صفاته الذميمة في جهنم البعد والقطيعة ﴿مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:18] مطرودًا مهينًا ذليلاً.

واعلم أن فيها إشارة إلى أن الله تعالى خلق الإنسان مركبًا من الدنيا والآخرة، ولكل جزء منهما ميل وإرادة إلى كله ليتغذى منه ويتقوى ويتكمل به، وإن في جزئه الدنيوي وهو النفس طريق إلى دركات النيران، وفي جزئه الأخروي وهو الروح طريق إلى درجات الجنان، وخلق القلب في هذين الجزءين، وله طريق إلى بين إصبعي الرحمن إصبع اللطف وإصبع القهر، فمن يرد الله أن يكون مظهر قهره أزاغ الله قلبه، وحول وجهه إلى الدنيا فيريد العاجلة ويربي بها نفسه إلى أن يبلغه إلى دركات جهنم البعد وتصلى نار القطعية، ومن يرد الله أن يكون مظهر لطفه أقام قلبه وحول وجهه إلى عالم العلو فيريد الآخرة،

﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:19] وهو الطلب بالصدق ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء:19] بأن طلبه وجده ﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم﴾ [الإسراء:19] في الوجود ﴿مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:19] من الموجود في الأزل.

ثم أكد هذا التأويل بقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلاءِ﴾ [الإسراء:20] يعني: أهل الدنيا بأن نحول وجه قلبه إلى الدنيا وزخارفها إظهارًا للقهر، ﴿وَهَؤُلاءِ﴾ [الإسراء:20] يعني: أهل الآخرة بأن نحول وجه قلبه إلى الآخرة ودرجاتها، ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:20] ممنوعًا من كلا الفريقين.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:21] من أهل الدنيا في النعمة والدولة وموافاة المرادات ليتحقق لك أنها من إمدادنا إياهم ﴿وَلَلآخِرَةُ﴾ [الإسراء:21] يعني: أهل الآخرة ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:21] من أهل الدنيا؛ لأن مراتب درجات الأخروية وفضائل أهلها باقية غير متناهية ونعمة الدنيا وفضائل أهلها فانية متناهية، ثم خاطب الله النبي ﷺ وقطع تعلقه عن الكونين من بين الثقلين، فقال: ﴿لاَّ تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء:22] من الدنيا والآخرة لتعبد الدنيا أو تعبد الآخرة بطلبها ﴿فَتَقْعُدَ﴾ [الإسراء:22] عن طلبنا ﴿مَذْمُومًا﴾ [الإسراء:22] في طلب الدنيا ﴿مَّخْذُولاً﴾ في طلب الآخرة.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء: 23 - 30].

ثم شرف أمته بتبعيته بتشريف هذه المرتبة السنية وصرح بخطابهم فقال: ﴿وَقَضَى

رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:23] أي: لا تعبدوا الدنيا والآخرة إلا الله وإنما قال ربك أراد به النبي ﷺ؛ لأنه مخصوص بالتربية أصالة والأمة تبعًا له في هذا الشأن، وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ [الإسراء:23] أي: وحكم ربك وقدَّر في الأزل ألّا تعبدوا، المخصوصون بالخطاب، إلا الله، فما عبدوا، وحكم أيضًا كما قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23] يشير بالوالدين إلى والد الروح ووالد البدن، والإحسان بهما أن تراقبهما في العبودية ليعبدوا كأنهما يريان الله فإن لم يكونا يريان الله فإنه يراهما.

وبقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23] يخاطب القلب ويوصيه بأن يواسي والد الروح عند كبره وهو بلاغه أعلى مراتب القرب، وعجزه عند سطوات تجلي صفات الألوهية، ويداوي والد البدن عند كبره وهو كبر السن، فلا تعنفهما في الاستعمال عند العجز ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء:23] عند الاستراحة ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:23] أي: رفيقًا عند استعمالهما في العبودية.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:24] أي: تتواضع لهما، ولا تتكبر عليهما فإنك أخذت التربية عنهما ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:24] وذلك لأن القلب طفل يولد بازدواج الروح والبدن، وقد وجدت التربية عنهما صورة ومعنى إلى أن صار قابلاً لتجلي جمال الربوبية وجلالها وصار خليفة الله في أرضه.

ثم قال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء:25] من استعداد لأنه دبره فيها ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ [الإسراء:25] مستعدين للخلافة ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:25] والأوَّاب الراجع من أنانيته إلى هويته بغفوريته يشير إلى أن كل نفس صالحة للخلافة إنما تبلغ محلها بالأنانية، فإن من كان مقيدًا بنفسه لا يصلح لخلافة الله.

ثم أخبر عن آداب الخلافة بقوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء:26] إشارة إلى أن النفس فإنها من ذوي قربى القلب ولها حق كما قال ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا»(1) والمعنى لا يبالغ في رياضة النفس وجهادها؛ لئلا تسأم وتمل

---

(1) أخرجه أبو داود (2/ 48، رقم 1369)، وأحمد (6/ 268، رقم 26351).

أو تضعف عن حمل أعباء الشريعة وحق رعايتها عن الشرف في المأكل والملبوس والأثاث والمسكن وحفظها عن طرفي الإفراط والتفريط صيانة عن التبذير.

كما قال: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:26] أي: لا تنفق لهوى النفس وشهواتها والتذاذها بحظوظها ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:27] أي: أعوانهم في إهلاك أنفسهم ونظرائهم في كفران النعمة والعصيان.

كما قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء:27] أي: لا يشكر نعمه بامتثال أوامره ونواهيه.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ [الإسراء:28] أي: تعرض عن نفق النفس وصفاتها بالكسر والتبديل ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء:28] فإن دواء النفس داؤها وإن داءها دواؤها ورجاء الرحمة في حقها بألّا يرحمها عند طلب مرادها ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:28] أي: فعد النفس وصفاتها بوعد لها فيه يسر وراحة لتحمل بالمشقة في تزكيتها ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ﴾ [الإسراء:29] في إعطاء بعض حظوظها ﴿مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا﴾ [الإسراء:29] في إعطاء مراداتها واستيفاء لذاتها ﴿كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ﴾ [الإسراء:29] عن طريق الطلب والمسير إلى الله ﴿مَلُومًا﴾ [الإسراء:29] تلوم نفسك حين لا تنفع الملامة إذ تلام يوم القيامة ﴿مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:29] منقطعًا عن سبيل الله حسيرًا عن المسير إليه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء:30] يشير به إلى الخروج عن أوطان البشرية والطبيعة الإنسانية إلى فضاء العبودية بقدمي التوكل على الله وتفويض الأمور إليه، فإن كان يبسط النفس في بعض الأوقات ببعض المرادات ليفرش الحصى ببساط البسط أو يقدر عليها في بعض الأوقات ممتنًا بها ليغبط أحوالها بمجامع الفيض فالأمور موكولة إلى بساط حكمته البالغة وأحكامه الأزلية ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:30] في الأزل فيما حكم وقدر.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ

وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الإسراء: 31 - 38].

ثم أخبر عن آداب العبودية على وفق أوامر الربوبية بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ [الإسراء:31] إلى هذا الموضع وهو عشر آيات إشارة إلى تبديل عشر خصال مذمومة بعشر خصال محمودة.

أما المذمومات:

فأولها: البخل، وثانيها: الأمل، وهما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ [الإسراء:31] فإن البخل وطول الأمل حملها على قتل أولادهم فدلهم على تبديلهما بالسخاء والتوكل بقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:31].

وثالثها: الشهوة، وهي في قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:32] فإن غلبة الشهوة يورث الزنا فبدلها بالعفة حين نهاهم عن الزنا.

ورابعها: الغضب، وهو في قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:33] فإن استيلاء الغضب يورث القتل بغير الحق فبدله بالحلم في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء:33].

وخامسها: الإسراف، وهو في قوله: ﴿فَلاَ يُسْرِف فِّي القَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:33] فإن الإفراط في كل شيء يورث الإسراف فبدله بالقوام.

وسادسها: الحرص، وهو في قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ﴾ [الإسراء:34] فإن التصرف في مال اليتيم من الحرص فبدله بالقناعة بقوله: ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:34].

وسابعها: نقض العهد فبدله بالوفاء بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:34].

وثامنها: الخيانة، فبدلها بالأمانة ﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء:35].

وتاسعها: الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه باستعمال الجوارح والأعضاء على خلاف ما أمره وذلك في قوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36] فبدله بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء:36] فظلم السمع، باستعماله في استماع الغيبة واللغو، والرفث والبهتان والقذف والملاهي والفواحش، وعدله استعماله في استماع القرآن والأخبار والعلوم والحكم والمواعظ والنصيحة والمعروف وقول الحق، وظلم البصر، النظر إلى المحرمات والشهوات وإلى من فوقه في دنياه وإلى متاع الدنيا وزينتها وزخارفها، وعدله النظر في القرآن والعلوم وإلى وجه العلماء والصلحاء، ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:50] وإلى الأشياء بنظر الاعتبار، وإلى من دونه في دنياه، وإلى من فوقه في دينه، وظلم الفؤاد قبول الحقد والحسد والعداوة وحب الدنيا والتعلق بها سوى الله، وعدله تصفيته عن هذه الأوصاف الذميمة وتحليته بالأوصاف الحميدة وتبديل هذه الصفات والتخلق بأخلاق الله.

وعاشرها: الكبر وهو في قوله: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:37] فإن المشية بالخيلاء من الكبر فبدله بالتواضع بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:37] أي: من الكبر فألزمه التواضع.

ثم قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ [الإسراء:38] أي: الخطاب الخصال العشر التي ذكرنا في هذه الآيات العشر ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:38] أي: مانعًا من العباد أن يصلوا إلى مقام العندية ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ

صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 39 - 44].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الإسراء:39] أي: الذي ذكرنا من الآيات ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:39] المودعة فيها كما قدرنا بعضها، ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء:39] أي: لا تنظر إلى هذه المانعات بنظر الهوى فيتعلق بشيء فيها يقطعك عن الله ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾ [الإسراء:39] البعد ﴿مَلُومًا﴾ [الإسراء:39] بكل لسان ﴿مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:39] ومبعدًا عن سعادة الأبد.

ثم أخبر عن خسارة الإنسان وخسارته بقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء:40] يشير إلى كمال ظلومية الإنسان وكمال جهوليته، أما كمال ظلوميته فبأنهم ظنوا بالله سبحانه أنه من جنس الحيوانات التي من خاصيتها التوالد، ومن كمال جهولية الإنسان بأنهم لم يعلموا أن الحاجة إلى التوالد لبقاء الجنس، فإن الله تعالى باقٍ أبدي لا يحتاج إلى التوالد لبقاء الجنس، ولم يعلموا أن الله منزه عن الجنس وليس الملائكة من جنسه، فإنه خالق أزلي أبدي وأن الملائكة هم المخلوقون، ومن كمال الظلومية والجهولية أنهم حسبوا أن الله تعالى إنما أصفاهم بالبنين واختار لنفسه البنات لجهله بشرف البنين على البنات فلهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء:40] أي: قولاً ينبئ عن عظم أمر ظلوميتكم وجهوليتكم.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:41] أي: بالحكم والمواعظ والرموز والإشارات والدقائق والحقائق والترغيب والتشويق والتحبيب ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء:41] أي: ليذكروا يوم الميثاق والإنفاق على الوفاق ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ [الإسراء: 41] الظلومية والجهولية ﴿إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء:41] عن حظائر قدسنا ومجالس أنسنا.

وبقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء:42] يشير إلى أن الآلهة لا يخلو أمرهم إما كانوا أكبر منه أو كانوا أمثاله أو كانوا أدون منه فإن كانوا أكبر منه ﴿إِذًا

لأَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:42] أي: طلبوا طريقًا إلى إزعاج صاحب العرش ونزع الملك منه قهرًا أو غلبة ليكون لهم الملك لا له كما هو المعتاد من الملوك، وإن كانوا أمثاله لم يرضوا بأن يكون الملك لواحد مثلهم وهم جماعة معزولون عن الملك فأيضًا نازعوه في الملك، وإن كانوا أدون منه فالناقص لا يصلح للإلهية إذا لابتغوا إلى ذي العرش الكامل في الألوهية سبيلاً للخدمة والعبودية والقربة.

ثم قال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ [الإسراء:43] أي: تنزيهًا أن يكون له غالب يمنعه أو مثل ينازعه ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:43] أي: هو أكبر وأعظم مما يظنون به ويتوقعون منه ومن عظمته.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:44] أي: تنزهه عما يقولون وعن كل نقيصة ذرات المكونات، وإجراء المخلوقات لمن له روح فبلسانه ولغته وهذا مما لا يفقهه العقلاء، وأما الجمادات فبلسان الملكوتي كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44] أي: بحمده على نعمة الإيجاد والتربية ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44].

واعلم أن الله تعالى أثبت لكل ذرة من ذرات الموجودات ملكوتًا بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:83] والملكوت باطن الكون وهو الآخرة والآخرة حيوان لا جماد كقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64] فأثبت بهذا الدليل لكل ذرة من ذرات الموجودات لسانًا ملكوتيًا ناطقًا بالتسبيح والحمد تنزيهًا لصانعه وقادره وحمدًا له على ما أولاه من نعمة، وبهذا اللسان نطق الحصى في يد النبي ﷺ، وبهذا تنطق الأرض يوم القيامة.

وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:4] وبهذا اللسان نطق الحصى وتشهد أجزاء الإنسان وأبعاضه عليه يوم القيامة وبقوله: ﴿أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وبهذا اللسان نطقت السماوات والأرض حين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11] فافهم جدًّا واغتنم.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ [الإسراء:44] أي: في الأزل إذ أخرج من العدم مَن

يتولد منه أن يتخذ مع الله آلهة أخرى ﴿غَفُورًا﴾ [الإسراء:44] لمن تاب عن مثل هذه المقالات.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء: 45 - 48].

ثم أخبر عن إعجاز القرآن بالبرهان بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:45] يشير إلى أن من قرأ القرآن حق قراءته ارتقى إلى أعلى المراتب كما قال ﷺ: «يقال - يعني: لصاحب القرآن - اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها»(1).

قال أبو سليمان الخطابي: «جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على عدد درج الجنة فمن استوفى جميع آي القرآن استولى على أقصى درج الجنة».

قلت: واستيفاء جميع آي القرآن في الحقيقة هو التخلق بأخلاق القرآن، فالقرآن من أخلاق الله وصفاته والمتخلق بأخلاقه يكون متخلقًا بأخلاق الله، وهذا يكون بعد العبور عن حجب الظلماني والنوراني متمكنًا ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] فهو الذي جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا.

وإنما قال: ﴿حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ [الإسراء:45] ولم يقل ساترًا؛ لأن الحجاب يستر الواصل عن المنقطع ولا يستر المنقطع عن الواصل فيكون الواصل بالحجاب مستورًا عن

---

(1) حديث عبد الله بن عمرو المرفوع: أخرجه أحمد (2/ 192، رقم 6799)، وأبو داود (2/ 73، رقم 1464)، والترمذي (5/ 177، رقم 2914) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (5/ 22، رقم 8056)، وابن حبان (3/ 43، رقم 766)، والحاكم (1/ 739، رقم 2030)، والبيهقي (2/ 53، رقم 2253).

حديث عبد الله بن عمرو الموقوف: أخرجه ابن أبي شيبة (6/ 131، رقم 30057).

المنقطع، والله أعلم.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46] إشارة إلى انحراف مزاج قلوب أهل الشرك وحصول المرض فيها وإزالة الصحة والسلامة عنها إذ يتفرقون عند استماع ذكر الواحد الأحد بالوحدانية والوحدة ولا يجدون حلاوة التوحيد؛ بل يجدون فيه المرارة لسوء المزاج.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء:47] لأنا خلقناهم مستعدين لذلك كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:14] وأنهم يستمعون بالهوى فيسمعون الأساطير والسحر والشعر، ولو استمعوا بالله لاستمعوا كلام الله وصفاته ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء:47](1).

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: 49 - 58].

فمن ظلمهم وصفوا اسم المسحور موضع المبعوث ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ [الإسراء:48] بالسحر والشعر ﴿فَضَلُّوا﴾ عن طريق العقبى.

---

(1) من آية «49» إلى آية «58» لم يتعرض المصنف ﷺ لشرحها.

فلما كان حال البلوغ إلى بيته بقوله: ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ [النحل: 7] فكيف يكون حال أهل الوصول إليه، ولهذا قال ﷺ: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»(1) فلما لم يصل أحد مقامه الذي وصل ما أوذي أحد في السير إلى الله والسير في الله والسير بالله مثل ما أوذي النبي ﷺ، وإيذاء السائرين بإذابة وجودهم في السير ففي السير إلى الله ذوبان الأفعال، وفى السير في الله ذوبان الصفات، وفى السير بالله ذوبان الذات، فافهم جدًّا.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: 59 - 61].

ثم أخبر عن آيات إرساله الآيات بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:59] يشير إلى اختصاص هذه الأمة بالرحمة والعناية كرامة لوجه حبيبه ونبيه محمد ﷺ، وذلك أن الأمم السالفة مثل ثمود وغيرها لما التمست الآيات من أنبيائهم فأرسل الله بها، ثم لم يؤمنوا وجحدوا أنها من عند الله كما قال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:59] ليؤمنوا فلم يؤمنوا بها وعقروها وكذبوا، جرت سنة الله على ألا يهلكهم ويعذبهم ويأخذهم نكال الآخرة والأولى، فلما التمست قريش من النبي الآيات مثل أن يجعل الله لهم الضفادع وغيرها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ [الإسراء:59] أي: وما منعنا الرحمة السابقة غضبًا في الأزل أن نسعف ملتمسهم إلا أنا علمنا أنهم لا يؤمنون بها ويكذبون بها كما ﴿كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:59] فيقضي السنة التي لا تبديل لها أن تهلك أمتك كما أهلكنا الأولين، وقد سبقت لأمتك منا كرامة لك ألا نعذبهم وأنت فيهم.

---

(1) أخرجه ابن عدى (7/ 155، ترجمة 2065 يوسف بن محمد بن المنكدر).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء:60] أي: أحاط بها في نفوس الناس من الخير والشر علمًا فيعلم ما هو مقتضى كل نفس ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:60] ولا يزيدهم التخويف إلا الطغيان؛ لأنه تعالى كان عالمًا بحال نفوس أهل الشقاوة، منهم أنه ﷺ إذا قص رؤياه عليهم أنهم يكذبونه، فجوّز هذا التكذيب في حقهم؛ لأنه لم يكن بعد إرساله آية ملتمسة موجبة لهلاكهم ولم يجوِّزهم التكذيب بعد إرسال الآية الملتمسة الموجبة لهلاكهم فضلاً منه ورحمة.

ثم أخبر عن فضل آدم على الملائكة بوجوب السجود بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الإسراء:61] إشارة إلى أن آدم عليه السلام كان مستحقًا لسجود الملائكة؛ وذلك لأنه تعالى خلق آدم فتجلى فيه النبي ﷺ وكانت السجدة في الحقيقة للحق تعالى، وكان آدم عليه السلام بمثابة الكعبة قبلة السجود فتسجد الملائكة لاستعداد ائتمارهم بأوامر الحق وانتهائهم عن نواهي الحق، كقوله تعالى: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6] فدل الائتمار بأوامر الحق والانتهاء عن نواهيه على السعادة الأزلية ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ [الإسراء:61] فإنه ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة:34] فدلت المخالفة والإباء على الشقاوة الأزلية، ومن شقاوة إبليس ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:61] اعتراضًا وعجبًا ونكرًا وإنكارًا فاستحق اللعن والطرد والبعد.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء: 62 - 66].

قال إبليس بعدما لُعن وطُرد وبعد إظهار العداوة وانتقامًا للحقد وإقدامًا على الحسد ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:62] وفضلته بالخلافة والسجود

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الإسراء:62] يعني: على صفة الإغواء والإضلال ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [الإسراء:62] لأستولين على الأولاد بالإغواء، كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:82] ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:62] يعني: من عبادك المخلصين.

﴿قَالَ اذْهَبْ﴾ [الإسراء:63] يعني: على طريقك السوء في الإغواء والإضلال ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء:63] على الضلالة ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء:63] مكملاً.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء:64] أي: بتمويهات الفلاسفة وشبهات أهل الأهواء والبدع، وطامات الإباحية، وما يناسبها من مقالات أهل الطبيعة مخالفًا للشريعة ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ﴾ [الإسراء:64] وهو كل راكب يركب الهوى، ويقال الدنيا ﴿وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:64] وهو كل ماشٍ حريص على الدنيا وشهواتها طالب للذاتها ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ﴾ بتحصيلها من غير وجه بإسراف النفس وإنفاقها أو ممسكًا لها بالبخل لإتلاف الأولاد ﴿وَالأَوْلادِ﴾ بتضييع زمانهم وإفساد استعدادهم في طلب الدنيا ورئاستها متغافلاً عن تهذيب نفوسهم وتزكيتهم أو تأديبها وتوفيها عن الصفات المذمومة وتحليتها بالصفات المحمودة، وتعلمهم الفرائض والسنن والعلوم الدينية، وتحرضهم على طلب الآخرة والدرجات العلى، والنجاة من النار والدركات السفلى، ﴿وَعِدْهُمْ﴾ نيل المقصد الأعلى في الآخرة والأولى على البطالة وإتيان الهوى، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بكرم الله وعفوه وغفرانه للذنوب والمعاصي من غير توبة وإنابة ﴿إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الإسراء:64] كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33] أي: الشيطان.

وفي قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء:65] إشارة إلى أن عباد الله هم الأحرار عن رق الكونين وتعلقات الدارين فلا يستعبدهم الشيطان، فلا يقدر على أن يتعلق بهم فيضلهم عن طريق الحق ويغويهم بما سواه ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: 65] لهم في ترتيب أسباب سعادتهم وتفويت أسباب شقاوتهم والحراسة عن الشيطان والهداية إلى الرحمن.

ثم أخبر عن أصناف ألطافه وأوصاف أعطافه بقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء:66] يشير إلى فلك الشريعة يجريه في بحر الحقيقة، المعنى إن لم يكن فلك الشريعة ما تيسر لأحد العبور على بحر الحقيقة.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [الإسراء:66] وهو جذبة العناية ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:21] يشير إلى أن جذبة العناية ليست بمكتسبة للخلق؛ بل هي من قبيل الفضل لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ﴾ [الإسراء:66] في الأزل ﴿رَحِيمًا﴾ [الإسراء:66] فضلاً منه وكرمًا.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: 67 – 69].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء:67] يعني: خلل في فلك الشريعة وخوفًا من الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ [الإسراء:67] أي: بطل كل تدبير مدبر لنجاتكم ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:67] أي: إلا الله.

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ [الإسراء:67] وحسبتم الوصول إلى ساحل الوصال، حُجبتم بحجاب الحسنات وحُجُب الوجدان ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء:67] عن الحق بالكفر، وأدبرتم بالخذلان ورجعتم بالخسران كما قال الجنيد: لو أقبل صديق على الله ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله، وخسران الإنسان في الخذلان والخذلان من نتائج الكفران كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:67].

وبقوله ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء:68] يشير إلى أهل السكون من ساكني بر البشرية أي: يا من سكنتم بر البشرية ولم تركبوا فلك الشريعة لتعبروا بحر الروحانية أفأمنتم أن يخسف بكم مذمومات صفات البشرية ولم تركبوا فلك الشريعة لتعبروا ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء:68] أي: يمطر عليكم حصباء القهر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:68] يمنعكم من إصابة حصب قهرنا.

ثم قال: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ﴾ بالماء ﴿فِيهِ﴾ في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء:69] أي: كاسرًا من ريح البلاء لفلك الشريعة ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء:69] من كفران النعمة ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: 69] يمنع عنكم سطوات قهرنا.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء: 70 – 75].

ثم أخبر عن بني آدم وحاله من الكرامة وما عليه من الغرامة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] أي: خصصناهم بكرامة تخرجهم عن حيز الإشراك وهي على ضربين: جسدانية، وروحانية.

* فالكرامة الجسدانية: عامة يستوي فيها المؤمن والكافر وهي تخمير طينته بيده أربعين صباحًا، وتصويره في الرحم بنفسه، وأنه تعالى صوره فأحسن صورته وسواه فعدله في أي: صورة ما شاء ركبه، ومشاه سويًا على صراط مستقيم القامة آخذًا بيديه آكلاً بأصابعه مزينًا باللحى والذوائب صانعًا بأنواع الحرف.

* والكرامة الروحانية: على ضربين: عامة، وخاصة.

فالعامة: أيضًا يستوي فيها المؤمن والكافر وهي أن كرمه بنفخه فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها، وكلمه قبل أن خلقه بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] فأسمعه خطابه وأنطقه بجوابه بقوله: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172] وعاهده على العبودية، وأولده على الفطرة، وأرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب ودعاه إلى الحضرة، ووعده الجنة وخوّفه النار، وأظهر له الآيات والدلالات والمعجزات.

والكرامة الروحانية الخاصة: ما كرم به أنبياءه وأولياءه وعباده المؤمنين من النبوة والرسالة والولاية والإيمان للإسلام والهداية إلى الصراط المستقيم، وهو صراط الله والسير إلى الله وفي الله وبالله عند العبور على المقامات والترقي من الناسوتية بجذبات اللاهوتية، والتخلق بأخلاق الإلهية عند فناء الأنانية وبقاء الهوية.

كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70] أي: عبرنا بهم عن بر الجسمانية وبحر الروحانية إلى ساحل الربانية ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء:70] وهي المواهب التي طيبها من الحدوث فيطعم بها من يبيت عنده ويسقيه بها، وهي طعام المشاهدات وشراب المكاشفات التي لم يذق منها الملائكة المقربون، أطعم بها أخص عباده في أواني المعرفة، وسقاهم بها في كاسات المحبة أفردهم بها عن العالمين؛ ولهذا أسجد لهم الملائكة المقربين.

وقال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:70] يعني: على الملائكة؛ لأنهم الخلق الكثير من خلق الله تعالى، وفضل الإنسان الكامل على الملك بأنه خلقه في أحسن تقويم وهو حسن استعداده في قبول فيض نور الله بلا واسطة، وقد تفرد به الإنسان عن سائر المخلوقات.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: 72] أي: على أهلها ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72] الأمانة هي نور الله كما صرح به في قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:35] إلى أن قال: ﴿نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35] فافهم جدًّا واغتنم فإن هذا البيان أعز من الكبريت الأحمر وأغرب من عنقاء مغرب.

ثم أخبر عن المقبولين منهم والمردودين بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:71] يشير إلى ما يتبعه كل قوم وهو إمامهم، فقوم: يتبعون الدنيا وزينتها وشهواتها فيدعون يا أهل الدنيا، وقوم: يتبعون الآخرة ونعيمها ودرجاتها فيدعون: «يا أهل الآخرة»، وقوم: يتبعون الرسول ﷺ محبة لله وطلبًا لقربته ومعرفته فيدعون: «يا أهل الله» ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الإسراء:71] فهو أهل السعادة من أصحاب اليمين فيه إشارة إلى أن

السابقين الذين هم أهل الله لا يؤتون كتابهم كما لا يحاسبون حسابهم.

ثم قال: ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ [الإسراء:71] لأنهم أصحاب البصيرة والقرآن والدراية ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء:71] في جزاء أعمالهم الصالحة فيه إشارة إلى أن أهل الشقاوة الذين هم أصحاب الشمال لا يقرءون كتابهم؛ لأنهم أصحاب العمى والجهالة ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ [الإسراء:72] أي: في هذه القراءة والدراية بالبصيرة ﴿أَعْمَى﴾ [الإسراء:72] في الدنيا لقوله: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَار وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾ [الحج:46] ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء:72] لأنها ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:9] فيجعل الوجوه من السرائر فمن كان في سريرته أعمى هاهنا يكون في صورته أعمى للمبالغة؛ لأن عمل السريرة هاهنا كان قابلاً للتدارك.

وقد خرج ثمة الأمر من التدارك فيكون الأعمى عن رؤية الحق ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:72] في الوصول إليه لفساد الاستعداد وإعواز التدارك.

ثم قال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء:73] أي: من عمى قلوبهم كادوا ليسترونك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء:73] بالتغيير والتبديل ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ [الإسراء:73] أي: وفق طباعهم في الضلالة وميلان نفوسهم إلى الدنيا وهي الضلالة عن الهدى ﴿وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء:73] إذ وافقتهم في الضلالة ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ [الإسراء:74] بالقول الثابت وهو قول: لا إله إلا الله إلى أن بلغناك مقام معرفة حقيقة لا إله إلا الله بقولنا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:19] وطهرنا قلبك من لوث صفات البشرية ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ بها إن لم يطهرك عنها بقولنا: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:19] ﴿شيئًا قليلاً﴾ وإنما سماه قليلاً؛ لأن روحانية النبي ﷺ كانت في أصل الخلقة غالبة على بشريته مؤيدة بتأييد: «أول ما خلق الله روحي»[1] إذ لم يكن مع روحه ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ ما يحجبه عن الله فشرفه بتشريف «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»[2] فمعنى الكلام: لولا التثبيت وقوة النبوة ونور الهداية وأثر نظر العناية، لكنت

(1) تقدم تخريجه.

(2) حديث عبد الله بن شقيق: أخرجه ابن سعد (7/ 59). وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (7/ 329، رقم

تركن إلى أهل الأهواء بهوى النفسانية بمنافع الإنسانية قدرًا يسيرًا لغلبة الروحانية وخمود نار البشرية.

ثم قال: ﴿إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾ [الإسراء:75] يعني: بشؤم ميل نفسك إلى الباطل ورغبتها عن الخلق نحي نفسك، وأذقناك عذاب حياتها واستيلائها وغلبتها على روحك ونميت قلبك، وأذقناك عذاب مماته وضعف روحك وعجزه وبعده عن الحق ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:75] يمنع عذابنا منك.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: 76 - 80].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء:76-77] إشارة إلى أن من سنة الله تعالى على قانون الحكمة القديمة البالغة في تربية الأنبياء والمرسلين، أن يجعل لهم أعداء ليبتليهم بهم في إخلاص إبريز جواهرهم الروحانية الربانية عن غش أوصافهم النفسانية الحيوانية.

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:112] ثم قال: ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:77] أي: تبديلاً؛ لأنها مبنية على الحكمة والمصلحة والإرادة القديمة.

36553)، وابن قانع (1/ 347).

حديث ابن عباس: أخرجه الطبراني (12/ 92، رقم 12571).

حديث ميسرة الفجر: أخرجه ابن سعد (7/ 60). والطبراني (20/ 353، رقم 833)، والحاكم (2/ 665، رقم 4209)، وقال: صحيح الإسناد.

ثم أخبر عن طريق خلاص الأنبياء والأولياء وورطة الابتلاء بقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:78] يشير إلى إدامة الصلاة بالقلب الحاضر من دلوك الشمس وهو طول النهار ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء:78] وهو طول الليل ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾ [الإسراء:78] أي: إلى صلاة الفجر يريد استدامة الليل والنهار بالحضور والتناجي مع الله، وهذه صلاة أخص الخواص الذين هم في صلاتهم دائمون.

ثم قال: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:78] يعني: من مراقب ليله ونهاره حاضرًا بقلبه مع الله يكون له عند الصباح شهود الشواهد الحق، بل الحق مشهود له.

ثم خص النبي ﷺ من أمته وسائر الأنبياء والرسل بزيادة فضيلة ينالها في إدامة الصلاة وصرح له صلاة الليل، فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:79] أي: زيادة لك من دون سائر الخلق هذه الفضيلة، وهي قوله: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:79] والمحمود هو الله تعالى فيشير المقام المحمود إلى قيامه بالله لا بنفسه، ولهذا عبر عن المقام المحمود بالشفاعة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:255] أي: قائمًا به ولما لم يكن دخول هذا المقام بكسب العبد كسائر المقامات وهو يتعلق بجذبة الحق فعلم النبي ﷺ طريق تحصيل الجذبة على مقتضى قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60].

بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:80] يشير به إلى السير في الله بالله ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ [الإسراء:80] من حولي وقوتي وأنانيتي ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: 80] بأن يخرجني منك بك ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ﴾ [الإسراء:80] أي: منك لا من غيرك ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:80] بتجلي صفات جمالك، وفي الآية دليل على أن لكل ذي مقام لا يصل إلى مقام إلا بسعي ملائم لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:19] أي: سعيًا يلائم وصول درجات الجنان.

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فعرض حاجة، فقال النبي ﷺ: «ما تريد» فقال: «مرافقتك في الجنة»، فقال ﷺ: «أو غير ذلك» قال الرجل: «بل مرافقتك في الجنة»، فقال

النبي ﷺ: «فأعني بكثرة السجود»(1).

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء: 81 - 86].

ثم أخبر عن زهوق صفات البشرية عند تجلي صفات الربوبية بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ [الإسراء:81] يشير إلى كل ما يجيء من الحق تعالى من الواردات والطوالع والشواهد والأنوار وتجلي صفات الجمال وتجلي صفات الجلال.

وبقوله: ﴿وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ [الإسراء:81] يشير إلى كل ما يكون من الخواطر والتفكر والتعقل، والأوصاف والأخلاق والذوات، فإن في مجيء كل واحد مما من الحق زهوق واحد مما من الخلق ﴿إِنَّ البَاطِلَ﴾ [الإسراء:81] وكل ما خلا الله ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81] زائلاً، يدل عليه قول النبي ﷺ: «إن أصدق ما قالته العرب قول لبيد:

ألا كـلُّ مـا خـلا الله باطـلُ ... وكـلُّ نعـيمٍ لا محالـة زائـلُ

ثم قال النبي ﷺ: «بل نعيم الجنة فإنه لا يزول»(2).

وبقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء:82] يشير إلى أن كلام الحبيب شفاء القلوب كما قيل: إن الأحاديث من سلمى تسليني، وإن من القرآن ما هو إيعاد بالوصلة والوصال، فهو شفاء لمعلول الهجر والفراق، وأين المدامة من ريقها؛ ولكن أعلل

(1) أخرجه أحمد (5/ 276، رقم 22431)، ومسلم (1/ 353، رقم 488)، والترمذي (2/ 231، رقم 389) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (1/ 242، رقم 725)، وابن ماجه (1/ 457، رقم 1423)، وابن خزيمة (1/ 163، رقم 316)، وابن حبان (5/ 27، رقم 1735).

(2) أخرجه أحمد (2/ 470، رقم 10076)، والبخاري (3/ 1395، رقم 3628)، ومسلم (4/ 1768، رقم 2256)، وابن ماجه (2/ 1236، رقم 3757).

قلبًا عليلاً، كما كان قال موسى ﷺ وهو معلول القرآن، وكان يرى بشفائه في الوصال، فقال: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] فكان الله تعالى يشفيه بكلامه فقال له: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف:144] فإن فيه تسكين ثائرة شوقك في الحال ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:144] لا يزيد في نعمة اللقاء في المآل ﴿فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة:23].

وأما حال الحبيب نبينا ﷺ فهو المحبوب المجذوب غريق ببحر الوصال، وقد شفي قبل أن يستشفي، فقيل له: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان:45] ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء:82] له و﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:82] إذا أرسله الله رحمة العالمين ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ [الإسراء: 82] منكري أرباب حقائق القرآن وأسراه ﴿إَلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:82] بأن يخسروا الإيمان التقليدي بالإنكار على أهل الإيمان الحقيقي، بل على أهل العناية ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ﴾ [الإسراء:83] بالإيمان التقليدي ﴿أَعْرَضَ﴾ [الإسراء:83] عن أهل الحق وأرباب الحقائق ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء:83] تعظيمًا لنفسه وتباعدًا من أهل الحق مستأنفًا للاقتداء بهم.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ [الإسراء:83] بشبهة في الدين من كلمات أهل الأهواء والبدع ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء:83] يقنط عن إيمانه بأدنى شك داخله في دينه.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:84] وهي ما خلق عليه من درجات السعادة كالمؤمنين الموحدين قابلي كمالات الدين من حقائق القرآن والتخلق بأخلاقه، ومن دركات الشقاوة كالمنافقين المشركين منكري حقائق القرآن وأربابها ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:84] إلى الحق الحقيقة.

ثم أخبر عن الروح الذي به كل فتوح بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] يشير إلى أن الروح من عالم الأمر، فإن الله تعالى خلق العوالم كثيرة كما جاء في الخبر بروايات مختلفة، فقال في بعض الروايات: «خلق ثلاثمائة

وسنين ألف عالم»(1)، وقد مرَّ ذكر تفصيلها ولكنه جعله محصورة في عالمين اثنين وهما الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف:54]، تبارك الله رب العالمين.

عبَّر عن عالم الدنيا: وهو ما يدرك بالحواس الخمس الظاهرة وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس بالخلق.

وعبَّر عن عالم الآخرة: وهو ما يدرك بالحواس الخمس الباطنة وهي: العقل والقلب والسر والروح والخفي بالأمر.

فعالم الأمر هو: الأوليات العظائم التي خلقها الله تعالى للبقاء من الروح والعقل والقلم واللوح والعرش والكرسي والجنة والنار، وسمي عالم الأمر أمرًا؛ لأنه أوجده بأمر كن من لا شيء بلا واسطة شيء كقوله: ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] ولما كان أمره قديمًا، فما يكون بالأمر القديم كان باقيًا، وإن كان حادثًا، وتسمى عالم الخلق خلقًا؛ لأنه أوجده بالوسائط من شيء كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185] فكما أن الوسائط كانت مخلوقة من شيء مخلوق سماه خلقًا خلقه الله للفناء فتبين أن قول: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[الإسراء:85] إنما هو لتعريف الروح معناه إنها منه من عالم الأمر والبقاء لا من عالم الخلق والفناء، وإن قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] ليس للاستبهام، كما ظن جماعة أن الله تعالى أبهم علم الروح على الخلق واستأثره لنفسه حتى قالوا: إن النبي ﷺ لم يكن عالمًا به جل منصوب حبيب الله ونبيه ﷺ من أن يكون جاهلاً بالروح مع أنه عالم بالله وقد منَّ الله عليه بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113] أحسب أن علم الروح ما لم يكن يعلمه، ألم يخبر الله أنه علَّمه ما لم يكن يعلم، فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظارًا الموحي حين سألته اليهود فقد كان لغموضه يرى في معنى الجواب دقة لا يفهمها اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43] وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله.

---

(1) نقله حقي عن المصنف (7/ 279).

فإنهم لما عبروا: عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب.

ولما عبروا: بالسير عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا علم السير للقلب، وإذا عبروا: عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر.

وإذا عبروا: عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفي عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا: عن منزل الخفي ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار مشاهدات صفات الجمال الخفي.

وإذا فنوا بسطوات تجلي صفات الجلال عن آنية الوجود ووصلوا إلى جنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى، وإذا استغرقوا في بحر الهوية وأبقوا ببقاء الألوهية عرفوا الله بالله ووحدوه حين وجدوه هذا أوان إراءة ماهية كل شيء، كما هي هذا وقت ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53] فحينئذ إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح، وقد تحقق للعبد مقام «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش»[1] ففي هذه الحالة كيف يبقى بمعرفة الروح خطر عند مَن هذه أحواله، وهو مع هذه الرتبة العلية والمواهب السنية من لواقط سواقط جنات سنبلات يبادر بوارد النبوة ونوادر الرسالة؟! فكيف بحال سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وأفضل الأولين والآخرين صلوات الله عليه وآله أجمعين في معرفة الروح، وهو الذي يقول: «علمت ما كان وما سيكون»[2] وما أنا إذا أسرع في شرح معرفة الروح بما فتح الله علي ومنحني من الفتوح، كما يشهد به الكتاب والسنة والأخبار المروية والآثار المرضية، إن شاء الله عصمني الله من الخطأ والخلل، وعفا عني الشهود الذلل بفضله وكرمه.

فاعلم أن الروح الإنساني وهو أول شيء تعلقت به القدرة جوهرة نورانية ولطيفة

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره حقي (5/ 257).

ربانية من عالم الأمر، وعالم الأمر وهو الملكوت الذي خلق من لا شيء وعالم الخلق وهو الملك الذي خلق من شيء، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185]، فالعالم عالمان يعبر عنهما بالدنيا والآخرة، والملك والملكوت والشهادة والغيب والصورة والمعنى والخلق والأمر الظاهر والباطن والأجسام والأرواح ويراد بهما ظاهر الكون وباطنه، فثبت بالآية أن الملكوت الذي هو باطن الكون خلق من لا شيء إذ ما عداه من الملك خلق من شيء.

وأما قوله ﷺ: «أول ما خلق الله جوهرة وأول ما خلق الله روحي»(1)، وفي رواية: «نوري»(2) وقوله: «أول ما خلق الله العقل وأول ما خلق الله القلم»(3).

وقول بعض الكبراء من الأئمة: إن أول المخلوقات على الإطلاق ملك كروبي يسمى العقل وهو صاحب القلم القلب بدليل توجه الخطاب عليه في قوله: «أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر»(4) كما جاء في الحديث، ولما سواه فلما قال له: «اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة»(5) وتسميته قلمًا، كتسمية صاحب السيف سيفًا.

وقد جاء في الخبر أن الروح ملك، قيل لخالد بن الوليد: سيف الله وهو أول لقب في الإسلام.

وقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْـمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:38] وقد جاء في الخبر أن الروح ملك يقوم صفًا والملائكة صفًا، فلا تبعد أن يكون هو الملك العظيم الذي هو أول المخلوقات، وهو روح النبي ﷺ لقوله: «أول ما خلق الله روحي»(6) ولا يحتمل أن يكون المخلوق الأول المطلق إلا واحدًا؛ لأن الشيئين المغايرين لا يكون كل واحد منهما

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

(4) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (7/ 318)، والديلمى (1/ 13، رقم 4).

(5) أخرجه أحمد (5/ 317، رقم 22757)، وابن أبي شيبة (7/ 264، رقم 35922)، وابن جرير فى تفسيره (29/ 17)، والضياء (8/ 352، رقم 431).

(6) تقدم تخريجه.

أولاً في التكوين والإيجاد على الإطلاق؛ إذ لا يخلو إما أُحدثا مصاحبين أو أُحدثا متعاقبين، فإن أُحدثا مصاحبين معًا فلا يختص أحدهما من الآخر بالأولية فلا يكون واحد منهما أولاً على الانفراد، وإن أُحدثا متعاقبين يكون المبتدأ أولاً والمتعاقب ثانيًا؛ فيكون الأول واحدًا منهما لا محالة ولا يجوز الخلاف في كلام النبي ﷺ؛ لأنه الذي جاء بالصدق ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:3-4] وأنه ﷺ قد أثبت الأوليات فتعين لنا أن نحمل كلامه على أن المخلوق الأول هو مسمى واحد له أسماء مختلفة، فبحسب كل صفة فيه سُمي باسم آخر.

وقد كثرت الأسماء والمسمى واحد وهو الأصل وما سواه تبعًا له فلا ريب في أن أصل الكون كان النبي ﷺ لقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»(1) فهو أولى أن يكون أصلاً، وما سواه أولى أن يكون تبعًا له؛ لأنه كان بالروح بذر شجرة الموجودات، فلما بلغ أشده أربعين سنة كان بالجسم والروح ثمرة شجرة الموجودات وهي سدرة المنتهى، فكما أن الثمرة تخرج من نوع الشجرة كان خروجه إلى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9] ولهذا قال: «نحن الآخرون السابقون»(2) يعني: الآخرون بالخروج كالثمرة، والسابقون بالخلق كالبذر، فيلزم من ذلك أن يكون روحه ﷺ أول شيء تعلقت به القدرة، وأن يكون هو المسمى بالأسماء المختلفة، فباعتبار أنه كان درة صدف الموجودات سُمي درة وجوهرة، كما جاء في الخبر: «أول ما خلق الله جوهرة»(3)، وفي رواية: «درة فنظر إليها فذابت»(4) فخلق منها كذا وكذا، وباعتبار نورانيته سُمي نورًا، وباعتبار وفور عقله سُمي عقلاً، وباعتبار غلبات الصفات الملكية عليه سُمي مَلَكًا، وباعتبار أنه صاحب القلم سُمي قلمًا كما ذكرناه، وإذا أمعنت النظر وجدت كل وصف بالعقل.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه أحمد (2/ 243، رقم 7308)، والبخاري (1/ 299، رقم 836)، ومسلم (2/ 586، رقم 855)، والنسائي (3/ 85، رقم 1367) وأخرجه أيضًا: الشافعي (1/ 60)، وابن خزيمة (3/ 109، رقم 1720)، والبيهقي (3/ 170، رقم 5354).

(3) تقدم تخريجه.

(4) ذكره حقي (7/ 281).

وحكي عنه خاصية من خواص روحه ﷺ وهو قوله: «أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر»[1] وهذا حال روحه ﷺ إذ قال له: «أقبل» إلى الدنيا ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ «فأقبل، ثم قال أدبر»[2] أي: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ «فأدبر» عن الدنيا وراجع ربه ليلة المعراج، ثم قال للعقل: «وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحب إلي منك»[3] وهذا حاله ﷺ أنه كان حبيب الله، وأحب الخلق إليه، وقوله تعالى للعقل: «بك أعرف، وبك آخذ، وبك أعطي، وبك أعاقب، وبك أثيب»[4] فهذا كله حاله ﷺ؛ لأنه من لم يعرف النبي ﷺ بالنبوة والرسالة لم يعرف الله ولو كان له ألف دليل على معرفة الله فمعناه:

بمعرفتك أعرف أي: من عرفك بالنبوة عرفني بالربوبية.

«وبك آخذ» أي: آخذ طاعة من أخذ منك ما أتيته من الدين والشريعة.

«وبك أعطي» أي: بشفاعتك أعطي درجة أهل الدرجات، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم»[5].

«وبك أعاقب وبك أثيب» وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:81].

وذلك أن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه بأن يؤمن بمحمد ﷺ ويوصي أمته بالإيمان به ونصرة دينه، فمن آمن به من الأمم الماضية قبل بعثه أو بعد بعثه فهو من أهل الثواب، ومن لم يؤمن به من الأولين والآخرين فهو من أهل العقاب، ووضح فيه قوله: «بك أعاقب وبك أثيب»[6].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) أخرجه الطبراني (8/ 283، رقم 8086)، والحكيم (2/ 353).

(4) تقدم في سابقه.

(5) تقدم تخريجه.

(6) تقدم.

فكل ما ذكرناه في معرفة الروح فهو حال النبي ﷺ ومقاله؛ فكيف يظن به أنه لم يكن عارفًا بالروح، والروح هو نفسه؟! وقد قال: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**(1) وذلك أن الله تعالى خلق آدم وبنيه، وجعلهم خلفاء في الأرض، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل:62] وهذا أحد كرامة بني آدم، ومن شرط الخلافة أن يكون المستخلف يستجمع أوصاف المستخلف بالنيابة إلا ما اختص به المنوب بالأصالة مثل القدم والأحدية والصمدية والسلامة عن كل عيب ونقصان، فالروح خليفة الله وهو مجمع صفاته الذاتية له كالحياة والقدرة، والسمع والبصر والكلام، والعلم والإرادة والبقاء، والجسد خليفة الروح وهو مجمع صفاته التي باجتماعها في الروح علمنا أنه خليفة الله، وبذلك علمنا أن الجسد خليفة الروح لأنا وجدنا الجسد قبل اتصال الروح به وبعد انفصاله عنه خاليًا عن هذه الصفات علمنا أنه بخلافة الروح اتصف بهذه الصفات، ولو لم يكن الروح متصفًا بهذه الصفات لخلافة الحق تعالى لم يكن الجسد بها متصفًا فبقي أن الروح باقٍ أبدًا، والجسد فانٍ.

قلنا: وذلك لأن البقاء الأبدي من خاصية الروح فهو مختص به بالأصالة دون خليفته، كما أن الله تعالى اختص بالبقاء الأزلي والأبدي بالأصالة دون خليفته وهو الروح؛ فإنه حادث أبدي دون أزلي.

ثم اعلم أن الأرواح كلها خلقت من روح النبي ﷺ وأن روحه أصل الأرواح، وإنما كما كان آدم ولهذا سُمي أميًا؛ أي: إنه أم الأرواح، فكما كان آدم عليه السلام أبا البشر فكان النبي ﷺ أبا الأرواح، وإنما كما كان آدم أبا حواء وأمها وذلك أن الله تعالى لما كان روح النبي ﷺ: **«كان الله ولم يكن معه شيء»**(2) إلا روحه، وما كان شيء آخر ينسب روحه إليه أو يضاف إليه غير الله، فلما كان روحه أول باكورة أثمرها الله تعالى بإيجاده من شجرة الوجود، وأول شيء تعلقت به القدرة وشرفه بتشريف إضافته إلى نفسه تعالى فسماه ﴿رُّوحِي﴾ [الحجر: 29] كما سُمي أول بيت من بيوت الله وضع للناس، وشرفه بالإضافة إلى نفسه، فقال:

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

﴿بِيَدَيَّ﴾، ثم حين أراد أن يخلق آدم سواه ونفخ فيه من روحه أي: من الروح المضاف إلى نفسه وهو روح النبي ﷺ كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29] فكان روح آدم من روح النبي ـ عليهما السلام ـ بهذا الدليل، وكذلك أرواح أولاده لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: 8 - 9] وقال تعالى في مريم عليها السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:91] فكانت النفخة لجبريل وروحها من روح النبي ﷺ المضاف إلى الحضرة، وهذا أحد أسرار قوله ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»(1).

ثم قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85] هذا راجع إلى اليهود الذين سألوا النبي ﷺ عن الروح يعني: أنكم سألتموني وقد أجبتكم أنه ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] ولكنكم ما تفهمون كلامي؛ لأني أخبركم عن عالم الآخرة وعن الغيب وأنتم أهل الدنيا والحس، والدنيا وعلمها قليل بالنسبة إلى الآخرة وعلمها، فإنكم عن علمها غافلون كقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:7].

ثم أخبر عن عزة الفراق وعزة الرحمن بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء:86] إشارة إلى أنه ليس في استعداد الإنسان ولا في مخلوق غيره أن يأتي بكلام جامع مثل كلام الله تعالى لعباده في غاية الجزالة والفصاحة، وإشارة في غاية الدقة والحذاقة، ولطائف في غاية اللطف واللطافة، وحقائق في غاية الحقية والنزاهة، وكما قال علي ﷺ: «ما من آية إلا ولها أربعة معانٍ: ظاهر وباطن وحد ومطلع»(2)، فالظاهر للتلاوة، والباطن للفهم، والحد هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مراد الله من العندية.

وقال جعفر بن محمد الصادق ﷺ: عبارة القرآن للعوام، والإشارة للخواص،

(1) أخرجه أحمد (3/ 2، رقم 11000)، والترمذي (5/ 587، رقم 3615)، وابن ماجه (2/ 1440، رقم 4308).

(2) ذكره الشيخ ابن عجيبة في «البحر المديد» (1/ 117).

واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء.

وقال: العبارة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستسلام.

أي: لا سبيل للجوهر الإنساني إذا استغرق في بحر حقائقه بالخروج إلى ساحله أبد الآباد إلا أن يستسلم لحقائقه؛ لأنه لا نهاية لها، فإذا تحقق أنه ليس لمخلوق أن يأتي بكلام جامع مثل كلام الخالق وهو غير مخلوق، ولو ذهب به الله عن قلوب أنبيائه لا يجدون ناصرًا ينصرهم على رده كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء:86- 87] أي: ولكن الله قادر على أن يرد إليك برحمته ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ﴾ [الإسراء:87] في الأزل ﴿عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء:87] يسعك فضله من الأزل إلى الأبد.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: 87 - 90].

ثم قال تعالى شاهدًا أو دليلاً على ما قررناه لكلامه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:88] أي: جامعًا لما ذكرناه ﴿لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ﴾ [الإسراء:88] من الإنس والجن ﴿لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] أمينًا وناصرًا.

ولفظ الجن يتناوله الملائكة وكل من لم يدركه حس البصر لأنهم مستورون عن البصر يقال: جن بترسه إذا استتر به؛ ولهذا قيل للترس المجنّ، وإنما قلنا للباقون بمثله؛ لأنه ليس لكلام الله مثل؛ إذ كلامه صفته، وكما أنه ليس لذاته تعالى مثل وكذلك ليس لصفاته مثل؛ لأنها قديمة قائمة بذاته تبارك وتعالى وصفات المخلوق مخلوقة قابلة للتغيير والفناء.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء:89] أي: وجهنا ودبرنا لمن نسي الطريق إلينا في معاني هذا القرآن وأسراره وإشاراته من كل طريقة

وسبب وإرشاد يتعلق بالروح إلينا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ [الإسراء:89] الرجوع إلينا وما اختاروا ﴿إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء:89] جحودًا أو إنكارًا أو إصرارًا على كفران نعمة الدين والقرآن وبعثة النبي ﷺ.

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء: 90 - 94].

وبقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء:90- 91] الآية إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:93] يشير إلى أنهم أرباب الحس الحيواني يطلبون الإعجاز من ظاهر المحسوسات ما لهم بصيرة يبصرون بها شواهد الحق ودلائل النبوة، وإعجاز عالم المعاني بالولاية الروحانية والقوة الربانية؛ فيطلبون منه تزكية النفوس، وتصفية القلوب وتحلية الأرواح، وتفجير ينابيع الحكمة من أرض القلوب؛ لينبت منها نخيل المشاهدات أو أعناب المكاشفات في جنات المواصلات ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [الإسراء:93] أي: هو القادر على ملتمسكم، والحكيم بصلاحية الأحوال والأمور إن يشاء يبذل مسئولكم ويعطي مأمولكم ﴿هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا﴾ [الإسراء:93] مثلكم ﴿رَّسُولاً﴾ [الإسراء:93] من الله مبلغًا رسالته مؤدبًا بآداب العبودية، مستسلمًا لأحكام الربوبية.

ثم أخبر عن أصل ضلالتهم أنه من غاية جهالتهم، بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:94] إشارة إلى أن أهل النسيان والغفلة الذين لم يبلغوا بعد مبلغ الإنسان الكامل ولا مبلغ الرجال البالغين، ومن ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:22] لا

يعرفون الأنبياء والرسل، وما لهم عند الله من المقامات العلية والأحوال المرضية السنية، وما أنعم الله عليهم من القربات والكمالات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يعدونهم من أبناء جنسهم ويحسبون أن الملائكة أعلى درجة منهم وأجل منهم منزلة عند الله، وأنهم عن معرفة رتبة الإنسان الكامل بمعزل والله جعله مسجودًا للملائكة المقربين لما أودع فيه من سر الخلافة، فيختارون الملائكة على الأنبياء كما ﴿قَالُوا﴾ [الإسراء:94] متعجبين: ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء:94].

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء: 95 - 98].

وأرادوا بذلك أن الرسالة بالملائكة أولى وأحق حتى أجابهم الله بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:95] يشير به إلى أنه لو كان الملك مستأهلاً للخلافة في الأرض لكنا نزلنا عليهم من السماء رسولاً من الملائكة.

﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء:96] بأنه مستعد للرسالة والمُلك ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ [الإسراء:96] في الأزل ﴿بِعِبَادِهِ﴾ [الإسراء:96] الذين يخلقهم ﴿خَبِيرًا﴾ [الإسراء:96] بما جبلهم الله عليه ﴿بَصِيرًا﴾ [الإسراء:96] بما يتولد منهم ﴿وَمَن يَهْدِ اللهُ﴾ [الإسراء:97] روحه عند رشاش نوره على الأرواح بإصابة النور ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء:97] إلى صراط مستقيم الدين القويم، بقبول دعوة الأنبياء وغيرهم من بيديه متابعتهم ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ [الإسراء:97] بإخطاء ذلك النور ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الإسراء:97] في الهداية من الأنبياء وغيرهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ [الإسراء:97] أي: من دون الله يشير به إلى أن الهداية في البداية مبنية على إصابة النور عند رشاشه؛ فمن لم يصب ذلك

النور وأخطأه بقي في ظلمة الضلالة، وليس لأحد أن يخرجه منها إلى نور الهداية إلا الله تعالى؛ فإنه الهادي في البداية والنهاية، وهو الولي الذي يخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور من الأزل إلى الأبد، واستوى عنده الأزل والأبد، وكل وقت له أزل وأبد.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:97] لأنهم كانوا يعيشون في الدنيا مكبين على وجوههم في طلب السفليات من الدنيا وزخارفها وشهواتها، عميًا عن رؤية الحق، بكمًا من قول الحق، صمًا عن استماع الحق؛ وذلك لعدم إصابة النور ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:72] وقال ﷺ: «يموت المرء على ما عاش فيه ويحشر على مات عليه»(١).

ثم قال: ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:97] لأنهم كانوا في جهنم الحرص والشهوات، كلما سكنت فار بشهوة باستيفاء حظها زادوا سعيرها باشتغال طلب شهوة أخرى.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:98] يشير إلى أنهم لو كانوا مؤمنين بالحشر والنشر ما أكبوا على جهنم الحرص على الدنيا وشهواتها، وما أعرضوا عن الآيات البينات التي جاء بها الأنبياء - عليهم السلام -.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: 100 - 104].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ

(١) ذكره البقاعي في نظم الدرر (٥/ ١٠٧).

لَهُمْ أَجَلًا لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء:99] يشير بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [الإسراء:99] إلى عمى بصيرتهم أي: لم يروا، لأنهم لو يرون الله خالق السماوات والأرض؛ ليرونه قادرًا على إعادة الأموات وإحيائهم ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ [الإسراء:99] من عماهم إلا الجحود والإنكار.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: 100] يعني لو أنتم تقدرون على ما أنا أقدر عليه من إيجاد الخلق ورزقهم، وإيصال الخير إليهم - وأنت على خشية طبيعة الإنسانية - لبخلتم به وخشيتم نفاذ ما عندي من خوف البشرية ﴿وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:100] أي: خلق بخيلاً ممسكًا غير منفق إلا يسيرًا عند الضرورة.

ثم أخبر عن إنكار الإنسان الآيات والمعجزات بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء:101] يشير إلى الآيات التي تدل على نبوته فيما يتعلق بنفسه خاصة منها إلقاؤه في اليم، وإخراجه منه، وتربيته في حجر عدوه فرعون، وتحريم المراضع عليه ورده إلى أمه، وإلقاء المحبة عليه، واصطناعه لنفسه، وإيناسه النار من جانب الطور، والنداء من الشجرة ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص:30]، واستماع كلام الله، وقوة حمل الخطاب والجواب، وأعظم الآيات جرأته على طلب الرؤية، وإجابته بالتجلي، وصعقه منه، وإفاقته من الصعقة، وإحلال العقدة من لسانه، وإلقاء النور على وجهه، واشتعال النار قلنسوته عند الغضب، واليد البيضاء وغيرها من الآيات.

﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ [الإسراء:101] يعني: موسى بهذه الآيات هل رأوها واستدلوا بها وآمنوا عليها؟ إلا أهل الحق بمن جعلهم الله أئمة يهدون بأمره لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: 101] يعني: لما كان فرعون من أهل الظن لا من أهل اليقين، رآه بنظر الظن الكاذب ساحرًا، ورأى الآيات سحرًا، قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ [الإسراء:102] أي: لو نظرت بنظر العقل لعلمت أنه ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ﴾ [الإسراء:102] يعني: الآيات ﴿إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الإسراء:102] أي: بلا بصيرة وعقل.

والظن ظنان: ظن كاذب، وظن صادق، وكان ظن فرعون كاذبًا، وظن موسى عليه السلام صادقًا ﴿فَأَرَادَ﴾ [الإسراء:103] فرعون من نتائج ظنه الكاذب ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ [الإسراء:103] أي: يخرج موسى وقومه ﴿مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء:103] ونجينا موسى وقومه من نتائج ظنه الصادق ﴿وَقُلْنَا﴾ [الإسراء:104] لهم ﴿مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ [الإسراء:104] يعني: ديارهم ومساكنهم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:104] أي: يلف الكافرون بالمؤمنين لعلهم ينجوهم من العذاب، فيخاطبون بقوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:59] ولا ينفعهم التلفف، بل يقال لهم: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:7].

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (109) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)﴾ [الإسراء: 105 - 111].

ثم أخبر عن القرآن وما فيه من الحق والفرقان بقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:105] إشارة إلى أن إنزال القرآن كان بالحق لا بالباطل؛ وذلك لأنه تعالى لما خلق الأرواح المقدسة ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ثم بالنفخة ردها إلى ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وهو قالب الإنسان احتاجت الأرواح في الرجوع إلى أعلى عليين قرب الحق وجواره إلى حبل يعتصم به بالرجوع؛ فأنزل الله القرآن وهو الحبل المتين وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:103].

﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:105] ليضل به أهل الشقاوة بالرد والجحود والامتناع عن الاعتصام به، ويبقي به في الأسفل حكمة بالغة منهم، ويهدي به أهل السعادة بالقبول والإيمان والاعتصام به، والتخلق بخُلقه إلى أن يصل إلى كمال قربه، فيعتصم به كما قال:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ [الحج: 78].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [الفرقان:56] يا محمد ﴿إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ [الفرقان:56] لأهل السعادة بسعادة الوصول والعرفان عند التمسك بالقرآن ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان:56] لأهل الشقاوة بشقاوة البعد والحرمان والخلود في النيران عند الانفصام عن حبل القرآن وترك الاعتصام به ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ [الإسراء:106] أي: على أهل الغفلة والنسيان ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء:106] وهذا كمال العناية بأن فرقه آية آية وسورة سورة في الإنزال بالتدريج ليعلموا بها ويتخلقوا بالتأني والتدبر.

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:106] على قانون الحكمة ليبلغ به أهل السعادة والشقاوة إلى أعلى درجات القرب وأسفل دركات البعد، وإظهار اللطف والقهر.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ [الإسراء:107] لأهل السعادة ﴿آمِنُوا بِهِ﴾ [الإسراء:107] إظهارًا للطفنا أو ﴿قُلْ﴾ [الإسراء:107] لأهل الشقاوة ﴿أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء:107] إظهارًا لقهرنا، فإن الحكمة في تكوين الفريقين إظهار اللطف والقهر ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [الإسراء:107] يعني: العلماء بالله إذا آتاهم الله العلم بإصابة رشاش نوره في عالم الأرواح ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ [الإسراء:107] من قبل نزول القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 107] يعني: خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:107] للتواضع والتذلل عند الإجابة إذ قالوا: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف:172].

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ [الإسراء:108] على ما وعدنا ربنا في الأزل بقوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ﴾ [البقرة:217] يا أهل الشقاوة ﴿عَن دِينِهِ﴾ [البقرة:217] أي: الإيمان وقبول القرآن ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] ﴿إِن كَانَ﴾ [الإسراء:108] أي: قد كان ﴿وَعْدُ رَبِّنَا﴾ [الإسراء:108] في الأزل ﴿لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء:108] إلى الأبد.

ثم كرر قوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ [الإسراء:109] أي: إذا تتلى عليهم مرة أخرى في عالم العودة يخرون بالأبدان على وجوههم و﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 109] يشير به إلى أنه في عالم الأرواح كان التواضع والسجود؛ لأنه من شأن الأرواح،

ولكن لم يكن البكاء والخشوع؛ لأنه من شأن الأبدان، وإنما أرسلت الأرواح إلى الأبدان لتحصيل هذه المنافع في العبودية وبقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء:110] يشير إلى أن الله اسم الذات والرحمن اسم الصفة ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا﴾ [الإسراء:110] أي: بأي اسم من أسماء الذات والصفات تدعونه ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:110] أي: كل اسم من أسمائه حسن فادعوه حسنًا، وهو أن تدعوه بالإخلاص.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء:110] أي: بدعائك وعبادتك رياءً وسمعةً ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:110] أي: ولا تخفضها بالكلية عن نظرهم لئلا يُحرموا عن المتابعة والأسوة الحسنة ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110] وهو إظهار الفرائض بالجماعات في المساجد، وإخفاء النوافل وُحْدَانًا في البيوت ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:111] فيكون كمال عنايته وعواطف إحسانه مخصوصًا بولده ويحرم عباده منه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:111] فيكون مانعًا من إصابة الخير إلى عباده وأوليائه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:111] فيكون محتاجًا إليه فينعم عليه دون من استغنى عنه، بل أولياؤه الذين آمنوا وجاهدوا في الله حق جهاده وكبروا الله وعظموه بالمحبة والطلب والعبودية وهو معنى قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:111].

سورة الكهف

مكية

وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: 1 - 5].

﴿الْحَمْدُ لله﴾ [الكهف:1] إشارة إلى أن الحمد والمدح والثناء والشكر كله لله أي: هو المستحق به ولا يصلح ذلك لغيره؛ لأن وجود كل شيء نعمة فلا منعم إلا هو ﴿الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ﴾ [الكهف:1] أي: على من يحسن عليه اسم العبد مطلقًا يعني محمدًا ﷺ وهذه كرامة لم يكرم بها الله قبل نبياً مرسلاً ولا ملكًا مقربًا، فإنه تعالى ذكره في مواضع من القرآن بعبده مطلقًا من غير أن يسميه بكليم آخر مع عبده، كما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:1] وما ذكر أحدًا من الأنبياء بالعبد إلا وقد سماه باسمه كما قال: ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:2].

والعبد الحقيقي من يكون حرًا من الكونين وهو محمد ﷺ إذ يقول: «أمتي أمتي»[1] يوم يقول كل نبي: نفسي نفسي، فكان هو العبد الحقيقي الذي لم يكن لنفسه، بل كان بكليته لمولاه.

وفيه معنى آخر أن الحمد واجب على النبي ﷺ إذ نزل القرآن على قلبه وهو مخصوص بذلك من الأنبياء، فإن الكتب أنزلت عليهم في الصحف والألواح وإذا اختص بالعبد مطلقًا ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:1] أي: ولم يجعل قلب محمد متعرجًا لا

(1) تقدم تخريجه.

يستقيم فيه القرآن يدل على هذا التأويل قوله: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه»[1] فتقدير الكلام: قل يا محمد ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل﴾ [الكهف:1] لقلبه ﴿عِوَجًا﴾[2] [الكهف:1] لا يستقيم فيه القرآن بل ﴿قَيِّمًا﴾ [الكهف:2] أي: القرآن قائم فيه حتى صار خلقه القرآن.

ومن استقامة قلبه نال ليلة المعراج رتبة ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10] بلا واسطة جبريل، ونال قلبه الاستقامة بالقرآن بأمر الله عليًا، وهو أمر التكوين بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112] ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف:2] أي: لينذركم عذابًا وهو عذاب البعد ﴿شَدِيدًا﴾ من لدنه من قربه، فإن أشد العذاب عذاب البعد والانقطاع والحرمان ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف:2] أي: الخالصات لله ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:2] وهو التمتع من حسن الله وجماله ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:3] بلا انقطاع وتغير حال ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا

---

(1) أخرجه أحمد (3/ 198 رقم 13071)، والقضاعي (2/ 62، رقم 887). قال المنذري (3/ 240): رواه أحمد، وابن أبي الدنيا في الصمت كلاهما من رواية علي بن مسعدة.

(2) قال البقلي: حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده.

فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي تكرمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفني أول سطوات عظمته الكون، كان مسألة تعليم لعباده أي: احمدوا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب على الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

قال ابن عطاء: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال على عبده أي: على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له. وقال أيضًا: الكتاب منشورٌ ظاهر فيه أسرار باطنه.

﴿عِوَجًا﴾ أي: زيغًا وميلًا إلى الغير، كما قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17] أي: لم ير الغير في شهوده.

* مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾ [الكهف:4- 5] يعني: لا يقتضي العلم أن يتخذ الله ولدًا؛ لأنه منزه عن الولد وإنها قالوا بالجهل: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف:4] أي: كبرت كلمة كفر وكذب قالوها عند الله وهي أكبر الكبائر إذ نسبوها إلى الله، وكذبوا عليه وكذبوه.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف: 6 - 10].

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف:6] معناه نهي أي: لا تبخع نفسك كما يقال لعلك تريد أن تفعل كذا أي: لا تفعل كذا.

وفيه معنى آخر ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ أي: فكأنك كما قال تعالى في شأن عاد: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:129] أي: كأنك فالمعنى كأنك ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:6] على فوات الإيمان عنهم، وهذا غاية الرحمة والشفقة على الأمة، وكمال القيام بأداء حقوق الرسالة، والإقدام على العبودية فوق الطاقة، وكان من دأبه ﷺ أن يبالغ في القيام بأمر ربه إلى حد أن ينهى عنه كما أنه ﷺ حين أمر بالإنفاق بالغ فيه إلى أن أعطى من دأبه ﷺ أن يبالغ قميصه وقعد في البيت عريانًا، فنهي عن ذلك بقوله: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:29].

وبقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:7] يشير إلى أن الناسك السالك، والطالب الصادق، والمحب المحق من يحرِّم على نفسه الدنيا وزينتها حرامها وحلالها وهي ما ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14] لأنه مع حب الله لا يسوغ حب الدنيا وشهواتها، بل حب الآخرة ودرجاتها، كما قال تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:7] أي: زينا الدنيا وشهواتها للخلف ملائمًا لطباعهم وجعلناها محل ابتلاء المحب والسالي ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

[الكهف:7] في تركها ومخالفة هوى نفسه طلبًا رضائه، وأيهم أقبح عملاً في الإعراض عن الله وما عنده من الباقيات الصالحات، والإقبال على الدنيا وما فيها من الفانيات الفاسدات وهو معنى قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:8] لا حاصل له إلا الندامة والغرامة.

ثم أخبر عن سعادة السيادة الذين أعرضوا عن الدنيا وأقبلوا على المولى بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾(1) [الكهف:9] إشارة إلى النبي ﷺ أي: أنك حسبت أن أحوال ﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ [الكهف:9] كانت من آيات إحساننا مع العبيد ﴿عَجَبًا﴾ [الكهف:9] فإن في أمتك من هو أعجب حالاً منهم، وذلك أن فيهم أصحاب الخلوات الذين كهفهم الذي يأوون إليه بيت الخلوة،

---

(1) ذكر سبحانه من بسط قدرته، وعظيم آياته، وعجائب شأنه أي: إيش معجب من أصحاب الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة فإنهم في مراقد أُنسنا، وبساتين قدسنا، غائبون فينا عن غيرنا، فإن في سعة قدرتنا، إنا نحن لو نشق وردة من بساتين غيبنا لمشامِّ العالمين، يهيمون في البوادي والقفار أبدًا، وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.

قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم بحال؛ لذلك خفي على الخلق آثارهم.

وقال ابن عطاء: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وألجأهم إلى غار الأنس، وآواهم، وآمنهم ثم أفناهم عنهم، وغيبهم من إرادتهم ومعاينتهم، فتاهوا في الحضرة والهين؛ لذلك قال الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، بل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾.

أي: إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء، فليس حال أصحاب الكهف آية عجيبة من آياتنا، بل هذه أعجب.

وقال الجنيد: لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبلغ بك سدرة المنتهى، وكنت للقربى كقاب قوسين أو أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك.

وقال بعضهم: أصحاب الكهف كالنومى لا علم لهم بوقت، ولا زمان ولا معرفة بمحل، ولا مكان، أحياء موتى صرعى مفيقون، نومى منتبهون، لا إليهم سبيل، ولا لهم إلى غيرهم طريق، ورددت عليهم خلع الهيبة، وأظلهم بنور التعظيم، وأحدقت بهم حجب العظمة، واستناروا بنور العرش الكريم.

ومقيمهم قلوبهم المرقومة برقم المحبة، فهم محبتي ومحبوبي، وألواح قلوبهم مرقومة بالعلوم الدينية، وإن كان أصحاب الكهف أووا إلى الكهف خوفًا من لقاء دقيانوس وفرار منه أووا إلى كهف الخلوة شوقًا إلى لقائي وفرارًا إلي، وإن كان المراد من قولنا: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10] النجاة من شر دقيانوس والخروج من الغار بالسلامة. فرار هؤلاء القوم النجاة من شر نفوسهم، والخروج من ظلمات غار الوجود للوصول إلى أنوار جمالي وجلالي.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: 11 - 15].

وبقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف:11] يشير إلى سد آذان ظاهر أصحاب الخلوة وآذان باطنهم؛ لئلا يقرع مسامعهم كلام الخلق فتنتقش ألواح قلوبهم به، وكذلك تنعزل جميع حواسهم عن نفس قلوبهم، ثم أنهم يمحون النقوش السابقة عن القلوب بملازمة استعمال الكلمة الطبيعية وهي كلمة لا إله إلا الله حتى يصفو قلوبهم بنفي لا إله عما سوى الله بإثبات إلا الله تتنور قلوبهم بنور الله، وينتقش بنقوش العلوم الدينية إلى أن يتجلى الله تبارك وتعالى لقلوبهم بذاته وجميع صفاته؛ ليفنيهم الله عنهم ويبقيهم به وهو سر قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ [الكهف:12] أي: أحييناهم بنا ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ [الكهف:12] أي: حزب أصحاب الكهف وحزب أصحاب الخلوة ﴿أَحْصَى﴾ [الكهف:12] أي: أحصى وأصوب ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف:12] في كهفهم وتعيينهم وبيت خلوتهم ﴿أَمَدًا﴾ [الكهف:12] غاية لبثهم.

ثم أخبر عن حقيقة أحوالهم وما هم في حالهم ومآلهم بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ

عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾[1] [الكهف:13] يشير إلى أن القصاص كثير يقصون بالباطل ويزيدون وينقصون ويغيرونها، ويقص كل أحد برأيه وموافقًا لطبعه وهواه وما يقص بالحق إلا الله تعالى.

ثم أخبر عنهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف:13] سماهم باسم الفتوة؛ لأنهم آمنوا بالتحقيق لا بالتقليد، وطلبوا الهداية من الله إلى الله بالله، ولكنهم طلبوا الهداية في البداية بحسب نظرهم وقدر همتهم، فالله تعالى على قضية «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[2] في هداهم فضلاً منه وكرمًا، كما قال: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:13] أي: زدنا على متمناهم في الهداية، فإنهم يكادون يتمنون أن يهديهم الله إلى الإيمان بالله، وبما جاء به الأنبياء - عليهم السلام - بالبعث والنشور إيمانًا بالغيب فزادهم الله تعالى على متمناهم في الهداية حين بعثهم من رقدتهم بعد ثلاثمائة وتسع سنين، وما تغيرت أحوالهم وما بليت ثيابهم، فصار الإيمان إيقانًا، والغيب عينًا وعيانًا.

ثم قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف:14] يعني: لكيلا يلتفتوا إلى الدنيا وزخارفها وينقطعوا إلى الله بالكلية، وكذلك ما اختاروا بعد البعث الحياة في الدنيا ورجعوا في أن ترجعوا إلى جوار الحق، وأيضًا وبعد على قلوبهم المحبة والشوق إلى لقاء الله، وأيضًا ربط على قلوبهم نور المعرفة حتى أخبروا عن ذلك.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا

---

(1) قال الشيخ روزبهان: وليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه، ذكر الحبيب الأول، ما الحبيب عند الحبيب استطاب الحق ذكر قصة فتيان محبته ومعرفته لحبيبه الأكبر؛ ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بيداء شوقه وعشقه؛ ليزيد رغبته في شوقه ومعرفته أي: أنا أحقق خبر أسرارهم لك؛ لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية، وأين استغرقوا في بحار الديمومية؟

يا حبيبي اعلم أن تلك فتيان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه قلوبهم مُسفرة بأنوار شمس جلالي فيها، وأسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، أبدانهم غائبة في مجالس أنسي آمنوا بربهم عرفوني بي، واستأنسوا بي واستوحشوا من غيري، ما أطيب حالهم معي، ما أحسن شأنهم في محبتي، زدناهم نورًا من جمالي، فاهتدوا به طرق معان ذاتي وصفاتي، وذاك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له. وأيضًا: زدناهم مشاهدةً وقربًا وصالاً ومعرفةً وكمالاً ومحبةً وشفاءً.

(2) تقدم تخريجه.

شَطَطًا﴾ [الكهف:14] أي: بعد أن ربط الله تعالى على قلوبنا نور المعرفة بفضله وكرمه حتى تيقنا وحدانيته لو دعونا معه غيره فقد قلنا إذا كذبًا وزورًا باطلاً بعد الصدق والحق واليقين، ثم قالوا: ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الكهف:15] من الهوى والدنيا وشهواتها وغير ذلك من الأصنام بجهالتهم وضلالتهم وعدم هدايتهم ومعرفتهم، وإنها قالوا: ﴿قَوْمُنَا﴾ أي: كنا من جملتهم وبالضلالة في زمرتهم فأنعم الله علينا بالهداية والمعرفة وفرق بيننا وبينهم بالرعاية والعناية.

﴿لَوْلا يَأْتُونَ﴾ [الكهف:15] من اتخذ من دونه آلهة ﴿عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف:15] يعني: بحجة ظاهرة عن آلهة هذه الآلهة ولا يأتون ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الكهف:15] بأنه تعالى محتاج إلى شريك في الملك، وبه يشير إلى أنه من أعظم عذابًا منهم؛ لأن الظلم موجب للعذاب، فيكون أعظم العذاب للأظلم.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: 16 - 20]

ثم بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ﴾ [الكهف: 16] يشير إلى أن التائب الصادق، والطالب المحق من اعتزل عن قومه وترك أهل صحبته، وقطع عن إخوانه شؤونه واعتقد ألا يعبد إلا الله، ولا يطلب إلا الله، ولا يحب إلا الله، يعرض عما سوى الله، مستعينًا بالله، متوكلاً على الله، منفرًا إلى الله من غير الله، ثم يأوي إلى

كهف الخلوة متمسكًا بذيل إرادة شيخ كامل مكمل واصل موصل؛ ليربيه ويزيد في هدايته ويربط على قلبه بقول الولاية وقوة الرعاية، كما كان حال أصحاب الكهف، ولكنهم كانوا مجذوبين من الله مربوبين بربهم وذلك من النوادر، ولا حكم للنادر هذا من قدرة الله أن يهدي جماعة إلى الإيمان بلا واسطة رسول أو نبي ويجذبهم بجذبات العناية إلى مقامات القرب ومحل الأولياء بلا شيخ مرشد وهاد مربي، ومن سنته تعالى أن يهدي عباده بالأنبياء والرسل وبخلافتهم ونيابتهم بالعلماء الراسخين والمشايخ المقتدين.

ففي قوله: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف:16] إشارة إلى أن الالتجاء بالحق والتمسك بالمشايخ المكملين يعني بهذه الطريقة ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الكهف: 16] أي: يخصصكم برحمته الخاصة المضافة إلى نفسه وهو أن يجذبهم بجذبات العناية ويدخلهم في عالم الصفات ليتخلقوا بأخلاقه ويتصفوا بصفاته كقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الشورى:8] وله تعالى رحمة عامة مشتركة بين المؤمن والكافر والجن والإنس والحيوان.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:16] أي: ييسر لكم طريق الوصول والوصال.

ثم أخبر عن أصناف ألطافه بأضيافه بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:17] يشير إلى أن نور ولايتهم، وهو نور زاده الله على أنوار هدايتهم وإيمانهم، كما قال: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:13] يغلب على نور الشمس ويرده عن الكهف كما يغلب نور المؤمن على نار جهنم فيطفئها لقوله ﷺ: «المؤمن إذا ورد النار تستغيث النار، وتقول: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»[1]، ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ [الكهف:17] أي: يمين الكهف ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف:17] أي: تدعهم جانب شمال الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف:17] أي: متسع وفراغ من ذلك النور يدفع عنهم كل ضرر وآفة، ويراعيهم عن بلى أجسادهم وثيابهم ﴿ذَٰلِكَ مِنْ

(1) ذكره النيسابوري في تفسيره (6/ 98).

آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الكهف:17] أي: من دلالاته وكراماته التي يظهرها على أوليائه ويخصصهم بخصائص ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف:17] أي: فهو الذي اهتدى بهداية الله إياه فلن يقدر على إضلاله أحد ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ [الكهف:17] أي: يضلل ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:17] غير الله أي: فلن يقدر على هدايته أحد.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ [الكهف:18] لما رأيت على سيماء وجوههم منه فلك النور ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف:18] وفيه إشارة إلى إفنائهم عن وجودهم وإبقائهم بوجودهم الحق لا هم كالنيام ولا هم كالرقود ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف:18] أي: بين الإفناء والإبقاء، والترقي من مقام إلى مقام، ومن حال إلى حال أي: بلغناهم مبلغ الرجال البالغين ووصلوا إلى درجات المقربين فيه إشارة لطيفة وهي: أن المريد الذي يربيه الله تعالى بلا واسطة المشايخ يحتاج إلى أن يكون كالميت بين يدي الغسال مستسلمًا نفسه بالكلية إليه مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين حتى تبلغ مبلغ الرجال، والمريد الذي يربيه الله بواسطة المشايخ لعله يبلغ مبلغ الرجال البالغين بخلوة أربعين يومًا أو خلوتين أو خلوات معدودة، وذلك أن هؤلاء خلفاء الله وصورة لطفه كما أن الأشجار في الجبال ترقى بلا واسطة فلا تثمر كما تثمر الأشجار في البساتين بواسطة الدهاقين وتربيتهم.

---

(1) في الآية إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المتنبهين، فمَن نظر إليهم ممَن هو مثلهم في الغفلة عن الله تعالى يراهم متيقظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر، وإمَّا إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحسّ، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله، فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاه دمًا، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحًا من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نورًا: أي يرجع إلى قوته، والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدًا، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:18] يشير إلى أن كلب نفوسهم نائمة معطلة عن الأعمال التي بها تربية القلوب والأرواح، كما جرت بها السنة الإلهية -يعني هذه التربية- على هذا النوع من قبيل القدرة الإلهية التي هي أمارة أهل الولاية والكرامة في حقهم.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف:18] بما شاهدت عليهم من آثار الأنوار التي زدناهم، وألقينا عليهم جلابيب العظمة بتجلي صفات جلالنا، وألبسناهم بلباس الهيئة الإلهية ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ [الكهف:19] أحييناهم بنور وصالنا وأغرقناهم في لجج بحر الوحدانية فدهشوا بسطوات ما ربطنا على قلوبهم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف:19] عند الرجوع من استغراق بحر الوصال إلى سواحل نفوسهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:19] لأن أيام الوصال قصيرة، وأيام الفراق طويلة، فلما رأوا أنهم بعد في خبرة الأحوال ودهشة الوصال ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:19] لأنه كان حاضرًا معكم وأنتم غيب عنكم، فالعجب كل العجب لما كانوا ثلاثمائة وتسع سنين في مقام عندية الحق خارجين من عنديتهم ما احتاجوا إلى طعام الدنيا لتغنوا عن غذاء الجسمانية بألوان غذاء الروحانية، كما كان حال النبي ﷺ كان يواصل الأيام، ويقول: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقين»[1] فلما رجعوا من عندية الحق إلى عندية نفوسهم احتاجوا في الحال إلى غذاء نفوسهم قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف:19] ففي طلبهم ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف:19] وأطيب إشارة إلى أن أرباب الوصول وأصحاب المشاهدة لما شهدوا ذلك الجمال والبهاء، وذاقوا طعم الوصال، ووجدوا حلاوة الأنس وملاطفات الحبيب، فإذا رجعوا إلى عالم النفوس تطالبهم الأرواح والقلوب بأغذيتهم الروحانية فيتعللون بمشاهدة كل جميل؛ لأن كل جميل من جمال الله وكل بهاء من بهاء الله، ويتوسلون بلطافة الأطعمة إلى تلك الملاطفات كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِكُم

---

(1) تقدم تخريجه.

بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف:19] أي: في الطعام ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 19] فيه إشارة إلى الاحتراز عن شعور أهل الغفلة بأحوال أرباب المحبة، فإن لهم في النهاية أحوال كفر عند أهل البداية، كما قال أبو عثمان المغربي: إرفاق العارفين باللطف وإرفاق المريدين بالعنف.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ [الكهف:20] يعني: أهل الغفلة ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ [الكهف:20] بالملامة فيما يشاهدون منكم يا أهل المعرفة من وسعة الولاية وقوتها، واستحقاق التصرف في الكونين وانعدام تصرفها فيكم، فإنهم بمعزل عن بصيرة يشاهدون بها أحوالكم، فمن قصر نظرهم يطعنون فيكم أو يريدون أن ﴿يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف:20] وهي عبادة أصنام الهوى وطواغيت شهوات الدنيا وزينتها، فإن رجعتم إليها ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:20].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (22)﴾ [الكهف: 21 - 22].

ثم أخبر عن الحكمة في اختصاصهم بالعزلة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف:21] إشارة إلى أنه كما أطلعنا بعض منكري البعث والنشور بالأجساد على أحوال أصحاب الكهف ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ [الكهف:21] ويتحقق لهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الكهف:21] بالبعث وإحياء الموتى ﴿حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ [الكهف:21] أي: قيام الساعة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف:21] إنا قادرون على إحياء بعض القلوب الميتة، وإن وعد الله به بقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97] وبقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:122] حق وإن قيامة قلوب الصديقين المحبين لا ريب فيها.

ثم في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:21] إلى قوله: ﴿وَلَا

تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:22] إشارة إلى أن الله تعالى بحكمته البالغة وإرادته القديمة يبدي بعض الأشياء على رسوله ﷺ مما يسأل عنه، ومما لم يسأل، ويخفي بعضها حكمة منه، ومصلحة للخلق، وله في الإبداء والإخفاء أسرار.

فمنها: عسى أن يكون في إبداء ما يسألون فتنة أو بلية أو مضرة لسائله لقوله تعالى: ﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:101].

ومنها: إن في إخفائها للحق مجال الاجتهاد، و«للمجتهد إذا أصاب أجران، وإن لم يصب فله أجر واحد»(1) فلله الأمر فيما أظهر وأبدى أو أسر وأخفى.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨ ﴾ [الكهف: 23 - 28].

وبقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف: 23- 24] يشير إلى عدم الاختيار والمشيئة لحبيبه ونبيه ﷺ في شيء من الأمور، وإن الاختيار والمشيئة لله تبارك وتعالى، وأفعال العباد كلها مبنية على مشيئته كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:30] ومن لم يعلق وقوع فعله بمشيئة الله، فإن من سنته أن يجري الأمر على خلاف مشيئتهم، كما كان حال سليمان عليه السلام في طلب الأولاد إذ دار على نسائه في ليلة واحدة وهن ثلاثمائة نسوة -والله أعلم- لتأتي كل واحدة منهن ولدًا

(1) أخرجه أحمد (4/ 198، رقم 17809)، والبخاري (6/ 2676، رقم 6919)، ومسلم (3/ 1342، رقم 1716)، وأبو داود (3/ 299، رقم 3574)، والترمذي (3/ 615، رقم 1326)، والنسائي (8/ 223، رقم 5381)، وابن ماجه (2/ 766، رقم 2314)، وابن حبان (11/ 445، رقم 5060)، والبيهقي (10/ 119، رقم 20155).

بأن يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله؛ فما أتت بولد إلا واحدة منهن لا شق له، وكما كان النبي ﷺ حين سألته اليهود عن أحوال أصحاب الكهف وعددهم فقال النبي ﷺ: «سأخبركم»(1) ولم يقل: إن شاء الله، فأبهم الله أحوالهم عليه فقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف:22] وهذا تأديب النبي ﷺ حين لم يكل علمها إلى الله تعالى ووعدهم بأن يعلمهم بها.

ومن تأديبه قوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: 22] يعني: نحن نعلم قليلاً من أمتك أحوالهم كرامة لك، وإن لم نعلمكم بالتمام تأديبًا لك، فلا تخبر أنت بما أخبرناك عن أحوالهم ﴿وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا * وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف:22-24] غيرنا لنخبرك تصرفًا بالاستقلال عن أحوالهم ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:24] أي: واذكر بقولك إن شاء الله إذا نسيت وجودك، وإن لك تصرفًا بالاستقلال ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ [الكهف:24] إذ لم يهدني إلى أحوالهم بالشرح يهديني بهذا التأديب ﴿لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:24] أي: إلى طريق أقرب إليه وأرشد من هذا.

ثم أخبر عن لبثهم في الكهف فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف:25- 26] يعني: لو لم يخبر الله عن لبثهم ومدة إقامتهم في الكهف ما كان أحد أن يعلم بمدة لبثهم ولا لهم بها علم كما ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:19] لجهلهم بحال أنفسهم ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ﴾ [الكهف:26] أي: ما غاب عن أهل السموات ﴿وَالأَرْضِ﴾ [الكهف:26] أي: ما غاب عن أهل الأرض ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف:26] أي: هو البصير بكل موجود وهو السميع بكل مسموع، فيه أبصر من أبصر، وبه سمع من سمع ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ﴾ [الكهف:26] أحدًا أي: من دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ [الكهف:26] يخبرهم عن غيب

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره (20/ 84).

السموات والأرض ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ [الكهف:26] من الأزل إلى الأبد ﴿أَحَدًا﴾ [الكهف:26] لعزته.

ثم أخبر عن إيجابه تلاوة كتابه بقوله تعالى ﴿وَاتْلُ﴾ [الكهف:27] على نفسك ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف:27] أي: عن من كتاب كتبه ربك في الأزل ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:27] إلى الأبد وهو قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾(1) [الكهف:28] وهم القلب والسر والروح والخفي يعني: هم المجبولون على طاعة الله وطلبه وشوقه ومحبته، كما أن النفس جبلت على طاعة الهوى، وطلب الدنيا ومحبتها ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف:28] معهم في طاعة الله وطلبه وترك هواها والركون إلى الدنيا وما فيها؛ لتتصف بصفاتهم وهي العبودية على المحبة ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ [الكهف:28] أي: غداة الأزل ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف:28] أي: عشي الأبد ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:28] أي: يطلبون الوصول إلى ذاته تبارك وتعالى ويقصدون الاتصاف بصفاته.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾(2) [الكهف:28] أي: عينا همتك ﴿عَنْهُمْ﴾ [الكهف:28] أي: عن القلب والسر والروح والخفي؛ ليكونوا متوجهين إلى الله تعالى متوحدين في طلبه، فإنك إن لم تراقب أحوالهم تتصرف فيهم النفس الأمارة بالسوء وتغيرهم عن صفاتهم، فإن الرضاع يغير الطباع، وإن طبع النفس أن ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:28] فيريدونها وبها ينزلون عن أعلى عليين إلى أسفل سافلين ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ في

---

(1) أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ تتميم لاتِّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانيًا؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدِّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأخسر هنا إشارة إلى العلم، فتفطَّن لهذ المقام، والله العلاَّم.

(2) أي: عين الأزل، وعين الأبد، وآثر عدم العدِّ، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحسِّ؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له، ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدًّا.

الفطرة الأولى ﴿عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف:28] يعني: النفس ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ [الكهف:28] في متابعة الهوى ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف:28] أي: هلاكًا وخسرانًا.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: 29 - 31].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الكهف:29] في التبشير والإنذار وبيان السلوك لمسالك أرباب السعادة والاحتراز عن مهالك أصحاب الشقاوة.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن﴾ [الكهف:29] من قلوب أهل السعادة ﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:29] من نفوس أهل الشقاوة. وأيضًا، ومن شاء فليؤمن من نفوس أهل السعادة، ومن شاء فليكفر من قلوب أهل الشقاوة ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ [الكهف:29] في الأزل ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ [الكهف:29] وهم الكافرون بما وجب الإيمان به المؤمنون بما وجب الكفر به ﴿نَارًا﴾ [الكهف:29] وهي نار القهر والغضب ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:29] وهي سرادق العزة ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:29] أي: وجوه الأرواح الناضرة المستعدة للنظر إلى ربها؛ أي: يفسد استعدادها للنظر ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف:29] شراب اليأس والقطيعة ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:29] مرتفق البعد والطرد.

ثم أخبر عن إحسان أهل الإيمان بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:30] يشير إلى أن لأهل الإيمان والأعمال الصالحات جزاء يناسب صلاحية أعمالهم وحسنها، فمنها أعمال تصلح للسير إلى الجنان وغرفها وهي الطاعات القلبية من الصدق في طلب الحق والإخلاص في التوجه له بترك الدنيا، والإعراض عما سوى الله، والإقبال على الله بالكلية، والتمسك بذيل إرادة شيخ كامل فاضل مكمل، ليسلكه على طريق المبالغة ظاهرًا وباطنًا، فلا نضيع أجر عمله إن

أحسنه وهو إذ يعبد الله على مشاهدته أو لشهوده ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ﴾ [الكهف:31] أي: جزاءهم وأجرهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ [الكهف:31] للنفوس درجات الجنان ونعيمها ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:31] للقلوب أعلى مقامات القرب.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف: 32 - 36].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف:32] وهما النفس الكافرة والقلب المؤمن ﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا﴾ [الكهف:32] وهو النفس ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف:32] وهما الهوى والدنيا، ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف:32] الشهوات ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ [الكهف:32] حب الرئاسة ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:32] من تمتعات البهيمية ومستلذات الحيوانية.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف:33] من الهوى والدنيا ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف:33] ثمراتها ونتائجها وهي الميلان إلى زينتها وزخارفها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:33] أي: بلا نقصان فيها ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف:33] من قوى البشرية والحواس الخمسة الظاهرة والباطنة.

﴿وَكَانَ لَهُ﴾ [الكهف:34] أي: النفس ﴿ثَمَرٌ﴾ [الكهف:34] من أنواع الشهوات ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ [الكهف:34] وهو القلب ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف:34] أي: يحاور النفس القلب ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ [الكهف:34] أي: أكثر ميلاً ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:34] من الأوصاف المذمومات.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ [الكهف:35] أي: سرح في جنة الدنيا ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾

[الكهف:35] في الاستمتاع بها على وفق هواها بخلاف الشرع مغرورًا بها حتى ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ [الكهف:35] أي: تهلك وتفنى ﴿هَذِهِ﴾ [الكهف:35] الدنيا ﴿أَبَدًا﴾ [الكهف:35] إلى أن نسي القيامة بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف:36] فغرته الحياة الدنيا وغره بالله الغرور حتى قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:36] يعني: لأنه رحيم كريم يعطيني في الآخرة خيرًا مما أعطاني في الدنيا وهذا غاية الغرور بالله وكرمه وهو مخالفة لأوامره ونواهيه، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:6] على قوله: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:13- 14].

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف: 37 - 41].

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ [الكهف:37] وهو القلب ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف:37] لتنكر نعمه وأنت تكفرها ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ [الكهف:38] فأشكره ولا أكفره ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:38] كما أشركت يا نفس واتخذت إلهك الهوى ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف:39] أي: هلا إذا شرعت في الدنيا كنت في التصرف فيها بأمر الشرع و﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الكهف:39] أي: أتصرف فيها كما شاء الله وأمرني بها ﴿لاَ قُوَّةَ﴾ [الكهف:39] للتصرف فيها ﴿إِلاَّ بِالله إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف:39] أي: أقل ميلاً إلى الدنيا منك يا نفس وأقل ولدًا لأوصاف نفسي﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف:40] أي: من جنات الروحانية الباقيات الأخرويات ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ [الكهف:40] أي: على جنتك الدنيوية الشهوانية ﴿حُسْبَانًا﴾ [الكهف:40] آفة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف:40] من الآفات ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:40] لا حاصل لها

إلا الحسرة والندامة ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف:41] أي: ماء قواها يغور بالموت ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف:41] للحياة أي: فلا تقدر على إحيائها.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48)﴾ [الكهف: 42 - 48].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف:42] أي: أحاط بأنواع شهواتها الهلاك والفساد ﴿فَأَصْبَحَ﴾ [الكهف:42] أي: النفس يوم القيامة ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ [الكهف:42] حسرة وندامة ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:42] من العمر والاستعداد لقبول الكمال، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف:42] أي: جنة الدنيا ساقطة خالية عما فيها ﴿وَيَقُولُ﴾ [الكهف:42] النفس ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:42] أي: لم أشرك بعبادة ربي عبادة الهوى والدنيا ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ [الكهف:43] صفات وأخلاق حميدة ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ﴾ [الكهف:43] أي: يدفعون عنه عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:43] ممتنعًا من العذاب ﴿هُنَالِكَ الوَلَايَةُ للهِ الحَقِّ﴾ [الكهف:44] أي: الحق مع أهل ولاية الله يومئذٍ إذ لم يشركوا بعبادة الله الهوى، ولم يتخذوا من دون الله وليًا وما أنفقوا عمرهم في طلب غير الله وما صرفوا حسن استعدادهم إلا لقبول فيض الله بلا واسطة ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ [الكهف:44] لأهل ولايته من ثواب أهل الدنيا وثواب أهل الآخرة ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:44] لهم إذ صاروا إلى الله إذ صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار فافهم جدًا.

ثم أخبر عن حال الفانيات والباقيات بقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف:45] يشير إلى أن الماء هو الروح العلوي الذي أنزله إلى

أرض الجسد، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ بالروح ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ [الكهف:45] وهي الأخلاق الذميمة النفسانية، فإن اتصف الروح العلوي بالخذلان أي: أرض النفس ونبات صفاتها حتى يختلط بها فإنه يتطبع بطبع النفس السفلية ويتصف بصفاتها ويتخلق بأخلاقها، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ [الكهف:45] قد تلاشت منه نداوة الأخلاق الروحانية الحميدة بجذب هواء الطبيعة ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:45] أي: تفرقه رياح الأهوية المختلفة حتى أهلكته في وادٍ من الأودية السفلية وهذا تحقيق قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ [التين: 4] أي: الروح الإنساني ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:4- 5] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [وَالعصر:2] إذا أخلي إلى طبيعته الإنسانية فأما الذي أدركته العناية الأزلية بعد تعلق الروح بالحب كتعلق الماء بالأرض فيبعث الله إليه لنفسه دهقان من دهاقين الأنبياء والأولياء معه بذر الإيمان والتوحيد؛ ليلقيه بيد الدعوة وتبليغ الرسالة في أرض نفسه فيقع منها في تربة طيبة وهي القلب كما ضرب الله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:24].

وكقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:58] فينبت عن بذر التوحيد وهي كلمة لا إله إلا الله شجرة الإيمان بماء الشريعة فتعلو به الروح من أسفل الإنسانية إلى أعلى الدرجات الروحانية وأقرب منازل قربات الربانية كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:10] وهذا تحقيق قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين:- 6] وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [وَالعصر:2- 3].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:45] قادر على أن يخلده ويبقيه في أسفل سافلين الجسمانية الحيوانية ليصير الروح العلوي ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:44] وعلى أن يجذبه بجذبات العناية إلى أعلى عليين مراتب القرب ليكون مسجودًا للملائكة المقربين في قوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:46] إشارة إلى أن حياة الدنيا كما تحققت أنها فانية فكذلك زينتها التي هي المال والبنون فانية.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ [الكهف:46] وهي ترك الدنيا وزينتها طلبًا لخالقها

وبارثها بالإيمان والإخلاص والمتابعة ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:46] لأن ثواب الدنيا وأملها فانٍ وثواب الله وأمله باقٍ كقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل:96] وأيضًا الباقيات الصالحات أي: ما فني منك وبقي بربك بإفنائه وإبقائه خير لك عند ربك ثوابًا وخير أملاً؛ لأن ثوابك عند ربك بفنائك فيه وبقائك به.

ثم أخبر عن أحوال القيامة وأهوالها بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:47] يشير إلى عزته وعظمته، وإظهار سلطته من جلاله وقهره وآثار عدله؛ لينتبه النائمون من نوم غفلتهم ويتأهب الغافلون أسباب النجاة لذلك اليوم ويصلحوا أمر سريرتهم وعلانيتهم لخطاب الحق تعالى وجوابه؛ إذ إليه المرجع والمآب.

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي: صفًا صفًا من الأنبياء والأولياء والمؤمنين والكافرين والمنافقين ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في أربعة صفوف: صف من الأنبياء، وصف من الأولياء، وصف من المؤمنين وصف من الكافرين والمنافقين، وفيه معنى آخر ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: كما قدرناكم أن تكونوا طبقات شتى، وفيه معنى آخر على ما خلقناكم من ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة:8] ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة:10- 11].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:48] هذا خطاب أصحاب المشأمة.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ﴾ [الكهف: 49 - 52].

﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ [الكهف:49] خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ

وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ [الكهف:49] وهي كل تصرف في شيء بالشهوة النفسانية وإن كانت من المباحات ﴿وَلاَ كَبِيرَةً﴾ [الكهف:49] وهي التصرف في الدنيا على حبها وإن كان من حلالها؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ﴿إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:49] علمها.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف:49] لأنهم كتبوا صالح أعمالهم بقلم أفعالهم على صحائف قلوبهم وسوء أعمالهم على صحائف نفوسهم، وقد يوجد عكس ما في هذه الصحائف على صفحات الأرواح، وإن كان نورانيًا أو ظلمانيًا ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:49] فإن كان النور غالبًا على صفحة روحه فهو من أهل الجنان، وإن كانت الظلمة غالبة عليها فهو هالك ومن لا يشوب نوره بالظلمة فهو من أهل الدرجات والقربات ومن أدركته الجذبات وبدلت سيئاته بالحسنات وأخرج إلى النور الحقيقي من الظلمات فهو ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

ثم أخبر عن فضيلة آدم المكرم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾ [الكهف:50] إشارة إلى معانٍ وحكم أودعها الله فيه:

فمنها: ما يتعلق بالله ﷻ وهو أنه تعالى أراد أن يظهر به صفة لطفه وصفة قهره وكمال قدرته وحكمته، فأظهر لطفه بآدم أن خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأمر ملائكته الذين خلقوا من النور بسجوده، ومن كمال لطفه وجوده وأظهر صفة قهره بإبليس إذ أمره بسجود آدم بعد أن كان رئيس الملائكة ومقدمهم ومعلمهم وأشدهم اجتهادًا في العبادة حتى لم يبق في سبع سماوات ولا في سبع أرضين شبر إلا وقد سجد لله تعالى عليه سجدة حتى امتلأ العجب بنفسه حين لم ير أحدًا بمقامه فأبى أن يسجد لآدم استكبارًا، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:76] فلعنه الله وطرده إظهارًا للقهر وإظهار كمال قدرته وحكمته بأن بلغ من غاية القوة والحكمة ما خلقه من قبضة خراب ظلماني كثيف سفلي إلى مرتبة يسجد له جميع ملائكته المقربين الذين خلقوا من نور علوي لطيف روحاني.

ومنها: ما يتعلق بآدم ﷺ وهو أنه تعالى لما أراد أن يجعله خليفة في الأرض أودع في

طينته عند تخميرها بيده أربعين صباحًا سر الخلافة وهو استعداد قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، وقد اختصه الله تعالى وذريته بهذه الكرامة لقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] من بين سائر المخلوقات كما أخبر النبي عن كشف قناع هذا السر بقوله: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»[1] ولهذه الكرامة صار مسجودًا للملائكة المقربين.

ومنها: ما يتعلق بالملائكة وهو أنهم لما خلقوا من النور الرحماني العلوي كان من طبعهم الانقياد لأوامر الله والطاعة والعبودية له فلما أمر بسجود آدم وامتحنوا به وذلك غاية الامتحان؛ لأن السجود أعلى مراتب العبودية له فلما أمروا بسجود آدم والتواضع لله فإذا امتحن به أحد أن يسجد لغير الله فذلك غاية الامتحان للامتثال، فلم يتلعثموا في ذلك وسجدوا لآدم بالطوع والرغبة من غير كرهٍ وإباءٍ امتثالاً وانقيادًا لأوامر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6].

ومنها: ما يتعلق بإبليس وهو أنه لما خلق للضلالة والغواية والإضلال والإغواء خلق من النار وطبعها الإشعال والاستكبار وإن نظمه الله في سلك الملائكة منذ خلقه وكساه كسوة الملائكة وهو قد تشبه بأفعالهم تقليدًا لا تحقيقًا حتى عد من جملتهم، وذكر في زمرتهم، وزاد عليهم في الاجتهاد بالاعتبار لا بالاعتقاد فاتخذوه رئيسًا ومعلمًا؛ لما رأوا منه اشتداده في الاجتهاد بالإراءة دون الإرادة فلما امتحن بسجود آدم في جملة الملائكة هبت نكباء النكبة وانخلعت عنه كسوة أهل الرغبة والرهبة ليميز الله الخبيث من الطيب، فطاشت عنه تلك المخادعات وتلاشت منه تلك المبادرات وعاد المشئوم إلى طبعه وقد تبين الرشد من غيِّه، فسجد الملائكة وأبى إبليس واستكبر من غيِّه وظهر أنه كان من الجن وأنه طُبع كافرًا.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:50] وخلع قلادة التقليد عنه ليعلم أن الأصل لا يتخطى، ويتحقق أن في هذا الامتحان يكرم الرجل أو يهان، كما أن البعرة تشابه المسك وتعارضه في الصورة. فلما امتحن بالنار تبين المقبول من المردود والمبغوض من المودود.

(1) تقدم تخريجه.

ثم بقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: 50] يشير إلى أن في أولاد آدم من هو في صورة آدم لكنه في صفة إبليس، وأنهم شياطين الإنس وأمارتهم أنهم يتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله فيطيعون الشيطان ولا يطيعون الرحمن ويتبعون ذرية الشيطان ولا يتبعون ذرية آدم من الأنبياء والأولياء ولا يفرقون بين الأولياء والأعداء فبجهلهم يُظلمون على أنفسهم ويبدلون الله وهو وليهم بالشياطين ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:50] وفيه إشارة إلى أن أولياء الله هم الذين لا يبدلون الله بما سواه، ويتخذون ما سواه عدوًا.

وفي قوله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:51] إشارة إلى أن الله تعالى لما أخبر أنه ما أشهد الشياطين خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم؛ لأنهم الأعداء دليل على أن يشهد بعض أوليائه على شيء ما أشهد عليه أعداءه، وإن استبعد العقل إمكانه؛ لأن العقل لا يحكم بإشهاد شيء معدوم على إيجاده، ولكن الله تعالى إذا أراد إجراء هذا الأمر يتجلى بصفة عالميته لمن يشاء من عباده فيبصره بنور علمه المحيط بالأزل والأبد ابتداء تعلق قدرته بالأشياء المعدومة، وكيفية إخراجها من العدم إلى الوجود فيشهده خلق كل شيء حتى خلق نفسه ويخبره عن خاصية كل شيء وحكمة إيجادها ويعلمه أسماء الموجودات كقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] وعلى شهوده ونظره يخرج من العدم ما هو المقدر خروجه إلى الأبد وهذا مما لا يدرك نظره العلماء بالعقل؛ لأن الله تعالى أنعم على هذا الضعيف بكشف هذه الواقعة الشريفة في أثناء السلوك والسير إلى الله تعالى فيما رزقه من كشف حقائق الأشياء عليه وأراه ماهيتها له.

ثم أخبر عن نداء الشركاء يوم اللقاء بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف:52] يشير إلى أن امتثال أوامر الله ونواهيه ينفع العبد إذا كان في الدنيا قبل موته ويثمره في الآخرة فأما إذا كان في الآخرة فلا ينفعه الإيمان ولا الأعمال فإن قوله تعالى: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ [الكهف:52] أمر من الله تعالى وقد امتثلوا أمره بقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ [الكهف:52] فلم ينفعهم الامتثال؛ لأن الشركاء لم

يستجيبوا لهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد:13].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ [الكهف:52] أي: بين المصرين على الشرك والذنوب وبين الإيمان ﴿مَّوْبِقًا﴾ [الكهف:52] يمنعهم عن الإيمان في الدنيا وهو الخذلان باستيلاء الهوى واستحلاء الدنيا وفي الآخرة عن الجنان، وهو القهر والعزة.

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف: 53 - 57].

في قوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:53] إشارة إلى أن المجرمين لما رأوا في الدنيا ما يدخلهم النار من المحرمات والشهوات وأكل الربا وأكل مال اليتيم فلم يمتنعوا عنها وواقعوها ولم يجدوا ما يصرفهم عنها من الديانة والإيمان الحقيقي بالجنة والنار والبعث والنشور والحساب والميزان والصراط والثواب والعقاب، فإذا رأوا في الآخرة النار أيقنوا أنهم مواقعوها بما لم يحترزوا عنها في الدنيا، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:53] كما لم يجدوا في الدنيا ما يصرفهم عن الأعمال الموجبة للنار.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف:54] يحتاج إليه السائرون إلى الله الصادقون في محبة الله، المخلصون في طلب الله المشتاقون إلى جمال الله ويستدل به الموحدون في وحدانية الله، ويتمسك به الواصلون إلى الله في بذل الوجود والفناء في الله ليبقوا بالله، ولكن من طبيعة الإنسان المجادلة والمخاصمة وبها يقطعون الطريق على أنفسهم فتارة مع الأنبياء يجادلون ولا يقبلونهم بالنبوة والرسالة حتى يقاتلوهم.

وتارة يجادلون في الكتب المنزلة ويقولون: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:91] وتارة يجادلون في محكماتها، وتارة يجادلون في متشابهاتها، وتارة يجادلون في قراءتها، وتارة يجادلون في قدمها وحدوثها، وعلى هذا حتى لم يفرغوا من المجادلة إلى المجاهدة، ومن المخاصمة إلى المعاملة، ومن المنازعة إلى المطاوعة، ومن المناظرة إلى المواصلة فلهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:54] ومن هنا عالجهم بقوله: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ [الكهف:55] أي: أسباب الهداية ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ [الكهف:55] أن كانوا مذنبين ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف:55] إشارة إلى أن أسباب الهداية إن اجتمعت بالكلية لا يهتدي بها الناس ولا يؤمنون إلا أن تأتيهم سنة الأولين من الأنبياء والأولياء والمؤمنين وهي جذبات العناية لأهل الهداية فإنها سنة الله التي قد خلت من قبل كما قال ﷺ: «والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا»[1].

وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13] فالاهتداء بهداية الله وبالسيف وهو قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف:55] كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[2] وكما قال: «أنا نبي السيف ونبي الملحمة»[3].

ثم أخبر عن شريعة الأنبياء والمرسلين إلى الكفر وأهل الدين بقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ [الأنعام:48] أي: أهل المحبة والولاء المبتلين بالمحبة

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (7/ 392، رقم 36874).

(2) أخرجه أحمد (3/ 224، رقم 13372)، والبخاري (1/ 153، رقم 385)، وأبو داود (3/ 44، رقم 2641)، والترمذي (5/ 4، رقم 2608)، والنسائي (7/ 76، رقم 3967)، وابن حبان (13/ 215، رقم 5895)، والدارقطني (1/ 232)، والبيهقي (2/ 3، رقم 2031)، والضياء (5/ 277، رقم 1913).

(3) أخرجه أحمد (5/ 405، رقم 23492)، والترمذي في الشمائل المحمدية (1/ 306، رقم 368)، وابن سعد (1/ 104).

والبلاء الصابرين في البأساء والضراء، والصادقين في دعوى الوفاء بالاجتباء والاصطفاء والوصلة واللقاء ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:48] لأهل الجفاء وكفرة النعماء في البؤس والرخاء بالقطيعة والفناء وسوء العاقبة والإيواء.

وفي قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف:56] إشارة إلى عناد أهل الكفر مع أهل الحق من الأنبياء والأولياء جهلاً منهم وضلالة بشأنهم يرون الحق باطلاً، والباطل حقًا وذلك من عمى قلوبهم وسخافة عقولهم أنهم يسعون في إبطال الحق وتحقيق الباطل، فإن أهل الحق هم المنقادون للأنبياء والأولياء المستسلمون لهم من غير عناد وجدال؛ وذلك لأنهم ينظرون بنور الله فيرون الحق حقًا ويتبعونه، ويرون الباطل باطلاً ويجتنبونه لا جرم أنهم يتخذون آيات الله من القرآن وغيره ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ [الكهف: 56] به من نار القطيعة وغيرها جزاء فيأتمرون بما أمروا به وينتهون عما نهوا عنه ولا يتخذونها ﴿هُزُوًا﴾ [الكهف:56].

كما أخبر الله تعالى عن أهل الباطل ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: 56]، وبقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف:57] يشير إلى أن من كانت هذه صفته فهو أظلم الناس على نفسه؛ لأن الإعراض أعظم من الشرك فإن المشركين يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:18].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13] فالمعرض أعظم ظلمًا من المشرك ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:57] من الشرك فتولد الإعراض من شركه، كما أخبر بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف:57] أي: غطاء من الشرك ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف:57] أي: يفهموا أن غطاء قلوبهم من الشرك، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف:57] من الإعراض ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ [الكهف:57] لم يسمعوا لصمم آذان قلوبهم من الإعراض ﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:57] لأن الاهتداء موقوف على استماع دعوة الحق وهو ممنوع بصمم الإعراض.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم

مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: 58 - 62].

وبقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:58] يشير إلى أن رحمة الله في الدنيا تعم المؤمن والكافر؛ لأنه لا يؤاخذهم بما كسبوا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:58] أي: ملجأ من العذاب وفيه إشارة إلى أن الرحمة تختص يوم القيامة بالمؤمن دون الكافر والعذاب يختص بالكافر دون المؤمن، وإن كان في الدنيا يعم المؤمن والكافر.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف:59] أي: إنما أهلكنا أهل تلك القرى بعد أن كان من سنتنا أن تعم رحمتنا المؤمن والكافر في الدنيا؛ لأنهم ضموا مع كفرهم الظلم ومن سنتنا أن يمهل الظالم ولا يهمله كما قال ﷺ: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام:129] وذلك لأن دعوة المظلومين المضطرين مؤثرة ودعاءهم مستجاب، قال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم، فإنه ليس لها عند الله حجاب»[2] قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:59] أي: جعلنا موعد هلاك الكافر غلوه في الظلم، والظلم مرتعه وخيم.

ثم أخبر عن أهل الصحبة وآدابهم بالخدمة والحرمة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:60] اعلم أن في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [الكهف:60] إشارات:

منها: أن شرط المسافر أن يطلب الرفيق، ثم يأخذ الطريق.

ومنها: أن من شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميرًا، والثاني مأمورًا له ومتابعًا.

ومنها: أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبره عن مدة مكثه في سفره ليكون

---

(1) ذكره النيسابوري (4/ 337).

(2) أخرجه أحمد (3/ 153، رقم 12577).

الرفيق واقفًا على أحواله، فإن كان موافقًا يرافقه في ذلك.

ومنها: أن من شرط الطالب الصادق أن تكون نيته في طلب شيخ يقتدي به وألا يبرح حتى يبلغ مقصوده ويظفر به، وإلا سيكون بقية عمره طالبًا له فإن طلب الشيخ طلب الحق تعالى على الحقيقة.

وبقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: 61] يشير إلى أن الطالب الصادق إذا قصد خدمة شيخ كامل يسلكه طريق الحق يلزمه مرافقة رفيق التوفيق ومعه حوت قلبه الميت بالشهوات النفسانية المملح بملح حب الدنيا وزينتها.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ [الكهف:61] المجمع هو ولاية الشيخ وبينهما أي: بين الطالب وبين الشيخ ولا يظفر المريد بصحبة الشيخ ما لم يصل إلى مجمع ولايته فافهم جدًّا، وعند مجمع الولاية عين الحياة الحقيقية فبأول قطرة من تلك العين تقع على حوت قلب المريد يحيا ويتخذ سبيله في البحر عن الولاية ﴿سَرَبًا﴾ [الكهف:61].

ومنها : أن الله يحول بين المرء وقلبه فنسي المريد قلبه حين فقده وينسى القلب المريد إذا وجد الشيخ.

وفي قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ [الكهف:62] إشارة إلى أن المريد في أثناء السلوك لو تطرقت إليه الملالة وأصابت قلبه الكلالة وسولت له نفسه التجاوز عن خدمة الشيخ وترك صحبته حتى يظن أنه لو سافر عن خدمته واشتغل بطاعة ربه وجاهد نفسه في طلب الحق تعالى لعله يصل مقصده ويحصل مقصوده بلا واسطة الشيخ والاقتداء به هيهات، فإنه ظن فاسد ومتاع كاسد، وأنه يضيع عمره ويتعب نفسه ويقع عن سبل الرشاد، ويبعد عن طريق السداد إلى أن أدركته العناية الأزلية التي هي الكفاية الأبدية ورد إليه صدق الإرادة.

﴿قَالَ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف:62] فيقول لرفيق التوفيق: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف:62] أي: صحبة الشيخ ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ [الكهف:62] الذي جاوزنا عن صحبة الشيخ ﴿نَصَبًا﴾ [الكهف:62] أي: تعبًا ولقينا نصبًا كثيرًا بلا فائدة الوصول ونيل

المقصود.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: 63 - 65].

فقال رفيقه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف:63] صخرة النفس وتسويلها جاوزنا صحبة الشيخ ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ [الكهف:63] حوت القلب ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف:63] شيطان الخذلان ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:63] أي: أذكر لك أنا نسينا حوت القلب.

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:63] منا أن نمشي بلا قلب، قال ـ يعني: المريد ـ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف:64] من قلبي أن نتخذ سبيله في بحر ولاية الشيخ الكامل وتحسر على فوات صحبة الشيخ ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:64] أي: رجع عما كان عليه من تلك الصحبة وعاد إلى ملازمة الخدمة في مرافقة رفيق التوفيق.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف:65] أي: حرًا من رق عبودية غيرنا من أحرارنا أي: ممن أحررناهم من رق عبودية الأغيار واصطفيناهم من الأخيار، ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف:65] يعني: جعلناه قابلاً لفيض نور من أنوار صفاتنا بلا واسطة، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65] وهو علم معرفة ذاته وصفاته الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليمه إياه.

واعلم أن كل علم يعلمه الله تعالى عباده ويمكن للعباد أن يتعلموا ذلك العلم من غير الله فإنه علم صنعة اللبوس ليس من جملة العلم اللدني؛ لأنه يمكن أن يتعلم من لدن غيره يدل عليه قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ [الأنبياء:80] فإن علم صنعة اللبوس مما علمه الله داود عليه السلام فلا يقال: إنه العلم اللدني؛ لأنه يحتمل أن يتعلم من غير الله تعالى فيكون من لدن ذلك الغير، وأيضًا أن العلم اللدني ما يتعلق بلدن الله ـ جل وعلا ـ وهو علم معرفة ذاته وصفاته تعالى.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ

صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الكهف: 66 - 78].

ثم أخبر عن شرائط الصحبة وفوائد الخدمة بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:66] القصة.

اعلم أن في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف:66] إلى أن قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:78] إشارة إلى أدب أهل الصحبة من المريدين المسترشدين والمشايخ السالكين الهادين ومن شرائطهم في الاقتداء والاستهداء والتربية والهداية، فمن آداب المريد الصادق بعد طلب الشيخ ووجدانه أن يستجيز منه في اتباعه وملازمة صحبته تواضعًا لنفسه وتعظيمًا لشيخه، بعد مفارقة أهاليه وأوطانه وترك مناصبه وأتباعه وإخوانه وأصدقائه كما كان حال موسى عليه السلام إذ قال للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:66] بإرشاد الله لك أي: تعلمني طريق الاسترشاد من الله تعالى بلا واسطة جبريل والكتاب المنزل ومكالمة الحق تعالى، فإن جميع ذلك كان حاصلاً له، فإن قيل: فهل مرتبة فوق هذه المراتب الثلاثة؟

قلنا: إن هذه المراتب وإن كانت جليلة، ولكن مجيء جبريل يقتضي الواسطة، وإنزال الكتاب يدل على البعد والمكالمة تنبئ عن الاثنينية والرشد الحقيقي من الله للعبد هو أن يجعله قابلاً لفيض نور الله بلا واسطة وذلك بتجلي صفات جماله وجلاله الذي كان مطلوب موسى بقوله: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143] فإن فيه رفع الاثنينية،

وإثبات الوجود الذي لا يسع العبد فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

ومنها: أن المريد إذا استسعد بخدمة شيخ واصل ينبغي أن يخرج عما معه من الحسب والنسب والجاه والمنصب والفضائل والعلوم ويرى نفسه كأنه أعجمي لا يعرف البحر من البر وينقاد لأوامره ونواهيه كما كان حال كليم الله لم تمنعه النبوة والرسالة ومجيء جبريل وإنزال التوراة، ومكالمة الله واقتداء بني إسرائيل به أن يتبع الخضر ويتواضع معه ويترك أهاليه وأتباعه وأشياعه وكل ما كان له من المناصب والمناقب، وتمسك بذيل إرادته منقادًا لأوامره ونواهيه.

ومنها: أن يكون المريد ثابتًا في الإرادة بحيث لو يرده الشيخ كرات بعد مرات ولا يقبله امتحانًا له في صدق الإرادة ويلازم عتبة بابه، ويكون أقل من ذباب فإنه كلما ذب آب كما كان حال كليم الله، فإنه كان الخضر يرده ويقول له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:67- 68] أي: كيف تصبر على فعل يخالفه مذهبك ظاهرًا ولم يطلعك الله على الحكمة في إتيانه باطنًا ومذهبك أنك تحكم بالظاهر على ما أنزل الله عليك من علم الكتاب ومذهبي أن أحكم بالباطن على ما أمرني الله من العالم اللدني.

وقد كوشفت حقائق الأشياء ودقائق الأمور في حكمة إجرائها، وذلك أنه تعالى أفناني عني بهويته وأبقاني به بألوهيته، فبه أبصر، وبه أسمع، وبه أنطق، وبه آخذ، وبه أعطي، وبه أفعل، وبه أعلم، فإني أعلم ما لم تعلم.

وأنه يقول: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:69-72].

ومنها: أن يكون صابرًا على مقاساة شدائد الصحبة والخدمة، منقادًا لأوامر الشيخ ونواهيه، مستسلمًا لأحكامه، متأدبًا بتأديبه، قابلاً لتربيته، ملتجئًا إلى ولايته، مستظهرًا بعنايته، مهتديًا بهدايته.

ومنها: ألا يكون معترضًا على أفعاله وأقواله وأحواله وجميع حركاته وسكناته، معتقدًا له في جميع حالاته، وإن شاهد منه معاملة غير مرضية بنظر عقله وشرعه فلا ينكره بها ولا يسيء الظن فيه، بل يحسن فيه الظن ويعتقد أنه مصيب في معاملاته، مجتهد في آرائه، وإنما الخطأ من تصور نظره وسخافة عقله وقلة علمه.

ومنها: أن يسد على نفسه باب السؤال فلا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا إما بالقال وإما بالحال.

ومن آداب الشيخ وشرائطه في الشيخوخة: ألا يحرص على قبول المريد، بل يمتحنه بأن يخبره عن دقة صراط القلب وحدته، وعزة المطلوب وغيرته، وفي ذلك يكون له مبشرًا ولا يكون منفرًا، فإن وجده صادقًا في دعواه راغبًا فيما يهواه عما سواه يقبله بقبول حسن ويكرم مثواه، ويقبل عليه إقبال مولاه، ويربيه تربية الأولاد، ويؤدبه بآداب العباد.

ومنها: أنه يتغافل عن كثير من زلات المريد رحمة الله عليه، ولا يؤاخذه بكل سهو أو خطأ أو نسيان أو عمد بضعف حاله إلا بما يؤدي إلى مخالفة أمر من أوامره أو مزاولة نهي من نواهيه، أو يؤدي إلى إنكار واعتراض على بعض أفعال له وأقوال، فإنه يؤاخذه به وينهاه عن ذلك، فإن رجع عن ذلك فاستغفر منه واعترف بذنبه وندم عليه وشرط معه ألا يعود إلى مثاله ويعتذر مما جرى عليه كما كان الكليم حين قال: ﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف:73-76] أي: لا تضيق علي أمري فإني لا أطيق ذلك.

ومنها: أنه لو ابتلي المريد بنوع من الاعتراض أو مما يوجب الفرقة يعفو عنه مرة أو مرتين، ويصفح ولا يفارقه، فإن عاد إلى الثالثة فلا يصاحبه ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:76، 77] فقل كما قال الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ [الكهف:78].

ومنها: أنه لو آل أمر الصحبة إلى المفارقة بالاختيار وبالاضطرار فلا يفارقه إلا على النصيحة؛ فينبئه عن سر ما كان عليه الاعتراض، ويخبره عن حكمته التي لم يحط بها خبرًا، ويبين له تأويل ما لم يستطع عليه صبرا؛ لئلا يبقى معه إنكار فلا يفلح إذا أبدًا.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف: 79 - 82].

ثم أخبر عن تأويل أفاعيله بقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[1] [الكهف:79] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:82] إشارة إلى حقائق ومعانٍ:

منها: أن إخراق السفينة وإعابتها لئلا تؤخذ غصبًا ليس من أحكام الشرع ظاهرة ولكنه لما كان فيه مصلحة لصاحبها في باطن الأمر جوز ذلك ليعلم أنه يجوز للمجتهد أن يحكم فيما يرى أنه صلاحه أكثر من فساده في باطن الأمر بما لا يجوز في ظاهر الشرع إذا كان موافقًا الحقيقة كما قال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:79].

ومنها: لكي يعلم عنايته بنبي من أنبيائه وعناية الله في حق عباده المساكين بأنهم يعملون في البحر غافلين عما وراءهم من الآفات، فكيف إن أدركتهم العناية ونبي من أنبيائه دفع عنهم البلاء ودرأ عنهم الآفة.

ومنها: ليعلم أن الله تعالى في بعض الأوقات يرجح مصلحة بعض المساكين على مصلحة نبي من أنبيائه في الظاهر، وإن كان لا يخلو في باطن الأمر من مصلحة النبي في

---

(1) (المساكين) أي: ضُعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وأَمِتْنِي مِسْكِينًا، واحْشُرْنِي في زُمرةِ الْمَسَاكِينِ» فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: احشرني مخبتًا متواضعًا، غير جبار ولا متكبر.

إهمال جانبه في الظاهر، كما أنه تعالى رجح رعاية مصلحة المساكين في خرق السفينة على رعاية مصلحة موسى عليه السلام؛ لأنه كان من أسباب مفارقته عن صحبة الخضر ومصلحته ظاهرًا كانت في ملازمة صحبة الخضر، وقد كان فراقه عن صحبته متضمنًا عطاء النبوة والرسالة ودعوة بني إسرائيل وتربيتهم في حق موسى عليه السلام باطنًا.

ومنها: أن قتل النفس الزكية بلا جرم منها محظور في ظاهر الشرع، وإن كان فيه مصلحة لغيره، ولكنه في باطن الشرع جائز عند من يكاشف بخواتيم الأمور ويتحقق له أن حياته سبب فساد دين غيره، وسبب كمال شقاوة نفسه كما كان حال الخضر مع قتل الغلام بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:80] فلو عاش الغلام لكانت حياته سبب فساد دين أبويه وسبب كمال شقاوته، فإنه وإن طبع كافرًا شقيًا لم يكن ليبلغ كمال شقاوته إلا بطول الحياة ومباشرة أعمال الكفر.

ومنها: تحقيق قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216] فإن أبوي الغلام كانا يكرهان قتل ابنهما بغير قتل نفس ولا جرم، وكان قتله خيرًا لهما وإن كانا يحبان حياة ابنهما وهو أجهل الناس وكانت حياته شرًا لهما، وكان الغلام أيضًا يكره قتل نفسه وهو خير له ويحب حياة نفسه وهو شر له؛ لأنه أراد طول الحياة أن يبلغ إلى كمال شقاوته.

ومنها: أن من عواطف إحسان الله تعالى أنه إذا أخذ من العبد المؤمن شيئًا من محبوباته، وهو مضر له والعبد غافل عن مضرته، فإن حب وشكر فالله يبدله خيرًا منه مما ينفعه ولا يضره كما قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف:81].

ومنها: أنه من كمال حكمته وغاية رأفته ورحمته في حق عباده أن يستعمل نبيين مثل موسى وخضر - عليهما السلام - في مصلحة الطفلين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف:82].

ومنها: أن مثل الأنبياء يجوز أن يسعى في أمر دنياوي إذا كان فيه صلاح أمر أخروي، لاسيما فائدته راجعة إلى غيره في الله.

ومنها: ليعلم أن الله تعالى يحفظ مصالح قوم وقبيلة ويوصل بركاته إلى البطن السابع فيه كما قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:82].

ومنها: ليتأدب المريد فيما استعمله الشيخ وينقاد له، ولا يعمل إلا لوجه الله، ولا يشوب عمله بطبع دنياوي وغرض نفساني ليحبط عمله ويقطع حبل الصحبة ويوجب الفرقة.

ومنها: أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد إذا كان له فيه صلاح كما قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:82].

ومنها: ليتحقق أن كل ما يجري على أرباب النبوة وأصحاب الولاية إنما يكون بأمر من أوامر الله ظاهرًا أو باطنًا.

أما الظاهر: فكحال الخضر قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف:82] أي: فعلته بأمر ربي.

وأما الباطن: فكحال موسى واعتراضه على الخضر في معاملاته ما كان خاليًا عن أمر باطن من الله تعالى في ذلك؛ لأنه كان اعتراضه على وفق شريعته.

ومنها: أن الصبر على أفاعيل المشايخ أمر شديد، فإن زل قدم مريد صادق في أمر من أوامر الشيخ أو يتطرق إليه إنكار على بعض أفعال الشيخ أو يعتريه اعتراض على بعض معاملاته أو يعوزه الصبر على ذلك، فليعذره الشيخ ويعفو عنه ويتجاوز إلى ثلاث مرات فإن قال بعد الثالثة: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[1] [الكهف:78] يكون معذورًا ومشكورًا، ثم ينبئه عن أسرار أفاعيله ويقول له تأويل: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:78].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ

(1) فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبوَيْ الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت» نوعُ تعريضٍ به وعناية عليه السلام. البحر المديد (3/ 424).

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾ [الكهف: 83 - 88].

ثم أخبر عن السؤال وجوابه بالفضل والنوال بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:83] إن السائل لا يرد وأن في القصص للقلوب عبرة وتقوية وتبينًا.

وبقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف:84] يشير إلى تمكين الخلافة أي: مكناه بخلافتنا في الأرض ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:84] أي: أعطيناه بالخلافة ما كان سبب وجود كل مقدور من مقدوراتنا بالأصالة حتى صار قادرًا على قلب الأعيان، وكانت الدنيا مسخرة له فلو أراد طويت له الأرض، وإذا شاء مشى على الماء وإذا أحب طار في الهواء أو يدخل النار.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:85] أي: سبب كل مقدور فصار مقدورًا له بالخلافة في الأرض ما كان مقدورًا لنا بالأصالة في السماء والأرض.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:86] فإن قال قائل: إنا قد علمنا أن الشمس في السماء الرابعة ولها فلك خاص يدور بها في السماء، فكيف يكون غروبها في عين حمئة؟

قلنا: إن الله تعالى لم يخبر عن حقيقة غروبها في عين حمئة، وإنما أخبر عن وجدان ذي القرنين غروبها فيها، فقال: وجدها تغرب في عين حمئة، وذلك أن ذا القرنين ركب بحر المغرب وأجرى مركبه إلى أن يبلغ في البحر موضعًا لم يتمكن جريان المراكب فيه فنظر إلى الشمس عند غروبها وجدها تغرب بنظره في عين حمئة.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:86] يدل على أن ذا القرنين كان نبيًا؛ لأنه أمر بالقتال معهم بقوله: ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ [الكهف:86] وأمر باتخاذ الإيمان منهم بقوله: ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

[الكهف:86] والنبوة مبنية على هذين الأمرين كما قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» ويدل على نبوته أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ [الكهف: 87] أو كفر ولا يقبل الإيمان منه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ [الكهف:87] أي: نقلته ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف:87] أي: عذابًا مخلدًا لا يعرف آخره إلى الأبد.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ [الكهف:88] أي: الجنة والقربة في الآخرة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:88] أي: قولاً لا يهتدي به إلى الله باليسر والسهولة.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: 89 - 98].

ثم أخبر عن جده في الطلب واتباعه للسبب بقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:89 ـ90] إشارة إلى أن هذا العالم عالم الأسباب لم يبلغ أحد إلى شيء من الأشياء، ولا إلى مقصد من المقاصد إلا إن مكنه الله تعالى، وأتاه سبب بلاغ ذلك الشيء والمقصد، ووفقه لاتباع ذلك السبب، فباتباع السبب بلغ ذو القرنين مغرب الشمس ومطلعها.

وبقوله: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:91] يشير إلى أنه كما أتيناه من كل شيء سببًا؛ ليبلغ به إلى ذلك الشيء، كذلك أتيناه علم سبب الذي يبلغ بين السدين، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:89] أي: ذلك السبب. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:93].

فإن قيل: فكيف أخبر عنهم؟ إنهم ﴿لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾.

ثم قال: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:94] قلنا: كلمة كاد: ليست لوقوع الفعل كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم:90] أي: قربت للانفطار فلم تنفطر، وإذا دخل فيها لا الجحود دومًا النفي يكون لوقوع الفعل كقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:71] أي: قرب ألَّا يذبحوها فذبحوها، وكذلك قوله: ﴿لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:93] أي: قرب ألَّا يفقهون قولاً يلين به قلب ذي القرنين؛ ليجعل لهم السد ففقهوا بإلهام الحق تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف:94] والذي يدل على هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:95] أي: أعطاني الله من التمكين في قبول قول الخير والعمل به خير من تجرد قولكم.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف:95] من ترتيب الآلات لا بالقول، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:95] ففسر القوة بقوله: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:96-97].

وفي قوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:98] دلالة على نبوته، فإنه أخبر عن وعد الحق تعالى، وتحقق وعده وهذا من شأن الأنبياء وإعجازهم، والله أعلم.

ثم اعلم أن الله تعالى من كمال حكمته وقدرته جعل لوجود كل شيء سببًا من أسباب السموات والأرض، ولبلوغ كل أحد إلى مقام من مقامات الدنيا والآخرة، وإلى قربة من قربات الحضرة سببًا مناسبًا له، فإذا أراد بلوغ أحد إلى مقام أو قربة يؤتيه سبب ذلك، ويوفقه لإتباع ذلك السبب، فكما أتى لذي القرنين ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾[1]

---

(1) قال البقلي: أخبر سبحانه عن ذي القرنين عليه السلام: أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان مجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿ وَءَاتَيْنَهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ من كل ما في الملكوت السفلي له برهانًا، وحكمة، وعلمًا، ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له، كان مرآة
-

[الكهف:84] ووفقه لاتباع الأسباب فاتبع سببًا حتى بلغ به مشرق الأرض ومغربها وجوانبها كلها، وسخر الخلق ويسَّر الملك، حصلت المقاصد بإتباع أسبابها.

كذلك أتى لكل رسول ونبي وولي ومؤمن ومسلم وفاسق ومنافق وكافر أسباب بلوغه إلى الرسالة والنبوة والولاية والإيمان والإسلام والفسق والنفاق والكفر، ووفقه لإتباع الأسباب حتى يبلغ مقام من القربة والجنة والنار، فكل الخلق قد بلغوا بإتباع الأسباب التي أتاهم الله تعالى إلى مقاماتهم ودرجاتهم ودركاتهم، وأقام كل واحد منهم في مقامه ومنزله إلا نبينا حبيب الله ﷺ، فإنه أُعطِيَ أسباب العبور من المقامات كلها من البراق وجبريل والرفرف وغيره حتى بلغ إلى مقام قاب قوسين، ثم انقطعت عنه أسباب السماوات والأرض فبقي بلا سبب من المخلوقات، وهو من مقام نهاية المخلوقات فمسبب الأسباب، فسبحانه وتعالى من عظم فضله عليه كان سببًا له حتى بعثه إلى مقام لا مقامية بفضله وكرمه بلا واسطة، وهو المقام المحمود الذي قال تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:79] وهو المخصوص به من بين سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، فافهم جيدًا.

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف: 99 - 102].

ثم أخبر عن أحوال القيامة وأهوالها وأهل القرب منها بقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [الكهف:99] أي: خذلنا بعض من بقي بعد هبوب الريح الطيبة،

-

الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدريج الترقي من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان في محل التحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء الحدثانية التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه ﷺ حيث أخرجه من الحدثان و أفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

وقبض أرواح المؤمنين والمسلمين. ﴿يَمُوجُ﴾ [الكهف:99] بالهرج والمرج والقتل والقتال، ﴿فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف:99] فيه إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق على جبلة الإنسانية التي رأت الملائكة بنظر الملكوتي في ملكوت آدم عليه السلام حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30] فالله سبحانه وتعالى على قانون حكمته، ووفق مشيئته الأزلية عصم من عصم منهم من إظهار هذه الصفات الذميمة، وبدَّلها باستعمال أكسير الشريعة بالصفات الملكية والأخلاق الربانية، وترك من ترك منهم بالخذلان، فظهر منهم هذه الصفات الذميمة المجبولة عليها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:34]، وقال: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:17].

ولهذا ما كذب الله تعالى الملائكة حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] فأجابهم بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] يعني: أني أعلم من هم المنظورون بنظر العناية فاعصمهم عن إظهار هذه الصفات، وأوفقهم لتبديلها، وأزكيهم عنها كما قال تعالى: ﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء:49] وقال: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:21].

وبقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:99] يشير إلى أن الله تعالى من كمال قدرته يحيي الخلق بسبب ويميتهم به وهو النفخة، فبالنفخة الأولى كما أفناهم بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر:68] كذلك بالنفخة الأخيرة أحياهم كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: 99] وفيه إشارة إلى أن الخلق محتاجون إلى اتباع سبب كل شيء؛ ليبلغوا إليه وهم لا يقدرون على أن يجعلوا سببًا لشيء آخر على ضده، والخالق سبحانه هو المسبب فهو قادر على أن يجعل الشيء الواحد سببًا لوجود الشيئين المتضادين، كما جعل النفخة في الصور سببًا للمهات والحياة.

وبقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف:100] يشير إلى أن جهنم لو كانت معروضة على أرواح الكافرين قبل يوم القيامة، كما كانت معروضة على أرواح المؤمنين لآمنوا بها كما آمن المؤمنون بها إن لم يكن ﴿أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ [الكهف:

101] من ذكر الله، ﴿وَكَانُوا لا﴾ [الكهف:101] ﴿يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:101] لكلام الله؛ لأن آذان قلوبهم مفتوحة والكافرون هم: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ [الكهف:101] أعين نفوسهم في غطاء الغفلة عن نظر العبرة، وأعين قلوبهم في غطاء حب الدنيا وشهواتها عن رؤية درجات الآخرة ودركاتها، وأعين أسرارهم في غطاء الالتفات إلى الكونين عن شواهد هذا الكون، وأعين أرواحهم في غطاء تذكار ما سوى الله عن ذكر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:101] يسمع به كلام الحق وكلام أرباب الصدق.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف:102] يشير به: إن قلوب عباده بيده يقلبها كيف يشاء، فكيف يتخذ الكافرون أولياء من غير معونة من الله، أو بغير إرادته وخلاف مشيئته؟ وفيه أيضًا وعيد لمن ادَّعى محبة الله وولائه وهو بحسب أن يكفر بنعمة الولاء ويتخذ من دون الله أولياء، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ [الكهف: 102] البعد والقطيعة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [الكهف:102] الكافري النعمة، ﴿نُزُلاً﴾ [الكهف: 102].

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: 103 - 106].

ثم أخبر عن الأخسرين الأولين بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:103ـ 104] يشير إلى: أهل الأهواء والبدع وأهل الرياء والسمعة، فإن اليسير من الرياء شرك، وإن الشرك محبط الأعمال كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:65] إن هؤلاء القوم يبتدعون في العقائد ويراءون بالأعمال ينتفعون بها، ويعود وبال البدعة والرياء إليهم، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:104] وإن حجاب الحساب من أعظم الحجب وهم الأخسرون

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف:105] أي: كفروا كفران

رؤية نعمة ربه آيات ربهم وشواهد الحق، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الكهف:105] بالكفران، ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(١) [الكهف:105]؛ لأن وزن الأشجار والأعمال في ميزان القيمة إنما يكون بحسب الصدق والإخلاص، فمن زاد إخلاصه زاد ثقل وزنه، ومن لم يكن فيه، وفي أعماله إخلاص لم يكن له ولا لعمله وزن ومقدار كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [الفرقان:23] أي: بلا إخلاص، ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23] فلا يكون للهباء المنثور وزن ولا قيمة، ﴿ذَلِكَ﴾ [الكهف:106] أي: الذين لا إخلاص فيهم ولا في أعمالهم، ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الكهف:106] أي: جهنم البعد والطرد، ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ [الكهف:106] بنعمة إظهار الآيات والمعجزات وإرسال رسل الواردات، ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف:106] بأن جعلوها مصطادًا للخلق والدنيا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: 107 - 110].

ثم أخبر عن خلاص أهل الإخلاص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف:107] يشير إلى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الدنيا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: على وفق الشريعة وقانون الطريقة إنما فعلوا ذلك؛ لأنهم خلقوا في صفة ومقام واستعداد، ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ [الكهف:107] عند النزول من أعلى مراتب القرب والعبور على عالم الأرواح للتعلق بالقالب، ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ [الكهف:107] وهي أحظى شيء من الجنان وأنعم وأعز وألطف ﴿نُزُلاً﴾ [الكهف:107] ما يتهيأ للنازلين

---

(١) في قوله: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: (والوزن يومئذ الحق) لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة، دلَّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقًا: أي ثابتًا، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه، فله وزن عند الله ومقدار، ومَن خفَّت موازينه، فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمها الكفار.

ولعابري السبيل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الكهف:108] أي: خالدين في تلك الصفة والمقام إلى الأبد لا تغير لهم، ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف:108] أي: لا يبغون التحويل من تلك الصفة التي خلقوا عليها؛ لدناءة الهمة وخسة النفس، بل هم على تلك الصفة ثابتون؛ لعلو الهمة ونفاسة النفس.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:109] يشير به إلى أن كلمات قديمة غير متناهية مع أنها ألفاظ للعدد فيها محال، وألا يحصى فيها العدد فكيف بإشاراتها وأسرارها ومعانيها ولطائفها وحقائقها؟! فإنها غير محصورة ولا متناهية لكلمة واحدة من كلماته.

وبقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:110] يشير إلى أن بني آدم في البشرية واستعداد الإنسانية سواء النبي والولي والمؤمن والكافر، والفرق بينهم بفضيلة الإيمان والولاية والنبوة والوحي والمعرفة بأن إله العالمين إله واحد، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3: 4] فالمعرفة الحقيقية ما كان للنبي ﷺ ليلة المعراج عند حصول الوصول في التقاء اللقاء في معنى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10] ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف:110] بالوصول والوصال، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الكهف:110] والعمل الصالح متابعة النبي ﷺ، والتسنن بسنته ظاهرًا وباطنًا:

* فأمَّا سنته ظاهرًا: بترك الدنيا واختيار الفقر ودوام العبودية.

* وأما سنته باطنًا: فالتبتل إلى الله تبتيلا وقطع النظر عمَّا سواه كما فعل، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:16ـ 17] وهذا تحقيق قوله: ﴿وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110] أي: ما أشرك في طلب اللقاء شيئًا من الدنيا والآخرة، ولهذا ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:18] وبلغ المقصد الأعلى، وكان ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9].

[الحمد لله رب العالمين]

سورة مريم عليها السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: 1 - 7].

﴿كهيعص﴾(1) [مريم: 1] إلى قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾

---

(1) قال روزبهان: أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القدمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبوبتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضًا تجلى من كينونية الأحدية التي قبل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نور كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقائه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فانكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغيبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا في وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي.

ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق لهم فاكتسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي «الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني.

[مريم:7] إشارة إلى البشارات:

* منها: إنه تعالى يناديه باسمه زكريا وهذه كرامة منه في حقه.

* ومنها: إنه كان مبشرًا له بلا واسطة ملك مقرب أو نبي مرسل.

* ومنها: إنه بشره بإجابة دعائه حين قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:5].

* ومنها: إنه استدعى ولدًا وليًّا فأعطاه ولدًا نبيًّا.

* ومنها: إنه أعطاه غلامًا ولم يعطه بنتًا، فإنه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:49].

*ومنها: إنه سمَّاه يحيى ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:7] بالصورة والمعنى؛ أمَّا بالصورة: فظاهر، وأمَّا بالمعنى: فإنه ما كان محتاجًا إلى شهوة من غير علة، ولم يهم إلى معصية قط، وما خطر بباله همها كما أخبر عن حال النبي.

وفي قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:7] إشارة إلى: إنه تعالى يتولى بتسمية كل إنسان قبل خلقه وما سمي أحد إلا بإلهام الله، كما أن الله ألهم عيسى عليه السلام باسم نبينا ﷺ حين قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:6].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيما وعد للمؤمنين.

قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره.

قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت شوق المحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله، وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: 8 - 15].

وبقوله قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:8] يشير إلى أن أسباب حصول الولد منفية من الوالدين بالعقر والكبر وهي من السنة الإلهية، فإن من السنة أن يجعله يخلق الله الشيء من الشيء كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185] ومن القدرة أنه تعالى يخلق الشيء من لا شيء، فقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [مريم:8] أمن السنة أو من القدرة؟ فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ [مريم:9] أي: الأمر لا يخلو من السنة أو القدرة؟

وفي قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:9] إشارة إلى أن كلا الأمرين عليَّ هين إن شئت أدت إليكما أسباب حقول الولد من القوة على الجماع وفتق الرحم بالولد كما جرت به السنة، وإن شئت أخلق لك ولدًا من لا شيء بالقدرة، كما ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] أي: خلقت روحك من قبل جسدك من لا شيء بأمر كن، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85] وهو أول مقدور تعلقت القدرة به.

واعلم أن من قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ [مريم:3] إلى تمام الآيات إشارة أخرى وهي: إن زكريا الروح نادى ربه ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:3] سر السر. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:4] أعظم عظم الروحانية ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:4] أي: شيب صفات البشرية ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ﴾ [مريم:4] بموهبة الولد ﴿رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ [مريم:4-5] أي: صفات النفس أن تغلب ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي﴾ [مريم:5] أي: الجثة الجسدانية التي هي زوجة الروح ﴿عَاقِرًا﴾ [مريم:5] أي: لا يلد إلا بموهبة من الله، ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:5] وهو في الحقيقة القلب الذي هو معدن العلم اللدني، فإنه ولي الروح والنفس التي هي أعدى عدوة.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:6] أي: يتصف بصفة الروح وجميع الروحانيات. ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:6] أن تعطيه من تجلي صفات ربوبيتك ما يرضى به نظيره، قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:5] فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ [مريم:7] الروح ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ [مريم:7] وهو القلب ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾ [مريم:7] بإحياء الله إياه بنوره كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ [الأنعام:122] فيه إشارة إلى أن من لم يحييه الله ولم يجعل له نورًا فهو ميت، قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:7] أي: موصوفًا بصفة لا من الحيوانات ولا من الملائكة قبله وهي قبول فيض الألوهية بلا واسطة كما قال تعالى: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن» ألا وهي سر حمل الأمانة التي ضاق نطاق أهل السموات والأرض عند حملها.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [مريم:8] أي: قلب بهذه الصفة. ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ﴾ [مريم:8] أي: بطول زمان التعلق بالقالب. ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم:8] أي: يبسًا وجفافًا من غليان صفات النفس. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ [مريم:9] أي: هكذا الأمر ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:9] لأني قادر على أن أحي الموتى، وأن أجعل من ازدواج الروح والقالب قلبًا حيًا يحيى بحياتي ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ [مريم:9] من لا شيء ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:9] لا روحانيًا ولا جسمانيًا ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [مريم:10] أهتدي بها إلى كيفية عمل القالب العاقر بالقلب الحي الذي يحيى في ذلك ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ [مريم:10] أي: لا تخاطب غير الله ولا تلتفت إلى ما سواه ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ [مريم:10] وبها يشير إلى: مراتب ما سوى الله وهي ثلاث مراتب: الجمادات والحيوانات والروحانيات، فإذا تقرب إلى الله بعدم الالتفات إلى ما سواه يتقرب إليه بموهبة الغلام الذي هو القلب الحي بنوره، فافهم جدًا.

قوله: ﴿سَوِيًّا﴾ [مريم:10] أي: متمكنًا في هذا الحال من غير تلون ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم:11] فخرج زكريا الروح من محراب هواه وطبعه على قوم صفات نفسه وقلبه وأنانيته. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:11] أي:

كونوا متوجهين إلى الله معرضين عمّا سواه ﴿آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه:130]؛ بل بكرة الأزل وعشي الأبد.

ثم أخبر عن الخطاب ليحيى يأخذ الكتاب بقوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:12] يشير إلى يحيى القلب؛ أي: خذ كتاب الفيض الإلهي بقوة ربانية لا بقوة إنسانية؛ لأنه خلق الإنسان ضعيفًا وهو عن القوة بمعزل و ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:58]. ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:12] أي: آتيناه العلم والحكمة وهو في صبايته، وخلقه إذ خلق الله الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فالقلب موضع قبول الرشاش من الروح، والعلم والحكمة من نتائج ذلك الرشاش إلا أن الله تعالى خلق للقلب صورة وهي الصفة الصنوبرية، وقد خلقها من الذرة التي أخذها من ظهر آدم يوم الميثاق، وأنه تعالى جعل له روحًا من انصباب رشاش النور من الروح الإنساني وهذا يختص بقلوب الذين أنعم عليهم بإضفائه رشاش النور ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:69] ولهذا الاختصاص صار يحيي القلب مخصوصًا بالحكمة.

وبقوله: ﴿وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا﴾ [مريم:13] أي: آتيناه رحمة من عندنا نظيره قوله في خضر ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا﴾ [الكهف:65]، وبقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ [مريم:13] أي: تزكيةً وتطهيرًا منا عن الالتفات بغيرنا ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:13] أي: يتقي بنا عمّا سوانا ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم:14] أي: بوالد الروح وبوالدة القالب:

* فأمّا بره بوالد الروح: تنويره بنور الفيض الإلهي إذ هو محل قبول الفيض كما قررنا؛ لأن الفيض الإلهي وإن كان نصيب الروح أولاً ولكن لا يمسكه للطافة الروح، بل يعبر عنه بالفيض ويقبله القلب ويمسكه؛ لأن فيه صفاء وكثافة؛ فبالصفاء يقبل الفيض وبالكثافة يمسكه، كما أن الشمس فيضها يقلبه الهوى لصفائها، ولكن لا يمسكه للطافة الهواء، فأمّا المرآة فتقبل الشيء بصفائها ويمكّن لكثافتها، وهذا من أسرار حمل الأمانة التي حملها الإنسان، ولم يحملها الملائكة المقربون، فافهم جيدًا.

* وأمّا بره بوالدة القالب: فباستعمالها على وفق أوامر الشرع ونواهيه؛ لينجيها من

عذاب النار ويدخلها الجنة ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم:14] كالنفس الأمارة بالسوء ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾(1) [مريم:15] يشير إلى أن القلب السليم المقبل المقبول في حراسة سلام الله وحفظه في كل حال من حالاته حالة ولادته؛ أي: ابتداء خلقه ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ [مريم:15] أي: حين يموت باستعمال المعاصي ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:15] أي: حين يتوب إلى الله فيحييه الله حياة طيبة.

فأمَّا فائدة سلام الله حين يموت بالمعاصي في حق القلب، فبأن يكون في موته وإحيائه نوع ابتلاء يكون سبب تربية وترقية عن مقامه، وتنقية عن بعض الآفات والعيوب مثل: العجب والكبر والرياء والسمعة وغيرها.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: 16 - 21].

ثم أخبر عن مريم وحالتها مع من في الأرض دل حاله بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ [مريم:16] الخطاب مع قلم القدس؛ أي: الكتب في أم الكتاب الذي عنده مكتوب في الأول حالة ﴿مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم:16] أي: انفردت من أهل الدنيا وتنحت ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾(2) [مريم:16] وهو القلب المشرق بنور ربه ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

(1) قال روزبهان: السلام الأزلي على روحه حين خرجت من نور كافه ونونه اللذين هما روحان من تجلي صفات الحق، وذلك السلام سلامه تجلي جماله لروح يحيى في بدء أمرها، فلما وصل بركة سلام الله مع نور جود وجوده إلى روحه؛ أحاطت بها بنعت العصمة إلى يوم خروجها من صورة؛ فلما كملت العصمة فيه جازاه الله بزيادة كشف جماله وخطابه معه وسلامه عليه حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء لئلا يكون له وحشة من خوف العاقبة، فيبقى بين سلامين، وبين مشاهدتين حتى يكون وقت العرض الأكبر، فلما حان وقت وقوفه بين يديه يؤمنه بسلامه من العتاب، ويفرحه بكشف النقاب، ويؤويه إلى خير المآب؛ فالسلام الأول تربية، والسلام الثاني عصمة، والسلام الثالث وصلة ومشاهدة.

(2) قال البقلي: الإشارة الحقيقية هاهنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس، قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الإلهية، فصارت كل وقت مراقبة لظهور

حِجَابًا﴾ [مريم:17] من ذلك النور ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم:17] وهو نور كلمة الله التي يعبر عنها بقوله: كن، وإنما سمي نور كلمته روحًا؛ لأنه به يحيي القلوب الميتة كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122] فتارة: يعبر الروح بالنور، وتارة: يعبر عن النور بالروح كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52] فأرسل الله إلى مريم نور كلمة كن ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:17] كما تمثل نور التوحيد بحروف: لا إله إلا الله؛ لانتفاع الخلق به.

والذي يدل على أن عيسى ﷺ من نور الكلمة قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:171] أي: نور من نور إلقائه، فلمَّا تمثلت الكلمة بالبشر أنكرتها مريم ولم تعرفها فاستعاذت بالله منه ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 18] يعني: إنك إن كنت تقيًّا من أهل الدين فتعرف الرحمن ولا تقربني بإعاذتي إليه، وإن كنت شقيًّا فلا تعرف الرحمن فما تعوذتُ منك بالخلق، فأجابها وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم:19] طاهرًا من لوث ظلمة النفسانية الإنسانية ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [مريم:20] أي:إذا لم يمسسني بشر قبل هذا ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:20] ليمسسني بشر بعد هذا بالزواج وبالنكاح؛ لأني محررة محرَّم عليَّ الزوج ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ [مريم:21] الذي تقولين، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: 21] أن أخلق ولدًا من غير ماء منيٍّ والد فإني أخلقه من نور كلمة كن كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59]

-

شمس الجبروت من مشرق الملكوت، فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب، فأقبلت إلى مشارق شموس الذات والصفات، واستنشقت نفحات الوصال من عالم الأزل، فوصل إليها نفحة وصال الأزلية، وأشرقت عليها شمس مشاهدة القدسية، فلما شهدت مشاهدة مشرق تجلي الأزل برقت أنواره، ووصلت أسراره إلى روحها فحملت روحها بروح الغيب فصارت حاملة الكلمة الكبرى ونور الروح الأعلى فلما عظم شأنها بعكس جمال تجلي الأزل عليها استترت من الخليقة، واستأنست بعروس الحقيقة.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:21] دلالة على قدرتي بأني قادر على أن أخلق ولدًا من غير أب، كما أني خلقت آدم من غير أب وأم، وخلقت حواء من غير أم ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: 21] أي: نرحم به من نشاء من عبادنا.

واعلم أن بين قوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:21] وبين قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الشورى:8] فرق عظيم وهو: أنه تعالى إذا أدخل عبدًا في رحمته يرحمه ويدخله الجنة، ومن جعله رحمة منه يجعله متصفًا بصفته.

ثم اعلم أن بين قوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:21] وبين قوله في حق نبينا ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(1) [الأنبياء:107] فرق عظيم وهو: أن في حق عيسى عليه السلام ذكر الرحمة مقيدة بحرف من، ومن: للتبعيض، فلهذا كان رحمة لمن آمن به، واتبع ما جاء به إلى أن بعث نبينا ﷺ ثم انقطعت الرحمة من أمته بنسخ دينه، وفي حق نبينا ﷺ ذكر الرحمة للعالمين مطلقًا، فلهذا لا تنقطع رحمته عن العالمين أبدًا.

أمَّا في الدنيا فبأن لا ينسخ دينه، وأمَّا في الآخرة فبأن يكون الخلق يحتاجون إلى شفاعته حتى إبراهيم عليه السلام، فافهم جيدًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:21] إشارة إلى أن خلق عيسى عليه السلام على هذه الصفة كان في الأزل بمقتضى الحكمة القديمة مقدرًا لإظهار القدرة على مثل هذا الخلق، فإنه يخلق ما يشاء بقدرته.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) ﴾ [مريم: 21 - 25].

(1) قال سيدنا الجيلي في كتاب «الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم» ما نصه: الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها لما ورد في حديث جابر أن الله تعالى خلق روح النبي ﷺ من ذاته وخلق العالم بأسره من روح محمد ﷺ فمحمد ﷺ هو الظاهر بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه ﷺ كيف سري بجسمه إلى فوق العرش وهو مستوى الرحمن، انتهى.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم:22] أي: تنحت به؛ لحمله بلا أب وولادته من غير وقتها، وكلامه في المهد ومعجزاته من إحياء الموتى، وغير ذلك مرتبة علية ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم:23] لإظهار المعجزة في الجذع ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم:23] أي: قبل هذا الحمل، فإن بسبب حملي وولدي يدخل الله النار خلقًا عظيمًا؛ لأن بعضهم يتهمونني بالزنا، وبعضهم يتهمون ولدي بأنه ابن الله ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا﴾ [مريم:23] في العدم لا يذكرني الله تعالى بالإيجاد.

ثم أخبر: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ [مريم:24] إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:33] الإشارة عن: عظم شأنها وتبديل أحزانها بقوله تعالى أن مريم القلب لما اعتزلت عن اختلاء الكونين فاستحقت لإرساله روح الله إليها، وقد شرفت بنفخ الروح الإلهي، ووهبت بعيسى روح الله فحيت بحياة الله، ومحت نفس وجودها عن صحيفة الموجودات بقطع النظر عن تعلق الكونين بقولها: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا﴾ [مريم:23] يعني: في العدم ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ [مريم:24] أي: من لم يبلغ من مرتبتها في قطع النظر إلى الوجود من المكونات ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ [مريم:24] أي: تحت أمرك ﴿سَرِيًّا﴾ [مريم:24] أي: سرية يشير إلى أن ما دون الله يبشر القلب المنقطع إلى الله بأن الله جعل المكونات تحت أمره؛ لتكون له سرية منقادة في دفع الآفات عنه، وتبليغه إلى أعلى المقامات والقربات.

وقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم:25] إشارة إلى: نخلة الشجرة الطيبة، وهي كلمة: لا إله إلا الله، فإن مريم القلب في هذا المقام إذا هزت نخلة الذكر ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:25] من المشاهدات الربانية والمكاشفات التي هي مشارب الرجال البالغين كما كان حال النبي ﷺ يقول: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1].

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي

(1) تقدم تخريجه.

عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: 26 - 33].

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم:26] بأنوار الجمال ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم:26] ما سنح لك من الخواطر البشرية ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم:26] كما قال بعضهم: الدنيا يوم ولنا فيه صوم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:26] يعني الوصول والوصال لم يبق لي كلام مع أوصاف الإنسية بخير ولا شر، فإني نذرت للرحمن صومًا عن الالتفات بغير الله، ولا يكون إفطاري إلا [وكلمته] على مشاهدة جماله.

وبقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ [مريم:27] يشير إلى أن مريم القلب لمَّا ولدت بعيسى روح الله وكلمته فأتت به قومها من الخلائق ﴿تَحْمِلُهُ﴾ [مريم:27] أي: تظهر مع الخلق من آثاره شيئًا من نتائج أحواله أنكروا عليها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27] منكرًا كما قال موسى عليه السلام لما أنكر على خضر؛ إذ جاءه بأفعال من نتائج العلم اللدني: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم:27- 28] النفس الأمارة بالسوء ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم:28] أي: أبو الروح ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ [مريم:28] أي: القالب ﴿بَغِيًّا﴾ [مريم:28] يعني: أو وليًّا يتولد منه مثل ما جئت به.

واعلم أن المعتاد من أهل الزمان إذا ظهر الله في كل زمان وأوان نبيًّا أو وليًّا، وخصصه بمعجزته أو كرامته أن ينكر عليه أكثرهم، وينسبونه إلى الجنون والضلال والافتراء والكذب والسحر وأمثاله ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾[1] [مريم:29] يشير إلى أن هؤلاء

(1) بيَّن الله سبحانه أن مريم علمت بنور الحق نُطْق عيسى قبل نطقه، وعرفت بإلهام الله أنه نبي مرسل؛ لأن عيسى تكلم في بطنها بتوحيد الله سبحانه، وعلمت أن براءتها من مقالة القوم في نطق ابنها، وهذا غاية حسن اليقين وسماع إلهام الحق بلا واسطة، ولما علمت شأن عيسى آمنت برسالته وعظمته حين أشارت إليه بأنه أهل مكان علم الله موضع معجزته، ولا يجوز عند الكبراء جواب السؤال؛ فهذا من كمال أدبها في حضرة عيسى، ومن هاهنا إشارة العارفين إلى كبرائهم عند حاجاتهم بفهم الحقائق.

قال ابن عطاء: فأشارت إليه في الظاهر لتعليم القوم صدقها فيما تقول فأنطق الله عيسى ببراءتها.

قيل: إن أحسن إشارات العارفين في أوقات الاضطرار حين لا تشتت الهمة على الرجوع إلى الحق.

القوم هم أهل الإشارات؛ أي: إشارة مريم القلب إلى عيسى روح الله المتولد من نفخ الروح المضاف إلى الحضرة المقدسة ومريم القلب ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:29] ما بلغ مبلغ الرجال البالغين الواصلين ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30] أي: أقر بالعبودية والحدوث متبرئًا عن الاثنينية والقدم ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم:30] من العلوم اللدنية وكشف الحقائق والأسرار.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:31] نبيًّا؛ أي: بلغني مقام الأنبياء، فأخذ الأسرار من الله عند تجلي صفاته وإنباء الخلق بها ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 31] أي: متصفًا بصفاته، فأحيي الموتى بصفته، وأبرئ الأكمه والأبرص وغير ذلك من الكرامات ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ [مريم:31] أي: بإقامة العبودية ومراقبة أحكام الربوبية ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم:31] أي: تزكية النفس عن الأوصاف الذميمة ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:31] فيه إشارة إلى أن ما دام العبد حيًّا لا بدّ له من مراقبة السر وإقامة العبودية وتزكية النفس ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم:32] أي: أبر والدة القلب بإفاضة الفيض الإلهي.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ [مريم:32] لم أكن قابلاً للفيض ﴿شَقِيًّا﴾ [مريم:32] محرومًا عن سعادة العبودية ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ [مريم:33] أي: بسلامة من الله كانت ولادتي يوم ولدت بلا والد طبيعي ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ [مريم:33] فيه إشارات:

* أولها: يشير إلى أن عيسى المعنى المتولد من نفخ الحق في القلب قابل للموت بسم غلبات صفات النفس والمعاملات المنتجة منها لئلا يحسب الواصل بأنه إذ حيي بحياة الله لا يموت المعنى الذي في قلبه.

* وثانيها: لئلا يقنط الطالب الصادق الذي زل قدمه، ووقع عن الطريق بنوع من المعاملات المؤدية إلى موت القلوب، ويعلم أن له إلهًا يميت الأحياء ويحيي الأموات، فيرجع إليه بصدق النية وصفاء الطوية على الصراط المستقيم وأنه واسع كريم.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ

مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: 34 - 40].

ثم أخبر عن مذمة الخلق في قوله الحق بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم:34] يشير إلى أن ذلك المتولد من نفخ الروح المضاف ومريم القلب وهو ابن مريم القلب لا ابن الله ولا جزء منه ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم:34] أي: هو المجعول من كلمة الله وهي قول كن، ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:34] يشكون، فقائل يقول: هو ابن الله، وقائل يقول بالحلول أنه قد حل في مريم القلب، وقائل يقول بقدمه وقدم الروح، ثم نفى عن ذاته ﷻ هذه الأوصاف بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:35] أي: جزء، فإن الولد جزء الوالد كما قال النبي ﷺ: «فاطمة بضعة مني»[1] وبقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ [مريم:35] نزَّه نفسه عن أوصاف المخلوقات كلها.

ثم أخبر عن كمال قدرته بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ [مريم:35] في الأزل ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:35] في الحال ذاك الأمر المقدور في الأزل، وبقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم:36] يشير إلى أن عيسى المتولد من مريم القلب يشهد أن الله الذي خلقه وخلقكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم:36] بهذا الاعتقاد الخالص، فإن ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:36] يصل به العبد إلى الله ﷻ ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ [مريم:37] أي: تفرقوا ثلاث فرق:

* فرقة: يعبدون الله بالسير على قدمي الشريعة والطريقة بالعبور على المقامات والوصول إلى القربات، وهم: الأولياء الصديقون، وهم: أهل الله وخاصته.

* وفرقة: يعبدون الله على صورة الشريعة وأعمالها، وهم: المؤمنون المسلمون، وهم: أهل الجنة.

* وفرقة: يعبدون الهوى على وفق الطبيعة، ويزعمون أنهم يعبدون الله كما أن الكفار يعبدون الأصنام ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:3]

---

(1) أخرجه أحمد (4/ 326، رقم 18933)، والبخاري (3/ 1364، رقم 3523)، ومسلم (4/ 1903، رقم 2449)، وأبو داود (2/ 225، رقم 2069)، وابن ماجه (1/ 644، رقم 1999).

فهؤلاء ينكرون على أهل الحق وهم: البدع والهوى والزيغ والرياء والسمعة والشقاق وهم: أهل النار ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [مريم:37] من هؤلاء ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:37] أي: من شهود يوم يظهر فيه عظائم الأمور فيتبع كل عابد معبوده.

وبقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:38] يشير إلى أن من يأتي الله بقدم اليسر ما أسمعهم وأبصرهم؛ لأنهم به يسمعون وبه يبصرون ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم:38] يعني: الذين ظلموا أنفسهم بإفساد استعدادهم اليوم في ضلال مبين باستعماله في غير موضعه ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ [مريم:39] أي: أعلمهم؛ يعني: الظالمين ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم:39] في الأزل بإيمان بعضهم، وكفر بعضهم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم:39] في العدم عن هذا القضاء ﴿وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:39] أي: قضى للظالمين ما لم يؤمنوا.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ [مريم:40] أي: الوارث لأرض الوجود ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم:40] أي: ومن في الوجود ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم:40] باللطف والقهر؛ أمَّا باللطف: فبأن يغنيهم الله عنهم ويبقيهم به، وأمَّا بالقهر بقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:48] فيناديهم ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16] أي: ملك الوجود فلا يجيب نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 41 - 46].

ثم أخبر عن مقامات الأولياء وكراماتهم بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:41] يشير إلى أن إبراهيم كان في كتاب الحق تعالى الذي كتبه قبل خلق المكونات مكتوبًا بالصديقية والنبوة، وإن الصديقية تلو النبوة، ومن منها باقٍ لا يكون نبيًا إلا وهو صديق، وليس من شرط الصديق أن يكون نبيًا، ولأرباب الصدق

مراتب: صادق وصديق؛ فالصادق: من صدق في أقواله وأفعاله، والصدوق: صدق في أخلاقه وأحواله، والصديق: من صدق في قيامه مع الله بالله وفي الله، وفي الفاني عن نفسه والباقي بربه.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: 42] يشير إلى: أب الروح وعبادته صنم الدنيا بتبعية النفس ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ [مريم:43] أي: العلم اللدني ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:43] وذلك؛ لأن الفيض الإلهي إذا أفيض يقبله الروح لصفائه، ولكن لا يمسكه للطافته ويقبله القلب الصافي ويمسكه لكثافته، كما أن نور النفس الشمس إذا أفاض يقبله الهواء لصفائها ولكن لا يمسكه للطافتها، وتقبله المرآة الصافية لصفائها وتمسكه لكثافتها، فقد أوتي المرآة الصافية والأرض من نور الشمس ما لم يؤت الهواء، فافهم جيدًا.

﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ [مريم:43] يا أبا الروح بالتوجه إلى الله ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:43] مستقيمًا إلى الله ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم:44] أي: شيطان النفس ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم:44] بالطرد والإبعاد من الحضرة ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم:45] يعني: تكون يا أبا الروح قرين النفس ووليها بعد أن كنت في جوار الحق ووليه، فأجاب آزر الروح: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ [مريم:46] من الدنيا وشهواتها وزخارفها ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم:46] القلب ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ [مريم:46] عن وعظك ونصيحتك ومخالفتي فيما آمرك ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:46] لأطردنك ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ [مريم:46] فارقني ﴿مَلِيًّا﴾ [مريم:46] حينًا من الدهر.

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم: 47 - 51].

﴿قَالَ﴾ [مريم:47] إبراهيم القلب ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم:47] أي: كن في سلامة من الله ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم:47] أي: سأطلب لك من الله مغفرة ورحمة

يزيل بها عنك هذا الإعراض عن الحق والتمادي في الباطل ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47] منعمًا مكرمًا ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ [مريم:48] أي: وما تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ [مريم:48] من الدنيا والآخرة ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ [مريم:48] ليرحمكم ويهديكم إلى حضرة جلاله ﴿عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي﴾ [مريم:48] في نجاتك ورفع درجاتك ﴿شَقِيًّا﴾ [مريم:48] لا يسمع دعائي فأشقى.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ [مريم:49] إبراهيم القلب آزر الروح وقومه من النفس والهوى ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ [مريم:49] وأصنامهم من الدنيا وملاذها أنعم الله عليه بقوله: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ [مريم:49] أي: إسحاق السر ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم:49] أي: يعقوب الخفى وهو سر السر ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم:49] أي: بلغناهم مقام الأنبياء ينبئهم الحق تعالى بالشواهد والكشوف عن علوم الحقائق والمعارف وهم ينبئون الخلق عن الحق وأسراره ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [مريم:50] لا يتكلمون إلا عن صدق النيات وخلوص الطويات كلامًا ﴿عَلِيًّا﴾ [مريم:50] عن الرعونات غير مشوب بالآفات.

ثم أخبر عن خلاص أهل الإخلاص بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ [مريم:51] إلى قوله: ﴿هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:53] وأن في الكتاب موسى ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم:51] أي: إنه كان مخلصًا في إرادة شعيب عليه السلام وخدمته وموفيًا بعهده متبعًا بدينه، وصار ببركة صحبته ومتابعته ﴿رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم:51].

ثم اعلم أن الإخلاص في العبودية مقام الأولياء، فلا يكون ولي إلا وهو ولي مخلص، ولا يكون كل مخلص نبيًا، ولا يكون رسول إلا وهو نبي، ولا يكون كل نبي رسولاً.

* والمخلِص بكسر اللام: من أخلص نفسه في العبودية بالتزكية عن أوصاف الإنسانية الحيوانية.

* والمخلَص بفتح اللام: من أخلصه الله بعد التزكية بالتحلية بصفات الروحانية الربانية كما قال النبي ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على

لسانه»(1) أي: من أخلص نفسه بالتزكية في الله، ولله ظهرت؛ أي: أظهر الله بالتحلية ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وقال تعالى: «**الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يبعد فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**»(2) ؛ أي: أنا الذي أتولى تحلية قلوب المخلصين بتجلي صفات جمالي وجلالي، وفي الحقيقة لا تكون العبودية مقبولة إلا من المخلصين كقوله: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة:5] وللإخلاص المخلصين مراتب:

* **أدناها**: أن تكون العبودية لله خالصًا، ولا تكون لغير الله فيها شركة.

* **وأوسطها**: أن يكون العبد مخلصًا في بذل الوجود لله وفي الله.

* **وأعلى درجة المخلصين**: أن يخلصهم الله من حبس وجودهم بأن يفنيهم عنهم ويبقيهم بجواره.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝﴾ [مريم: 52 - 58].

وبقوله تعالى: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ**﴾ [مريم:52] يشير إلى أنا سمعنا موسى القلب من جانب طور الروح، فإن طور الروح على جانب أيمن موسى القلب، ووادي النفس على أيسره ﴿**وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾ [مريم:52] بجذبات العناية إلى أعلى درجات طور الروح، ويشير بقوله: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**﴾ [مريم:53] إلى أن النبوة ليست كسبية، بل هي من مواهب الحق تعالى يهب لمن يشاء النبوة، ويهب لمن يشاء الرسالة من رحمته وفضله لا من كسبهم واجتهادهم على أن يكون توفيق الكسب والاجتهاد أيضًا من مواهب الحق تعالى، وفيه إشارة إلى أن لموسى عليه السلام اختصاصًا بالقربة

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) قال سيدي القاوقجي في «اللؤلؤ المرصوع» (240): هكذا وقع لنا مسلسلاً بالسؤال إلى الحسن البصري عن حذيفة وصرح المحدثون أن الحسن لم يسمع من حذيفة بل ما لقيه.

والقبول عند الله ﷻ حتى يهب أخاه هارون النبوة والرسالة بشفاعته، والعجب أن الله تعالى يهب النبوة والرسالة بشفاعة موسى عليه السلام، وأنه يهب الأنبياء والرسل بشفاعة محمد ﷺ؛ لقوله: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم عليه السلام»(1).

ثم أخبر عن الصادق في وعده والصديق من بعده بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [مريم:54] إلى قوله: ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:57] الإشارة: إن بالألوهية يشير إلى الربوبية. ﴿وَاذْكُرْ﴾ ذكرًا أزليًّا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في كتاب العلم الأزلي ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ إنه كان في علم الله بتقديره ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم:54] فيما وعد الله بأداء العبودية ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم:54] أي: وكان مستعدًا للنبوة والرسالة.

وبقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم:55] يشير إلى أن استعداده المقدر الأزلي اقتضى أن يأمر أهله الخاص والعام؛ أمَّا الخاص: فالجسم والنفس والقلب والروح بالصلاة؛ أي: يتوجه كل واحد منهم توجهًا يليق بحاله ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم:55] أي: بتزكية كل واحد منهم عن أخلاق ذميمة وأوصاف ردية، وأمَّا العام: فأهله وأمته وقومه يأمرهم بالصلاة الجسمانية والمعنوية وكذا الزكاة ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ﴾ [مريم:55] في الأزل ﴿مَرْضِيًّا﴾ [مريم:55] في الأعمال والأحوال.

ثم قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم:56] أي: كما ذكرت إسماعيل ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ [مريم:56] في العلم القديم ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:56] أي: مستعدًا لكمال الصدق والنبوة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:57] في التقدير الأزلي والمكان العلي ما يكون فوق المكونات عند المكون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

ثم أخبر عن أهل الإنعام من الخواص بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [مريم:58] إلى قوله: ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ﴾ [مريم:60]، قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [مريم:58] من النبيين؛ يعني: الذين ذكرناهم والذين ما ذكرناهم من الأنبياء ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم:58] من الأولياء والمؤمنين ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ

(1) تقدم تخريجه.

﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ [مريم:58] يعني: من الأولياء والمؤمنين ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم:58] للهداية إلى حضرتنا من الأولياء خواص المؤمنين ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [مريم:58] آياتنا؛ أي: من نتائج الهداية إلى الحضرة والاجتباء إياهم؛ أي: إذا تتلى عليهم آياتنا ﴿خَرُّوا﴾ [مريم:58] بقلوبهم على عتبة العبودية ﴿سُجَّدًا﴾ [مريم:58] بالتسليم للأحكام الأزلية ﴿وَبُكِيًّا﴾ [مريم:58] بكاء السمع بذوبان الوجود على نار الشوق والمحبة.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم: 59 – 64].

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ﴾ [مريم:59] به يشير إلى: التخلف من هؤلاء السادة الذين لم يهتدوا بهداهم، ولم يقتدوا على آثارهم، ووكلوا إلى أنفسهم، فأعرضوا عن الحق تعالى، وتركوا ظاهر أمره وباطنه ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم:59] أي: شهوات الدنيا ولذاتها على وفق هواهم وطبيعتهم النفسانية الحيوانية السبعية ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:59] وهو الدرك الأسفل من جهنم البشرية.

﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ﴾ [مريم:60] أي: من تداركته العناية الأزلية فيتوب بالصدق إلى الحضرة ﴿وَآمَنَ﴾ [مريم:60] إيمانًا حقيقيًا نوَّر الله به قلبه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [مريم:60] أي: أعمالاً تصلح قلبه للجذبات التي بها يدخل الجنة كقوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [مريم:60] الجنة جنة القرب ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم:60] أي: على قدر صلاحية العمل وخلوصه يصلح القلب، وعلى قدر صلاحية القلب فيكون قابلاً للجذبات، وعلى قدر الجذبات تكون مقامات القربة بحيث لا ينقص منها شيء.

ثم أخبر عن جنات القربات بقوله تعالى: ﴿مُخْلِصًا لَهُ﴾ [الزمر:11] في العبودية ولا يعبد الدنيا والنفس والهوى وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:63] وعدهم بالغيب؛ أي: يغيبهم عن الوجود قبل

التكوين، كما أخبر بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] أنه كان؛ أي: كان التقدير أن وعده ثانيا؛ أي: أتيا من العدم إلى الوجود، ثم وصف الجنة وأهلها بقوله: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم:62] يعني: لا تكون الجنة محلاً للغو ولا أهل الجنة هم اللغو ﴿إِلاَّ سَلامًا﴾ [مريم:62] أي: تكون الجنة مقر السلامة ولهذا سمي دار السلام وأهلها أهل السلامه ولا يسمعون إلا السلام من أنفسهم، ومن الملائكة ومن الله؛ لأن ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس:10] ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾ [مريم: 62] من رؤية الله تعالى ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:62] كما جاء في الخبر، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية[1].

ثم أخبر عن أهل الجنة بقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [مريم:63] أي: الذين لا يعبدون من دوننا ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:63] يعني: جعلنا الجنة مسكنًا ومأوى ومنزلاً لمن كان سيرته التقى عن المعاصي؛ لأنها أعدت للمتقين؛ يعني: من كان يتقي عن الدنيا وزخارفها وعن النفس وهواها وشهواتها، فالجنة له دار القرار وهو من أهل الجنة لا يجاوزها لقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:40] فإن الجنة هي المأوى، فأمّا من كان يتقي عمّا سوى الله فتكون الجنة ممره ولا مقره كقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54-55] وهم أهل الله وخاصته الذين ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:102] فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن تنزل أهل التمثل بقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:64] يشير إلى أن المقدورات كلها في علم الله وقدرته ينادون من سرادقات العزة إلى أهل العزة المتمنيين ما تهوى نفوسهم على وفق الطبيعة أن يا أهل الطبيعة أفيقوا، فما نتنزل من مكان

---

(1) إن الله سبحانه حثّ حبيبه على ذكر خليله -عليها السلام- وما جرى عليه من أحكام الخلة من الوجد والحال والزفرة والغيرة وكسر أصنام الطبيعة، والخروج مما دون الحقيقة، وعن الصديقية في خلته، والصديق من تواتر أنوار المشاهدة، واليقين، وإحاطة نور العصمة عليه بالسرمدية.

حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (3/ 1235، رقم 3194)، ومسلم (4/ 1846، رقم 2378)، وأحمد (2/ 485 رقم 10300)، وابن حبان (13/ 69، رقم 5757)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص 255، رقم 355).

الغيب إلى عالم الشهود إلا بأمر ربك الذي ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ [مريم:64] من التقدير الأزلي ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم:64] من التدبير الأبدي ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم:64] من الأزل إلى الأبد ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:64] أي: ناسيًا لما قدر في الأزل تنزيله من المقدورات؛ ليتذكر بالناس ممن تنزيله فينزله، بل هو القادر العليم الحكيم الأزلي الأبدي ينزل ما يشاء متى يشاء لا معقب لحكمه ولا مقدم.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم: 65 - 70].

ثم أخبر عن صفات كماله وكمال جلاله بقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ [مريم: 65] إلى قوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:72] بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ [مريم:65] يشير إلى أنه تعالى خالق ورب سماوات الأرواح وأرض الأجساد وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار، فاعبده بجسدك ونفسك وقلبك وسرك وروحك، فعبادة جسدك إياه بأركان الشريعة وهي: الائتمار بما أمرك الله به، والانتهاء عمّا نهاك الله عنه، وعبادة نفسك بآداب الطريقة وهي: ترك موافقات هواها، ولزوم مخالفة هواها، وعبادة القلب بالإعراض عن الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة ومكارمها، وعبادة السر خلوة عن تعلقات الكونين اتصالاً بالله ومحبة له، وعبادة الروح ببذل الوجود لنيل الشهود ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم:65] بالمداومة على المجاهدات، فإنها تورث المشاهدة، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:65] أي: مثلاً في الخالقية والربوبية أو جنسًا في المحبة والمحبوبية.

﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ﴾ [مريم:66] أي: النفس الإنسانية لجهلها بالحقائق ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ﴾ [مريم:66] عن صفات الحيوانية ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:66] بصفات الروحانية بطريق الاستهزاء ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ﴾ [مريم:67] أي: لا يتذكر نفسه ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ [مريم:67] بازدواج الروح والجسد ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:67]

موجودًا أفلا نقدر على أنها إذا ماتت عن صفاتها الحيوانية يحييها بصفات الروحانية، بل بصفات الربانية.

ثم ذكر القسم للتوكيد بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم:68] أي: لنجعلنهم مع الشياطين شياطين الجن والإنس ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ [مريم:68] القهر والغضب ﴿جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ [مريم:68-69] من النفوس المتمردة العاتية ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ﴾ [مريم:69-70] نزعناهم من ﴿هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم:70] أي: أولى وأحق لجهنم القهر أن يصليه فيها، ومن منهم أولى وأحق بأن ينعم عليه ويميزه عنهم بتخليصه عن ظلمات وجوده بنور وجودنا، ونهديه إلى عالم الوصول والوصال بجذبات العناية الأزلية التي هي كفاية الأبدية.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: 71 - 76].

ثم عمَّ الخطاب: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:71] وإن منكم من الأنبياء والأولياء والمؤمنين والكافرين إلا وهو وارد هاوية الهوى بقدم الطبيعة ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم:72] عن الهوى بقدم الشريعة على طريق الطريقة للوصول إلى الحقيقة، وفيه نكتة لطيفة، وإشارة شريفة وهي: إنه تعالى أحال الورود إلى الوارد، وأحال النجاة إلى نفسه تعالى؛ يعني: إن كل وارد يرد بقدم الطبيعة في هاوية الهوى إن شاء وإن أبى ولو التجى إلى طبيعة لا ينجو منها أبدًا، ولكن ما نجا من نجا إلا بإنجاء الله تعالى إياه، ثم قال: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:72] أي: ومن خلد في جهنم طبيعةً بقي فيها مكبًا على وجهه متوجهًا إلى أسفل السافلين.

ثم أخبر عن الطريقة للفريقين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [مريم: 73] إلى قوله: ﴿مَرَدًّا﴾ [مريم:76]، بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [مريم:73]

يشير إلى أن أهل الإنكار وأهل العزة بالله إذا تتلى عليهم آياتنا بينات من الحقائق والأسرار ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [مريم:73] أي: ستروا الحق بالإنكار والاستهزاء. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [مريم:73] من أهل التحقيق إذا رأوهم مرتاضين مجاهدين مع أنفسهم، متحملين متواضعين متذللين متخاشعين، وهم متنعمون متمولون متكبرون مبتغون شهوات نفوسهم ضاكحون مستبشرون ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ [مريم:73] منا ومنكم ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ [مريم:73] منزلة ومرتبة في الدنيا، ووجاهة عند الناس، وتوسعًا في المعيشة ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:73] مجلسًا ومنصبًا وحكمًا، كما قال تعالى جوابًا لهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم:74] أي: أهلكناهم بحب الدنيا ونعيمها إذا أغرقناهم في بحر شهواتها، واستيفاء لذاتها، والتعزز بمناصبها ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم:74] أي: هم أحسن استعداد واستحقاق للكمالات الدينية منكم كما قال ﷺ: «خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا»(1) ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ [مريم:75] ضلالة الإنكار واتباع الهوى ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم:75] أي: فليمهله في غروره وحسبانه، ويدعه في غفلة عن أحوال أرباب القلوب وملوك الدين ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ [مريم: 75] وهو أن يميتهم الله على ما عاشوا فيه من الإنكار والغرور والغفلة ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ [مريم:75] وهي أن يميتهم عن صفات نفوسهم بصواعق جذبات العناية، ويقيم عليهم قيامة الشوق والمحبة، ويحييهم حياة طيبة بنور الإيمان ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ [مريم:75] في كلتي الحالتين. ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم:75] حين تحقق لهم أن فريقًا منهم هم حزب الله في الآخرة وحزب الشيطان ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ [مريم:76] والذين جاهدوا في طلب الهداية وسعوا، يزيد الله في هدايتهم بالإيمان ﴿هُدًى﴾ [مريم:76] بالإيقان بل بالعيان لا بالبرهان ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ

---

(1) حديث جابر: أخرجه أحمد (3/ 367، رقم 14988)، والديلمي (2/ 173، رقم 2863).

حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (3/ 1235، رقم 3194)، ومسلم (4/ 1846، رقم 2378)، وأحمد (2/ 485 رقم 10300)، وابن حبان (13/ 69، رقم 5757)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص 255، رقم 355).

رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم:76] وهي الأعمال الصالحات التي هي من نتائج الواردات الإلهية التي ترد من عند الله إلى قلوب أهل العيوب؛ أعني: كل عمل يصدر من عند نفس العبد من نتائج طبعه وعقله ما يكون من الباقيات، وإن كان من الصالحات؛ أي: على وفق الشرع، وما يكون من عند الله؛ أي: من نتائج مواهب الحق تعالى فهو من الباقيات الصالحات يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل:96].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: 77 - 84].

ثم أخبر عن أهل الريب أنهم بمعزل من إطلاع الغيب بقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [مريم:77] إلى قوله: ﴿عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم:78] ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ [مريم:77] يشير إلى: من كفر ستر الحق، وأنكر على أهل الصدق من أرباب الطلب وأصحاب الحقائق الذين أنعم الله عليهم بالكشوف والعلوم اللدنية، وهم يتكلمون بها، فالمنكر يعترض عليهم وعلى أقوالهم وأحوالهم، ويقول: إنكم أعرضتم عن الكسب، واعتمدتم على أموال الناس وصدقاتهم، واعتزلتم النساء، وحرمتم عن الأولاد والأموال وأنا أعبد الله، كما تعبدونه ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم:77] ونجاة في الآخرة فقال الله في جوابه: ﴿أَطَّلَعَ الغَيْبَ﴾ [مريم:78] أي: أعلم الغيب بأن يكون له في الدنيا المال والولد، وفي الآخرة النجاة ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم:78] في الميثاق أن يكون له المال والولد والنجاة ﴿كَلاَّ﴾ [مريم:79] أي: لم يكن له ذلك ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:79] أي: سنكتب عليه ما يدل عليه ونؤاخذه به ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم:79] وهو عذاب البعد والهجران ﴿وَنَرِثُهُ﴾ [مريم:80] يعني: هو على قراءة من يقرأ بالياء ﴿مَا يَقُولُ﴾ [مريم:80] أي: وبال ما يقول بالاستهزاء والإنكار ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:80] ما يكون معه ما ينجيه من العذاب، وذلك بأنهم ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ

﴿آلِهَةً﴾ [مريم:81] من الهوى والدنيا والأهل والمال والولد ﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: 81] أي: ليكون لهم منهم عزة ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم:82] حين لا ينفعهم الإيمان ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:82] أي: يكون الذين يعبدونهم من دون الله ﴿عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: ضد ما يتمنون من العزة وهو الهوان والذلة، وبقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:83] يشير إلى: شياطين الإنس منهم فيأخذهم لأنهم يهيجون الفتنة على كافري النقمة ومنكري الكرامة، ويعاونونهم على إنكار أهل الأقدار، ويوافقونهم في إيذائهم والطعن فيهم، نظيره قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112].

ثم قال: تهديدًا لهم وتسلية لأرباب القلوب. ﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ [مريم:84] بالجزاء والمكافآت ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ [مريم:84] أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم وأنفاسهم وخواطرهم ﴿عَدًّا﴾ [مريم:84] لا سهو فيه ولا غلط فيجازيهم بها.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 85 - 95].

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم:85] وهم الذين يتقون بالله عمّا سواه ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:85] على متون جذبات العناية الحضرة الرحمانية، وإنما خصّ حشر وفد المتقين إلى حضرة الرحمانية؛ لأنها من صفات اللطف، ومن شأنها: الاتحاد والإنعام والفضل والكرم والتقريب والمواهب.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [مريم:86] أهل الإنكار والإعراض ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ [مريم: 86] البعد والنكرة ﴿وِرْدًا﴾ [مريم:86] بالقهر والخذلان ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم:87] يعني: يوم الميثاق كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا

بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61] ثم أوفى بعهده من الله بألّا تعبد ما سوى الحق تعالى من الدنيا والآخرة فإن من يكون مقيدًا بشيء من الدنيا والآخرة يحتاج إلى شفيع يخلصه من ذلك القيد، كما قال ﷺ: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم ﷺ»[1].

ثم أخبر عن ناقضي العهود من أهل الجحود بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم:88] إلى قوله: ﴿فَرْدًا﴾ [مريم:95]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: 88] يشير إلى: :إن تجاسرهم وتعديهم في مثل هذا القول إنما كان من نتائج صفة الرحمانية إذ هم بها أقدموا على هذا القول؛ لأنه تعالى كان عالمًا سرهم بأحوالهم أنهم خلقوا على هذه السجية ولا بدّ بأن يصدر منهم هذه المقالة، فلولا صفة الرحمانية لما ساعت الألوهية بإيجادهم، فبالرحمانية خلقوا، وبالرحمانية قد نطقوا بالرحمانية.

قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:89 ـ91] فإن الرحمانية أمهلتهم حتى قالوا ما قالوا إلا أن الألوهية كانت مقتضية للوحدانية في الوجود، كما أنه تعالى وحداني الذات ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:92] لأن الولد بضعة من الوالد، وما له بضعة فهو مركب، ولا بدّ للمركب من مؤلف، والمحتاج إلى المؤلف لا يصح أن يكون إلهًا.

ولقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:93] يشير إلى أن الرحمانية اقتضت إيجاد السماوات والأرض ومن فيهن، والصفاتية والألوهية كانت في الأزل مقتضية بألّا يكون لذاته تعالى شريك في الوجود حتى سبقت رحمته بالرحمانية غضبه وهو القهارية، فالبرحمانية خلق ما خلق، وبالرحمانية عبده من عبده وعرفه من عرفه، وبالرحمانية ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ [مريم:94] في الأزل من العباد وهم معدودون. ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:94] في الموجودين على وفق مشيئته من السعداء والأشقياء ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:95] عن مشيئتهم، بل هو آت بهم على وفق مشيئته

---

(1) تقدم تخريجه.

وإرادته القديمة الأزلية الأبدية على قانون حكمته البالغة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: 96 - 98].

ثم أخبر عن حال السعداء وحال الأشقياء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [مريم: 96] فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:96] يشير إلى أن بذر الإيمان إذا وقع على أرض القلب، وتربى بماء الأعمال الصالحات ينمو إلى أن يثمر، فتكون ثمرتها محبة الله ومحبة الأنبياء والملائكة والمؤمنين جميعًا كما قال تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:24-25].

وبقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم:97] يشير إلى أن حقيقة القرآن التي هي صفة الله تعالى القائمة بذاته لا تسع ظروف الحروف المحدثة المعدودة المتناهية؛ لأنها قديمة غير معدودة ولا متناهية، وإنما يسر الله تعالى ورأيته بقلب النبي ﷺ وقرأته بلسان العربي المبين ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم:97] لأنهم أهل البشارة، وهم أصناف ثلاثة: فصنف منهم: يتقون الشرك بالتوحيد، وصنف: يتقون المعاصي بالطاعات، وصنف: يتقون عمّا سوى الله بالله ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم:97] لأنهم أهل الإنذار وهم ثلاث فرق: فرقة منهم: الكفار الذين يقاتلون على الباطل، وفرقة منهم: أهل الكتاب الذين يخاصمون على أديانهم المنسوخة، وفرقة منهم: أهل الأهواء والبدع والفلاسفة الذين يجادلون أهل الحق بالباطل ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ [مريم:98] بالخذلان في تيه الضلالة ﴿مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم:98] وقد خلص ونجا ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:98] بالثناء الحسن عليهم.

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: 1 -8].

﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:1-2] إلى قوله: ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه:8] ﴿طه﴾[1] يشير إلى: النبي ﷺ ويقول: يا من طوي به بساط النبوة، وأيضًا: يا من طويت له المكونات إلى ما يشاء ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:2] في الدنيا والعقبى، بل أنزلناه على قلبك؛ لتسعد بتخلقك بخلقه لتكون على خلق عظيم، وليسعد

---

(1) قال روزبهان: أن حروف المعجم صناديق أسرار الحق مع حبيبه ولا يطلع عليها بالحقيقة أحد غيره وكل لسان عبر عنها بقدر ما فتح في قلبه من قلبه من علوم السرِّية الإلهية وما قال فيه أهل الرسوم والحقائق يكفي لمسترشدي طرق الحقائق، وما وقع بغير تكلف بالبديهة لهذا العارف أن الله سبحانه أخبر عن مقدم حبيبه من العدم إلى القدم بروحه فالطاء طوافه روحه وطوف سره في صحاري هويته قبل القبل حين خرج روحه من نور الغيب وطار في هواء الهوية لطلب الذات السرمدي ومشاهدة الصفات الأزلية حتى وصل بالحق إلى الحق، وطار في دائرة هوية الغيب فوجد الحق بالحق وعلم من الحق بالحق ما في الحق فصار مقدسًا بقدس الحق مطهرًا بطهارة الصفة، وهو بذاته تعالى جعله معرفًا لخلقه صفاته وذاته هاديًا يهدي به عباده إليه بنعت المحبة والأسوة، كأنه قال يا طواف قفار الهوية في غيب الأزل ويا مطهرًا من الأكوان والمحدثات، يا هاديًا بنوري خلقي إليَّ ما وطئ أحد على بساط هويتي أفضل منك، طويت لك تحت أقدام همتك صحارى الأزليات والأبديات حتى بلغ سرك سر هويتي بهوائي تهوى وتلطفت بلطفي هوى نجم همتك بعد ارتفاعها بي في هواء وحدانيتي على بساط ملكي وملكوتي فطاب بطيب وصالي يا طه، لأجل ذلك قسمت به بقولي: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم:1] طوبى لمن اهتدى بهديك وطاب عيش من هوى طريقتك يا بدار أفق سماوات القدم ويا غواص قاموس الكرم طاشت العقول في إدراك مقاماتك، وهامت القلوب في أودية محبتك، وطارت الأرواح من حقائق إشاراتك.

قال الواسطي: هو مستخرج من الطاهر الهادي أي: أنت طاهر بنا هادي إلينا.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: طوى عن سر محمد ﷺ الأكوان بما فيها وهدى إلى الاشتغال بمكونها.

وقال محمد بن علي الترمذي: طوبى لمن اهتدى بك وجعلك السبيل إلينا.

وقال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة قلبه عن غيره، و«الهاء» إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله.

بك أهل الأولين والآخرين من أهل السماوات وأهل الأرض، ولتكون رحمة للعالمين، كما قال: ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:3] يعني: عظة لمن يخشى الله بالغيب، ويؤمن بنبوتك، ويقبل رسالتك ﴿تَنزِيلاً﴾ [طه:4] على قلبك ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ﴾ [طه:4] أرض بشريتك ﴿وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه:4] سماوات روحانيتك التي هي أعلى الموجودات وأول المخلوقات كما قلت: أول ما خلق الله روحي ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [طه:5] أي: بصفة الرحمانية ﴿اسْتَوَى﴾(1) [طه:5] على عرش قلبك؛ ليكون لك معه وقت لا يسعك

(1) قال المحقق روزبهان: يشير إلى أن عرشه جلال قدمه وأزلية ذاته وصفاته استوى بنفسه في علم العلم وغيب الغيب وهذا الاستواء قديم وهذا خبر عن تجبره وتكبره بنفسه في نفسه حين لا حين ولا حيث ولا أين ولا غير، وهكذا جميع الأحايين قبل الأكوان وبعد الأكوان وفي الأكوان إذا لأكوان والحدثان قاصرة عن حمل ذرة من كبرياء عظمته والأزمان مضمحلة عن حصر صفاته وأزليته وديموميته، وأيضا إن الله سبحانه لما أراد إيجاد الكون خلق بظهور نور قدرته عالما وسماه العرش من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط وجعل العقل البسيط موضع فعله الذي يصدر من القدرة ومن ذلك الفعل عالم طلوع أنوار القدم عليه فإذا تجلى بذاته لصفاته ومن صفاته لفعله، ومن فعله للعقل البسيط ومن عقل البسيط لعالم العرش فصار كل ذرة من العرش مرآة يتجلى الحق منها للعالم والعالمين فتدر قطرات ديم الفعل من فيض أنوار الصفة والذات من عالم العرش إلى العالم والعالمين على النظام والسرمد واتسام صبح الأزلية من إشراق شمس الألوهية على عالم العرش بهذه المثابة، وانتشر بركتها في الأكوان والحدثان وهذا تحصيل علوم سر الاستواء، ويا عاقل أين العرش، وإن كان ألف ألف عرش من سطوات كبريائه التي لو برزت ذرة منها بنعت القهر في العالم لفنيت كلها قبل أن يرتد إليك طرفك فهو مستوٍ بغير علة اعوجاج الحدثية بوصف قهر القدم على كل مخلوق والكل تحت قهر جبروته وإن كان عالم العرش أعظم ميادين تجلي استوائه هو خاص بتجلي الاستواء، والاستواء صفة خاصة لله منزه عن إدراك الأوهام ومقاييس العقول تعالى الله عن مماسة الحدثان وملاصقة الأكوان.

وسئل مالك بن أنس: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وقال فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا من الكون على الله أثر.

وقال ابن عطاء: الاستواء إظهار المقدرة لا مكان الذات فإذا جاوزنا من هذه المقالة فجرم العرش أعظم من كل جرم ولكن إذا استولى عليه قهر الربوبية كاد أن يذوب من صولته فأمسكه يد اللطف لتكون رفارف أرواح القدسية وبساتين عقول الملكوتية فسكن بلطف الله من الاضطراب من قهر الله، ثم صرف الحق عنه تلك الصولة لما علم ضعفه عن وارد الألوهية فطلب في ملكه وسلطانه عرشًا معنويًا روحانيًا ملكوتيًا رحمانيًا جبروتيًا، وذلك قلب العارف الصادق الذي خلقه الله من نور بهي صدر من تجلي صفة بهائه، وذلك عرش المعنى الذي من وسعه ببسط نور الأزلية فيه على مثابة من قدرة الحق أن لو كان العرش ما تحته يقع فيه يكون أقل من خردلة في فلاة، وذلك مشرق طلوع شمس الذات وقمر

فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [طه:6] الروحانية من الصفات الحميدة ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [طه:6] البشرية من الصفات الذميمة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [طه:6] من القلب ما فيه من الإيمان والإيقان والصدق والإخلاص ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:6] أي: ما هو مركوز في جبلة الإنسانية.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ [طه:7] أي: تظهر من صفاتك بالقول ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ [طه:7] وهو ما تظهر من سريرتك ﴿وَأَخْفَى﴾ [طه:7] بالقول وهو ما أخفى الله من خفيتك، فالسر باصطلاح أهل التحقيق لطيفة بين القلب والروح وهو معدن أسرار الروحانية، والخفي لطيفة بين الروح والحضرة الإلهية، وهو مهبط أنوار الربوبية وأسرارها، فافهم جيدًا واغتنم.

ولهذا قال عقب قوله: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7] قوله: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ

الصفات، فإذا غلب سلطانها عليه ظهر ضعفه تحت أثقال الألوهية فيبرز نور اللطف في قضائه فيبسطه بسطًا لا نهاية له ويصير مبسوطًا ببسط التجلي حتى يكون مستقيًا متمكنًا في رؤية تجلي الحق فإذا صارت أنوار التجلي عليه بنعت الاستدامة ظهر علم سر الاستواء منه، وحاشا أن القلب حامل الذات والصفات هو بجلاله متنزه عن الورود على الحدثان لكن هو طور التجلي يحمل أثقال تجلي الحق بالحق لا بنفسه.

انظر إلى قول النبي ﷺ كيف قال حكاية عن الله ﷻ: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن».

ويا عاقل كيف يحمله الحدث، وهو منزه عن الحلول والله منزه أيضًا أن يكون هو محل الحوادث للقلب يحمله به؛ لأنه هو بذاته حامل القلب بالوصف والصفة.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» هو مع الكل بالعلم والكل معه بالعلم والقدرة وهو منزه قائم بذاته تعالى الله عن كل وهم وخاطر.

وقال ابن عطاء: استوى لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إليه من شيء.

وقال بعضهم: استوى له السماوات والأرض وما فيهن بشرط العبودية.

قال الأستاذ: عرشه في السماء معلوم وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد فعرش السماء مطاف الملائكة، وعرش الأرض مطاف اللطائف، فأما عرش السماء، فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب؛ فالرحمن عليه استولى، وعرش السماء قبلة دعاء الخلق، وعرش الأرض محل نظر الحق فشتان بين عرش وبين عرش، ثم مع هذه الآية وعقيبها جمع الله سبحانه علومه القديمة المحيطة بالحدثان من فوق العرش إلى ما في تحت الثرى.

الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [طه:8] إشارة إلى أن مظهر ألوهيته وصفاته العليا وأسمائه الحسنى إنما هو الخفي الذي هو أخفى من السر؛ أي: ألطف وأعز وأعلى وأشرف وأقرب إلى الحضرة منه ألا وهو سر ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] وهو حقيقة قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»[1].

ثم اعلم أن لطيفة السر التي تكون بين القلب والروح موجودة في كل إنسان مؤمن أو كافر عند نشأته الأولى، والخفي قد نشأ عند نشأته الأخرى، فلهذا يمكن أن يكون كل إنسان مؤمن أو كافر بعدد أسرار الروحانية وجملتها المعقولات، ولا يمكن إلا لمؤمن موحدًا أن يكون مهبط أنوار الربانية وأسرارها وجملتها المشاهدات والمكاشفات وحقائق العلوم اللدنية.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ [طه: 9 - 13].

ثم أخبر عن بدايات أهل النهايات بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: 9] إلى قوله: ﴿فَتَرْدَى﴾ [طه:16] فقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9] يشير إلى أن موسى القلب ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ [طه:10] أي: نارًا من جانب طير الروح ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ﴾ [طه:10] وهم النفس وصفاتها ﴿امْكُثُوا﴾ [طه:10] أسكنوا هاهنا في ظلمة الطبيعية الحيوانية ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه:10] وهي نار المحبة التي لا تبقى ولا تذر من حطب وجود الإنسانية أثرًا ولا رسمًا ولا ظلالًا ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:6].

﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه:10] يخرجكم من ظلمات الطبيعة إلى أنوار الشريعة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ﴾ [طه:10] بالطريقة ﴿هُدًى﴾ [طه:10] إلى الحقيقة ببذل الوجود ولنيل المقصود:

(1) تقدم تخريجه.

أقول لجارتي والدمع جارٍ ولي عزم الرحيل إلى الديار
ذريني أن أسير ولا تنوحي فإن الشهب أشرفها السواري
أأرضي بالإقامة في فلاة وفوق الفرقدين عرفت داري

قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ [طه:11] من شجرة ذات القدس بخطاب الأنس ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:11-12] لأريك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾(1) [طه:12] أي: انزع عن تعلقات الكونين عن شرك لأقدس عن لوث التعلقات وأرى شرك المطهر، فتارة: بقطع تعلق الدنيا الدنية الخسيسة الفانية، ومرة: بنزع تعلق الآخرة الشريفة العلية الباقية؛ فالمعنى: إنك يا موسى القلب إذا خلعت نعلي الكونين على قدمي همتك وبهمتك المتعلقة أحديهما: بالدنيا، والأخرى: بالآخرة، فقد طهرت وادي شركك عن لوث الالتفات بهما فإنك قد حصلت.

﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه:12-13] وأنا اخترتك يا موسى القلب من بين سائر خلق وجودك من البدن والنفس والسر والروح، وكرمتك بهذه الكرامة؛ لتكون كليمي وصاحب سري يا موسى القلب ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه:13] بسمع الطاعة والقبول ببذل أنانيتك لأنانيتي.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 14 - 23].

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه:14] المعنى أنني لمَّا تجلت أنانية ألوهيتي لأنانية وجودك المجازي لا يبقى في عالم وجودك المجازي إله من الهوى وغيره، ﴿إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:14] بمساعي إفناء وجودك المتولد من منشأ قالبك على الدوام ما دام باقيًا ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ [طه:14] أي: أدم المناجاة في المحاضرة مع تبدل الوجود ﴿لِذِكْرِي﴾(2)

(1) كما يفعل بحضرات الملوك أدبًا، ولتنالك بركتها ولتكون مهيأ للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد، ولهذا قال أهل العبارة: النعل يدل على الولد. نظم الدرر (5/ 238).

(2) إقامتها من غير ملاحظة مجريها ومنشيها تورث الإعجاب، وإذا قام العبد صلاته على نعت الشهود،

[طه:14] أي: لنيل ذكري إياك بالتجلي على الدوام؛ لإفناء وجودك المتحد.

وبقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ [طه:15] يشير إلى أن كل قلب يكون هذا حاله، فإن فيها منه بكشف غطاء الحجب الإنسانية عنه بتجلي صفة الجلال لآتية التي من شأنها البروز لله الواحد القهار ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:15] عزة شأنها وعظمة سلطانها فيسقى من الكرم على بعض خواص ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:15] في العبودية من الروح والسر والقلب والنفس والقالب جزاءًا مناسبًا لسعيهم، فلمَّا كان سعي الروح بحسب الوطن الأصلي للرجوع إلى سكنى إضافة من روحي فجزاءه من تجلي صفة الجلالة بالانعدام من الوجود المجازي انعدام الناسوتي في اللاهوتي، وكان سعي السر بالخلو عن الأكوان لقبول فيض المكون فجزاؤه بإضافة الفيض الإلهي عليه، وكان سعي القلب بقطع تعلقات الكونين لتصفية وقابلية لتجلي الصفات الجمال والجلال فجزاءه بدوام تجلي صفة الجمال، واتصافه بصفة الجلال؛ ليبيت عند ربه يطعمه ويسقيه من الشراب الإلهي الذي يزيل لوث الحدوث عن لوح القلوب لكشف حقائق الغيوب، وكان بسعي النفس بتبديل الأخلاق واتقاء الأوصاف الظلمانية الحيوانية؛ لاتصافها بالصفات الروحانية الربانية فجزاؤها بإشراقها بنور ربها لإزالة ظلمة صفاتها، واطمئنانها إلى ذكر ربها المكون قابلة لله بجذبة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] وكان سعي القالب باستعمال أركان الشريعة وآداب الطريقة فجزاؤه رفعة الدرجات ونيل الكرامات في الدارين.

﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [طه:16] لا يصرفنكم عن هذه السعادات والكرامات يا موسى القلب النفس الأمارة التي لا يؤمن بها، واتبعت هواها في طلب الشهوات واللذات الدنيوية ﴿فَتَرْدَى﴾ [طه:16] فتهلك بانقطاعك عن الحق تعالى فيه إشارة إلى أن هلاك القلب وقساوته في هلاك النفس وقساوتها.

ثم أقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:15] يعني: أكاد أخفي

-

والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة لهذا فتح باب المواصلة والوقوف في محل النجوى والتحقق بخصائص القرب والزلفى.

الساعة وإتيانها، وأخفي أحوال الجنة ونعيمها، وأهوال النار وعذاب جحيمها لئلا تكون عبادتي مشوبة بطمع الجنة وخوف النار، بل تكون خالصة لوجهي كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] وفي ذلك تهديد عظيم للعباد، وإظهار عزة وعظمة لنفسه إلا أنه سبقت رحمتي غضبي بها أخفيت الساعة وإتيانها، والله أعلم.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [طه: 17 - 35].

ثم أخبر عن أصناف ألطافه مع خواصه بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[1] [طه:17] إلى قوله: ﴿كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:35] يشير إلى أنه تعالى كان عالمًا بأن في يمينه العصا إذ قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ [طه:17] وتلك تقال للمؤنث والعصا مؤنث، وإنما امتحن موسى بهذا السؤال تنبيهًا له؛ ليعلم أن للعصا عند الله اسمًا آخر وحقيقة أخرى غير ما علم منها، فيحيل علمها إلى الله تعالى ويقول: أنت أعلم بها يا رب، فلمّا أتكل على علم نفسه وقال: هي عصاك، قيل له: أخطأت، هذا الجواب خطأين:

أحدهما: في قولك إذ سميتها العصا.

والثاني: في إضافتها إلى نفسك لقولك: ﴿عَصَايَ﴾ [طه:18] وهي ثعبان لا عصاك.

---

(1) وأيةُ نعمةٍ أو مأربٍ أو منفعةٍ تكون أعظمَ مِنْ أنْ تقولَ لي: وما تلك؟ ويقال قال الحقُّ - بعد ما عدَّد موسى وجوهَ الآياتِ وصنوفَ انتفاعِه بها - ولَكَ يا موسى فيها أشياءُ أخرى أنت غافلٌ عنها وهي انقلابُها حيةً، وفي ذلك لك معجزةٌ وبرهانُ صِدْقٍ.
ويقال جميعُ ما عَدَّدَ من المنافع في العصا كان من قِبَلِ الله، فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. تفسير القشيري (4 / 493).

فلمّا قال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه:18] قال تعالى اتكأت على غيري، فقال الله القهار: ﴿يَا مُوسَى﴾ [طه:19] ليعلم أنها ليست تصلح للاتكاء ولا يصلح لك الاتكاء على غير الله إلا على لطفه وكرمه؛ لأنه يكون ثعبان وتحسب أنه متوكأ لك وواسطة رزق أغنامك إذ قلت: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه:18] وسعيت ونسيت أن الرزاق هو الله تعالى، وأحلت مآربك إليها إذ قلت: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: 18] ولم تحل مآربك إلى الله هو قاضي الحاجات مجيب الدعوات ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه:20] لا عصى من خشب يابس فهرب منها موسى خائفًا مستحييًا خجلاً مما جرى عليه قولاً وفعلاً، فرجع إلى الله بقلبه مستغفرًا له.

ثم أدركته العناية الأزلية وقال: ﴿خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ [طه: 21] يعني: كنت تحسب أن لك فيها المآرب والمنافع في البداية، ثم رأيتها وأنت خائف من مغايرها فخذها ولا تخف؛ لتعلم أن الله هو الضار والنافع، فيكون خوفك ورجاؤك منه وإليه لا من غيره ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه:22] أي: انزع يدك؛ أي: يد همتك من غير الله وعنهم ﴿تَخْرُجْ﴾ [طه:22] من ظلمة الدارين نقية ﴿بَيْضَاءَ﴾ [طه:22] اللون نورانية ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه:22] مضرة خسارتك تعود إليك من ترك الدارين مع التصرف فيهما بالله في الله ولله وهو ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ [طه:22].

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى﴾ [طه:23] وفيه إشارة إلى: إبعاده بالرؤية؛ لأنها من آياته الكبرى؛ يعني: إنك إذا ضممت يد همتك إلى جناحك بقطع تعلق الدارين ولا تلتفت إلى غير الله فتستحق رؤيته، فإنك مادمت تنظر إلى غيره لا تكون مستحقًا للنظر إليه ألا ترى أنك لَمَّا امتحناك بالنظر إلى الجبل حرمت عن النظر إلينا؟ وأمَّا محمد فلمَّا امتحن بكشف حقائق الدارين ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:16] ما التفت إلى ما سوى الله ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17] لا جرم ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم:18].

وبقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات:17] يشير إلى معنيين:

* أحدهما: إن السالك الصادق إذا بلغ مرتبة كمال يقيضه الله لدلالة عباده لهدايتهم

وتربيتهم ودعوتهم إلى الله.

* والثاني: إن كمال الكمال للبالغين في أن يرجعوا إلى الخلق لمخالطتهم والصبر على أذاهم ليخبروا بذلك حلمهم وعفوهم، وفي قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[1] [طه:25: 28] إشارة إلى أن الواصل الكامل لا يغتر بكماله ولا يعتمد على أحواله، بل يكون مراجعًا إلى الله في جميع حالاته، مراقبًا مستعينًا به ساعيًا في طلب الزيادة.

وفي قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:29: 32] إشارة إلى أن صحبة الأخيار ومؤازرتهم مرغوب الأنبياء فضلاً عن غيرهم، ولا ينبغي أن يكون المرء مستبدًا برأيه مغرورًا بقوته وشوكته، وينبغي أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويجوز لنفسه الشريك في أمور المناصب، وبقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:33-34] يشير إلى أن للجليس الصالح والصديق الصديق أثرًا عظيمًا في المعاونة على كثرة الطاعات، والموافقة اقتحام عقبات السلوك وقطع مفاوزه ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:35] في الأزل، وإنك شرفتنا باستعداد الرسالة.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا

---

(1) أي: لساني لسان الحدث، وبدله بلسان «قدوسي سبوحي صمداني رباني» حتى أطيق أن أتكلم به معك كما تتكلم معي، وإذا كان لساني لسانك أكون قادرًا بأن أخبر عنك وصفك كما هو، ولو أخبرهم عنك بلساني كيف أخبرهم، والعبارة عنك بغير لساني القديم مستحيلة.

وقال الحسين: لما أزال الحق عنه التوقف وجاء إلى الله بالله ولم تبق عليه باقية بها يمتنع أقيم مقام المواجهة، وأطلق مصطنيعه لسانه، نظر إلى أليق الأحوال به فسأل مليكه شرح صدره ليتسع مقام المواجهة والمخاطبة، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فإذا هو تيسر أمره فنال ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى أرفع المقام وهو المجيء إلى الله بالله بأن من وصل إليه لا يعترض عليه عارضة بحال، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فسأل حل العقدة من لسانه ليكون إذ ذاك مالكًا لنطقه وبيانه؛ فلما تمت له هذه الأحوال صلح للمجيء إلى الله وكان ممن وفى المواقيت حقها غابت عنه الأحوال ولم يرها وذهب عن غيبه وظهوره وما عداهما إلا كان للحق منه ومعه حتى يحقق.

وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه: 36 - 44].

ثم أخبر عن إيتاء سؤاله وإعطاء مأموله بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه:36] إلى قوله: ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44] ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36] يشير إلى أن سؤالك أعطيت قبل سؤالك بالتقدير الأزلي وسابقة العناية لا بالتدبير العملي ولاحقة الكفاية ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37] في الأزل ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:38] أي: إذ جعلناها قابلة مستعدة للوحي بتبعيتك إذ كان التقدير على أنها تكن صدق در وجودك ووصالك.

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه:39] به يشير إلى أن من خصوصية انشراح الصدر بنور الوحي: أن يقذف في قلبه قذف الولد في تابوت التوكل، وقذفه في بحر التسليم ويفوض أمره إلى الله ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه:39] ساحل إرادة الله ومشيئته على وفق قضائه وقدره ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ [طه:39] أي: دعه حتى يأخذه العدو فإني قادر على تربية الولي في بحر القدر، وتقيه من شره بإلقاء محبة منه عليه كما قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه:39] أي: محبته ومحبتي ليحبك لمحبتي من أحبني بالتحقيق، ويحبك عدوي وعدوك بالتقليد، كما أن آسية أحبته بحب الله على التحقيق وفرعون أحبه لَمَّا ألقى الله عليه محبته بالتقليد، ولَمَّا كانت محبة فرعون فسدت وبطلت بادئ حركة رآها من موسى عليه السلام، ولَمَّا كانت محبة آسية بالتحقيق بقيت عليها، ولم تتغير، وهكذا يكون إرادة أهل التقليد تفسد بأدنى حركة، ولا تكون على وفق طبع المريد المقلد، ولا تفسد إرادة المريد المحقق بأكبر حركة يخالف طبعه وهواه وهو مستسلم في جميع الأحوال.

وبقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39] يشير إلى أن من أدركته العناية الأزلية يكون في جميع حالاته منظور بنظر العناية لا يجري عليه أمر من أمور الدنيا والآخرة ألا يكون فيه صلاح وتربية إلى أن يبلغ درجة ومقامًا قد قدر له قوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ [طه:40] ورده إلى أمه من تأثير العناية ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ

كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾(1) [طه:40] بتوكلها على الله في شأن الولد وتسليمه إلى الله ﴿وَلاَ تَحْزَنَ﴾ [طه:40] على ترك رعاية مصلحته إذا ألقته في اليم وهو معرَّض للهلاك والتلف، وبالتوكل ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ [طه:40] وإذ قتلت القبطي بغير أمرنا، وكنت في غم وجوب القصاص عليك وغم مؤاخذتنا إياك بما فعلت.

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾ [طه:40] بأن خلصناك من القصاص وعفونا عنك ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:40]:

* منها: فتنة صحبتك مع فرعون وتربيتك مع قومه فحفظناك عن التدين بدينهم.

* ومنها: فتنة قتل نفس بغير الحق وتدارك من فرعون بسبب قتل القبطي فنجوت منها.

* ومنها: ابتليناك بابنتي شعيب واحتياجهما إليك في سقي غنمهما، فلولا حفظنا لملتَ إليهما ميل البشر بالنساء.

* ومنها: ابتليناك بخدمة شعيب وصحبته واستئجاره فوفقناك بالخروج عن عهدة

---

(1) قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [طه:40] يا موسى: ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه:40] أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت، وكذلك رددناك يا موسويّ القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلُّقات الذات والصفة، وقوله ﷻ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، فرى العين هنا إشارة إلى قرار الذات، فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالبًا وقلبًا ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذَّة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك، وقوله ﷻ: ﴿وَلا تَحْزَنَ﴾ تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح، فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون، أمّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذُروة الحالات والكمالات، وأمّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجملة، وإن تلطَّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقًا أشدُّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذب البارد. مرآة الحقائق للشيخ حقي (1/ 275) بتحقيقنا.

حقوقه ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طه:40] لتستحق بتربية شعيب النبوة والرسالة ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه:40] أي: على قدر قدرنا لك لاستحقاق النبوة والرسالة بحسن التربية حتى بلغت مرتبة قولنا: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41] أي: جعلتك مرآة قابلاً لظهور صفات جمالي وجلالي ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ [طه:42] بتقوية ظهور تجلي صفاتي. ﴿وَلاَ تَنِيَا﴾ [طه:42] أي: ولا تهنا في مداومة ﴿ذِكْرِي﴾ [طه: 42] وملازمته قائمًا بسلطان الذكر تغلبان على فرعون الظاهر والباطن.

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ [طه:43-44] أي: ارفقا به ولا تعنفا ويسرا ولا تعسرا، فإنه ما دخل الرفق في شيء إلا وقد زانه ﴿لا يتذكر ولا يخشى﴾، فأقول: إن فائدة هذا الكلام والقول اللين عائدة إلى موسى عليه السلام لوجهين:

* أحدهما: أنه كان في موسى حدة وصلابة وخشونة بحيث إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارًا فعالج حدته وخشونته؛ ليكون حليمًا.

* والوجه الثاني: أن فرعون كان تجبر وتكبر وتبور وهو ذو شوكة وسلطة عظيمة، فلو كان في قول موسى خشونة لم يحتمل طبع فرعون وهاج غضبه فعله يقصد موسى بضرب أو قتل ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44]، ولم يصيبكما أذى، والله أعلم.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: 45 - 52].

والدليل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ [طه: 45] إلى قوله: ﴿وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:52] قوله: ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ﴾ [طه:45] يشير: أن الخوف مركوز في جبلة الإنسان حتى لو بلغ مرتبة النبوة والرسالة، فإنه لا يخرج من جبلته كما قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ [طه:45] يعني: بأن يقتلنا، ولكن الخوف ليس

بجهة القتل، وإنما نخاف فوات عبوديتك بالقيام لأداء الرسالة والتبليغ، كما أمرتنا إذ بتمرده وبجهله ولا ينقاد لأوامرك أو يسبك، ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: 24].

وبقوله تعالى: ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا﴾ [طه:46] يشير إلى أن الخوف إنما يزيل عن جبلة الإنسانية بخطابي إليه بأمر التكوين كما قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] فكانت بتكوين الله إياها بردًا وسلامًا ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ [طه:46] بالنظرة والحفظ في الأزل؛ إذ كنت أقدر نصركما، وهلاكه على أيديكما ﴿أَسْمَعُ﴾ [طه:46] هذه مقالتكما قبل وجودكما ﴿وَأَرَى﴾ [طه:46] أحوالكما وأحواله قبل أن أخلقكما بهذه الصفات.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:47] أعلم أن فائدة إتيانهما رسالتهما إلى فرعون وتبليغه كانت عائدة إلى موسى وهارون نفسهما لا إلى فرعون في علم الله ﷻ، فالحكمة في إرسالهما: أن يكونا رسولين من ربهما مبلغين منذرين؛ ليتحقق رسالتهما، وينكر فرعون ويكفر بهما؛ ليتحقق كفره، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42] ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه:47] وهي اليد البيضاء بها يشير إلى يد صافية فارغة من الدنيا والآخرة ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه:47] أي: سلم من استسلم، واتبع هدى الله وهي ما جاء به الأنبياء عليهم السلام.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ [طه:48] أي: ضد السلامة ﴿عَلَى مَن كَذَّبَ﴾ [طه:48] أي: كذب وكفر بما جاء به الأنبياء ﴿وَتَوَلَّى﴾ [طه:48] أي: أعرض عن الله بمتابعة الهوى ﴿قَالَ﴾ [طه:49] فرعون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه:49] واختص موسى بالذكر دون هارون مع أن الخطاب كان معهما؛ لأن صاحب الآيات كان موسى وكانت الرسالة له بالأصالة ولهارون بالوزارة بالتبعية.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه:50] أعطى كل شيء استعداد لما خلق له ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50] أي: يسره لما خلق له والذي يدل عليه قوله ﷺ: "اعملوا

كل ميسر لما خلق له»[1]، معناه: أن الله تعالى خلق المؤمن مستعدًا لقبول فيض الإيمان، ثم هداه إلى قبول دعوة الأنبياء ومتابعتهم، وخلق الكافر لقبول فيض القهر والخذلان والتمرد على الأنبياء مخالفتهم.

﴿قَالَ﴾ [طه:51] يعني: فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه:51] يعني: المتقدمين الذين لم يقبلوا دعوة الأنبياء فألفوهم ﴿قَالَ﴾ [طه:52] أي: موسى. ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ [طه:52] يعني: علم كل واحد من القرون أنه تعالى لماذا خلقه مستعدًا لقبول الإيمان، ولقبول الكفر ثابت في أم الكتاب عنده ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي﴾ [طه:52] عن الكتاب وعلمه ﴿وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:52].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾ [طه: 53 64].

ثم أعرض عن أحوال أفعاله بقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53] إلى قوله: ﴿مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه:64] فبقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53] يشير إلى أن الحكمة في خلق الأرض هي أن تكون الأرض مهدًا لكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه:53] أي: لأجلكم لا لغيركم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه:53ـ54] به يشير إلى أن السماء والماء والنبات والأنعام كلها مخلوقة لكم ولسد احتياجكم للتعيش بهذه الأشياء، بل بجميع المخلوقات ما خلقتها.

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه:54] أي: إن في ذلك التقدير رسالات ودلالات لذوي البصائر أنها خلقت لأجلهم؛ لأنهم كانوا أهل المعرفة، وخلقت المخلوقات فجاء ﷺ لخلق المعارف كما قال في الحديث الرباني: «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»[1]، وفيه معنى آخر وهو: إن في ذلك الذي مرَّ ذكره ومن السماوات والأرض وما بينهما لآيات بأنه مظهر صفات لطف الحق ومظهر صفات قهره، فإنهم يشاهدون فيه جمال لطفه وجلال قهره ستر الله سترًا بستر وإضمارًا بإضمار.

قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه:55] أي: من ذرة التراب التي أمر الله تعالى عزرائيل أن يأخذ من جميع الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:55] أي: إلى الموضع الذي أخذ منه ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:55] بعد أن يجعل لكم جسدًا مستعدًا للبقاء الأبدي، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ [طه:56] يعني: فرعون ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ [طه:56] أي: كل آية نهدي بها أهل البصيرة ﴿فَكَذَّبَ﴾ [طه:56] بها إذ لم يكن أهل البصيرة ﴿وَأَبَىٰ﴾ [طه:56] ألا يؤمن بها.

﴿قَالَ﴾ [طه:57] أي: فرعون. ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:57] وإنما قال هذا؛ لأنه كان من أهل البصر لا أهل البصيرة، فكان مطرح نظر بصره الدنيا وما فيها، فرأى مجيء موسى لإخراجه من مملكة الدنيا ولو كان ذا بصيرة لرأى مجيئه لإخراجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البشرية إلى نور الروحانية، ومن نور ظلمات الإنسانية إلى نور الربانية، فلما رأى ببصر الحس المعجزة سحرًا قال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه:58] وإنما طلب الوعد؛ لأن صاحب السحر محتاج في تدبير السحر إلى طول الزمان وصاحب المعجزة لا يحتاج في إظهار المعجزة إلى الوعد ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:59] يعني: يوم عيدهم الذي يجتمع فيه الناس من كل مكان؛ ليكون بمشهد خلق عظيم لعلهم يستجيبون عنهم، فلا ينكرون المعجزة بعد إبطال السحر.

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه:60] من السحرة وسحرهم ﴿ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُم مُّوسَى﴾ [طه:60ـ61] يعني: السحرة ﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى الله كَذِبًا﴾ [طه:61] أي: بإتيان السحر في معرض المعجزة إدعاء بأن الله قد أعطاه مثل ما أعطى الأنبياء من المعجزة ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه:61] فيهلككم بوضع السحر موضع المعجزة، فإنه ظلم عظيم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله الكَذِبَ﴾ [الصف:7] ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه:62] إلى قوله: ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه:63] أي: يفتنون بأن فرعون وسحرته يقولون: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [طه:63] من مناصب شيخوختكم ومراتب قبولكم عند العوام ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المُثْلَى﴾ [طه:63] أي: بصرف وجود الناس عنكم، ويذهبا بأشراف قومكم من الملوك والأمراء والمعارف وأهل الدثور والأموال ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ [طه: 64] مكركم وحيلكم في دفع هذه المزاعم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ اليَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه:64] أي: فإن من غلب ونال علو المرتبة بين الناس.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾ [طه: 65-76].

ثم أخبر عن إعزاز أهل الإعجاز وإذلال أهل الضلالة بقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ [طه:65] إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه:76] يشير إلى أن السـحرة لمّا أمروا موسى بالتقديم والتأخير في الإلقاء إذ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ

﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه:65] أعزهم الله بالإيمان الحقيقي حتى رأوا بنور الإيمان معجزة موسى فآمنوا به تحقيقًا لا تقليدًا، وهذا حقيقة قوله تعالى: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»(1).

فلمّا تقربوا إلى الله بإعزاز من أعزه الله أعزهم الله بالإيمان تقربا إليهم ذراعًا، فكذلك أعزهم موسى بالتقديم في الإلقاء وقال: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه:66] وتقرب به إلى الله ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:66] أي: ما كان لها تسعى على الحقيقة بل بالتخيل، وكانت تسعى عصى موسى بالحقيقة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه:20].

وبقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾ [طه:67] يشير إلى أن خوف البشرية مركوز في جبلة الإنسان ولو كان نبيًا إلى أن ينزع الله الخوف منه انتزاعًا ربانيًا بقول صمداني كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾ [طه:68] أي: أعلى درجة من أن تخاف من المخلوقات دون الخالق، وفيه معنى آخر: أن خوف موسى عليه السلام ما كان من المكونات، بل كان من المكون إذ رأى عصاه ثعبانًا تلقف سحر السحرة قد علم أنها صارت مظهر صفة قهاريته فخاف من الحق تعالى وقهره، لا من العصا وثعبانها، فلهذا قال تعالى: ﴿لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾ [طه:68] أي: لأنك أعلى درجة عندنا منها؛ لأنها عصاك مصنوعة لنفسك وأنت رسولي وكليمي ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41] وإن كانت في مظهر صفة قهري فأنت مظهر صفات لطفي وقهري كلها.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [طه:69] به يشير إلى أن ما في يمينك هو مصنوعي وكيدي وما صنع السحرة إنما هو مصنوعهم وكيدهم. ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ [طه:69] ومصنوعهم وكيدهم ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:69] مصنوعي وكيدي ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:45] فلمّا أظهر الله عز وجل كيده في صورة الثعبان وابتلع مصنوعهم وأظهر برهانه ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه:

---

(1) تقدم تخريجه.

70] فكان الإيمان على البصيرة ببرهان الربوبية؛ آمنوا بالبرهان بالتقليد، وإن فرعون ما رأى برهان الربوبية فلم يؤمن بالتقليد فقد تحققوا أن المعجزة لم تكن سحرًا ولا الرسول ساحرًا ﴿قَالَ﴾ [طه:71] للسحرة ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:71] وإنما قال: ﴿أَشَدُّ عَذَابًا﴾ [طه:71] لأنه كان بصيرًا بعذاب الدنيا وشدته، وكان أعمى بعذاب الآخرة وشدته.

﴿قَالُوا﴾ [طه:72] يعني: السحرة ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه:72] أي: لن نختارك على ما جاءنا من نور الإيمان ورؤية البرهان والاطلاع على الجنان وجوار الرحمن ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه:72] وهم قسم؛ أي: بالذي فطرنا على فطرة الاسلام والتعرض للفاطرية لإيجابها عدم إيثارهم فرعون عليه تعالى ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:72] أي: فاحكم وأجر علينا ما قضى الله لنا في الأزل من الشبهات ﴿مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: ما أنت الذي قضى لنا هذه الدرجة ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:72] علينا كما قضى الله وقدره.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه:73] الذي قضى وحكم لنا ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ [طه:73] التي كنا نرى منكم الخير والشر ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه:73] رغبة في خيرك ورهبة من شرك ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ [طه:73] في إبطال الخير والشر ونفع البشر منك ﴿وَأَبْقَى﴾ [طه:73] خيره من خيرك وعذابه من عذابك ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ [طه:74] بائعًا دينه بدنياه مشتريًا صحبتك بمولاه ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ [طه:74] البعد والقطيعة ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ [طه:74] موتًا يستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ [طه:74] حياة ينتفع بها ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ [طه:74] بما وعد وأوعد على لسان أنبيائه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ [طه:74] التي جاءوا بها ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:74] والمنازل القربى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [طه:76] في حظائر القدس.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [طه:76] أي: من تحت أشجار الأنس أنها الحكم والمعارف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [طه:76] بالسير إلى الله وبالله وفي الله، وتلك المقامات

والدرجات ﴿جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه:76] عن أخلاقه الذميمة النفسانية وأوصافه السبعية الشيطانية، وتحلى بالأخلاق الروحانية الربانية، واعلم أن التحلية بهذه الأخلاق إنما يكون بعد تزكية النفس عن هذه الأوصاف.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 77 - 82].

ثم أخبر عن خلاص أهل الإخلاص بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [طه:77] يشير إلى أن موسى القلب والأخلاق الحميدة إذ أيدناه بالتأييد الإلهي بالأدب الرباني أن أسر بعبادي السر وهو روح القلب والأخلاق الحميدة وهي صفات القلب؛ أي: سرت بهم من بر البشرية إلى بحر الروحانية ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ [طه:77] بعصا الذكر لا إله إلا الله ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ [طه:77] بحر الروحانية ﴿يَبَسًا﴾ [طه:77] من ماء الهوى وطين صفات الحيوانية ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى﴾ [طه:77].

وبقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ [طه:78] يشير إلى أن موسى القلب كلما توجه إلى بحر الروحانية يتبعه فرعون النفس مع جنود صفاته الذميمة النفسانية، كما أن النفس كلما توجهت بالخذلان إلى مراتع الحيوانية السفلية يتبعها القلب مع جنوده، وهي الصفات الحميدة الروحانية، فلمَّا دخل موسى القلب وجنوده في بحر الروحانية، وبلغوا ساحل البحر وهو سرادقات العزة وحظائر القدس، ودخل فرعون النفس وجنوده في بحر الروحانية ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:78] من سطوات الروحانية وتموج بحرها بهبوب رياح العناية. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ﴾ [طه:79] النفس ﴿قَوْمَهُ﴾ [طه:79] أي: صفاته في بحر الروحانية ﴿وَمَا هَدَى﴾ [طه:79] وما وفق غريق للخروج عن هذا البحر، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:27-30] وهي مراتب الروحانية، والإشارة بأن النفس هي

مركب سلطان، فإذا بلغ السلطان بجذبات العناية إلى سرادقات العزة وأنزل حضرة الدين ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] يربط مركب وهو النفس في مراتب الجنان، فإن فيها ما تشتهيه الأنفس فلا عبور لها عنها والمسخرة للوصول والوصال إنما هو سلطان القلب لا مركب النفس، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن صفات أهل النجاة بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه:80] يشبه إلى بني إسرائيل صفات القلب والروح ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه:80] وهو فرعون النفس ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ [طه:80] وواعدناكم جوار طور قرب الحضرة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ [طه:80] من صفاتنا، ﴿وَالسَّلْوَى﴾ [طه:80] أخلاقنا.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [طه:81] أي: اتصفوا بطيبات صفاتنا، وتخلقوا بكرائم أخلاقنا التي شرفناكم بها؛ أي: لو لم تكن العناية الربانية لَمَا نجّا الروح والقلب وصفاتهما من شر فرعون النفس وصفاتها، ولولا تأييد الإلهية لَمَا اتصفوا بصفات الله تعالى ولا تخلقوا بأخلاقه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه:81] أي: إذا استغنيتم بصفاتي وأخلاقي عن صفاتكم وأخلاقكم فلا تطغوا بأن تدَّعوا العبودية، وتدَّعوا الربانية، وتسمُّوا باسمي إن اتصفتم بصفتي كما قال بعضهم: أنا الحق، وقال بعضهم: سبحاني ما أعظم شأني، وما أشبه هذه الأحوال مما يتولد من طبيعة الإنسانية ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6-7]، وإن طغيان هذه الطائفة بمشاهدة المقامات، وإن كانت من أحوالها إلا أن الحالات لا تصلح للمقامات وهي موجبة للغضب كما قال تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:81] أي: بجعل كل معاملاته في العبودية هباءً منثورًا، ولهذا الوعيد أمر الله تعالى عباده في الاستهداء بقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:6-7] أي: اهدنا هداية من أنعمت عليه بتعريفه الطاعة والعبودية، ثم ابتليه بطغيان يحل عليه غضبك، ثم وعد بعد الطغيان بالمغفرة بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾ [طه:82] ورجع من الطغيان بعبادة

الرحمن ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه:82] بالعبودية لربوبيته ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:82] أي: تحقق له أن تلك الحضرة منزهة من وسن الحس والخيال، وأن الربوبية قائمة والعبودية دائمة.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91)﴾ [طه: 83 - 91].

ثم أخبر عن عجلة موسى في طلب الرضا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:83] إلى قوله: ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:91] ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ إشارة إلى معان مختلفة:

* منها: ليعلم أن السائر لا ينبغي أن يتوانى في السير إلى الله، ويرى أن أرض الله في استعجاله في السير.

* ومنها: أن السائر لا يتعرف بعوائق في السير، وإن كان في الله ولله كما كان حال موسى عليه السلام في السير إلى الله، فما تعوق بقومه واستعجل مع أنه كان مأمورًا برعاية حقوق القوم ومصالحهم، فلمّا طلب الله قطع العلائق وحذف العوائق.

* ومنها: أن قصد السائر إلى الله تعالى ونيته ينبغي أن يكون خالصًا لله وطلبه لا لغيره كما قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:84] كان قصد السائر إلى الله تعالى.

* ومنها: أن يكون مطلوب السائر من الله رضاه لا رضاء نفسه كما قال: ﴿لِتَرْضَى﴾ وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 85] إشارة دقيقة منها: أنه تعالى جعل فتنة قوم موسى وما لقي موسى [مضاف لنفسه]، وذلك أنه تعالى أضاف فتنة القوم إلى نفسه، وأضاف إضلالهم إلى السامري فافتتن موسى

ﷺ برؤية الفعل عن الفاعل، فإنه قد رأى الفتنة من الله وقال: ألا هي إلا نفسك، ورأى الإضلال من السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:95] ومن أنت بهذا السبب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:150] بلا جرم منه، وهذه الفتنة من جملة ما قال الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:40].

* ومنها: ليعلم أن طريق الأنبياء ومتبعيهم محفوف بالفتنة والبلاء كما قال ﷺ: «إن البلاء موكل بالأنبياء»[1] الأمثل فالأمثل، وقد قيل: إن البلاء للولاء كاللهب للذهب.

* ومنها: أن فتنة الأمة والمريد مقرونة بمفارقة الصحبة من النبي والشيخ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه:85] أي: من بعد مفارقتك إياهم، وأن المسافر إذا انقطع عن صحبة الرفقة والحقير والذليل افتتن بفتنة قطاع الطريق والغيلات هذا في قوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه:86] إلى قوله: افتتان موسى وقومه؛ أمَّا افتتان موسى: فبأنه برجع من تلك الحضرة مع ما نال من القربة، وكرامة المكالمة، والاصطفاء على الناس، وإيتاء التوراة رجع غضبان آسفًا، وكان حقه أن يرجع راضيًا مرضيًا مسرورًا شاكرًا لأنعمه، والدليل على ذلك: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:144] وأمَّا افتتان قومه: فبأن أمرهم الله بقتل أنفسهم بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:54].

وفي قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:86] إشارة إلى أن الله تعالى إذا وعد قومًا فلا بد له من الوفاء بالوعد، فيحتمل أن يكون ذلك الوفاء فتنة للقوم وبلاء لهم كما قال لقوله موسى ﷺ: إذ وعدهم الله تعالى بإتيان التوراة ومكالمة موسى وقومه السبعين المختارين فلمَّا وفَّ به تولد به لهم الفتنة والبلاء من صفاته وهي الضلالة وعبادة

---

(1) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (8/ 100) وقال: أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث السيدة فاطمة «أشد بلاء الأنبياء ثم الصالحون... الحديث».

العجل، ولكن الوعد لمَّا كان موصوفًا بالحسن وكان البلاء الحاصل من الحسن بلاءاً حسنًا، وكان عاقبة أمرهم التوبة والنجاة ورفعة الدرجات.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ [طه:87] أي: عهدنا ﴿بِمَلْكِنَا﴾ أي: بقوتنا وقدرتنا وإرادتنا، وإنما كانت القدرة والإرادة في ذلك لله تعالى، وإرادتنا كانت فرع إرادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:30] جواب عن قوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:86] وهو أنه ما أردنا ذلك ولكنه أراد ألا يحل علينا غضب منه، فحملنا على خلاف الوعد هو موجب لحلول الغضب يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا﴾ [طه:87] بضم الحاء ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه:87] أي: حملنا على ما فعلناه بالإرادة القديمة والقضاء لا بحقيقة إرادتنا ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه:87] بلا اختيار حقيقي منه بل عمل على ذلك.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ [طه:88] التقدير بقدرة المقدر لهم. ﴿لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [طه: 88] بإذن الله تعالى وقدرته. ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه:88] قوله تعالى: إذا أراد أن يقضي قضاءه أذهب لذوي العقول عقولهم، وأعمى أبصارهم بعد أن رأوا الجذبات وشاهدوا المعجزات كأنهم لم يروا شيئًا منها فلهذا قال: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ﴾ [طه:89] يعني: العجل وعجزه ﴿أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ [طه:89] شيئًا من العقول.

﴿وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:89 ـ90] على ترك عبادة العجل والإقبال على الله بالتوبة والعبودية، فلم يسمعوا قولاً؛ لأنهم كانوا عن السمع الحقيقي لمعزولون كما صاروا عن البصر الحقيقي معزولين، فلهذا ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:91] فيه إشارة إلى أن المريد إذا استسعد بخدمة شيخ كامل واصل وصحبه بصدق الإرادة ممتثلاً لأوامره ونواهيه قابلاً لتصرفات الشيخ في إرشاده بصيراً بنور ولايته سميعًا بصيرًا يسمع ويرى من الأسرار والمعاني بنور ولاية لو يحتجب بحجاب ما يبقى أصم وأعمى كما كان حتى يرجع إلى صحبة الشيخ قبل رضوانه إذ يزول عنه نور الولاية، أو أنه يزول وينور بنور ولايته.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [طه: 92 - 99].

ثم أخبر عن إمارات الفتنة، وأمّا تأتها بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ [طه: 92] إلى قوله: ﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:92-93] إشارة إلى أن موسى عليه السلام لمّا كان بالميقات مستغرقًا في شواهد الحق ما كان يرى غير الحق تعالى، ويكن محتجبًا بحجب الوسائل حتى أن الله تعالى ابتلاه بالوسائط بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه:85] يا موسى. ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:85] أضاف الفتنة إلى نفسه، وأحال الإضلال إلى السامري اختيارًا؛ ليعلم منه أنه: هل يرى غير الله في أفعاله الخير والشر؟ فما التفت إلى الوسائط وما رأى العقل في مقام الحقيقة على بساط القربة الآمنة وقال في جوابه: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:155] أضاف الفتنة والإضلال إليه تعالى مراعيًا حق الحقيقة، ولمّا رجع إلى قومه نبينا مرسلاً رأى الوسائط، وأحال فعل الشر إليهم مراعيًا حق الشريعة، فإنه قد بعث إلى الخلق للهداية بأن يخرجهم من ظلمات الطبيعة على قدم الشريعة إلى نور الحقيقة.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه:92] عن صراط عبودية الله تعالى بضلالة عبودية العجل ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ [طه:93] فتجزني لأرجع عليهم لئلا يقعوا في هلاك هذه الفتنة ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:93] كما عصى هؤلاء القوم أمري وأمر الله، فلمّا رأى هارون أن موسى رجع من تلك الحضرة سكران الشوق ملآن الذوق وفيه نخوة القربة والاصطفاء فما وسعه إلا التواضع والخشوع فقال: ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ

بِرَأْسِي﴾ [طه:94] لمعنيين: أحدهما: لتأخذه رأفة صلة الرحم فيسكن غضبه، والثاني: ليذكره بذكر أم الحالة التي وقعت له في الميقات حين سأل ربه الرؤية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:143] وجاءه الملائكة في حال تلك الصعقة يجرونه برأسه: يا ابن النساء الحائض بالتراب ورب الأرباب أتطمع رؤية رب العزة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه:94] بخروجك من بينهم. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:94] يعني: منعني ترقب قولك وطاعة أمرك عن أتباعك لا عصيان أمرك، ثم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:95] ما حملك على الذي فعلت ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾(١) [طه:96] يعني: خصصت بكرامة فيما رأيت أثر فرس جبرائيل، وألهمت بأن أنشأنا ما خص بها أحد منكم فقبضت قبضة ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه:96] يشير بهذا المعنى إلى أن الكرامة لأهل الكرامة كرامة، ولأهل الغرامة استدراج، والفرق بين الفريقين: أن أهل الكرامة يصرفونها في الحق والحقيقة، وأهل الغرامة يصرفونها في الباطن والطبيعة، كما أن الله تعالى أنطق السامري بنيته الفاسدة الباطلة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:96] أي: لشقاوتي ومحنتي.

﴿قَالَ﴾ [طه:97] موسى عليه السلام مكافئًا له: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه:97] يشير به إلى أن قصدك ونيتك فيما سولت لك نفسك أن تكون مطاعًا

---

(١) إن الله سبحانه أراد بقوم من بني إسرائيل فتنة المحبة فأوقعهم في بحر المخايل حتى عبدوا العجل؛ لأنه تعالى ربما أجرى طوفان عزة جلال ربوبيته فأغرق فيه قومًا، وذلك من كمال فرط محبته إظهار جماله وجلاله ومن كمال ذلك المعنى لا يبالي أن يُري جلال ربوبيته للعوام فخلق طباع عبدة العجل رقيقة مائلة إلى حسن فعله من حركات سره في صميم إرادتهم إلى طلب ما ألقي من نور وجهه إلى الغيب ومن الغيب إلى الأفعال، وذلك جذب عجيب علته محبة الله شوق المشتاقين وحب المحبين فتجلى من قدسه وجلاله وجماله لفعل الخاص، ومن فعله الخاص لفعله العام، وتجلى من فعله العالم فبرز منه روح القدس فأثر به الحياة القدسية في كل من عُكِس عليه نوره فورد على تراب فقبض السامري من أثر فرسه قبضة؛ لأنه سمع من موسى تأثير القدسيين في أشباح الأكوان فنثر على العجل الذهبي فجعل الحق سبحانه لها إكسيرًا من نور فعله فأنور العجل بنور فعله، وجعله حياله خوار فتحركت سر تلك الفطرة المختبئة في قلوبهم فطلبوا المعدن ولم يعرفوا طريقه فوجدوا سكون محبتهم في رؤية العجل الذي ملبوس بنور الفعل فغلطوا وعبدوه من غاية حبه. [العرائس].

متبوعًا آلفًا مألوفًا، فجزاؤك في الدنيا أن تكون طريدًا وحيدًا مقتًا ممقوتًا منشردًا متنفرًا، تقول لمن رآك لا تمسني، ولا أمسك فنهلك ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ [طه:97] يا سامري ﴿مَوْعِدًا﴾ [طه:97]للهلاك والعذاب لمن تخلف في الدنيا والآخرة ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:97] وفيه إشارة إلى عبادة عجل النفس والهوى، فإنهم ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:98] منسوفون في بحر القهر نسفا لا خلاص لهم منه إلى الأبد.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ﴾ [طه:98] معبودًا ولا خالقًا ﴿إِلَّا هُوَ﴾ [طه:98] إشارة إلى أن من يعبد إلها دونه يحرقه بالنار نار القطيعة، وينسفه في بحر القهر إلى أبد الآباد ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:98] فعلم استحقاق كل عبد للطف أو للقهر ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] إذ أنزل القرآن على قلبك.

ثم أخبر عن الاعتراض على أهل الإعراض بقوله تعالى(1)، [والمحققين] معى إلى الحضرة كما هو من خصائص الأنبياء من قبلي، ومن هنا قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»(2) أي: في صدق الحق بالإعراض عن الكونين والتوجه إلى الله تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ [الأنبياء:24] أكثر الخلق من مدعي الإسلام ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ [الأنبياء: 24] من الباطل ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:24] عن الحق ومتبعون الباطل من أهل الأهواء والبدع وعبدة الهوى والدنيا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: 25 - 29].

---

(1) يقصد قوله تعالى في الآية ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

(2) تقدم تخريجه.

ثم أخبر عن أهل الحق وقول الصدق بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:25] يشير إلى أن الحكمة في بعث جميع الأنبياء والرسل مقصورة على هاتين المصلحتين وهما: إثبات وحدانية الله تعالى، وتعبده بالإخلاص؛ لتكون فائدة تلك المصلحتين راجعة إلى العباد لا إلى الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56] أي: ليعرفوني وهي مختصة بالإنسان دون سائر المخلوقات؛ لأنها حقيقة الأمانة التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب:72]، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عمَّن لم يقبل الدعوة من الأنبياء، ولم يعبد الله ليعرفه فبقي في تيه الضلالة فنسب قوم بجهالتهم وضلالتهم الولد إلى الله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [الأنبياء:26] يعني: قالوا: الملائكة بنات الله، فالله تعالى نزه ذاته عن هذا الوضع فقال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:26] يعني: الملائكة.

ثم أخبر عن حقيقة إكرامهم بقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء:27] يشير إلى أنهم منزهون عن الاحتياج بمأكول أو مشروب أو ملبوس ومنكوح، وبما يدفع عنهم الحر والبرد، وأمَّا [من] ابتلاهم الله تعالى بالأمراض والعلل والآفات، فيسبقون الله بالقول يستدعون منه دفعها وإزالتها والخلاص منها بالتضرع والابتهال، وكذلك ما ابتلاهم الله تعالى بطبيعة تخالف أوامر الله تعالى، فيمكن منهم خلاف ما يؤمرون فقال الله تعالى: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ نظيره قوله ﷻ: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6] ولعمري إنهم وإن كانوا مكرمين بهذه الخصال، فإن بني آدم في سر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ المكرمون منهم بكرامات أكبر منها درجة وأرفع منها منزلة؛ وذلك لأنهم ما خلقوا محتاجين إلى ما لا يحتاج إليه الملائكة بالكرامتين اللتين لم يكرم بهما الملائكة: فأحدهما: الرجوع إلى الله مضطرين فيما يحتاجون إليه، فأكرموا بكرامة الدعاء، والإجابة بقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:62] على أنهم في ذلك ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء:27] كالملائكة.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ

يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: 100 - 110].

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ [طه:100] يشير إلى أن من أعرض عن الذكر الحقيقي الذي قام به حقيقة الإيمان والإيقان والعرفان ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه:100ـ101] أي: حملاً ثقيلاً من الكفر والشرك والجهل والعمى وقساوة القلب والرين والختم والأخلاق الذميمة والبعد والحسرة والندامة والحرق، وكذا هنا حقيقة العبودية ودوام الذكر ومراقبة القلب وصدق التوجه لقبول الفيض الإلهي الذي هو حقيقة الذكر الذي أوله: إيمان، وأوسطه: إيقان، وآخره: عرفان؛ فالذكر الإيماني: يورث الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة بترك المعاصي والاشتغال بالطاعات، والذكر الإيقاني: يورث ترك الدنيا وزخارفها بحلالها وحرامها، وطلب الآخرة ودرجاتها بالطاعات منقطعًا إليها، والذكر العرفاني: يوجب قطع تعلقات الكونين، والتكبير على سعادة الدارين، وبذل الوجود على شواهد المشهود بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا﴾ [طه:102ـ103] يشير: أنه إذا نفخ في الصور وحشر على أهل البلاء وأصحاب الجفاء يوم الفزع الأكبر ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل:17] ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:48].

وإن ربنا قد غضب ذلك اليوم غضباً لم يغضب قبله ومثله، ولن يغضب بعده ليرون من شدة أهوال ذلك اليوم ما يقلل في أعينهم شدة ما أصابهم من العذاب طول مكثهم في القبور، فهم يحسبون أنهم ما لبثوا في القبور إلا عشرة أيام، وثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [طه:104] من عظيم البلاء وما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ [طه:104] أي: أصوبهم رأيًا في نيل شدة البلاء ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه:104] وذلك لأنه وجد

بلاء ذلك اليوم عشرة أمثال ما وجدوه، ومن شدة أهوال ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه:105] أي: ويسألونك عن أحوال الجبال في ذلك اليوم ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105] بتجلي صفة القهارية كما جعل الطور دكًّا.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه:106ـ 107] من بقاياها ﴿وَلاَ أَمْتًا﴾ [طه:107] من زواياها ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ [طه:108] أي: الذي دعاهم في الدنيا فأجابوا داعيهم لا يموج له في دعائهم؛ يعني: كل داع من الدعاة لا يدعو غير أهله، وكل تابع لا يتبع إلا داعيه نظير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: 71] أي: بداعيهم الذي هم يتبعونه.

ثم اعلم أن لكل داع من الدعاة مجيبًا في جبلة الإنسانية؛ لأنه تعالى هو الداعي والمجيب كقوله: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:25] فالله هو الداعي والمجيب بالهداية بحسب لسان المشيئة، فافهم جيدًا.

ولهذا السر يوجد في كل زمان من متبعي كل داع خلق عظيم، ولا يوجد من متبعي داعي الله إلا الشواذ من أهل الله، ومن أهل داعي الهوى والدنيا والشيطان والملك والنبي والجنة والقربة يوجد في كل زمان خلق على تفاوت طبقاتهم وبقدر مراتبهم، وبقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه:108] يشير إلى أن داعي الله إذا عبد بالرحمانية خشعت وانقادت وذلت أصوات جميع الدعاة وانقطعت ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾[1] [طه: 108] أي: إلّا وطئ الأقدام الوعي المدعو ونقلها إلى داعية ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه:109] إلّا من تجلى له الرحمن بصفة الرحمانية من الأنبياء والأولياء؛ ليكون من أهل الشفاعة، فبرحمته يشفع لمن يكون من الرحمة ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه:109] أي: وهو مرضي القول لا يقول إلا ما كان لله فيه؛ يعني: لا يشفع إلا برضاه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [طه:110] أي: يعلم اختلاف أحوالهم من يد وخلفهم

---

(1) (وخشعت الأصوات) أي ارتخت وخفيت وخفضت لخشوع أهلها (للرحمن) أي الذي عمت نعمه، فيرجى كرمه، ويخشى نقمه (فلا) أي فيتسبب عن رخاوتها أنك (تسمع إلا همساً) أخفى ما يكون من الأصوات، وقيل: أخفى شيء من أصوات الأقدام. نظم الدرر (5/ 269).

﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه:110] اختلاف إلى الأبد ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110] لأنه تعالى قديم، وعلم المخلوقين لا يحيط بالقديم فيه إشارة إلى العجز عن كنه معرفته.

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: 111 – 115].

﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ﴾ [طه:111] أي: خشعت وتذللت وجوه المكونات؛ لكونها الحي: الذي بحياته كل شيء، القيوم: الذي فيه قيام كل شيء احتفاظًا واضطرارًا واستسلامًا ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:111] أي: خسر من تذلل وخشع وسجد لغير الله ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [طه:112] أي: الأعمال التي تصلح للتقرب بها إلى الله تعالى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه:112] بالإيمان الحقيقي دون التقليدي ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا﴾ [طه:112] أي: فلا خوف عليه بأن يظلم فيسجد لغير الله ﴿وَلاَ هَضْمًا﴾ [طه:112] بأن يظلم ويؤاخذ بما لم يعمل من الشر، أو ينقص مما عمل من الخير شيء؛ إذ أعماله مؤيدة بنور الإيمان الحقيقي.

ثم أخبر عن القرآن العظيم والذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه:113] إلى قوله تعالى: ﴿عَزْمًا﴾ [طه:115] ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه:113] أي: كما أنزلنا الصحائف والكتب إلى آدم وغيره من الأنبياء بألسنتهم ولغاتهم المختلفات، كذلك ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب وحقيقة كلامه هي الصفة القائمة بذاته المنزهة عن الحروف والأصوات المختلفة المخلوقة، وإنما الأصوات والحروف تتعلق بلغات الألسنة المختلفة.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ﴾ [طه:113] أي: أوعدنا فيه قومك بأصناف العقوبات التي عاقبنا بها الأمم الماضية وكررنا ذلك عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه:113] عن التعلق بما سوانا نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:21] أو يحدث لهم أنوار القرآن وأسراره وحقائقه ذكرًا؛ أي: يذكروا

انتباهًا وذوقًا وشوقًا وهداية يهتدون بها إلينا لئلا ينقطعوا عنا ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه:114] أي: هو أعلى من أن يعبد ما سواه بالباطل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114] إشارة إلى سكوته عند قراءة القرآن واستماعه والتدبر في معانيه وأسراره؛ لتنور بأنواره وكشف حقائقه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] أي: فهمًا لإدراك حقائقه، فإنها غير متناهية وتنورًا بأنواره وكخلق لخلقه. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ﴾ [طه:115] أي: من قبل أن يكون له أولاد؛ أي: لا يتعلق بغيرنا، ولا ينقاد لسوانا، فلمَّا دخل الجنة ونظر إلى نعيمها ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه:115] عهدنا وتعلق بالشجرة وانقاد للشيطان ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115] يحتمل معنيين:

*أحدهما: إن الله تعالى لمَّا خلق آدم تجلى آدم فيه بجميع صفاته، فصارت ظلمات صفات خلقيته مقلوبة مستورة بسطوات تجلي أنوار صفات الربوبية، ولم يبق له عزم التعلق بها سواه والانقياد لغيره، فلمَّا تحركت فيه دواعي البشرية الحيوانية، وتداعت شهوات النفسانية، واشتغل باستيفاء الحظوظ نسي أداء الحقوق، ولهذا سمي الناس ناس؛ لأنه ناس، فنشأت له من تلك المعاملات ظلمات بعضها فوق بعض، وتراكمت حتى صارت غيوم شموس المعارف وأستار أقمار المعارف، فنسي عهود الله ومواثيقه وتعلق بالشجرة المنهي عنها، والثاني: أن آدم عليه السلام ظنَّ أن المنهي في قوله: (لا تقربا) تناولهما معًا، فيجوز لكل واحد على الانفراد أكله!!

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ

كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: 116 - 130].

ثم أخبر عن كرم الكريم ولؤم اللئيم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [طه:116] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:130] ولهذا قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، ولهذا السر اصطفاه على العالمين فاستحق السجود لهم اصطفاء واجتباء؛ ومنها لأنه خلق خلقًا تامًا كاملاً في خلقه؛ وذلك لأن الله تعالى جعله مجمع بحري عالمي الخلق والأمر والملك والملكوت والدنيا والآخرة فما خلق شيئًا في عالم الخلق والدنيا إلا، وقد جعل في قالبه أنموذجًا منه، وما خلق شيئًا في عالم الأمر والآخرة إلا التي جاءت من الله تعالى ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:127] أي: عذاب القلوب أشد من العذاب في الأبدان وأبقى وأدوم؛ لأن عذاب الأبدان يفنى وعذاب القلوب يبقى.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [طه:128] أي: فلم يسيروا بمدة خذلانهم وتركناهم إلى طبيعتهم الخبيثة من القرون الماضية. ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [طه: 128] أي: يقصدون عالم السفل بالطبع. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [طه:128] دلالات واعتبارات ﴿لِأُوْلِي النُّهَى﴾ [طه:128] لمن نُهي بجذبة كلمة كن في الأزل إلى الأبد على وفق الحكمة الإلهية والإرادة الأزلية بما هو كائن في كل وقت وأوان بلا مانع ولا مقدم لما أخره ولا مؤخر لما قدمه، فكان ما كان بحيث لم يكن بعده للنقص إليه سبيل ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه:130] أهل الاعتراض والإنكار؛ لأنك محتاج في التربية إلى ذلك لتبلغ به إلى مقام الصبر بقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1]

---

(1) أي: إذا كنت متعرضًا لمشاهدة جلالنا؛ فاذكر آلاءنا ونعماءنا عليك مما عرفك خزائن جود الألوهية وعلوم الربوبية، ونـزه بذكرك صفاتنا حتى تكون مقدسًا بذكرنا عن رؤية غيرنا، فإذا تقدست بنا عن أوصافك تطلع عليك شمس جمالنا، وينكشف لك أنوار وصالنا، فإذا حان أن تغيب عنك حالك فنر بنعت القدس والطهارة عن لذة حالك إلينا حتى تبقى عليك آثار أنوار شمس عزتنا، وإذا كنت غائبًا بشريعتنا في آناء ليل الامتحان قف على باب ربوبيتنا بنعت التنـزيه والتفريد، واذكر شمائل منتنا عليك
-

[طه:130] يشير إلى أنك كما ذكرت ربك بالحمد والثناء قبل أن تطلع شمس تجلي صفات ربوبيته إلى أن طلعت اذكره بالعبودية على شهود الحق قبل أن تغرب، ولئن غرب غروب الرحمة والشفقة لئلا ينلها شيء لوجودك بسطوات التجلي إذا دامت ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ [طه:130] أي: ليل الستر.

﴿فَسَبِّحْ﴾ [طه:130] فاذكر، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه:130] أي: نهار التجلي؛ أي: اذكره في كل حالاتك في حالة الستر وحالة التجلي؛ لتكون مذكورًا له ومشكورًا ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه:131].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ [طه: 131 - 135].

بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه:131] يشير إلى: عيني البصر والبصيرة وهما عين الرائين وعين القلب، واختص النبي ﷺ بهذا الخطاب واعتز بهذا العتاب لمعنيين أحدهما؛ لأنه مخصوص من جميع الأنبياء بالرؤية، ورؤية الحق تعالى لا تقبل الشرك، كما أن اللسان بالتوحيد لا يقبل الشرك والقلب بالذكر لا يقبل الشرك وهو مد العين ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:131] وهو الدنيا والآخرة، ولكن اكتفى بذكر الواحد عن الثاني والأزواج أهل الدنيا والآخرة، والثاني: للغيرة، فإن غيرة الحبيب عظيمة والله أغير منها، ولهذا حرم ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:33] أن اغسل عيني ظاهرك وباطنك بماء الغيرة عن صفة رؤية الدنيا

-

نزيد عليك كشف الصمدانية وبروز أنوار الوحدانية، لعلك تصل إلى مقام المحمود من حيث دنو الدنو الذي لا يبقى بيني وبينك بين ولا بون ولا غير ولا حجاب، ترضى برؤيتي عن رؤية كل خلق ثم حذره عن النظر إلى زينة الكون بنظر الاستحسان؛ لئلا يشتغل بشيء دونه لحظه، [العرائس].

والآخرة؛ لاستحقاق اكتحالهما بنور جلالته لرؤية جمالنا، وإنما متعنا أهل الدين بها عزة حضرة جلالنا؛ لنفتنهم فيه باشتغالي بتمتعات الدارين عن الوصول إلى كمال رؤية جمالنا، قيل: قرئ عند الشبلي: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ [يس: 55-56] فشهق شهقة، وقال: يا مساكين لا يدرون عمَّا شغلوا حين شغلوا.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ [طه:131] أي: ما رزقك الله من رؤيته ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131] مما متعناهم به من الدنيا والآخرة، ولهذا قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»(1) فلهذا التأديب حفظ الأدب ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:16-17] فأكرم بكرامة ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:18] فنودي في سره أنك لَمَّا غمضت عينيك عمَّا سوانا أسعدناك بسعادة ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11] وشرفناك بتشريف ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان:45].

وبقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾(2) [طه:132] يشير إلى: أهل الخاصة وهو: الجسد والنفس والقلب والسر والروح، فصلاة الجسد: الفرائض والنوافل، وصلاة النفس: خروجها عن حضيض البشرية إلى ذروة الروحانية، وخروجها عن أوصافها لدخول الجنة المشرفة بالإضافة إلى الحضرة بقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29-30] وصلاة القلب: دوام المراقبة ولزوم المحاضرة لقوله تعالى: ﴿هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:23]، وصلاة السر: عدم الالتفات إلى ما سوى الله تعالى مستغرقًا في بحر المشاهدة كما قال ﷺ: «من يطع الرسول فقد أطاع الله»(3) لأنه الفاني عن نفسه الباقي بربه.

---

(1) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء (ص1).

(2) قال الحرالي: ويصح أن يراد بها الدعاء، فمن صبر عن الدنايا وعلى المكاره وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر. نظم الدرر (1/ 85).

(3) تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:132] أي: واصبر على استقامة هذه الأحوال كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112] ولا تهتم لرزقك ورزق غيرك. ﴿لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ [طه:132] لأحدهما عندك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه:132] مما عندنا ونغنيك عمّا عندك كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى:8] من هنا كان يقول ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»(1) ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:132] أي: لمن اتقى بالله عمّا سواه.

﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ [طه:133] أي: وقد أتاهم بآية من ربه وهو القرآن الذي فيه بيان ما في الكتب المنزلة، وقد آمن به ورأى إعجازه من كان ذا بصيرة، واستدل بما أنزل في الكتب من محمد ﷺ وقصته، فإنه أعظم الآيات أوضح الدلالات، ولكنهم صم بكم عن رؤية الآيات، فإنها لم تر بالأبصار وإنما ترى بالبصائر كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46] ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ [طه: 134] أي: قبل مجيء محمد ﷺ ﴿لَقَالُوا﴾ [طه:134]يوم القيامة احتجاجًا ﴿رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه:134] أي: التي أنزلت معه ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ [طه:134] بذل الضلالة في الدنيا ﴿وَنَخْزَى﴾ [طه:134] بعذاب الآخرة.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ [طه:135] من أهل السعادة والشقاوة؛ لاستعمالهم فيما خلقوا له ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ [طه:135] وهو صراط الله تعالى للذاهبين إليه ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:135] بالوصول إليه، ومن انقطع عنه باتصال غيره كما قال بعضهم: سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار.

---

(1) تقدم تخريجه.

سورة الأنبياء عليهم السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: 1 - 7].

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء:1] إلى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7] بقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء:1] يشير إلى اقتراب الساعة التي فيها يحاسب الناس من أنفسهم في الدنيا قبل أن يحاسبوا في الآخرة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [الأنبياء: 1] من أحوال القيمة وأحوال أنفسهم أنهم يحاسبون بالنقير والقطمير، وإذا نصحهم ناصح واقف على الأحوال فهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:1] عن استماع قوله و نصحه كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:79] وإن نزلت في منكري البعث من الكفار وهو حال أكثر مدَّعي الإسلام في زماننا هذا، فإنهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء:2] أهل العزة بالله تعالى ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:2] يستهزئون به وينكرون عليه.

﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:3] بمتابعة الهوى متعلقة بشهوات الدنيا ساهية عن ذكر الله غافلة عن طلبه ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [الأنبياء:3] وتناجوا في السر ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء:3] أنفسهم بالإنكار على أهل الأسرار ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ [الأنبياء:3] تقبلون منه ما يأتيكم من الكلام المموه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: 3] أنه مموه كالسحر ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنبياء:4] يعني: كل أمرهم إلى الله، فإنه يعلم قول أهل السماء سماء القلوب، وقول أهل الأرض أرض النفوس

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [الأنبياء:4] لأقوال لأهل القلوب وصدقهم، وأقوال أهل النفوس وإنكارهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء:4] بما في ضمائرهم وبأفعالهم وبأوصاف سرائرهم.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ [الأنبياء:5] يعني: كلام المحققين خيالات فاسدة يقول بعض المنكرين: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ [الأنبياء:5] أي: اختلقه من نفسه، ويدّعي أنه من مواهب الحق، وقال بعضهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:5] أي: يقول ما يقول بحذاقة النفس وقوة الطبع والذكاء، ثم يقول بعضهم إلى بعض: ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ هذا المحقق ﴿بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:5] بكرامة ظاهرة كما أتى بها المشايخ المتقدمون.

ثم قال الله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء:6] أي: من أهل قرية من المنكرين لَمَّا رأوا كرامات أولياء الله ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأنبياء:6] فأهلكناهم بالخذلان والإبعاد ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:6] يصدقون أرباب الحقائق أن يروا كرامة منهم طبعوا على الإنكار مثل المنكرين الهالكين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء:7] يشير إلى أنه تعالى يظهر في كل قرن رجالاً بالغين من متابعي الأنبياء، ويخصهم بوحي الإلهام كما أظهر في زمان عيسى عليه السلام الحواريين من متابعيه، وأوحى إليهم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة:111] ثم قال للمنكرين: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:43] وهم الذين اهتزوا بذكر الله، ووضع عنهم الذكر أوزار البشرية وأثقال الإنسانية، وتنورت قلوبهم بأنوار الربانية، وتجوهرت أرواحهم بجوهر الذكر فصاروا المذكورين بذكر الله إياهم كما قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152] فهم يرون حقائق الأشياء بنور الله تعالى، فقال أهل الذكر وأرباب الحقائق: فإنهم يعلمون أحوالهم ﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:43] ولا تفهمون رموزهم وإشاراتهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا

زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: 8 - 17].

ثم أخبر عن أحوالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ [الأنبياء:8] إلى قوله: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:17] ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء:8] يشير إلى أن الأنبياء والأولياء خلقوا محتاجين إلى الطعام بخلاف الملائكة، وذلك لا يقدح في النبوة والولاية، بل هو من لوازم أحوالهم وتوابع كمالهم، فإن لهم فيه فوائد جمة:

* منها: أن الطعام للروح الحيواني الذي هو مركب الروح الإنساني كالدهن للسراج، وهو منبع جميع الصفات النفسانية الشهوانية، وهي مركب الشوق والمحبة التي بها يقطع السالك الصادق المسالك البعاد، ويَعْبُرُ المحب العاشق مهالك الفراق للوصول إلى كعبة الوصال.

* ومنها: أن أكل الطعام من نتائج الهوى، وهي ميل النفس إلى مشتهياتها والسير إلى الله تعالى بحسب نهي النفس عن الهوى لقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى*فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:40] ولهذا قال المشايخ: لولا الهوى ما سلك أحد طريقًا إلى الله تعالى.

* ومنها: أن من علم الأسماء التي علم الله آدم منوط بأكل الطعام مثل: علم ذوق المذوقات، وعلم التلذذ بالمشتهيات، وعلم لذة الشهوة، وعلم لذة الجوع والعطش، وعلم الشبع والرّي، وعلم هضم الطعام ، وعلم الصحة والمرض، وعلم الداء والدواء وأمثاله، والعلوم التي تتعلق به كعلوم الطب بأجمعها، والعلوم التي هي من توابعها كمعرفة الأدوية والحشائش وخواصها وطبائعها وغيرها، اقتصرنا على هذا القدر من الفوائد الجمة، فافهم جيدًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:8] إشارة إلى كثير من الفوائد فيقتصر على سمة منها وهي: كما أن المميت، وعلم اسم المحيي مودع في الإماتة والإحياء ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:8] ليموتوا أو يتعلموا من المميت اسم المموتة وصفتها على التحقيق لا على التقليد، وليحيوا ويتعلموا من المحيي اسم المحيوية، وصفاتها إن شاء الله تعالى.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ [الأنبياء:9] يشير إلى الوعد الذي وعدهم حين أهبطهم إلى الأرض بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة:38] ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ [الأنبياء: 9] أي: الذين اتبعوا وعدهم حين هداي من الدرك الأسفل الحيوانية إلى أعلى عليين مقامات القرب، وأكرمناهم بالوصول والوصال وهم الأنبياء والأولياء ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ [الأنبياء:9] أي: من المؤمنين الذين لم يبلغوا درجة الأنبياء والأولياء ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء:9] الذين أسرفوا على أنفسهم بالسير إلى أسفل سافلين على قدمي متابعة الهوى ومخالفة الشرع وقنطوا من رحمة الله، ولم يتوبوا من الشرك والعصيان، ولم يرجعوا إلى الحضرة على الطاعة في المتابعة ومخالفة الهوى، ثم من على أهل الهداية والنجاة بما فيه هداهم فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾(1) [الأنبياء:10] أي: فيه ذكركم بالهداية والنجاة ونيل الفضل والدرجات كما قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:29] أفلا تعقلون وتعلمون فضل الله عليكم، ورحمته بإنزال الكتاب إليكم لتهتدوا به ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64] المسرفين الهالكين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء:11] أي: أهلكنا أهل قرية ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء:11] بالإسراف على أنفسهم ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء:11] المعتبرين بهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ [الأنبياء:12] يعني: الظالمين الغافلين ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ [الأنبياء:12] أي: من شدة بأسنا ﴿يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء:12] يفرون، ثم قال الله تعالى مع أرواحهم: ﴿لاَ تَرْكُضُوا﴾ [الأنبياء:13] أي: لا تفروا منها، بل فروا إلينا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ [الأنبياء:13] نعمتم فيه من التنعمات الروحانية التي كنتم فيها ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ [الأنبياء:13] الروحانية في جوار الحق قبل هبوطكم إلى أرض البشرية،

---

(1) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقيل. نظم الدرر (5 / 290).

وأسفل سافلين القالب. ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:13] عزة وكرامةً لكم.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:14] بأن سرنا في إبطال استعداد صفاء الروحانية، وتحصيل ظلمة صفات النفسانية بتتبع شهوات الحيوانية واستيفاء اللذات الحسية ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء:15] بالويل والثبور ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ﴾ [الأنبياء:15] أي: جعلنا أرواحهم ﴿حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:15] أي: الجمادات الميتين المعذبين بنار القطيعة والحرمان.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنبياء:16] أي: سماوات الأرواح وأرض الأجساد ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الأنبياء:16] من النفوس والقلوب والأسرار ﴿لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:16] وإنما خلقناهما مظهر صفات لطفنا وقهرنا ﴿لَوْ أَرَدْنَا﴾ [الأنبياء:17] في الأزل ﴿أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء:17] أي: أهلاً وولدًا مما خلقنا ﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: مما يصلح أن يكون عندنا لا مما يكون عندكم؛ لأن ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل:96] ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:17] أي: إن كنا ممن يتخذ أهلاً وولدًا ﷻ قدس حضرتنا عن أمثال هذه التدنسات، وعز جناب كبريائنا عن أنواع هذه التوهمات، وقد تنزه عن أمثالها الملائكة المقربون وهم عبادنا المكرمون، فالحضرة الخالقية أولى بالتنزه.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء: 18 - 24].

ثم أخبر عن حاصل الباطل بقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:18] يشير إلى أن للحق ثلاث مراتب، وكذا للباطل مرتبة أفعال الحق، ومرتبة صفات الحق، ومرتبة ذات الحق تبارك وتعالى؛ فأمَّا أفعال الحق فهي: أمر الله به العباد فيه

يدفع باطل ما نهى الله عنه، وأمَّا صفات الحق فبتجليها يدمغ باطل صفات العبد، وأما ذات الحق تعالى فإذا تجلى تعالى بذاته يدمغ باطل جميع الذوات كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:18] ولعل من قال: أنا الحق إنما قال عند تجلي ذات الحق أو صفته الحقيقية تعالى لذاته الباطل فإذا زهق باطل ذاته عند مجيئه فأخبر الحق عن ذاته بلسان الصفة بصفة الحق فقال: «أنا الحق» ﴿وَلَكُمُ﴾ [الأنبياء:18] يا أهل الوجود المجازي الباطل ﴿الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:18] به وجود حقيقي الحق تعالى مما يليق بأهل الوجود المجازي الباطل ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنبياء:19] خلقًا وإيجادًا واستيعادًا ﴿وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبياء:19] بل يتفاخرون بعبوديته ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:19] لا يملون ولا يسأمون.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [الأنبياء:20] أي: ينزهون عن وصمة الحدوث ﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:20] عن العبادة والتنزيه والتقديس طرفة عين؛ لأنهم يعيشون بها كما يعيش الإنسان بالنفس، وبقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ [الأنبياء:21] أي: الدواعي المنشأة من أرض البشرية وهوى النفس ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء:21] يحيون القلب الميت، بل الله المحي والمميت يحيي القلوب الميتة بنور ذكره وطاعته.

وبقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22] يشير إلى: سماء الروحانية وأرض البشرية؛ أي: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ﴾ أي: مدبرات مثل: العقل في سماء الروحانية، والهوى في أرض البشرية غير هداية الله بواسطة الأنبياء والشرائع. ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كما فسدت بتدبير العقل والهوى سماء روحانية الفلاسفة والطبائعية والدهرية والإباحية والملاحدة وأرض بشريتهم؛ فأمَّا فساد سماء أرواحهم: فبأن زلَّت أقدامهم عن جادة التوحيد وصراط الوحدانية حتى أثبتوا لله الواحد القهار شريكًا قديمًا وهو العالم، فلم يقبلوا دعوة الأنبياء، ولم يهتدوا بهداية الحق، وأمَّا أرض بشريتهم: فبأن زلَّت قدمهم عن جادة العبودية وصراط الشريعة، والمتابعة حتى عبدوا طاغوت الهوى والشيطان وآل

أمر فساد حالهم إلى أن قال الله فيهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18].

وأمَّا تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22] في الظاهر فهو أن وجود الإلهية لا يخلوا إمَّا أن يكون حالهم كلهم متساوين في الألوهية وكمال القدرة، أو بعضهم كاملاً، أو بعضهم ناقصًا.

* وإمَّا أن يكون كلهم ناقصًا: يحتاج بعضهم إلى بعض في الألوهية، فأمَّا التساوي في الكمالية فموجب أن يكون وجود كل واحد منهم عبثًا لاستغناء الكامل من الناقص الآخرين عنه والمستغنى عنه لا يصلح للإلهية.

* وإمَّا كمالية بعضهم وناقصية بعضهم: تقتضي استغناء الكامل عن الناقص، فالناقص لا يصلح للإلهية، وأمَّا الناقصون الذين محتاجون إلى إعانة بعضهم لبعض فلا يصلحون للإلهية؛ لأنهم محتاجون إلى مكمل واحد مستغن عمَّا سواه، أو هو الواحد الصمد الغني عمَّا سواه وما سواه محتاج إليه، ولو كان فيهما آلهة لفسدتا؛ لعدم مدبر كامل في إلهية أخرى في المدبرية.

﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ [الأنبياء:22] فنزَّه الله نفسه عن العجز والاحتياج لغيره في الإلهية، وأثبت أنه خالق العرش الذي يفيض الرحمانية إلى المكونات؛ لنفي الإلهية عن غيره منزهًا ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:22] باحتياجه إلى العرش أو لآلهة أخرى في الإلهية ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:23] لأن أفعاله مبنية على القدرة الكاملة والحكمة البالغة فلا مساغ لسؤال سائل فيهما لم فعلت ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1] [الأنبياء:23] فيما يفعلون؛ لأن للسؤال في أفعالهم مساغًا؛ لأن مصدرها الظلومية والجهولية.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الأنبياء:24] بالدليل والبرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء:24] أي: لا يمكن إثبات آلهة أخرى بالبرهان كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ

---

(1) قطع لسان الحدثان بمقراض هيبة الرحمن عن الانبساط في وقت كشوف عظمة الجبروت وشهود جلال الملكوت يفعل الخبير ما يشاء، وليس لهم هناك لهجة سؤال، ولا لهم حجة مقال إذ لا وسمة على فعاله وعزة كماله، وهم معاتبون عما فعلوا؛ لأن أفعالهم وقعت ناقصة عن سنن نظام سنة الأزلية بمشيئة القدمية. [العرائس].

إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون:117] وبقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء:24] يشير إلى أن إثبات الربانية بالتحقيق، وكشف العيان من خصوصية العلماء المحققين من أمتي الذين هم معي في سير المقامات وقطع المنازل، فإن الله تعالى قد ندبهم بكلام أزلي إلى الدعاء، ووعد عليهم الاستجابة بقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60] فلهم الشركة مع الملائكة في قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:27] لأنهم بأمره دعوة عند رفع الحاجات إليه.

وكذلك أثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ﴾ [السجدة:16] الملائكة بكرامة الدنيا والاستجابة، وهذه مرتبة الخواص من بني آدم في الدعاء، وأمر مرتبة أخص خواصهم أنهم يدعون ربهم لا خوفًا ولا طمعًا، بل محبة منهم وشوقًا إلى وجهه الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:52] وهذه هي الكرامة الثانية من نتائج الاحتياج حتى لم يبق شيء من المخلوقات وخلقها إلا كانوا محتاجين بخلاف مخلوق آخر، فإن لكل مخلوق استعدادًا في الاحتياج يناسب حال جبلته التي جبل عليها، وكل مخلوق يفتقر إلى خالقه بنوع ما ويفتقر إليه بنو آدم من جميع الوجوه، وهذا سر يقوله قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد:38] أي: كما ذاته وصفاته استوعبت الغنى، كذلك ذواتهم وصفاتهم استوعبت الفقر، فأكرمهم الله تعالى بعلم أسماء ما كانوا محتاجين إليه كلها، ووفقهم للسؤال عنه، وأنعم عليهم بالإجابة فقال: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:34] وعد ذلك من النعمة التي لا نهاية لها، وكرامة لا كرامة فوقها بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34].

وبقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه:110] يشير إلى أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم الملائكة من خجالة قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] فإن فيه نوع من الاعتراض، ونوع من الغيبة، ونوع من العجب حتى عيرهم الله تعالى فيما قالوا، وقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] يعني: يعلم منه استحقاق المسجودية لكم، والله أعلم منكم الساجدين له وما خلفهم؛ أي: ما يأمرهم بالسجود

والاستغفار لمن في الأرض؛ يعني: المعتابين من أولاده؛ ليكون كفارة لما صدر منهم في حقهم.

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ﴾ [الأنبياء:28] في الاستغفار ﴿إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:28] يعني: الله تعالى من أهل المغفرة ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:28] أي: من خشية الله وسطوة جلاله خائفون ألَّا يعفو عنهم ما قالوا ويأخذهم به ويقولوا لنا ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ﴾ [الأنبياء:29] يعني: من الملائكة.

﴿مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:29] يشير إلى أنه ليس للملك استعداد الاتصاف بصفات الألوهية، ولو أن هذه المرتبة جزاؤهم جهنم البعد والطرد والتعذيب كما كان حال إبليس، وبه يشير إلى أن الاتصاف بصفات الألوهية مرتبة بني آدم كما قال ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»(1)، وقال عنوان كتاب الله إلى أوليائه يوم القيامة: من الملك الحي الذي لا يموت إلى الملك الحي الذي لا يموت، فافهم جيدًا.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:29] يعني: الذين يضعون الأشياء في غير موضعها كأهل الرياء والسمعة والشرك الخفي والجلي.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾

[الأنبياء: 30 - 35].

ثم أخبر عن الآيات مما في الأرض والسماوات بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء:30] يشير إلى أن أرواح المؤمنين والكافرين خلقت قبل السماوات والأرض كما قال ﷺ: «أنه تعالى خلق الأرواح وكانتا

(1) أورده السيوطي في «تأييد الحقيقة العلية» (1/ 89) دون عزو.

شيئًا قبل الأجساد بألفي عام»، وفي رواية: «بأربعة آلاف سنة»[1] وكان خلق السماوات والأرض بمشهد من الأرواح وكانتا شيئًا واحدًا كما جاء في الحديث المشهور: «أول ما خلق الله جوهرة فنظر إليها بنظر الرحمة، فبحمد تصفها فخلق منه العرش فارتعد العرش، فكتب الله تعالى: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسكن العرش وترك الماء على حالته يرتعد إلى يوم القيامة، وذلك قوله تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:7]» وفي رواية ابن عمران بن حصين: «وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض»[2] أي: ثم من تلاطم أمواجه صعدت أدخنة، وارتفع بعضها متراكمًا على بعض، وكان لها زبد فخلق منها السماوات والأرض طباقًا، وكانتا رتقًا فخلق الريح منها فتق بين أطباق السماء وأطباق الأرض.

كما أخبر بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:11] وإنما خلقها من دخان ولم يخلقها من بخار؛ لأن الدخان خلق متماسك الأجزاء يستقر في منتهاه، والبخار من كمال عمله وحكمته، ثم بعد ذلك مدَّ الزبد على وجه الماء ودحاه فصار أرضًا بقدرته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:30] ثم نظر إليها بعين الرحمة فجمدت كما جاء في الحديث قوله: «فبحمد بعضها» وهو التذلل في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك:15] وأشار إلى هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنبياء:30] في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك:15] ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء:30].

وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30] يشير إلى أنه خلق حياة كل ذي حياة من الحيوانات من الماء الذي عرشه، وذلك أن الجوهرة التي هي مبدأ الموجودات هو الروح الأعظم خلقت أرواح الإنسان والملك من أعلاها، وخلقت أرواح الحيوان والدواب من أسفلها، وهو الماء كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور:45] وكان ذلك كله بمشهد من الأرواح ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (13/ 476).

[الأنبياء:30] أي: أفلا يؤمنون بيا خلقنا بمشهد من أرواحهم.

وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء:31] يشير إلى: الأبدال الذين هم أوتاد الأرض وأطوارها، فأهل الأرض بهم يرزقون وبهم يمطرون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء:31] أي: وجعلنا في إرشادهم الفجاج والسبل إلى الله تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:31] بهم إلى الله تعالى.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ﴾ [الأنبياء:32] سماء القلب ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:32] من وساوس شياطين الجن والإنس ﴿وَهُمْ﴾ [الأنبياء:32] أي: كافر النعمة ﴿عَنْ آيَاتِهَا﴾ [الأنبياء:32] عن رؤية آياتها التي أودعنا فيها من الدلائل والبرهان والأسرار والحكم البالغة التي بها يهتدي وعن التفكر فيها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:32]؛ لأنهم أقبلوا بكليتهم إلى الدنيا، وطلب زخارفها والتلذذ بشهواتها، وأعرضوا عن الله وشكر نعمه، والقيام بعبوديته.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ﴾ [الأنبياء:33] ليل النفس الظلمانية ﴿وَالنَّهَارَ﴾ [الأنبياء: 33] نهار القلب المضيء ﴿وَالشَّمْسَ﴾ [الأنبياء:33] وهي شمس نور الله الذي نور الله به قلوب أوليائه ﴿وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء:33] وهو نور الإسلام الذي شرح الله به صدور المؤمنين، وجعل بضوئه نفوسهم قمرًا ﴿كُلٌّ﴾ [الأنبياء:33] من أهل الإسلام، وأهل الإيمان، وأهل الولاية ﴿فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء:33] أفلاك أطوار القلب ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:33] يبحرون ويسلكون.

ثم أخبر عن الرحلة من دار الفناء إلى دار البقاء بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:34] يشير إلى أنه ليس من شأنه أن يخلد آدميًا في الدنيا، وإن كنا قادرين على تخليده ﴿أَفَإِن مِّتَّ﴾ [الأنبياء:34] يا محمد كما هو من سنتنا ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:34] في الدنيا بقدرتنا، بل أنت ميت وهم ميتون كما هو من سنتنا دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:30].

وبقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:35] يشير إلى أن من الحكمة البالغة والنعمة السابغة أنه جمع في طينة الإنسان ما أفرد به الملائكة بروح نوراني علوي باقٍ

أبدي، وأفرد الحيوانات بروح حيواني سفلي فانٍ، فأفرد الإنسان بتركيب الروحين فيه فانٍ حيواني وباقٍ ملكي، فالحكمة في ذلك: أن الروح الملكي غير متغذ، وإنما بقاؤه بالتسبيح والتقديس وهو بمثابة النفس للحيوان، ولهذا ليس للملك الترقي من مقامه والروح الحيواني قابل للترقي؛ لأنه متغذ، فجعل الله الإنسان مركبًا من الروحين؛ لينقطع روحه الملكي بطبع روحه الحيواني المتغذي، وقبول الفناء الذي يعبر عنه بالموت؛ ليصير مترقيًا كالحيوان، وينطبع روحه الحيواني بطبع روحي الملكي؛ ليصير مسبحًا ومقدسًا كالملك باقيًا بعد المفارقة بخلاف الحيوانات؛ ولكن من اختصاص الروح الحيواني في التغذي: أن يجعل الغذاء جنس المتغذي، ويلونه بلونه، وصفته الروح الإنساني أن يكون متلونًا بلون الغذاء ومتصفًا بصفته؛ وذلك لأن غذاء الروح الحيواني الطعام والشراب، وهي من الجماد والنبات والحيوان المذبوح المطبوخ فيهما الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة مركوزة بالطبع، والروح الحيواني غالب عليها ومتصرف فيها بالطبع فيجعلها من جنس المتغذي، وغذاء الروح الإنـساني ذكر الله وطاعته، والشوق والمحبة إلى لقائه الكريم، وفيه النور والجذبة الإلهية وهي غالبًا على الروح؛ فالروح يتجوهر بجوهرها، وفي الجوهرة بجوهر النور الرباني نوع من الفناء عن وجوده والبقاء بنور ربه، فهو بمثابة ميت ذاق الموت، ثم أحيي بنور ربه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122] فهذا الموت الذي استحق به الروح الإحياء بنور الله إنما استقاه من النفس الحيوانية التي هي ذائقة الموت، فافهم جيدًا.

وبقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:35] يشير إلى أنا نبلوكم بالمكروهات التي تسمونها شرًا وهي: الخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وأنه فيها موت النفس وحياة القلب، ونبلوكم بالمحبوبات التي يسمونها الخير وهي: ﴿الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:14] وفيها حياة النفس وموت القلب، وكلتا الحالتين ابتلاء، فمن صبر على موت النفس على صفاتها بالمكروهات وعن الشهوات فله البشارة بحياة القلب واطمئنان النفس، وله استحقاق الرجوع إلى ربه بجذبة: ﴿ارْجِعِي

﴿إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] للطف، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:35] فيصير ما يحسبه الشر خيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:216] ومن لم يصبر على المكروهات وعن الشهوات المحبوبات، ولم يشكر عليها بأداء حقوق الله تعالى فله العذاب الشديد من كفران النعمة، ويصير ما يحسبه الخير شرًا كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:216] فيرجع إلى الله بالقهر في السلاسل والأغلال.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: 36 - 40].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾ [الأنبياء:36] إشارة إلى أن من كان محجوبًا من الله تعالى بالكفر لا ينظر إلى خواص الخلق إلا بعين الإنكار والاستهزاء؛ لأن خواص الخلق من الأنبياء والأولياء يقبحون في أعينهم إذ ما اتخذوا لهم آلهة من شهوات الدنيا من جاهها ومالها وغير ذلك كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23] وكل محب يغار على محبوبه ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:36] أي: يذكرهم بعيب ونقصان.

ثم قوله تعالى عقب هذا: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:37] يشير إلى معان:

* منها: أي: أنتم تستعجلون من جهلكم وضلالتكم؛ وذلك لأنهم يؤذون حبيبي ونبيي بطريق الاستهزاء والعداوة، «ومن عاد لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة»(1) فقد استعجل العذاب؛ لأني أغضب لأوليائي كما يغضب الليث لجروه، فكيف بمن يعادي حبيبي ونبيي! ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في سياق الآية: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنبياء:37] أي: عذابي ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:37] في طلبه بطريق إيذاء نبيي

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا (1/ 9، رقم 1)، وأبو نعيم في الحلية (8/ 318)، وابن عساكر (7/ 95).

والاستهزاء بها.

* ومنها: أن الروح الإنساني خلق من عجل؛ لأنه أول شيء تعلقت به القدرة.

* ومنها: أن الله تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: 59] وخمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا، وقد روي أن كل يوم من أيام التخمير ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:5] فيكون أربعين ألف سنة؛ فالمعنى: أن الإنسان مع هذا خلق من عجل بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض في ستة أيام لما خلق فيه بتخمير طينته أنموذجات ما في السماوات والأرض وما بينهما، واستعداد سر الخلافة المختصة، وقابليته تجلي ذاته وصفاته، والمرتبة التي تكون مظهرة للكنز المخفي الذي خلق الخلق لإظهاره ومعرفته، ولاستعداد حمل الأمانة التي عرضنا على السماوات والأرض والجبال وأهاليها ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72].

وتمام الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:37] أي: سأريكم صفات كمالي في مظاهر الآفاق ومرآة أنفسكم بالتربية في كل قرن بواسطة نبي أو ولي، فلا تستعجلون في هذا المقام من أنفسكم، فإنه قبل من المهد إلى اللحد، أقول: من الأزل إلى الأبد، وهذا منطق الطير لا يعلمه إلا سليمان الوقت، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [الملك:25] أي: وعد إرادة الآيات ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك:25] في النبوة والرسالة.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء:39] أي: ستروا الحق بالباطل ﴿حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء:39] في وقع العذاب؛ أي: لو علم أهل الإنكار والجحود قبل أن يكافئهم الله على إنكارهم نار القطيعة والحسرة والبعد والطرد لَمَّا أقاموا على كفرهم وإنكارهم، ولتابوا ورجعوا إلى طلب الحق.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: 40 - 44].

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ [الأنبياء:40] جزاء إنكارهم من قساوة القلوب وعماها ﴿بَغْتَةً﴾ [الأنبياء:40] فجأة عقيب الإنكار ﴿فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء:40] بقوتهم واستطاعتهم ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء:40] لطلب الاستطاعة والإنابة بشؤم الإنكار والاستهزاء ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنبياء:41] هذا تطييب لقلوب الأنبياء والأولياء ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء:41] أي: أحاط بهم شؤم استهزائهم فأهلكهم.

ثم أخبر عن كلاءته لأهل ولايته بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:42] يشير إلى أن للملوك الأرض والجبال من لو كان حراسًا وأعوانًا يحفظونهم بالليل والنهار من الخصوم والأعداء والمنازعين، فمن لهم يحفظهم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ ليل بشرية نفوسهم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ أي: نهار نور روحانيتهم من سطوات قهر الجلال الذي الرحمانية من صفاته، كما أن الرحيمة من صفات الجمال بأن يبعث عليهم عذابًا في ظاهرهم أو باطنهم بأن يكلهم إلى ظلمة ليل بشريتهم وهي الجهل؛ ليبقوا بالجهل في أسفل سافلين النفس النفسانية إلى الأبد، أو يكلهم بالخذلان إلى نهار نور الروحانية، وهو العقل ليبقوا في حجب المعقولات كالفلاسفة، فإن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة وهي حجب البشرية والرحمانية، فالمحجوبون بحجب البشرية أرجى خلاصًا من المحجوبين بحجب الروحانية؛ لأنهم مقرون بجهالتهم وهؤلاء معذورون بمقالتهم وهم من الأخسرين.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104] ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:42] أي: أهل حجب البشرية معرضون عن ذكر ربهم، ومعرفته لحسبانهم بعوارف المعقولات ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأنبياء: 43] من الأهواء أو البدع ﴿تَمْنَعُهُم﴾ [الأنبياء:43] مما هم فيه من الخذلان وسطوات قهرنا ﴿مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء:43] أي: من غيرنا، ثم نفاهم عن نصرهم بالعجز عن نصر

أنفسهم فقال الله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء:43] في طلب الحق ﴿وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:43] يمنعون عن إصابة سطوات قهرنا.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ﴾ [الأنبياء:44] من أهل حجب البشرية؛ ليتمتعوا من متاع الدنيا وشهواتها ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ [الأنبياء:44] أي: عقلائهم من أهل الحجب الروحانية؛ ليتمتعوا بالمعقولات وينتفعوا بها ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الأنبياء:44] وأشربوا في قلوبهم بالزمان الطويل حب المعقولات ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ﴾ الطائفتان ﴿أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ﴾ [الأنبياء: 44] أي: أنّا إذا نظرنا إلى أرض البشرية ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ خاصية البشرية من طرف البشرية، وخاصية الروحانية من طرف الروحانية؛ يعني: مهما تداركت العناية كلتا الطائفتين لا تطلب مشاربها من حظوظ البشرية والروحانية بحقوق الواردات الربانية ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء:44] أم نحن، بل الله غالب على أمره.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: 45 -50].

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء:45] يشير إلى أنه ليس للأنبياء والأولياء إلا الإنذار والنصح وليس لهم إسماع الصم، وهم الذين لعنهم الله في الأزل بالطرد عن جوار الحضرة إلى أسفل الدنيا، وأصمهم وأعمى أبصارهم بحبها، وطلب شهواتها، فلا يسمعون ما ينذرون به، وإنما الاستماع لله تعالى لا للخلق كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:23].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:46] إشارة إلى أن أهل الغفلة والشقاق لا ينتبهون بتنبيه الأنبياء، ونصح الأولياء في الدنيا حتى يمسهم أمر من آثار عذاب الله بعد الموت، فإن الناس نيام فإذا ماتوا

انتبهوا ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ [الملك:11] ونادوا بالويل والثبور على أنفسهم بما كانوا ظالمين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾(1) [الأنبياء:47] إشارة إلى أن الموازين على قسمين: موازين الفضل، وموازين العدل:

* فأمَّا موازين الفضل: فقد وضعت في المبدأ الأول حين قسمت الأشياء كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:32] قورن بها أولاً أعظم وزن لمحمد ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113] ثم وزن بها للرسل ورجح لبعضهم كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:253] ثم وزن بها للأولياء المحبوبين كما قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ

(1) قال البقلي: إن لله موازين عدله القديم لا تتغير بتغير الحدثان ولا برسوم الزمان والمكان، وكل ميزان له موضع ومقام فمنها للعاشقين، ومنها للعارفين منها للمحبين، ومنها للمشتاقين، ومنها للمستأنسين، ومنها للخاضعين، ومنها للأواهين من غلبة قهر المواجيد، ومنها للواجدين، ومنها للعالمين، ومنها للباكين عليه منه فيزن بها معالي هممهم ومقادير محنهم في زمان هجرانه وأوان امتحانه فيبقيهم بجلال قدره ما لا يحصى عدده من قرب مشاهدته وحسن وصاله فيفتح لهم خزائن وجود الأزل، وله ميزان للعارفين يزن أنفاسهم به يضع نفسًا من أنفاسهم المعجونة بنفس صبح روح الأزل في كفه، ويضع جميع الجنان في أخرى، فيرجح ما فيه نفس العارف بحيث لا يبقى في جنبه الحدثان؛ لأنه خرج من غيب الرحمن منورًا بنوره.

قال القاسم: الأعمال والموازين شتى، والعدل ميزان الله في الأرض؛ فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان الله في الأرض، فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان العدل؛ فهو من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان العدل؛ فهو من العارفين.

وميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر؛ فميزان النفس والروح الأمر والنهي، وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان القلب والعقل الإيمان والتوحيد وكفتاه الثواب والعقاب وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط، وكفتاه الهرب والطلب؛ فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمر والنهي بكفة الكتاب والسنة، ينال الدرجات في الجنان، ومن وزن حركات القلب والعقل بميزان الثواب والعقاب بكفة الوعد والوعيد أصاب الدرجات ونجا من جميع المشقات ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضا والسخط بكفة الهرب والطلب نجا من الذي هرب، ووصل إلى ما طلب فيصير عيشه في الدنيا على الهرب، وخروجه منها على الطلب وعاقبته إلى غاية الطرب؛ فمن أراد الوصول إلى المسبب فعليه بأقرب من السبب؛ فإن السبب حجاب كل طالب.

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:54] ثم وزن بها للمؤمنين فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:21] ثم وزن بها لبني آدم عمومًا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:70].

* وأمَّا موازين العدل: فقد وضعت للمداد وهو يوم القيامة ﴿تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:17] وذلك؛ لأن العالم بما فيه خلق كشجرة لثمرتها ولها بذر، فقسم بذرها في المبدأ بميزان الفضل رعاية لمصلحة الشجرة ولو وزن بميزان العدل ما تم أمر الشجرة للتسوية في القسمة؛ لأنه لو لم يكن الفضل مخصوصًا ببعضها دون بعض ما كان للشجرة ثمرة ولا للثمرة شجرة، فإذا تم أمر الشجرة وأثمرت فاقتضت الحكمة بأن وزن لها في الآخرة بميزان العدل؛ لإيصال الماء بالسوية إلى أجزاء الشجرة رعاية لصلاح الشجرة والثمرة ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء:47] إلى موضع صالح ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:47] في رعاية صالح الشجرة والثمرة من المبدأ إلى المعاد.

ثم أخبر عن إيتاء الفرقان لموسى بن عمران بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء:48] يشير إلى أن النور الذي هو يفرق بين الحق والباطل، بل بين الخلق والخالق والحدوث والقدم نور يقذفه الله تعالى في قلوب عباده المخلصين من الأنبياء والمرسلين والأولياء الكاملين، ولا يحصل بتكرار العلوم الشرعية، ولا بالأفكار العقلية، وله ﴿وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء:48] يتعظ به ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:48] ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:49] الذين يتقون عن الشرك بالتوحيد، وعن الطبع بالشرع، وعن الرياء بالإخلاص، وعن الخلق بالخالق، وعن الأنانية بالهوية.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء:50] لمن يتعظ به، ويعلم أن اتعاظه به إنما هو من نور ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء:50] في قلبه لا من نتائج عقله وتفكيره فيه ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾

[الأنبياء:50] أي: تنكرون على أنه نور من هدايتنا.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنبياء: 51 -59].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء:51] أي: شرفناه بنور الخلة ومن قبل خلقه؛ لأن اتخاذ الله إياه خليلاً كان في الأزل، فإن الكلام الأزلي ناطق ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:51] أي: بأهليته للخلة واستحقاقه للرشد والهداية؛ لأنا خلقناه مستعدًا للهداية والكرامة ألا يعلم من خلق.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:52] يعني: لو لم يكن آثار رشدنا لما رأى بنور الرشد ظلمة شركهم وعكوفهم للأصنام لما قال: ﴿إِذْ قَالَ﴾ فيه إشارة إلى: أحوال الذين فاتهم يرون أهل الدنيا بنور الرشد، عاكفين لأصنام الهوى والشهوات، يقولون لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ولو لم يكن نور الرشد والهداية من الله لكانوا معهم عاكفين لها، وما رأوها بنظر التماثيل.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:53] فيه إشارة إلى أن التقليد غالب على الخلق كافة في عبادة الهوى والدنيا إلا من أتاه الله رشده، فيقول لأهل الأهواء والبدع بنور التحقيق والرشد: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ [الأنبياء:54-55] بهذه يشير إلى عابدي الهوى من غير الإسلام؛ إذ سمعوا كلام أهل التحقيق في بيان سبيل الرشاد، وقالوا بالاستهزاء: أجئت بها يرشدنا بالحق وندعو إليه أم تلاعب معنا، فيه إشارة لطيفة، وهي: كما أن أهل الصدق والطلب يرون أهل الدنيا لاعبين واتخذوا الدنيا لعبًا ولهوًا كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91] كذلك أهل الدنيا يرون أهل الدين لاعبين، وأمر الدين لعبًا

ولهوًا.

وبقوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:56] يشير إلى أن إيمان الخليل عليه السلام كان إيمانًا إيقانيًا، بل عيانيًا بقوله: ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:56] أي: الحاضرين الناظرين في ملكوتها بيد قدرته كما قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:83] وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75].

وبقوله تعالى: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:57-58] يشير إلى أن الإنسان إذا وكّل إلى نفسه وطبعه ينحت من هوى نفسه أصنامًا كما كان أبو إبراهيم آزر ينحت الأصنام، وإذا أدركته العناية الأزلية أيد بالتأييد الإلهي كسر أصنام الهوى، ويجعلها جذاذًا فضلاً عن نحتها كما كان حال إبراهيم عليه السلام كان يكسر من الأصنام ما ينحت أبوه، وإذا كان المرء على أهل الخذلان يرى الحق باطلاً والباطل حقًا كما كان قوم نمرود ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:59].

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64)﴾ [الأنبياء: 60 - 64].

وبقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء:60] يشير إلى أن في كسر الأصنام حصول اسم الفتوة ومعناها إلى الأبد، وبقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يشير إلى أن في بعض الكفار من لا يحكم على أهل الجناية إلا بمشهد من العدول، فكل حاكم يحكم على أمتهم بالجناية من غير بينة فهو أسوأ حالاً منهم، ومن قوم نمرود بقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء:62].

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:63] يشير إلى أن

كسر الأصنام ليس من طبيعة الإنسان، بل من طبيعته أن ينحتها، فإن صدر من أحدهم كسرها فإنما هو من تأييد الله وتوفيقه إياه، فلهذا ﴿قَالَ﴾ عليه السلام في جوابهم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ فإن الكبير هو الله ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ لهم عقل ونظر يشهدوا أن هذه الأفعال لا يكن مصدرها إلا الله.

وفي قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء:64] إشارة إلى أن لكل إنسان عقلاً لو رجع إلى عقله وتفكره في حال لعلم صلاح حاله وفساد حاله، وفيه إشارة أخرى وهي: أن العقل وإن كان يعرف الصلاح من الفساد، ويميز بين الحق والباطل ما لم يكن له تأييد من الله وتوفيق منه لا يقدر على اختيار الصلاح واحتراز الفساد، فيبقى مبهوتًا كما كان حال نمرود.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 65 – 72].

وبقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 65] إذ لم يكونوا موافقين ما نفعهم ما عرفوا من الحق، ثم غيرهم إبراهيم عليه السلام على ذلك ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي:أف لعقولكم ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:66ـ67] أفلا تستعلمون العقل الذي ميزتم به بين الحق والباطل.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:68] إشارة إلى أن الله تعالى إذا أراد أن يكمل العبد من عباده المخلصين يفديه خلقًا عظيمًا، كما أنه تعالى إذا أراد استكمال حوت في البحر يفديه كثيرًا من الحيتان الصغار، فلمّا أراد تخليص إبريزة الخلة من غش البشرية جعل نمرود وقومه مذلةً لإبراهيم عليه السلام حتى أجمعوا بعد أن علموا أنهم ظالمون، فوضعوه في المنجنيق ورموه إلى النار، فانقطع رجاءه عن الخليقة

بالكلية متوجهًا إلى الله مسلمًا نفسه إليه حتى أن جبريل عليه السلام أدركه في الهوى فامتحنه بقوله: هل لك من حاجة؟ ما كان فيه بقية من الوجود ما تعلق به الحاجة فقال: أمَّا إليك فلا، فقال له جبريل: ربك امتحانًا له خفي سره عن جبريل غيره، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحال، وما أظهر عليه حاله، فأدركته العناية الأزلية بقوله تعالى على كافة الخلق، بل على جميع الأشياء.

وبقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:70] يشير إلى أن إرادة كيدهم به كانت سببًا لتخليصه عن غش البشرية كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:71] وهي أرض الروحانية وفيه إشارة أخرى؛ أي: ونجينا إبراهيم الروح، ولوط القلب من أرض البشرية وصفاتها إلى الأرض الروحانية التي باركنا فيها للعالمين، وبركة الله أن يتجلى لها، فتشرق لأهل الروحانية، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69] أي: أشرقت أرض الروحانية بنور تجلي صفة الربوبية الربانية.

ثم يشير عن مواهب الربوبية لأرباب العبودية بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء:72] يشير إلى أن الصلاحية من المواهب أيضًا وحصيلة الصلاحية حسن الاستعداد النظري لقبول الفيض الإلهي.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77)﴾ [الأنبياء: 73 - 77].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:73] يشير إلى أن الأمانة أيضًا من المواهب، فينبغي أن يكون الإمام هاديًا بأمر الله لا بالطبع والهوى، وإن كان له أهلية الهداية.

وبقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا

﴿عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:73] يشير إلى أن هذه المعاملات لا يصدر من الإنسان إلا بالوحي للأنبياء وبالإلهام للأولياء، وإلا طبيعة نفس الإنسان أن تكون أمارة بالسوء، وبقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:74] يشير إلى أن الحكمة الحقيقية والعلم النافع أيضًا من مواهب الله وفضله يؤتيهما من يشاء.

وبقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء:74] يشير إلى أن النجاة من الجليس السوء من المواهب والاقتران معهم من الخذلان، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:75] إشارة إلى أن الرحمة على نوعين: خاص وعام؛ فالعام: منها يصل إلى كل بر وفاجر كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:156] والخاص: لا يكون إلا للخواص وهو الدخول في الرحمة، وذلك متعلق بالمشيئة وحسن الاستعداد، قال: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء:75] أي: من المستعدين؛ لقبول فيض رحمتنا والدخول فيها، وهو إشارة إلى مقام الوصول، فافهم جيدًا كقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان: 31].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء:76] أي: من قبل أن يخرج من كتم العدم. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء:76] وهو كتم العدم، وهذا أيضًا من المواهب ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنبياء:77] أي: ميزناه وهديناه من بين قوم خذلناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ [الأنبياء:77] في تقدير الأزل ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الأنبياء:77] في لجي بحر البشرية في ماء هوى النفسانية ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:77] ليتحقق أن الهداية والخذلان منه سبحانه وتعالى.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: 78 - 82].

ثم أخبر عن الحكمين المختلفين بقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء:78] يشير إلى أنا كنا حاضرين في حكمهما معهما بالتأييد إنما حكمًا بإرشادنا لهما، ولم يحط أحد منهما في حكمه إلا إنَّا أردنا تشييد بناء الاجتهاد بحكمهما عزة وكرامة للمجتهدين؛ ليتقدوا بهما مستظهرين بمساعيهم المشكورة في الاجتهاد.

وبقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:79] يشير إلى: رفعة درجة بعض المجتهدين على بعض، وإن الاعتبار في الكبر والفضيلة بالعلم، وفهم الأحكام والمعاني، والأسرار لا بالسن، فإنه فهم بالأحق والأصوب وهو ابن صغير وداود نبي مرسل كبير، ثم قال تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:79] أي: حكمة وعلمًا؛ ليحكم كل واحد منهما موافقًا للعلم والحكمة بتأييدنا، وإن كان مخالفًا في الحكم لحكمنا؛ ليتحقق صحة أمر الاجتهاد، وأن لكل مجتهد مصيب.

وبقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 79] يشير إلى أن الذاكر لله إذا استولى عليه سلطان الذكر تتنور أجزاء وجوده بنور الذكر فيتجوهر قلبه وروحه بجوهر الذكر، فربما ينعكس نور الذكر من مرآة القلب إلى ما يحاذيها من الجمادات والحيوانات، فتنطق بالذكر معه أجزاء وجوده، وتارة تذكر معه بعض الجمادات والحيوانات كما كان الحصا يسبح في يد رسول الله ﷺ، والضب يتكلم معه، وروي عن بعض الصحابة أنه قال: «كنا نأكل الطعام ونسمع تسبيحه»[1].

وبقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:80] يشير إلى أن الأنبياء كثيرًا ما يجدوه من مواهب الله تعالى ببركة الأمة كل ما يجدون من مواهب الله تعالى إنما يجدونه بتبعية الأنبياء وبركاتهم، فلهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:80] فيه إشارة أخرى وهي: أن المعجزة التي أظهر الله تعالى على يد رسوله داود ﷺ من الآية الحديد وصنعة اللبوس كان كرامة لأمة النبي ﷺ إذًا لخطاب معهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:80] أي: تشكرون نعمة الكرامة

---

(1) رواه الترمذي (3993).

التي كرمكم بها في سورة المعجزة على داود ﷺ.

وبقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:81] يُشير إلى أن كمالية الإنسان إذا بلغ مبلغ الرجال البالغين من الأنبياء والأولياء، سخَّر الله بحسب مقامه السفليات والعلويات من الملك والملكوت، فسخر لسليمان ﷺ الريح والجن والشياطين والطير والحيوانات والمعادن والنبات ومن العلويات الشمس حين ردت لأجل صلاته، كما سخر لداود الجبال والطير والحديد والأحجار التي قتل بها جالوت وهزم عسكرهم، فسخر لكل نبي شيئا آخر من أجناس العلويات والسفليات، وسخر لنبينا ﷺ من جميع أجناسها.

* فمن السفليات ما قال ﷺ: «زويت لي الأرض مسجدًا وترابها طهورًا»[1]، وقال ﷺ: «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض»[2]، وكان الماء ينبع من بين أصابعه.

وقال ﷺ: «نُصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[3] وكانت الأشجار تسجد له، وتسلم عليه، وتسجد له، وتنقلع بإشارته عن مكانها وترجع، والحيوانات كانت تتكلم معه، وتشهد بنبوته، وقال ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي»[4] وغيره من السفليات.

*وأمَّا العلويات: فقد انشق القمر بإشارة وسخر له البراق وجبريل والرفرف، وعبر عن السماوات السبع والعرش والكرسي والجنة والنار إلى أن بلغ مقام قاب قوسين، أو أدنى، فما بقي شيء من الموجودات إلا وقد سخر له.

---

(1) رواه الطيالسي (412).

(2) أخرجه أحمد (4/ 149، رقم 17382)، والبخاري (1/ 451، رقم 1279)، ومسلم (4/ 1795، رقم 2296).

(3) حديث ابن عباس: أخرجه أحمد (1/ 228، رقم 2013)، والبخاري (1/ 350، رقم 988)، ومسلم (2/ 617، رقم900)، والطيالسي (ص 343، رقم 2641)، وابن أبي شيبة (6/ 304، رقم 31646)، وعبد بن حميد (ص 214، رقم 637)، والنسائي (6/ 476، رقم 11556)، وأبو يعلى (5/ 82، رقم 2680)، والطبراني في الأوسط (4/ 190، رقم 3941)، وابن حبان (14/ 331، رقم 6421)، والبيهقي (3/ 364، رقم 6276). وحديث أبي هريرة: أخرجه أبو الشيخ في العظمة (4/ 1342، رقم 85559)، وأبو نعيم (8/ 306)، والقضاعي (1/ 334، رقم 571).

(4) تقدم تخريجه.

وبقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء:82] يُشير إلى أنا كنا سخرنا الشياطين له؛ ليعملون له أعمالاً والغوص والصنائع التي يصنعون بحفظ الله ما لا يقدرون عليه الآن.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: 83 - 87].

ثم أخبر عن أجر من مسه الضر بقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ [الأنبياء:83] يشير إلى أن كل ما كان لأيوب عليه السلام من الشكر والشكاية في تلك الحالة كان مع الله لا مع غيره إذ نادى ربه، وإلى أن بشرية أيوب عليه السلام كانت تتألم بالضر وهو يخبر عنها ولكن روحانيته المؤيدة بالتأييد الإلهي تنظر بنور الله، وترى في البلاء كمال عناية المبلى وعين رحمته في تلك الصورة وتربية لنفسه؛ ليبلغها مقام الصبر ورتبة نعم العبد وهو يخبر عنها ويقول: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83] من حيث البشرية، ولكن أرى بنور فضلك أنك ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83] علي بأنك ترحم علي بهذا البلاء ومس الضر وقوة الصبر عليه؛ لتفني نفسه عن صفاتها وهي العاجلة وتبقى بصفاتك، ومنها الصبر والصبر من صفات الله تعالى لا من صفات العبد لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:127] والصبور هو الله تعالى.

وبقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83] كان مستدعيًا رحمته منه في إفناء النفس وصفاتها التي يجذبها ألم الضر والضر الحقيقي هو وجوده وألمنا ألم به؛ ليبقى بجود رحمته لا برحمة وجوده، فقال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء:84] مأموله وأعطينا سؤاله [الأنبياء:84] ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:84] ضر به الوجود ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ [الأنبياء:84] أي: ما هو أهله ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء:84] أي: ضعف ما كان مأمولة أعطينا له ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء:84] أي: بتجلي صفة رحمتنا

له. ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:84] أي: تذكارًا للطالبين.

ثم أخبر عن الطلاب وسمّاهم في الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء:85] يشير إلى أن إسماعيل عليه السلام قد صبر عند ذبحه وقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:102] وإدريس عليه السلام قد صبر على دراسته الكتب، وإنما سمي إدريس؛ لكثرة دراسته، وذا الكفل لأنه قد صبر على صيام النهار وقيام الليل وأذى الناس في الحكومة بينهم بألّا يعقب، وفيه إشارة إلى أن كل من صبر على طاعة الله، أو عن معصية، أو على ما أصابه من مصيبة في المال والأهل ونفسه، فإنه بقدر وصبر يستوجب رتبته نعمة العبدية، ويصلح لإدخاله في رحمته المخصوصة كما قال الله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 75].

ثم يشير عمَّن لم يصبر ويعترف بالعجز عن الصبر وعليه يستغفر بقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:87] يشير إلى أن الإنسان إذا غضب يلتبس عليه عقله، ويحتجب عنه نور إيمانه حتى يظن بالله ما لا يليق بجلاله وعظمته ولو كان نبيًّا وسعى في قطع تعلقاتها وهو متابع للنبي ﷺ، فلا كفران لسعيه وأمثاله كما يبتون في الأزل من المحبين والمحبوبين.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: 95 - 101].

ثم أخبر عن الهالكين بقوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:95] يشير إلى أن قلوب أهل الأهواء والبدع المهلكة باعتقاد السوء ومخالفات الشرع أنهم لا يتوبون إلى الله تعالى. ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ

يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:96] يشير إلى: سد يأجوج النفس ومأجوج الهوى، وسدّ أحكام الشريعة، وفتح السدّ مخالفات الشرع وموافقات الطبع، وهو إشارة إلى دواعي النفس (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ)؛ أي: من كل معدن شهوة من المبصرات والمسموعات والمذوقات والملموسات والمنكوحات والمبلوسات والمركوبات والتخيلات وطمع المناصب وحرص الأموال والصفات وأمثالها يخرجون ويفسدون ما يمرون عليه من القلب والسر والروح بامتناعهم، واقترب الوعد الحق أن يصمهم ويعمي أبصارهم ويقلب أفئدتهم.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء:97] أي: أبصار القلوب المهلكة بالأهواء ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [الأنبياء:97] الذي أصابنا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:97] بعبادتنا الدنيا وشهواتها، والنفس ودواعيها، وامتناعنا عبادة الحق تعالى فتخاطبهم عزة الجبروت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ [الأنبياء:98] من الهوى والنفس والشيطان والدنيا ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:98] قهرنا تحترقون بنار القطيعة ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:98] مخلدًا ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ﴾ [الأنبياء:99] الذين تعبدون.

﴿آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:99] أي: جهنم القهر ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:99] ولا يتخلصون عنها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [الأنبياء:100] من عذاب نار القطيعة ﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء:100] الحق عن الحق، ثم نزّه المسبوقين بالعناية عن هذه الأحوال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: 101] أي: العناية الأزلية ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا﴾ [الأنبياء:101] عن جهنم قهر الحق من آثار سبق العناية الأزلية ﴿مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:101-102] أي: حسيس جهنم القهر، وحسيسها مقالات أهل الأهواء والبدع، وأدلة الفلاسفة وبراهينهم بالعقول المشوبة بالوهم والخيال وظلمة الطبيعة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ

كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: 102 - 106].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ [الأنبياء:102] المطمئنة المركونة المجذوبة إلى الحضرة من المشاهدات والمكاشفات والمعاينات، ودخول الجنة المضافة إلى الحق، وهي السير في الله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 27ـ 28] ﴿خَالِدُونَ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:102ـ103] وهو قوله تعالى في الأزل: هؤلاء في الجنة ولا أبالي ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [الأنبياء:103] المبشرون بالوصول والوصال ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:103] بالرؤية والعقل والنوال بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:22ـ23].

ثم أخبر عن أحوال هذا اليوم وأهواله بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:104] يشير إلى طي سماء الوجود الإنساني بتجلي صفة الجلال في إفناء الوجود من الانتهاء إلى الابتداء ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:104] من ابتداء النطفة بالتدريج من خلق النطفة علقة، ومن خلق العلقة مضغة، ومن خلق المضغة عظامًا إلى انتهاء خلق الإنسانية كما قال الله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:14] يعيد من انتهاء الوصف الإنساني إلى الوصف الحيواني، ووصف الحيوانية إلى وصف النباتية، ومن وصف النباتية إلى وصف المركبية، ومن وصف المركبية إلى وصف مفردات العنصرية، ومن المفردية إلى وصف الكونية، ومن وصف الملكوتية إلى وصف الروحانية، ومن وصف الروحانية إلى وصف الربوبية بجذبة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28].

﴿وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء:104] في الأزل ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:104] للأبد ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ [الأنبياء:105] يشير إلى أم الكتاب في الأزل ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:105] من بعد أحوال أهل الذكر المطوي له سماء الوجود ﴿أَنَّ الأَرْضَ﴾ [الأنبياء:105] أي: أرض الجنة الوجود ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105] من غير المحبين والمحبوبين ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:106] وهم الذين كان مشربهم من الأعمال متابعين للنبي ﷺ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء: 107 - 112].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107] من أهل الذّكر وأرباب المحبة من أهل العبادة وأصحاب الأعمال.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء:108] يا أهل الجنة ويا أهل العناية ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:108] أي: مستسلمون له؛ ليبلغكم من مقام العبادة إلى مقام المحبة، ومن مقام المحبة إلى مقام الوصلة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الأنبياء:109] أهل الأهواء والطبيعة عن قبول الدعوة والرجوع إلى الحق. ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء:109] أعمالكم يا أهل الحق والباطل ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: على سوائه في الاستهزاء إلى طريق الحق ما فرقت بينكم في النصح وتبليغ الرسالة ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾ [الأنبياء:109] في الوصول إليكم ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:109] من ثمرات سعادة قبول الدعوة ونتائج شقاوة الدعوة.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾(1) [الأنبياء:110] أي: يعلم ما تجهرون من دعاء الإسلام والإيمان والزهد والصلاح والمعارف ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء:110] من الصدق والإخلاص والرياء والسمعة والنفاق ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ [الأنبياء:111] ما تظهرون وما تكتمون من الحق والباطل ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء:111] أي: اختبار لكم وابتلاء ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:111] أي : إلى حين مجازاتكم بالثواب والعقاب.

---

(1) قال البقلي: يعلم شكاية العارفين منه إليه بألفاظ مجهولة من مقام الأنس، ويعلم ما في ضمائرهم من حقائق إشارات الحقيقة من أوصاف القدس، يسليهم بهذا الخطاب أي: لا تجزعوا، فحان وقت الوصال، وكشف الجمال؛ فكيف يخفى عليه، وهو بمحبته أزعجهم إلى الحرية والانبساط.

قال الحسين: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها من الخير والشر والنفع والضر؟! فما يكتمونه أظهر عنده مما يبدونه وما يبدونه مثل ما يكتمونه جل الحق أن يخفي عليه خافية من عباده مُحال، والله أعلم.

وبقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء:112] يشير إلى: ألَّا تطلب من الله ولا تطمع في حق المطيع والعاصي إلا ما هو مستحقه، وقد جرى حكم الله فيهما في الأزل ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:112] يشير إلى أن رحمته غير متناهية وهو ممن يستعان به في طلب الرحمة على أهل الحق والباطل الموصوفين بهما.

سورة الحج

مكية إلا ست آيات من: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج:19] إلى: ﴿صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:24] وهي: ثمان وسبعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)﴾ [الحج: 1 - 5].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج:1] يشير إلى أن من نسي الله تعالى واشتغل بما دونه عنه بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج:1] عمّا سواه كما يقال: اتقى فلان بنفسه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1] وهي: أن الساعة من عظم شأنها أن يكون فيها كل شيء هالك إلا وجهه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: 2] يشير إلى: مواد الأشياء، فإن لكل شيء مادة وهي ملكوتة ترضع رضيعها من الملك، وذهولها عنه بهلاك استعدادها للإرضاع ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج:2]، وهي ما يسمى هيولي، فإنها حاصل بالصورة؛ أي: يسقط حمل الصور الشهادية بهلاك الهيولى.

وبقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ [الحج:2] يشير إلى أن ما يكون في القيامة مصورًا بصورة تناسب ذلك العلم إنما يكون متشابهًا بمصورات ما في الدنيا[1]، وهو من عالم المعنى لا من عالم الصورة يدل عليه قراءة من قرأ: ﴿وَتَرَى النَّاسَ

---

(1) وصف أهل شهود سطوات العظمة والكبرياء بالوله والهيمان والسكر والهيجان بقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ يولهون في رؤية العظمة وجلال الهيبة، ويهيمون في أودية أنوار الكبرياء

سُكَارَى﴾ [الحج:2] بضم التاء من الإراءة؛ أي: يرونهم سكارى بالصور ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ [الحج:2] في الحقيقة نظيره قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة:25].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يشبه شيء في الجنة شيئًا مما في الدنيا إلا بالاسم، فترى فيها في صورة ما في الدنيا، ولا تكون حقيقته مثل حقيقته:

* فمن الناس: من يكون سكره من الغفلة والعصيان.
* ومنهم: من يكون سكره من شراب حب الدنيا وشهواتها.
* ومنهم: من يكون سكره من شراب التنعم.
* ومنهم: من يكون سكره من شراب الحكم والسلطنة.
* ومنهم: من يكون سكره من شراب ذوق الطاعة.

والسلطنة.

قال جعفر: أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز وبساط الجبروت وسرادق الكبرياء حتى ألجأ النبيين إلى أن قالوا: نفسي نفسي.

وقال الأستاذ: فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب، وشتان بين سكر وسكر، سكرهم سكر أهل الغفلة، وسكرهم سكر أهل الوصلة، وإن سألتني من سكر أصحاب الوقائع في كواشف القدوسية، وبروز أنوار السبوحية في مشاهد القيامة فسكر الأعداء من رؤية القهريات، وسكر الموافقين من رؤية بدائع الأفعال، وسكر المريدين من لمعات الأنوار، وسكر المحبين من كشوف الأسرار، وسكر المشتاقين من ظهور سنا الصفات، وسكر العاشقين من مكاشفة الذات، وسكر المقربين من الهيبة والجلال، وسكر العارفين من الدخول في حِجال الوصال، وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية، وسكر الأنبياء والمرسلين من اطلاعهم على أسرار سر الأزلية، فبعض السكارى واله في العظمة، وبعض السكارى تائه في العزة، وبعض السكارى غائب في الجمال، وبعض السكارى فانٍ في الجمال، وبعض السكارى صاح في البقاء، وبعض السكارى مضمحل في الكبرياء، وبعض السكارى سكره من حلاوة الخطاب، وبعض السكارى سكره من الانبساط، وبعض السكارى سكره من العتاب، وبعض السكارى سكره من كشف النقاب، وبعض السكارى سكره من رؤية القدم في مرآة الالتباس، وبعض السكارى سكره من وقوعه في صرف شهود الأزل، فهؤلاء السكارى في منازلهم، سكرهم مقادير مواردهم في شهود القرب، وقرب القرب؛ فمن كان سكره بغيره فهو غير سكران إنما هو مخبط حاله من رؤية الأحوال، ومن كان سكره به فسكره من شراب الوصال، فسكري هناك من سكري هاهنا به لا بما منه شرابي من رؤية صرف كنه القدم وغيري من العبَّاد والزهَّاد سكرهم من مشارب الكرم.

*ومنهم: من يكون سكره من شراب لذة العلم.

*ومنهم: من يكون سكره الشوق.

* ومنهم: من يكون سكره من شراب المحبة.

* ومنهم: من يكون سكره من شراب الوصال.

* ومنهم: من يكون سكره من شراب المعرفة.

* ومنهم: من يكون سكره من شراب المحبية والمحبوبية كما قال بعضهم: لي سكرتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من دونهم وحدي، ولكن عذاب الله شديد:

* فمن الناس من يعذب بنار الفراق.

* ومنهم: من يعذب بنار الاشتياق.

*ومنهم: من يعذب بنار شواهد بعظام مألوفاته الدنياوية من نار جهنم.

* ومنهم: من يعذب بنار القطيعة.

* ومنهم: من يعذب بنار شواهد ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه:10].

* ومنهم: من يعذب بنار نور تجلي صفة الجمال.

* ومنهم: من يعذب باستيلاء نار تجلي صفة الجلال إذا مسته النار بدلاً عمَّن لم تمسسه نار.

* ومنهم: من يعذب بنار الفناء في النار والبقاء بالنار كقوله تعالى: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:8] وكانت استعاضة النبي ﷺ بقوله: «كلميني يا حميراء» من فوران ثائرة هذه النار وهيجانها[1]، والله أعلم.

ثم أخبر عن معاملة أرباب المجادلة بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان:20] يشير إلى أن من يجادل في الله ما له علم بالله ولا معرفة به، وإلا لم يجادل فيه ويستسلم له، وإنما يجادل في الله؛ لأنه ﴿يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:3] من شياطين الجن والإنس.

وبقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

---

(1) ذكره حقي (8/ 359).

[الحج:4] يشير إلى أنه قد قضى الله سبحانه على كل شيطان من الجن والإنس أنه من يتبعه ويتولاه فإنه يضله عن الصراط المستقيم والدين القويم؛ فأمَّا الشيطان الجني، فبالوسواس والتسويلات وإلقاء الشبهة، وأمَّا الشيطان الإنسي، فبإيقاعه في مذاهب أهل الأهواء والبدع، والفلاسفة والزنادقة المنكرين البعث، والمستدلين بالبراهين المعقولة المشوبة بشوائب الوهم والخيال وظلمة الطبيعة، فيستدل بشبهتهم ويستدل بعقائدهم حتى يصير من جملتهم، ويعد في زمرتهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51] ويهديه بهذه الاستدلالات والشبهات إلى عذاب السعير والقطيعة والحرمان.

وبقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:5] يشير إلى ناس قد نسي خلقه وأنكر البعث كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ﴾ [يس:78].

ثم استدل على البعث بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ [الحج:5] منها ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج:5] أي: كنتم ترابًا ميتًا، فبعثنا بأن خلقنا منه آدم حيًا، ثم بعثنا منه النطفة، ثم بعثناها بأنَّا خلقنا منها العلقة، ثم بعثناها بأن خلقناها مضغة، ثم بعثناها بأن خلقناها مخلقة؛ أي: منفوخة فيها الروح، وغير مخلقة؛ أي: صورة لا روح فيها ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:5] أمر البعث والنشور.

﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج:5] فيه إشارة إلى أن أطفال المكونات كانوا في أرحام أمهات العدم مقرين بتقرير الحق إياهم فيه، ولكل خارج منها أجل مسمى بالإرادة القديمة والحكمة الأزلية، فلا يخرج طفل مكون من رحم العدم إلا بمشيئة الله أوان أجله، وهذا رد على الفلاسفة فإنهم يقولون بقدم العالم ويستدلون في ذلك هل كان لله في الأزل أسباب الإلهية في إيجاد العالم بالكمال أم لا؟

وإن قلنا: لم تكن، فقد أثبتنا له نقصانًا، فالناقص لا يصلح للإلهية، وإن قلنا: قد كان له أسباب الإلهية بالكمال بلا مانع فقد لزم إيجاد العالم في الأزل بلا تقدم زماني للصانع على المصنوع، بل بتقدم رتبي فنقول في جوابهم: إن الآية تدل على أن الله تعالى كان في الأزل بلا تقدم ولم يكن معه شيء، وكان قادرًا على إيجاد ما يشاء كيف يشاء، ولكن الإرادة الأزلية اقتضت بالحكمة الأزلية أجلاً مسمى بإخراج طفل العالم من رحم العدم أوان أجله، وإن

لم يكن قبل وجود العالم أوان، وإنما كان مقدرًا لأوان في أيام الله تعالى التي لم يكن لها صباح ولا مساء كما قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم:5].

وبقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج:5] يشير إلى أن كل طفل من أطفال المكونات يخرج من رحم العدم مستعدًا للتربية وله كمال يبلغه بالتدريج ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ [الحج:5] أي: من المكونات ما ينعدم قبل بلوغ كماله ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ﴾ [الحج:5] أي: ومنها ما يبلغ حد كمالهم يتجاوز عن حد الكمال فيؤول إلى ضد الكمال لئلا يبقى فيه من أوصاف الكمال شيء، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج:5].

﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج:5] ثم شرح حال تربية طفل من المكونات إلى أن يبلغ حد كماله فبقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج:5] أي: طفل الأرض قطفة ميتة، فإذا أنزلنا عليها الماء ماء القدرة والحياة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:5] بالتربية ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:5] وهو حد كماله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [الحج: 6 - 10].

وفيه أنموذج من البعث، وذلك لعلموا ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ [الحج:6] في الإلهية ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى﴾ [الحج:6] كما أحيى ميتة الأرض الهامدة، وأنه على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج:7] وهي أوان البعث ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ﴾ [الحج:7] فيه إشارة إلى: إنه تعالى باعث كل [مقبور] مقدر له بالخروج من قبور العدم.

ثم أخبر عن حرج ضلال أهل الجدال بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى﴾ [الحج:8] يشير إلى أن من الذاكرين من يجادل في معرفة الله، ودفع الشبهة، وبيان الطريق إلى الله تعالى بالعلم بالله ﷻ، وهدى بنبيه ﷺ ويشاهد نص ﴿وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:8] يظهر بنوره الحق من الباطل، فهو محمود كما أن جدال المنافق

والمرائي، وأهل الأهواء والبدع المتكبر ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ [الحج:9] عن الحق فيضل ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الحج:9] في عاقبة أمره، ويضل الخلق بالشبهات والتمويهات مذموم ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [الحج:9] عند أهل البصيرة.

وبقوله تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:9] يشير إلى أن الأهواء والبدع ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43] من أهل المعاصي عذاب الحريق في الدنيا بنار الشهوات وعقائد السوء، ولكنه نائم بنوم القطيعة لا يذوق ألم الحرقة، فإذا مات انتبه ويذيقه الله ألم عذاب الحريق، ويقول الله تعالى: الغافل الساهي ذلك بما قدَّمت يداك تتبع الشهوات، أو استيفاء اللذات وأكل الحرام كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:10]، وقال الله للنبي ﷺ: «حفت النار بالشهوات»[1] ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:182] بل العبيد ظلاَّمون لأنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:40] بأن يضعوا العبادة والطلب في غير موضعه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (16)﴾ [الحج: 11 - 16].

وبقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج:11] يشير إلى بعض الطالبين من لا صدق له ولا ثبات في الطلب، فيكون من أهل التمني بطلب الله على شك، فإن أصابه خير مما يلائم نفسه وهواه أو فتوحًا من الغيب أطمأن به، وأقام على الطالب في الصحبة، وإن أصابته فتنة بلاء وشدة وضيق في المجاهدات أو الرياضات، وترك الشهوات، ومخالفة الناس، وملازمة الخدمة، ورعاية حق الصحبة، والتأدب بآداب

(1) تقدم تخريجه.

الصحبة، والتأمل عن الإخوان انقلب على وجهه بتبديل الأقوال بالإنكار، والاعتراض، والتسليم بالإباء، والاستكبار، والإرادة بالارتداد، والصحبة بالهجران ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج:11] أي: خسر ما كان عليه من الدنيا بتركها، وخسر الآخرة بالارتداد عن الطلب والصحبة.

ومن هنا قال المشايخ مرتد الطريقة أخسر من مرتد الشريعة: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:11] فإنه من رده قلب صاحب قلب يكون مردود القلوب كلها؛ وذلك لأنه ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ﴾ [الحج:12] أي: يعبد ويطلب ما سوى الله تعالى ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُ﴾ [الحج:12] في الآخرة إن تركه ﴿وَمَا لاَ يَنفَعُهُ﴾ [الحج:12] إن طلبه ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج:12] أي: جعله بعيدًا من الله تعالى ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ﴾ [الحج:13] أي: يطلب من ضرره في الآخرة ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج:13] أي: أكثر من الانتفاع به في الدنيا ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ [الحج:13] ما عبدوه وما طلبوه غير الحق ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج:13] ما عاشروه في الدنيا وشهواتها.

ثم أخبر عن أهل الجنات والدرجات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الحج:14] يشير إلى أن من يدخل الجنة بمجرد الإيمان التقليدي والأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:14] أي: يوفق للإيمان الحقيقي والعمل الصالح من يريد ويشاء، كقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ﴾ [الإنسان:31].

وبقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [الحج:15] يشير إلى أن من كان ظنه بالله ظن السوء بألّا ينصره في الدنيا على الكفار، وفي الآخرة بألّا يدخل الجنة، فإنه من الظانين بالله ظن السوء، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له جهنم، وساءت مصيرًا كما قال النبي ﷺ في حديث رباني عن الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء»(1) يعني: من ظن بي خيرًا أصابه خيرًا، ومن ظن بي شرًا أصابه شر، وفي

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (ص 15، رقم 2)، والحكيم (3/ 99)، وابن حبان (2/ 401، رقم 633)، وابن عدي (6/ 326، ترجمة 1807 معروف بن عبد الله الخياط)، والطبراني (22/ 87، رقم 210)، والحاكم (4/ 268، رقم 7603)، وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضا: أحمد (3/
=

رواية أخرى قال الله تعالى: «فليطلب طريقًا إلى السماء، ثم ليقطع صادقًا تقديري في الأزل ونزول أحكامي من السماء، فلينظر هل يذهبن كيده؟»(1) أي: هل نقطع كيده في إبطال أحكامي النازلة من السماء مما يغيظ؟ أي: سبب غيظه وكذلك؛ أي: كذا ما قررنا من بطلان سعي في إبطال أحكامنا ﴿أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الحج:16] أي: دلالات واضحات إليك يا محمد ﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج:16] إلى الجنة من يشاء، وفيه إشارة أخرى: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج:16] من الهداية.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 16 - 18].

ثم أخبر عن اختلاف أصناف الخلق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج:17] يشير إلى أنه تعالى يسأل كل صنف منهم يوم القيامة على حسب استحقاقه بها وعدهم إمَّا بالنعيم، وإمَّا بالجحيم وبالوصال، أو بالفراق، كما أعد لهم وعلى ما خلقهم، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج:17].

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:17] أو عالم بحال كل صنف منهم: كيف خلقهم، وفيما استعملهم وأي مقام ومنزل أعدَّ لهم من منازل الجنة والنار ومن مقام القرب.

وبقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:18] يشير إلى أن أهل العرفان يسجدون سجود عبادة بالإرادة والجهاد ومن لا يعقل، ومن لا يدين

- 491، رقم 16059)، والدارمي (2/ 395، رقم 2731).

(1) أخرجه ابن بطة في الإبانة (4/ 405).

يسجدون سجود خضوع للحاجة.

وبقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج:18] يشير إلى: أهل النفاق وأهل الرياء والسمعة، فإن الله يفصل بين كل صنف منهم في الثواب والعقاب على قدر استحقاقهم ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ﴾ [الحج:18] في الأزل بتقدير الشقاوة ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:18] إلى الأبد بطريق الشفاعة له ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:18] من الأزل إلى الأبد.

ثم أخبر عن الخصمين المتنازعين بقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ فأمَّا اختصام النفس: ففي انقطاعها عن الله تعالى وحرمانها عنه، وأمَّا اختصام الروح مع النفس: ففي انقطاعها إلى الله ورجوعها إليه.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج: 19 – 23].

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج:19] من أرباب النفس بانقطاعهم عن الله ودينه بإتباعهم الهوى وطلب الشهوات الدنياوية، ومن أصحاب الروح بإعراضهم عن الله ورد دعوة الأنبياء ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج:19] بتقطيع خياط الفناء على قدهم وهي ثياب نسجت من سدى مخالفات الشرع ولحمة موافقات الطبع.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج:19] أي: حميم الشهوات النفسانية ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج:20] أي: يذاب ويخرج ما في قلوبهم من الأخلاق الحميدة الروحانية ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:21] أي: الأخلاق الذميمة النفسانية ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [الحج:22] أي: من نار القطيعة وسعير الشهوات من غم أصابهم من خوف سوء عاقبة أمرهم ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج:22] بمقامع الأخلاق الذميمة، واستيلاء الحرص والأمر، وقيل لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:22] أي: عذاب ما أحرقت منكم نار الشهوات من الاستعدادت الحسنة.

ثم أخبر عن حال الروح ومتابعيه من النفوس بالإيمان والأعمال الصالحة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج:23] أي: يحليهم بحلية الأسرار والحقائق والحكم البالغة ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:23] أي: شعارهم ودثارهم الأخلاق الحميدة والصدق في العبودية ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾ [الحج:24] وهو الإخلاص في قوله: لا إله إلا الله والعمل به ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾ [الحج:24] وهو الطريق إلى الله تعالى، فإن الحميد هو الله تعالى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ [الحج: 25 - 29].

ثم أخبر عن أحوال النفوس المتمردة والأرواح المرتدة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [الحج:25] يشير إلى منكري هذا الشأن، فإنهم مع إنكارهم وإعراضهم عن الحق يصدون الطالبين عن طريق الله بالإنكار والاعتراضات الفاسدة على المشايخ، ويقطعون الطريق على أهل الطلب؛ ليردوهم على طلب الحق تعالى، وعن دخول مسجد حرام القلب، فإنه حرم الله تعالى.

﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ [الحج:25] أي: جعلناه لهم بالاهتداء وطلب الحق لا عليهم، كالنفس الأمّارة بالإضلال، والإعراض عن الحق سواء ﴿العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج:25] أي: يستوي في الوصول إلى مقام الطلب الذي سبق إليه بمدة طويلة، والذي يصل إليه في الحال ليس لأحد فضل على الآخرة إلا بالسبق إلى مقام القلب ومنازله.

وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:25] يشير إلى أن من يريد في القلب ميلاً عن الحق بظلم بوضع الشيء في غيره موضعه؛ لأن القلب

معدن محبة الله تعالى يذيقه الله تعالى عذاب البعد، والقطيعة عن الحضرة ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:26]، الروح ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج:26] القلب، فإن تهيؤ القلوب بتدبير الأرواح وتقدير الحق تعالى ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج:26] في سكنى القلب أي: كن حارسًا للقلب لئلا يسكن فيه غيري ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:26] أي: أفرغ القلب عن الأشياء سواي، وهذا كما قال تعالى بالوحي إلى بعض أنبيائه: أفرغ لي بيتًا أسكنه، فقال: إلهي أي بيت يسعك؟ فأوحى الله إليه: ذلك قلب عبدي المؤمن، ويقال: طهر بيتي بإخراج كل نصيب لك في الدنيا والآخرة من تطلع إكرام، وتطلب إنعام أو إرادة مقام، ويقال: طهر قلبك ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج:26] فيها من واردات الحق وموارد الأحوال على ما يختاره الحق ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ [الحج:26] وهي الأشياء المقيمة من مستوطنات العرفان، والأمور المغيبة عن البرهان، والمطلقة بها هي حقائق البيان ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: 26] هي أركان الأحوال المتوالية من: الرهبة والرغبة والرجاء والمخافة والفيض والبسطة والإنس والهيبة، وفي معناه أنشد:

لســـتُ مـــن جملـــةِ المحبـــين إن لم أجعـــلِ القلـــبَ بيـــتَه والمَقامـــا
وطـــوافي أخالُـــهُ الـــسيرَ فـــيه وهـــو رُكنـــي إذا أردتُ اســـتلاما

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج:27] أي: وناد في الناسين من النفس وصفاتها والقالب وجوارحه؛ يعني: يقصدون القلب بالأعمال الشريعة البدنية، فإنهم كالكوكبات؛ لأن الأعمال البدنية مركبة من الحركات ونيات الضمير، كما أن أعمال النفس مفردة أنها من نيات الضمير فحسب ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:27] وهو سفل الدنيا؛ لأن القالب من الدنيا وأكثر استعماله في مصالح الدنيا بالجوارح والأعضاء، فردُّها إلى استعمالها في مصالح القلب إتيانها من فج عميق.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:28] أي: ليحضروا وينتفعوا بالمنافع التي هي مستكنة في القلب؛ فأمَّا النفس وصفاتها: فمنافعها تبديل الأخلاق، وأمَّا القالب وجوارحه: فمنافعهم قبول طاعتهم وآثارها على سيماهم ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: 28] أي: القلب والنفس والقالب شكر ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج:28] بأن جعل الصفات البهيمية الحيوانية مبدَّلة بالصفات القلبية الروحانية الربانية.

وبقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:28] يشير إلى أن انتفعوا من هذه المقامات والكرامات، واطيبوا بمنافعها الطالب المحتاج، والقاصد إلى الله تعالى بالخدمة والهداية والإرشاد ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا﴾ الطلاب ﴿تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:29] وهو ما يجب عليهم من شرائط الإرادة وقصد الطالب ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:29] فيما عاهدوا الله على التوجه إليه، وصدق الطلب والإرادة ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1]

(1) أفاد سيدنا اليطار في هذه الآية المباركة بقوله: وارد: البيت العتيق لكل مؤمن وصدّيق.

بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29].

اعلم - رحمك الله - أن بيت الله عين ساكن؛ لأن الله هو وجود كل شيء أحد لا يتجزأ، وحقيقة مطلقة يندرج بها كل صورة في الوجود، فليس لله محل يسكنه؛ إذ ليس مع وجوده شيء آخر يحل فيه أو يتحد فيه أو يمتزج فيه، بل هو الله الواحد الأحد من جميع الوجوه كما قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:3]، فأين البيت وأين الساكن؟ بل البيت عين الساكن والساكن عين البيت، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]. غاية الأمر أن الوجوه الإلهية منها العالي ومنها الأعلى، ومنها الكريم ومنها الأكرم، ومنها الرحيم ومنها الأرحم، ومنها القريب ومنها الأقرب، ومنها العظيم ومنها الأعظم، ولما كان هذا البيت أول بيت لله تعالى، أي: أول صورة إلهية شهادية تجلى الله بها من حضرة ذاته الغيبية المطلقة سمي عتيقًا، أي: قديمًا، لا يعلم له أولية فهو مجلي اسم الله القديم، ولهذا كانت تربة الجسم المحمدي ﷺ من هذا البيت، الذي هو وجه الله القديم، وقد طافت به الأمم السابقة على أبينا آدم الأقرب إلينا بأربعين ألف عام أو أكثر، وطافت به الملائكة قبل الجنس الإنساني، فحاز رتبة الأولية في مظاهر الحق بالنسبة لبيوته، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:96]، فهو شهادة الله كما أن باطنه غيب الله. ألا ترى أن النبي ﷺ صافح الحجر الأسود منه، ووصفه بالسواد من السيادة وقال: «إنه يمين الله في الأرض» ليت شعري هل تقول بأن يمين الله حادث؟ حاشا وكلا، وحيث كان الحجر يمين الله فالكعبة صورة الحق المقدسة، ووجهه الأعلى فهو مجلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فلذا كان البيت عتيقًا، ولما كانت قبلتنا التي نسجد إليها نبهنا النبي ﷺ بأنها وجه الله الأعلى حيث نهانا أن نبصق في قبلتنا فقال: «إن الله في قبلة أحدكم» خشية اعتقاد المحجوبين أنها بمثابة الأصنام التي قال المشركون في حقهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:3]، فنبهنا النبي ﷺ أن الله أقرب إلينا من أن يتقرب إليه؛ إذ لا ظاهر في الوجود إلا وجهه فهل في الوجود غيره حتى يقرب إليه؟! ولهذا أنزل على محمد ﷺ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:1]، فالكعبة المشرفة هي اسم الرب الأعلى فكان ﷺ يشاهدها مجلى مقدسًا ذاتيًا تطوف به كافة أسماء الله وصفاته، ولما كنا مظاهر أسماء الله وصفاته أمرنا الله بالطواف بها فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:29]، بمعنى أنه معتق من طاف به من

-

رق حجاب الغيرية، ومدخل له لأمان الذاتية، وبمعنى أنه معتّق بفتح التاء من رق الأسماء والصفات؛ لأن الكعبة المشرفة هي عين تجلي الذات، ولما كان الأمر كذلك أمرنا بالطواف سبعة أشواط؛ تنبيهًا على صفات الله السبعة الأئمة التي لها التقدم على جميع الأسماء والصفات؛ لنشاهدها هي المجلى الذاتي الساري بنا وبكل شيء في الوجود. ولقد كنت أراقبها أشاهد سريانها في قلبي، وأنها تخاطبني مني حين التفت عنها خطاب العتاب، وتقول: أما تستحي مني، تلتفت عني وأنت تشاهدني، فكأنها تقول لي: هل بعد مشاهدة الذات تلتفت إلى مشاهدة الصور المتفرقة؟ فلا تخرج من العين إلى الأين، بل إن الصور وإن كانت هي العين فأنا العين وإنسان العين.

أما علمت أن حجة الله على عبدة الأوثان في قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:33]، فلو سمُّوهم لم يسمُّوهم بأسمائه كما فعل رسول الله ﷺ فقال: «إن الله في قبلة أحدكم» فلم يشاهد عين قبلته إلا الله.

ولما كان هذا التجلي الذاتي المحمدي لا يقوى عليه إلا ورثته المقربون خاطب الضعفاء بمرتبة الإحسان؛ فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه».

ألا ترى أن الوارث المحمدي الكامل الخاتم الأولياء المحمديين أستاذنا في العلم بالله الشيخ الأكبر محمد بن علي بن العربي محيي الدين لم يقيدها بصورة الحجر والطين بل كان يراها في صورة امرأة إشارة أنها الذات التي هي أم الأسماء والصفات فهي أم الوجود بأسره، وأولادها منها وعينها، فقال ﷺ:

يــا قبلتــي خاطبينــي في سـجودي لقــد رأيــت شخـصًا بشخـصي في قــد سـجدا

لاهـــوته حـــل ناســـوتي فقدّســـه إني عجــبت لمــثلي كــيف مــا عــبدا

والمخلص من هذا العجب أن الصورة الإنسانية لها الحركة الحسيَّة، فلو كانت في المرتبة المعبودية؛ لفاتها المرتبة العابدية، فكانت العابدة من جهة الصورة، والمعبودة من جهة الحقيقة؛ ولهذا السر نهى ﷺ من قال له: مرني أن أسجد لك عن السجود له وقال: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». وقد كنت شطرت هذين البيتين وشرحتهما، فلا اعتمد على ما سلف، ولكني الآن أقول ما يجريه الله على لساني ويفيضه على جناني فأقول: إن الشيخ الأكبر لما كان مقامه نقطة الذات وتجليها بصور الأسماء والصفات فكان يشهد أعلى عليين عين صورة أسفل سافلين، خاطب قبلته وما خاطب إلا الله؛ لأنه طلب الخطاب في السجود، والسجود لا يكون إلا على الأرض، ورسوله الله ﷺ قال: «لو دليتم بحبل لهبط على الله».

فقد سمى الأرض باسمه الأعظم، فانقلب أسفل سافلين - الذي هو حقيقة الأجسام - أعلى عليين الذي هو نور الأرواح وأصلها وحقيقتها، فعلمنا أن المشهد الخاتمي عين المشهد المحمدي وراثة منه ﷺ فكان خاتم الأولياء مرآة لخاتم الرسل والأنبياء ﷺ في مشهده الذاتي الأحدي المطلق، الذي تندرج أمواج الصور في بحر وجوده المحيط، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:39]، فذاته تعالى هي الأم، وكل صورة في الوجود هي الكتاب.

وقوله ﷺ: رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا معناه أن الأنوار الذاتية اللاهوتية تتشكل وتمتزج بالصور الجسمية، فتتجلى بالتصور والتشكل حتى تتحد ذاته وتكون عينه ويكون هو إياها، ولاسيما إذا

[الحج:29] أي: يطوفوا حول قرب الله تعالى بقلبه وسره، ولا يطوفوا حول ما سواه، وأراد بالعتيق القديم وهو من صفات الله ﷻ.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحج: 30 - 34].

كانت اللطيفة الإلهية ذاتية، وهذا مشهد البيعة الإلهية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ﴾ [الفتح:10].

فقوله ﷺ: يا قبلتي خاطبيني، هو تجلي الله في مرتبة المعبودية، وقوله: (رأيت شخصًا بشخصي في قد سجدا) هو تجلي الله في المرتبة العابدية، فالعابد عين المعبود وذلك معنى قولهم: عبادة العارف تشريف لا تكليف؛ لأن العابد في العارف هو الله العابد لنفسه في نفسه، وهذه حضرة سقط فيها التكليف، ومعنى سقوطه أن العارف لا يشهد اثنين، فليس الحق غيره حتى يكلفه بل هو القائم لجميع أحكام الربوبية، كما أنه القائم بجميع تجليات العبودية، فالعارف بالله أعظم الناس تمكنًا في القيام بالأوامر المشروعة، والتنزه عن المخالفات القبيحة؛ لأنه متخلق باسم الله الطاهر القدوس، وخارج عمن قال الله في حقهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:28]، فأين المشركون من مشهد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1].

ولقد رأيت من الجهلة السفلة من يزعم أن العارف لا يجب عليه صلاة ولا صوم، بل إن صلاته وصومه مجاراة للمحجوبين، فجعل هذا الجاهل العارف بمنزلة المنافقين الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ يصلون ويصومون حقنًا لدمائهم وخشية على أموالهم، فأين هؤلاء السفلة الأوغاد الذين خرجوا من ربقة دين الإسلام فضلاً عن المعرفة التي يدعوها من قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فالمنافقون يقومون فيها وهم لها كارهون، والعارفون بالله يقومون فيها وهم بالله قائمون.

قال ﷺ: «أرحنا بها يا بلال» ولم يقل: أرحنا منها، بل راحته بصلاته لا منها، ويحتمل قوله: «أرحنا» من الرَّوح بفتح الراء، أي: أشممنا منها الرائحة الطيبة التي هي الأنفاس الإلهية والنفحات الربانية، ولذلك قام ﷺ حتى تورمت قدماه عن حب وعشق وصدق لا عن مجاراة للخلق، فإن الله أنزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ [المزمل:1،2]، مع أنه مشاهد للحي القيوم القائم بكل شيء، فنعوذ بالله من تبدل الصلاح بالفساد، ومن التكذيب والزندقة والإلحاد، وعلى الله قصد السبيل.

ثم أخبر عن تعظيم حرمات الله في ذات الله بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج:30] يشير إلى أن تعظيم حرمات الله تعالى هو تعظيم الله في ترك ما حرَّمه الله عليه، وتعظيم ما أمره الله تعالى بالطاعة يصل العبد إلى الجنة، وبالحرمة يصل إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج:30] يعني: تعظيم الحرمة خير للعبد في التقرب إلى الله تعالى من تقربه بالطاعة، ويقال: ترك الطاعة يوجب العقوبة، وترك الحرمة يوجب الفرقة، ويقال: كل شيء من المخالفات؛ فللعفو فيه مساغ، وللعمل فيه طريق، وترك الحرمة على خطر ألَّا يغفر ذلك، وذلك بأن يؤدي شؤمه بصاحبه أن يختل دينه وتوحيده.

وبقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ﴾ [الحج:30] يشير إلى أن استعمال البهيمة فيما مسَّت إليه الحاجة الإنسانية حلال ولا يقطع الطريق على السالك ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [الحج:30] في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف:31] وفي حديث فيه في وهو قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فاجتنبوا الرجس من الأوثان»[1]؛ أي: واجتنبوا رجس كل ما اتخذه هواكم معبوده من شهوات الدنيا والآخرة والوثن الحقيقي لكل أحد نفسه ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:30] وهو قوله باللسان مما لا يساعده قول القلب، ومن عاهد الله بقلبه في صدق الطلب ثم لا يفي ذلك فهو من جملة الزور ﴿حُنَفَاءَ﴾ [الحج:31] لله مايلين إلى الحق من الباطل في القلب، وفي النفس، وفي الجهر، وفي السر، وفي الأفعال، وفي الأحوال، وفي الأقوال مستقيمين عليه؟

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:31] في طلب بها سوى الله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [الحج: 31] أي: يطلب غير الله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج:31] أي: سقط من سماء القلب

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه الترمذي (4/ 558 رقم 2317)، وابن ماجه (2/ 1315، رقم 3976)، والبيهقي في شعب الإيمان (4/ 255، رقم 4987)، وابن حبان (1/ 466، رقم 229)، وابن عساكر (41/ 426). وحديث الحسين: أخرجه أحمد (1/ 201، رقم 1737)، والطبراني (3/ 128، رقم 2886) قال الهيثمي (8/ 18): رجالهما ثقات. حديث علي بن الحسين: أخرجه مالك (2/ 903، رقم 1604)، والترمذي (4/ 558، رقم 2318)، والبيهقي في شعب الإيمان (7/ 416، رقم 10806).

﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ [الحج:31] الشيطان والهوى ويهويان به في أسفل سافلين أبعد ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ [الحج:31] ريح القهر والخذلان ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:31] بعيد من الحق سبحانه ذلك؛ أي: الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ﴾ [الحج:32] وهي أعلام وشواهد مما يرد في إرشاده إلى الصراط المستقيم ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:32] أي: فكلها دلالات على ارتقاء القلوب بالله عمَّا سواه.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ [الحج:33] لكل من تلك الجملة منفعة بقدرة وحدة الأقوام بركات في العبور على المقامات، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم، ولآخرين في الذات يسطهم، ولآخرين في أنسهم بالله ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج:33] وهو بلوغ حد كمالهم، ثم محلها إلى البيت العتيق ذلك محل كل سالك إلى حضرة القديم ومنزلة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج:34] أي: ولكل سالك جعلنا طريقة ومقامًا وقربة على اختلاف طبقاتهم:

* فمنهم: من يطلب الله من طريق المعاملات.
* ومنهم: من يطلب من باب المجاهدات.
* ومنهم: من يطلبه بطريق المعارف.
* ومنهم: من يطلبه به؛ ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾ [الحج:34] أي: لتمسك كل طائفة منهم في الطلب بذكر الله تعالى ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:34] أي: على رزقهم من قهر النفس من العبور على المقامات، والوصول إلى الكمال ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الحج:34] الذي وفقكم لهذه الكرامات ونيل الدرجات، فله أسلموا لما قدر لكم في الأزل، وحكم به استسلامًا من داخل القلب لا من الفرط والإسلام يكون بمعنى الإخلاص والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات، ثم تصفية الأحوال من الالتفات، ثم تصفية الانفكاك من الأغيار ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:34] أي: المستقيمين على هذه الطريقة بقدر الاستطاعة.

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا

وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ [الحج: 35 - 38].

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:35] والوجل عند الذكر على حسب تجلي الحق للقلب ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج:35] أي: الجامدين تحت جريان الحكم من غير استكراه، ولا تمني خَرْجةٍ، ولا رَوْمِ فُرْجةٍ، بل يستَسلِمُون طوعاً ، وأيضًا الحافظين مع الله تعالى أسرارهم لا يطلبون الشكور باطلاع الخلق على أحوالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْـمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾ [الحج:35] أي: المديمي النجوى مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:23] قال شاعرهم:

إذا مـا تمنـى الـناس راحـا وراحـة　　　تمنـيت أن أشـكو إلـيك ولا تسمع

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:35] أي: ما رزقوا من الوجود بذلوا ما رزقوا بالجود، وأنفقوا على طلاب المقصود.

ثم أخبر عن نظائر الشعائر بقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج:36] يشير إلى: قربان بهيمة النفس عند كعبة القلب، وأنه من أعلام دين الله، وشعار أهل الصدق في الطلب، وأن الخير في قربانها وذبحها بسكين الصدق.

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج:36] أي: تقربوا بذبحها إلى الله تعالى صافية خالصة لا للدنيا وتمتعاتها، ولا للآخرة ونعيمها على قراءة من قرأ صوافي قرأ أبي والحسن والمجاهد صوافي بالياء؛ أي: صافية خالصة لله تعالى، وفيه إشارة أخرى: وفي أن وفد الله وزواره لا يصلون إلى كعبة الوصال إلا بعد ذبح النفس في منى المنى ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج:36] أي: ماتت النفس على طبيعتها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [الحج:36] أي: فانتفعوا بها ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ [الحج:36] أي: الذي يقنع بما أعطيته ﴿وَالْـمُعْتَرَّ﴾ [الحج:36] أي: الذي هو طالب صادق متعطش لا يروى مما نسقيه ويستزيد منك مما قيل:

شربت الحب كأسًا بعد كأسٍ فما نفذ الشراب وما رويت

وبقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج:36] يشير إلى أن ذبح النفس بسكين الصدق وتوفيق الله تعالى، وذلك نعمة منه موجبة للشكر له وبقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا﴾ [الحج:37] يشير إلى أن المقصود من ذبح الذبح ليس مطلق ذبحها بكثرة المجاهدة، فإنه لا يقبل مطلق الذبح ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:37] أي: يقبل خلوص نيتكم في ذبحها تقربًا إليه ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ [الحج:37] أي: كذلك سخرها لذبحكم إياها ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج:37] أي: لتعظموا الله في الطلب على غيره من النفس وهواها والدنيا وشهواتها؛ إذ ذلكم على ذبح النفس.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:37] أي: الذين يعبدون الله كأنهم يرونه واختاروا طلب الله ورضاه على النفس والدنيا وما سواه ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:38] أي: يدافع خباثة النفس وهواها، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج:38] يشير إلى أن مدافعة خباثة النفس عن أهل الإيمان إنما كان لإزالة الخباثة وكفران النعمة؛ لأنه لا يحب المتصفين بها، وأنها تحب المؤمنين المخلصين عنها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: 39 - 41].

ثم أخبر عن نيل الوصال بالقتال بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج:39] إشارة إلى أن قتال الكفار بغير إذن الله لا يجوز، ولهذا لما ذكر موسى عليه السلام القبطي الكافر، وقتله قال: هذا من عمل الشيطان؛ لأنه ما كان مأذونًا من الله تعالى في ذلك، وبهذا المعنى يشير إلى أن الصلاح في قتل كافر النفس وجهادها أن يكون بإذن الله تعالى على وفق الشرع، وأوانه وهو بعد البلوغ، فإن قبل البلوغ يحمل المجاهدة باستكمال الشخص الإنساني الذي هو حامل أعباء الشريعة، ولهذا لم يكن مكلفًا قبل البلوغ، وينبغي

أن يكون المجاهدة محفوظة عن طرفي التفريط والإفراط، بل يكون على حسب ظلم النفس على القلب باستيلائها عليه فيما يضره من اشتغالها بمخالفة الشريعة وموافقة الطبيعة في استيفاء حظوظها وشهواتها من ملاذ الدنيا، فإن منها يتولد دين مرآة القلب وقسوته واسوداده، وإن ارتضت النفس، وتزكّت عن زعيم صفاتها، وانقادت للشريعة، وتركت طبيعتها، واطمأنت إلى ذكر الله واستعدت لقبول جذبة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:28] نصان من فرط المجاهدة، ولكن لا يؤمن من مكر الله المودع في مكر النفس بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:39] يشير إلى أن الإنسان لا يقدر على قهر النفس وتزكيتها بالجهاد المعدل إلا بنصر الله.

ثم أخبر عن معنى الظلم ووصف المظلوم الذي مأذون بالجهاد فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج:40] يشير به إلى القلوب التي أخرجها النفوس بالاستيلاء عن مقاماتها بتبديل أخلاقها، وهي اطمئنانها بذكر الله تعالى، فباستتباعها جعلها متصفة بصفاتها، وهي ما أخبر عنها بقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس:7] فللقلوب المظلومة أن يجاهدوا النفس الظالمة المتمردة ﴿إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [الحج:40] أي: ترجع النفوس عن الظلم الذي من شيم النفوس، واستسلمت لأحكام الله تعالى.

وبقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج:40] يشير به تعالى: لو لم ينصر القلوب على النفوس، ويدافع عن القلوب باستيلاء النفوس ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ [الحج:40] أركان الشريعة ﴿وَبِيَعٌ﴾ [الحج:40] آداب الطريقة، وصلوات مقامات الحقيقة، ومساجد القلوب المنورة بنور الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ﴾ [الحج:40] القلوب على النفوس، فإنها من ينصره بقبول الفيض منه، واتفاقه على ما عداه من الأعضاء الرئيسية والحسيسة ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ [الحج:40] في النصرة والانتصار ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40] في الانتصار منه.

ثم وصفت القلوب المنصورة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الحج: 41] أرض البشرية ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [الحج:41] استداموا المواصلات ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [الحج:41] زكاة الأحوال وهي: أن يكون من يأتي النفس من أنفاسهم مائة وتسعة

وتسعون ونصف جزاؤهم، والباقي إيثار على خلق الله في الله مهما كان زكاة الأغنياء من مائتي درهم خمسة للفقراء والباقي لهم ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الحج:41] حفظ الحواس عن مخالفة أحوال أمره، ومراعاة الأنفاس معه إجلالاً لقدره ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: 41] ومن وجوه المنكرات الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41] أمور المعاملات كلها منهم راجعة إلى الله تعالى في طلبه والوصول به.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)﴾ [الحج: 42 - 46].

ثم أخبر عن تسلية النبي ﷺ وتربيته بقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ [الحج:42] يشير إلى: أمر حتَّم الصبر من النبي ﷺ على مقاساة ما يلقاه من قومه من فنون البلاء وصنوف الأسواء.

وبقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:45] يشير إلى: خراب قلوب أهل الظلم، فإن الظلم يوجب خراب أوطان الظالم، فيخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه، فالوحشة هي غالبة على الظلمة من ضيق صدورهم، وسوء أخلاقهم، وفرط غيظهم على من يظلمون عليهم، كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم وهي في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم، ويقال: خراب منازل الظلمة ربما يستأخر وربما يتعجل، وخراب نفوسهم في تعطلها عن العبادات بشؤم ظلمها كما قال تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الحج:45] وخراب قلوبهم باستيلاء الغفلة عليهم خصوصًا في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم فهو غير مستأخر.

وبقوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج:45] يشير إلى: العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم وكانوا يستقون لإحياء أوقاتهم من غلبات الإرادة وتوجيه المواجيد، فإذا انفقوا بظلمهم غلب غشاؤها بقطع وانقطع ماؤها؛ لانسداد عيونها، ويشير بقوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:45] إلى: تعطيل أسرارهم عن مساكنها من الهيبة والإنس، وخلوا

أرواحهم عن نوازل المحابة وسلطان الاشتياق وصنوف المواجيد.

وبقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج:46] يشير إلى: السير في أرض البشرية، والعبور عنها، والوصول إلى مقامات القلب ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج:46] فيه إشارة إلى أن العقل الحقيقي إنما يكون من نتائج القلب بعد تصفية حواسه عن العمى والصمم، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46] فإن صح وصف القلوب بالسمع والبصر صح وصفه بسائر صفات الحق من وجوه الإدراكات، فكما تبصر القلوب بنور اليقين تدرك نسيم الإقبال بمشام السر، وفي الخبر: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»[1]، وقال الله تعالى مخبرًا عن يعقوب ﷺ أنه قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:94] وما كان ذلك إلا لإدراك السرائر دون اشتمام الريح في الظاهر.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج: 47 - 51].

وبقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج:47] يشير إلى: عدم تصديقهم كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:18] ولو آمنوا لصدقوا، ولو صدقوا لسكنوا عن الاستعجال، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: 47] إشارة إلى أن الخلف في وعيد الكافرين لا يجوز، كما أن الخلف بالوعد للمؤمنين لا يجوز. ويجوز الخلف في وعيد المؤمنين؛ لأنه سبقت رحمة الله غضبه في حق المؤمنين وعدهم بالمغفرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:53] ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:47] يشير إلى أن الأيام عنده تتساوى؛ إذ الاستعجال في الأمور، فسواء عنده يوم واحد وألف سنة، ومن لا يجري عليه

---

(1) تقدم تخريجه.

الزمان وهو يجري الزمان؛ فسواءٌ عليه وجود الزمان وقلة الزمان وكثرة الزمان إذ ليس عنده صباح ولا مساء، وبقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: 48] يشير إلى أن الإمهال يكون من الله والإهمال لا يكون، فإنه يمهل ولا يهمل، ويدع الظالم في ظلمه حينًا، ويوسع له الحبل ويطيل له المهل، فيتوهم أنه يفلت من قبضة التقدير وذلك ظنه الذي أراد ويأخذه من حيث لا يرتقب فيعلوه ندامة؛ ولات حينه وكيف يستبقى بالحيلة ما في التقدير عدمه وإلى الله مرجعه؟ كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحج: 48] نذير مبين ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: 48].

ثم أخبر أهل الوفاق وأهل النفاق بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: 49] يشير إلى إنذار أهل النسيان؛ أي: قل لهم يا محمد إني أشابهكم من حيث الصورة لكني أباينكم من حيث السيرة، فأنا لمحسنكم بشير، ولمسيئكم نذير، فقد أثبت بإقامة البراهين على ما جئتكم به من وجوه الأمر بالطاعة والإحسان والنهي عن الفجور والعصيان.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: 50] فالناس في المغفرة أقسام:

* فمنهم: من يستر زلته.

* ومنهم: من يستر عليه الأعمال الصالحة صيانة لهم عن الملاحظة.

* ومنهم: من يستر عليه حاله لئلا يصيبه من الشهوة فتنة، وفي معناه قالوا: لا تنكرن جحدي هواك، فإنما ذلك الجحود عليك سترٌ مسبلٌ.

* ومنهم: من يستره بين أوليائه في قباب الغيرة كما قال: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»[1].

* ومنهم: من يستر أنانيته بهويته والرزق الكريم ما يكون غير مشوب بالحدوث، بل يكون من الكريم القديم.

وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ [الحج: 51] يشير إلى أن من عاند

(1) تقدم تخريجه.

أهل آياته من خواص أوليائه ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج:51] جحيم الحقد والعداوة، ورد الولاية، والسقوط عن نظر الله في الدنيا، وجحيم نار جهنم في الآخرة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝﴾ [الحج: 52 - 55].

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[1] [الحج:52] يشير إلى أن الرسل والأنبياء تربيتهم وترقيتهم في الابتلاء والامتحان، وذلك لأنه إذا بقي في أحدهم أدنى ملاحظة يحرص بها على إيمان القوم فوق ما أمر به ابتلاه الله تعالى ببلاء مجال الشيطان في الإلقاء في أمنيته بقول أو عمل شيطاني؛ ليحترق بنار إلقاء الشيطان بقية من الملاحظة بالحرص الإنساني، فلا يؤثر تأييد سلطنة الشيطان في أحوالهم، فعلى هذا قال الله تعالى تنبيهًا للنبي ﷺ عن حال حرصه تربيته له وتأديبًا: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:103]، ولهذا السر لما كان مأمورًا بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:112].

---

(1) قال البقلي: وهذا الملعون لم يخل أحد من شره حتى نبينا ﷺ فربما يعترضه ويؤذيه، وذلك أنه ﷺ كنز الله في الأرض، والملعون السارق يحوم حول ذلك الكنز؛ ليسرق منه شيئًا، ألا ترى كيف حكى الله سبحانه وتعالى مما ألقاه في صلاته، قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. قال الحسين بن علي - رضي الله عنهما-: «نُبئت أن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ، وقال: إن عفريتًا من الجن يكيدك، فإذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي». وقال أبو إمامة، قال رسول الله ﷺ: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكًا يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذبون عن قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف». وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفه الشياطين، وهذا من كمال فضل الله حرس عبده بمعقباته من الملائكة المقربين من العوارض والحوادث كلما يلقي الشيطان إليه ألقى يريه الملك شيئًا من أحكام الآخرة، ويحدث معه بشيء من الخيرات ما يدفع به شر عدوه، وربما يقذف الحق نورًا من غيبه على قلبه يرى به مكائد العدو، فيحترز من شره. تقسيم الخواطر (ص68) بتحقيقنا.

﴿فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج:52] يبطل تصرفاته بحيث لا يضره شيء، بل يكون سببًا لتنقية النفس وتزكيتها من بقاء صفاتها ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج:52] المقيدة في السير إلى الله تعالى ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ [الحج:52] بمصالح عباده المخلصين ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحج:52] فيما يجري عليم بالأعمال والأحوال، ومن حكمته فيما يلقي الشيطان ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج:53] من الشك والإنكار؛ ليصدهم عن سبيل الله ويقطع الطريق.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:53] فإن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرًا مده بنور التحقيق، وأيده بحسن العصمة من تصرفات الشيطان، وإذا أراد بعبد شرًا وكلَّه إلى نفسه بالخذلان حتى يرى الباطل حقا، فيُظلم على نفسه بإثبات الباطل ونفي الحق، فأبعد بهذا الامتحان عن حضرته هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج:53] وإن الله ليبتلي المؤمن المخلص بفتنة وبلاء حسن، ويرزقه حسن بصيرة يميز بها بين الحق والباطل، فلا يظلمه غمام الذنب، ويتجلى عنه غطاء الغفلة، فلا يؤثر فيه دخان الفتنة والبلاء، كما لا تأخير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند منزع النهار.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:54] فيه إشارة إلى أن الهداية للإيمان إلى صراط مستقيم من الله تعالى ومن تأييده، لا من الإنسان وطبعه، وإن من وكل فيه لنفسه، وخذله بطبعه لا يزول عنه الشك والكفر والضلالة إلى الأبد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:55] واليوم العقيم: هو الأبد، فإنه لا ليل له المعنى، أو يأتيهم عذاب قطيعة لا وصلة بعده.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج: 56 - 59].

ثم أخبر عن حكم الفريقين وحالهم في الطريقين بقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾

[الحج:56] يشير إلى أن الحكم يومئذٍ لله لا لغيره، وأنه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج:56] وإلا لم يتخصص ملكه تعالى بيوم دون يوم، ولم يتحدد له وقت إذا أمر، ولأجله أنه قدر ولكن الدعاوى في ذلك اليوم بالملكية والمالكية يتقطع والظنون ترتفع، ولا يكون حاكم ولا مالك إلا هو فيحكم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الحج:56] نعيم جوار الحق سبحانه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الحج: 57] إهانة عذاب البعد والطرد والقطيعة ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [الحج:58] عن أوطان الطبيعة ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الحج:58] في طلب الحقيقة ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ [الحج:58] مكنوا بسيف الصدق نفوسهم ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ [الحج:58] عن الأوصاف البشرية ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج:58] رزق القلوب حلاوة العرفان، فإن رزق الأسرار ومشاهدة الجمال، ورزق الأرواح مكاشفة الجلال ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج:58] لأنه يرزق من أوصاف ربوبيته، كما أخبر النبي ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»(1) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ إدخالاً فوق ما يتمنونه، ومدخلاً فوق الذي يهوونه. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ﴾ كل قاصد ﴿حَلِيمٌ﴾ [الحج:59] لانبساط كل صادق.

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: 60 - 64].

ويقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ [الحج:60] أي: غلبت النفس على القلب باستيلائها وغلبات صفاتها، ويرجع القلب منظرًا إلى الله تعالى في قهر النفس وصفاتها ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ﴾ [الحج:60] يعفو عن زلات بعض الطالبين؛ ليصف حالهم ﴿غَفُورٌ﴾ [الحج:60] ستر على عيوب بعض الصادقين؛ لبقايا صفات نفوسهم.

(1) تقدم تخريجه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ﴾ [الحج:61] أي: هذا بأن الله ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [الحج:61] أي: ليل الستر على نهار التجلي. ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج:61] أي: نهار التجلي في ليل الستر لبعضهم يولج ليل القبض في نهار البسط، ولبعضهم يولج نهار الأنس في ليل الهيبة، ومنهم من يدوم نهاره ولا يدخلها عليهم ليلة وذلك لأهل الأنس ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ [الحج:61] يسمع تضرع المشتاقين ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج:61] يرى حرقة الواصلين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج:62] يحقق أماني الصادقين، ويبطل دعاوى الكاذبين ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ [الحج:62] من دون الله؛ أي: يطلبون ما سواه ﴿هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ [الحج:62] أي: أعلى من أن وجده الطالبون﴿الْكَبِيرُ﴾ [الحج:62] العظيم الذي لا يدرك الواصلون نهايته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الحج:63] من سماء القلب ماء الحكمة ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:63] أي: أرض البشرية بخضرة الشريعة، وأرض القلوب بخضرة الأسرار، وأرض الأرواح بخضرة الكشوف، وأرض الأسرار بخضرة الأنوار.

﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الحج:63-64] أي: ما في سماوات القلب مواهبه وما في الأرض؛ أي: أرض البشرية مراحمه ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ [الحج: 64] لا ينقص غناه من مواهبه ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الحج:64] في ذاته مستغن عن حمد الحامدين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج: 65 - 69].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ [الحج:65] أيها الطالبون الصادقون ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض البشرية من الصفات الحيوانية والشيطانية ﴿وَالْفُلْكَ﴾ أي: فلك الواردات الغيبية ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ بحر القلب ﴿بِأَمْرِهِ﴾ يعني: لو لم يكن أمره ما ورد وارد في القلب ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ سماء القلب ﴿أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الحج:65] أرض النفس؛ يعني: أن يتصف بصفاتها ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:65] أي: إلا بما أباحه الشرع مما

مسّت إليه الحاجة الإنسانية مثل المأكول والمنكوح ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:65] فيما أباح لهم من الأوصاف الحيوانية للحاجة الضرورية ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ [الحج:66] بازدواج الروح إلى القالب ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الحج:66] عن صفات البشرية ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج:66] بنور الصفات الربانية. ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: 66] بكفران هذه النعمة بألّا يعرف قدرها، ولا يؤدي حقوق شكرها.

ثم أخبر عن هم الأمم في مسالك المناسك بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:67] يشير إلى أن لكل فريق من الطلاب شرعةً هم واردوها ولكل قوم طريقة هم سالكوها، ومقاماهم سكانه، ومحلاهم قطانه، وربط كل جماعة بها أهلهم، وأوصل كل ذوي رتبة إلى ما جعله محلهم، فبساط التعبد موطوء بأقدام العابدين ومشاهد الاجتهاد معمورة بأصحاب الكفل من المجتهدين، ومجالس أصحاب المعارف مأنوسة بلوازم العارفين، ومنازل المحبين مأهولة بحضور الواجدين.

﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ [الحج:67] أي: إشهد تعارف الأقدار، واعمل بمواجب التكليف، وانته دون ما أذنت له من المناهي ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الحج:67] الجميع من المقبولين والمردودين ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:67] في دعوتهم ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ [الحج:68] بالتأبي والإنكار والاعتراض ﴿فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج:68] معي فيجازيكم وكلهم إلينا صندما راعوا من الجلال ﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج:69] أمّا الأجانب فيقال لهم: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:14] وأمّا الأولياء فقوم منهم يحاسبهم حسابًا يسيرًا، وصنف منهم يؤتون أجورهم بغير حساب، وأمّا الأجانب فيقعدون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ

ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحج: 70 - 76].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ﴾ [الحج:70] أي: ما في سماء القلب من اليقين والصدق والإخلاص والمحبة ﴿وَالأَرْضِ﴾ [الحج:70] أرض البشرية، والنفس الأمَّارة من الشك والكذب والشرك وحرص الدنيا؛ فيزيل عن أرباب القلوب البلوى، ويكمل لهم النعماء، وينزل بأرباب النفوس البلوى، ولا يسمع منهم الشكوى ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج:70] مكتوب بقلم التقدير في القدم ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:70] أي: مجازاتهم على وفق التقدير سهل على الله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [الحج:71] يشير إلى أن من كان من جملة خواصه أفرده ببرهان، وأيده ببيان، وأعزه بسلطان، ولأهل الخذلان لا بسلطان فيما عبدوه من أصناف الأوثان، ولا برهان على ما طلبوه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج:71] أي: نصرة من الله تعالى بل خذلان ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [الحج:72] من المعارف والحقائق ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ [الحج:72] أي: في وجوه المنكرين آثار إنكارهم، فإن وحشة ما يخامر في السرائر يلوح على الأسرة في الظاهر ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ﴾ [الحج:72] أي: بشر مما في قلوبكم من الإنكار ﴿النَّارُ﴾ [الحج:72] وهي نار القطيعة والطرد والإبعاد ﴿وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج:72] أي: أنكروا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:72] أي: المرجع والمآب.

ثم أخبر عن مثل الذباب لأولي الألباب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا﴾ [الحج:73] يشير إلى أن أهل النسيان في غفلة عن حقيقة الأمر بالعيان، فلا بدَّ من ضرب مثل؛ لعلهم ينتهون عن نومة الغفلة، فالخطاب للناس عهد الميثاق عام، وللمستمعين المستعدين؛ لإدراك فهم الخطاب ويتعظوا به.

ثم بيَّن المعنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ [الحج:73] آلهة، ويعبدون من أنواع الأصنام الظاهرة والباطنة ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ [الحج:73] بل لا يطلعوا على كيفية خلق الذباب ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج:73] أي: لذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ﴾

[الحج:73] من الخواطر النفسانية والشيطانية ﴿شَيْئًا﴾ [الحج:73] من صفات الوقت وجمعية القلب ﴿لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ﴾ [الحج:73] ليس في وسعهم استنقاذه واستخلاصه منه من ذباب هواجس النفس ووساوس الشيطان ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ [الحج:73] وهو القلب إذ لم يكن مؤيدًا بنور الإيمان ﴿وَالْـمَطْلُوبُ﴾ [الحج:73] وهو النفس والشيطان، ومن كان بهذه الصفة لساء المثل مثلهم، فإنهم ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج:74] أي: ما عرفوه حق معرفته؛ إذ عبدوا غيره ولم يتخلقوا بأخلاقه إذ هم مستعدون لذلك، مختصون لهذه الكرامة من الهدية كلها؛ ليكونوا خير البرية فصاروا شر البرية.

﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ [الحج:74] على أن ينعم عليهم بنعمة هذه الكرامة لو رجعوا إليه وتركوا غيره ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحج:74] يعز من يشاء بنيل هذه الكرامة فيصطفي؛ أي: هو ﴿اللهُ﴾ [الحج:75] الذي ﴿يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ [الحج:75] بينه وبين العباد، لتربيتهم لأداء الرسالة إذ لم يكونوا بعد مستأهلين لسماع الخطاب بلا واسطة فيربيهم بواسطة رسالة الملائكة ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:75] يعني: برسالة الأنبياء ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ [الحج:75] يسمع ضراعتهم في احتياج الوجود وهم في العدم ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75] بمن يستحق وهو معدوم.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [الحج:76] من قبول الدعوة وردها وما خلف الأنبياء يوم يسألهم ما أراد أجبتم ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الحج:76] من ابتداء إنشائها وانتهاء انقضائها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج: 77 - 78].

ثم أخبر عن نجاح أهل الفلاح بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج:77] يشير إلى: الرجوع من تكبير قيام الإنسانية إلى تواضع خضوع الحيوانية، فإنها على أربع في الركوع، والرجوع من الركوع إلى الانكسار، والذلة النباتية في

السجود، فإن النبات ذليل في السجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:6] لأن الروح كان مجيئه بهذه المنازل من عالم الأرواح عبر على كلّ المنزل النباتي، ثم على المنزل الحيواني إلى أن بلغ المنزل الإنساني، فعند رجوعه إلى الحضرة يكون عبوره على كل هذه المنازل، وهذا سر قوله ﷺ «الصلاة معراج المؤمن»[1].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني: بهذا الرجوع إليه؛ يعني: خالصًا لوجهه تعالى. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ بالتوجه إلى الله تعالى في جميع أحوالكم وأعمال الخير كلها. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:77] بالعبور على هذه المنازل من حجب الظلمات النفسانية والأنوار الروحانية ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:78] بأن تجاهدوا النفوس في تزكيتها بأداء الحقوق وترك الحظوظ، وتجاهدوا القلوب في تصفيتها بقطع تعلقات الكونين، ولزوم المراقبات عن الملاحظات، وتجاهدوا بالأرواح في تحليتها بإفناء الوجود في وجوده؛ لتبقى بوجود وجوده.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج:78] لهذه الكرامات من بين سائر البريات، ولولا أنه اجتباكم واستعداد هذا الجهاد أعطاكم وأيد هداكم لمَّا جاهدكم في الله، كما قيل: فلولاكم ما عرفنا الهوى، ولولا الهوى ما عرفناكم، ومن مبادئ حق الجهاد: ألَّا يفتر عن المجاهدة لحظة، كما قال قائلهم: يا رب إن جهادي غير منقطع، وكل أرضك لي ثغر وطرسوس ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:78] أي: ضيّق في السير إلى الله تعالى والوصول إليه؛ لأنك تسير إلى الله تعالى بتيسيره لا بسيرك، وتصل إليه بتقربه إليك لا بتقربك إليه، وإن كنت ترى أن تقربك إليه منك، ولا ترى بأن تقربك إليه من نتائج تقربه إليك لا بتقربك إليه، كما قال الله تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[2]، فالذراع إشارة إلى الشبرين، شبر سابق على تقربك إليه، وشبر لاحق بتقربك إليه حتى لو مشيت إليه، فإنه يسارعك من قبل مهرولاً.

وبقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:78] يشير إلى أن السير والذهاب إلى

---

(1) ذكره حقي (12/ 267).

(2) تقدم تخريجه.

الله تعالى من سنة إبراهيم ﵇ بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، وإنما سمَّاه بأبيكم؛ لأنه كأب آباءكم في طريقة السير إلى الله، كما قال ﷺ: «أنا لكم كالوالد لولده»[1] ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:78] أي: الله في الأزل لاستسلامكم لقبول هذه الطريقة بأن جعلكم مستعدين ﴿مِن قَبْلُ﴾ [الحج:78] إن خلقكم ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: 78] أي: وبعد أن خلقكم ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحج:78] فيما تعملون؛ لأنه كان أول المخلوقات بالروح مشرفًا عليها.

﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:78] فيما يعملون وهم الأمم الماضية، وفي هذا إشارة إلى أن روح محمد ﷺ كما كان مخلوقًا قبل أرواح الأنبياء، ومشرفًا على أحوالهم كانت أمته مخلوقة قبل أرواح جميع الأمم مشرفين على أحوالهم، ولا إشراف لروح نبي على روح نبينا ﷺ، ولا لأرواح روح الأمم إشراف لأرواح هذه الأمة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج:78] بدوام السير والعروج إلى الله تعالى والتعظيم لأمره ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: 78] بدعوة الخلق إلى الله تعالى، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم إلى الله تعالى بالشفقة على خلقه، وهذا حقيقة الاعتصام بحبل الله للوصول إليه. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ [الحج:78] إذا وصلتم إليه بإفناء الوجود فيه ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحج:78] أي: متولي إفنائكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ [الحج:78] في إفناء وجودكم ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:78] بإبقائكم به.

(1) تقدم تخريجه.

سورة المؤمنين

(المؤمنون)

مكية

وهي مائة وتسع عشر آية عند البصريين

وثمان عشر عند الكوفيين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 1 - 12]

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:1-2] يشير إلى أن الفلاح الحقيقي لا يحصل بمطلق الإيمان بل بالإيمان الحقيقي المقيد بجميع الشرائط التي هي مذكورة في الآية، ومعنى الفلاح الظفر والفوز والبقاء أي: ظفروا بنفوسهم ببذلها في الله، وفازوا بالوصول إلى الله وبقوا به بعد أن فنوا فيه، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1] [المؤمنون:2] بالظاهر والباطن:

أما الظاهر: فخشوع الرأس بانتكاسه، وخشوع العين بانغماضها عن الالتفات،

---

(1) قال الورتجبي: هم المقيمون على شروط آداب الأمر مخافة أن يفوتهم بركة المناجاة. وقال بعضهم: لما طالعوا موارد الحق عليهم، ومطالعة الحق إياهم خشعت له ظواهرهم. وقال بعضهم: خشعت جوارحهم وهممهم عن التدنس بشيء من الأكوان لعلو هممهم لكبائرها وهمته الصغرى أجل من الدهر. قيل: المؤمن من يأمن قلبه من نفسه. وقال يوسف بن الحسين: كلك عورات وعلل، وليس يسترها إلا التقوى، وحفظ الحرمات، والتزام الشرائع كلها.

وخشوع الأذن بالتذلل للاستماع، وخشوع اللسان للقراءة بالحضور، وخشوع اليدين وضع اليمين على الشمال بالتعظيم كالعبيد، وخشوع الظهر انحناؤه في الركوع مستويًا، وخشوع الفرج بنفي الخواطر الشهوانية، وخشوع القدمين بثباتها على الموضع وسكونهما عن الحركة.

وأما الباطن: فخشوع النفس سكونها عن الخواطر والهواجس، وخشوع القلب بملازمة الذكر ودوام الحضور، وخشوع السر بالمراقبة في ترك اللحظات إلى المكونات، وخشوع الروح استغراقه في بحر المحبة وذوبانه عند تجلي صفة الجلال والجمال.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:3] واللغو كل فعل لا لله تعالى وكل قول لا من الله تعالى ورؤية غير الله، وكل ما يشغلك عن الله تعالى.

وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون:4] يشير إلى أن الزكاة إنما وجبت لتزكية النفس عن الصفات الذميمة النجسة من حب الدنيا وغيره، كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة:103]، فإن الفلاح في تزكية النفس لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى:14]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:9- 10]، ولم يكن المراد من الزكاة مجرد إعطاء المال وحبه في القلب باقٍ، وإنما كان لمصلحة إزالة حب الدنيا عن القلب؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فلا تحصل هذه المصلحة إلا بفعل الزكاة، وهو أن يفعل الزكاة وهو أن يفعل كل ما يزكي نفسه وقلبه عن حب الدنيا وجميع الصفات الذميمة إلى أن يتم إزالتها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون:5- 6] يعني يحفظون عن الدنيا التلذذ بالشهوات أي: ألا يكون أزواجهم وإماؤهم عدوًا لهم بأن يشغلهم عن الله وطلبه، فحينئذ يلزمهم الحذر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:14]، وإنما ذكر بلفظ على لاستيلائهم على أزواجهم لاستيلائهن عليهم وكانوا مالكين عليهن لا مملوكين لهن، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:6] إذا كانت المناكحة لابتغاء النسل ورعاية السنة في أدائها.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون:7] لاستيفاء الحظوظ، وإهمال الحقوق

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:7] لأنهم تجاوزوا حد الكرام الكارمين، وتعدوا على الأكابر الصادقين، وخالفوا طريق الواصلين.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ﴾ [المؤمنون:8] أي: الأمانة التي حملها الإنسان وهي الفيض الإلهي بلا واسطة في القبول، وذلك الذي يختص الإنسان بكرامة حمله وعهدهم وهو الذي عاهدهم الله يوم الميثاق على ألا يعبدوا إلا إياه لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:61] راعون ألا يخونوا في الأمانة الظاهرة والباطنة، وألا يعبدوا غير الله، فإن أبغض ما عبد غير الله الهوى؛ لأن بالهوى عبد ما عبد من دون الله.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:9]؛ لئلا يقع خلل في صورتها ومعناها ولا يضيع عنهم الحضور في الصف الأول صورة ومعنى: ﴿أولئك هم الوارثون[1] * الذين يرثون الفردوس﴾ [المؤمنون:10-11] وهو أعلى مراتب القرب قد بقي ميراثًا عن الأموات قلوبهم، فورثه الذين كانوا أحياء القلوب ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إلى الأبد.

ثم أخبر عن الإحسان في خلق الإنسان بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[2] [المؤمنون:12] يُشير إلى أن سلالة سلة من جميع الأرض طينها

---

(1) أي: الأحقاء بأن يُسَمَّوْا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة، حيث فوَّتُوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. البحر المديد (4 / 170).

(2) لما خلق الله سبحانه الكون والكائنات من العرش إلى الثرى، طبق العرش فوق الكرسي، وطبق الكرسي فوق السماوات السبع، وقد أحاط الكرسي بالسماوات، وركب بعضها بعضًا، ثم تجلى من قهر سلطان عظمته، وجلال قدمه بنعت الاستواء على العرش فزلزل العرش، ثم تزلزل الكرسي، ثم تزلزلت السماوات، فعرقت السماوات من ثقل الكرسي، وعرق الكرسي من ثقل العرش، وعرق العرش من ثقل سطوة الاستواء؛ فجرى عرقها، وصار بحورًا؛ فدخلت البحور بين السماوات، وتلاطمت بعضها بعضًا من هيبة عزة القدم، وصولة الجلال التي نفذت أنوارها في جميع ذرات الكون؛ فكثرت تلاطمها حتى ألقت خوالص زبدها وروحها فوقها، فيبست تلك الزبدة التي هي حقائق عرق الوجود الذي صدر من نور الاستواء، وهو حامل بسر التجلي قد خلت البحور تحتها، وصارت كالزبدة اليابسة من كثرة حركة بمخاض الكون. ثم انسطحت وأظهرت حقائقها؛ فمضت عليها أيام الله التي معاهدها مرور أنوار تجلي الصفات والذات عليها؛ فلما رباها الحق بأفانين تجلي صفاته وذاته، قبض منها قبضة
-

وسبخها وسهلها وجبلها باختلاف ألونها وطبائعها المتفاوتة، ولهذا اختلف ألوانها وأخلاقهم لأنه موضوع في طبيعتهم ما هو من خواص الطين الذي يختص بخاصية منها نوع من الحيوان أي: من جنس البهائم والسباع والجوارح والحشرات والمؤذيات الغالبة على كل واحد منها صفة من الصفات الذميمة والحميدة.

أما الذميمة: فكالحرص في الفأرة والنملة، وكالشهوة في الحمار والعصفور، وكالغضب في الفهد والأسد، وكالكبر في النمر، وكالبخل في الكلب، وكالشره في الخنزير، والحقد في الحية وغير ذلك من الصفات الذميمة.

وأما المحمودة: كالشجاعة في الأسد، والسخاوة في الديك، والقناعة في البوم، وكالحلم في الجمل، وكالتواضع في الهرة، وكالوفاء في الكلب، وكالبكور في الغراب، وكالهمة في البازي والسلحفاة وغيرها من الصفات الحميدة، ثم أودعها في طينة الإنسان وهو آدم عليه السلام.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

بقبضة جبروته، وطرحها فوق ملكوته، وتلك القبضة من خالص تلك الزبدة المعجونة لعقاقير أنوار الصفات؛ فمطر عليها وبل بحر الألوهية، وخمرها بأيدي العزة، وصورها بنقوش خاتم الملك، وألقاها في وادي القدرة بين فضاء الآزال والآباد حتى مضى أصباح مشارق شموس الذات، وأقمار الصفات، ثم كشف ستر الغيرة من وجه الروح التي خلقها قبل صورتها بألفي ألف عام، وكانت في حجال الأنس وبحار القدس أصدرها من مكامن غيوب العلوم، وهي أسرار الأولية مصورة بنقش صورتها فأدخلها فيها فصار الروح والصورة كاملة بكمال الذات والصفات. فلما صار آدم موضع ودائع أسرار الذات والصفات والقدم والبقاء وصفه حبيب الله صلوات الله عليهما بقوله: «خلق الله آدم على صورته»، وكان عليه السلام معادن الأرواح القدسية والأشباح الأنسية؛ فإذا أراد سبحانه خلق ذريته حركه بقدرته، وألقى عليه سباتًا من عظمته، وأخرج حواء من ضلعه ثم حركهما بسر سره، وذلك السر شهوتهما التي أورث فيهما تجلي نعوت الجمال والجلال فوصل الشهوة بالشهوة، وانشقت بالنطفة الخالصة التي مصادرها ما ذكرنا من أسرار تجلي الاستواء، وأبقاها في مصدر الفعل، وقلبها في دهور التجلي وأيام التدلي وساعات كشف الملكوت والجبروت والملك والقدرة.

فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون: 13 - 22].

ثم قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:13] أي: قطرة أجزاءها متماثلة ونطفة أبعاضها متشاكلة، ثم بإظهار القدرة تصرف في النطفة فجعلها علقة فقال: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:14] يشير إلى أن لكل خلقة رتبة في النطفة خاصية وطبيعة أخرى، وجعل بعضها لحمًا وعظمًا، وبعضها شعرًا، وبعضها ظفرًا، وبعضها عصبًا، وبعضها جلدًا، وبعضها مخًا، وبعضها أمعاء، ثم خص كل عضو بهيئة مخصوصة، وكل جزء بكيفية معلومة، ثم الصفات التي للإنسان خلقها متفاوتة من السمع والبصر والنطق والفكر والغضب والقدرة والعلم والإرادة والشجاعة والحسد والحرص والجود، والأوصاف الكثيرة التي يتقاصر عنها الحصر والعد، فتدل هذه الأحوال المختلفة صورة ومعنى في الأطوار المختلفة صورة ومعنى.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:14] بنفخ الروح فيه يعني خلقًا غير المخلوقات التي خلقها قبله، وهو أحسنهم تقويمًا وأكملهم استعدادًا وأجلهم كرامة وأعلاهم رتبة وأدناهم قربة وأخصهم فضيلة؛ فلهذا أثنى على نفسه عند خلقه بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:14] يعني: لأنه خلق أحسن المخلوقين فيها جعلهم معدن العرفان وموضوع المحبة ومتعلق العناية، فإنه لما خلق السموات والأرضين والعرش والكرسي مع المخلوقات من الجنة ومتعلق العناية، فإنه من الجنة والنار لم يعقبها بهذا التمدح الذي ذكر بعد نعت خلقه بني آدم تخصيصًا لهم من بين المخلوقات ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:15] يشير إلى أن الإنسان بعد بلوغه إلى الرتبة الإنسانية قابل للموت مثل موت القلب وموت النفس، وقابل لحشرهما وفي موت القلب حياة النفس وحشرها مودعة، وفي موت النفس حياة القلب وحشره مودع،

وحياة النفس بالهوى وظلمته، وحياة القلب بالله ونوره، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122] وهذا معنى حقيقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:16].

وبقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:17] يشير إلى أن أطباق السموات كما هي حجب تحول بين أبصارنا وبين المنازل العالية من العرش الكريم، كذلك أطوار القلب سبعة هي أغشيتها وحُجبها، كالغضب والشهوة والإرادات الشاغلة، والغفلات المتراكمة.

أما المريدون: فإذا أظلم سحاب الفطرة سكن هيجان إرادتهم، فذلك من الطريق التي عليهم.

وأما الزاهدون: فإذا تحركت عروق الرغبة اهتزت قوة زهدهم وضعف دعائم صبرهم، فيترخصون بالجنوح إلى بعض التأويلات فتعود فتراتهم قليلاً قليلاً وتختل رتبة عرفهم وتتهدم دعائم قصدهم، فبداية ذلك من الطريق التي خلق فوقهم.

وأما العارفون: فربما يظلهم في بعض أي: بينهم وقفة في تصاعد سرهم إلى ساحات الحقائق فيصيرون موقوفين وربما يتفضل الحق سبحانه عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذًا أو يرفع عنهم ما عاقهم في الطريق، وفي جميع هذا فالحق سبحانه غير تارك للعبد ولا عن الخلق.

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:17] فلمصالح المقبولين وجبر خللهم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المؤمنون:18] سماء العناية ﴿مَاءً﴾ الرحمة ﴿بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:18] أي: بحسب حال كل واحد منهم ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون:18] أي: في أرض وجودهم، ثم أخرجنا منها ينابيع الحكمة بتأثير نظر العناية ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:18] بالإعراض عنهم، كما أنزلنا من السماء ماء المطر الذي هو سبب حياة الأرضين كذلك من سماء العناية وماء الرحمة فيحيي به القلوب، ويزيل به درن العصاة وآثار ذلتهم، وينبت في أرض قلوبهم فنون أزهار البسط وصنوف الروح.

ويقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:19] يشير إلى أن كما ينشئ الفياض بماء السماء ويثمر الأشجار

ويجري الأنهار، فكذلك بماء سماء العناية ينشئ شجرة العرفان ويؤتي أكلها من الكشف والعيان ما تتقاصر العبارات عن شرحه ولا تطمع الإشارات في حصره.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون:20] وهي شجرة الحق الذي يخرج من طور سيناء الروح بتأثير تجلي أنوار الصفات ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:20] وهو حسن الاستعداد لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة، ومقر هذا الدُّهن هو الخفي الذي فوق الروح وهو سر بين الله وبين الروح لا تطلع عليه الملائكة المقربون ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: 20] أي: وهو إدام لآكلي الكونين بقوة الهمة.

ثم أخبر عن عبرة الخواص والعوام في خلق الأنعام بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون:21] يشير إلى أنه كما يخرج من بطون الأنعام من بين فَرث ودَم لبنًا خالصًا، وفيه عبرة لأولي الأبصار فكذلك من بين فرث الصفات النفسانية وبين دم الصفات الشيطانية لبنًا خالصًا من التوحيد والمحبة؛ ليسقي به أرواح الصديقين كما قال بعضهم:

سقاني شربةً أحيا فؤادي بكأس الحبِّ من بحرِ الودادِ

وفيها عبرة لأولي الأبصار ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون:21] من الأخلاق الكريمة الربانية والمعارف العظيمة الرحمانية والشواهد الحقانية العيانية ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ حين تبيتون عند ربكم ﴿وَعَلَيْهَا﴾ [المؤمنون:22] أي: على النفوس الحيوانية ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ أي: فلك القلوب لروحانية ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في بحر الصفات الربانية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾ [المؤمنون: 23 - 25].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [المؤمنون:23] أي: نوح الروح ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: 23] من القلب والسر والنفس والقالب والجوارح ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون:23] من الهوى والشيطان، فعبادة القلب بقطع التعلقات والمحبة، وعبادة السر بالتفرد بالتوحيد، وعبادة النفس بتبديل الأخلاق، وعبادة القلب بالتجريد،

وعبادة الجوارح بإقامة أركان الشريعة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:23] بهذه العبادات غير الحرمان والخذلان وعذاب النيران.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون:24] يعني: النفس وصفاتها ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ﴾ [المؤمنون:24] أي: مخلوق ﴿مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ويحكم بالسلطنة فيكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ أن نعبده ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ بالرسالة إلينا، ويشير بهذه المقالات إلى بعض البطلة من الطلبة، فإن بعضهم يتكاسلون في الطلب ويقولون لو شاء الله سعينا في الطلب لأيدنا بالصفات الملكية والتوفيق الرباني ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يعني: الذي يدعونا إليه نوح الروح ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ليس هذا من تولدات آباء العناصر.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون:25] يشير به إلى أن أحوال أهل الحقيقة عند أرباب الطبيعة جنون كما قال: أن أحوال أرباب الطبيعة عند أهل الحقيقة جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ يعني إلى وقت هبوب رياح العناية.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون: 26 - 30].

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ [المؤمنون:26] على تسخيرهم وتأديبهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ [المؤمنون:27] أي: ألهمنا إلى نوح الروح ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: 27] أي: فلك الشريعة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: باستصواب نظرنا وأمرنا لا بنظر عقولكم، وأمر هواكم، كما يعمل الفلاسفة والبراهمة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [المؤمنون:27] بجذبات العناية ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [المؤمنون:27] تنور قلوبكم بماء الحكمة ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ [المؤمنون:27] أي: في فلك الشريعة للعبور على بحر الحقيقة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون:27] من الصفات النفسانية والشيطانية؛ لأن السالك يحتاج إليها في سلوك الطريق إلى الله تعالى قوله تعالى ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يشير إلى قدر يسير منها إذا كانت مغلوبة لا تمرد فيها، وفي شرح الاحتياج بها طول ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي الصفات الإنسانية الروحانية

﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ وهي النفس الأمارة بالسوء ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [المؤمنون:27] أي: من الصفات الذميمة ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:27] أي: النفس الأمارة وصفاتها الذميمة، دعهم مغرقون في بحر الرياضة والمجاهدة فلا سبيل لهم إلى الخلاص منها إلا بقدر ما ذكرنا من زوجين اثنين ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ يا نوح الروح في سفينة الشريعة ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ من القلب والسر.

﴿عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:28] أي: من النفس وصفاتها الذميمة بالالتجاء إلى سفينة الشريعة، ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾(1) [المؤمنون:29] وهو مقعد الصدق [المؤمنون:29]، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ بأنك لا تنزل وفدك إلا بأعلى مراتب قربك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [المؤمنون:30] أي: الذي ذكرناه من الحقائق والدقائق ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات إلى الحضرة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أرباب الصورة بالمعاني الظاهرة لئلا يطلع على هذه الحقائق إلا أهلها.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون: 31 - 39].

---

(1) وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلقًا به تعلق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة. ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفَّقه الله تعالى للنزول فيها، والتردُّد إليها غُدوًّا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لمَن تشرَّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لمَن وقع في الذُّلِّ والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم. ومن المنازل العالية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرِّ الشهوة، سالمًا من آفات الشكوك والظنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمَّدية، وسائر الكُمَّل النذر.

ثم أخبر عن فنون القرون بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ [المؤمنون:31- 32] إلى قوله: ﴿بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ [المؤمنون:33] بحقيقة قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون:33] يشير إلى أن أهل الدنيا لما وسع الله عليهم الرزق وتنعموا به واتبعوا الشهوات، واشتغلوا بملاذ الدنيا وتحصيل جاهها ومناصبها أسكرتهم محبة الدنيا بغوا في الأرض وطغوا على الرسل وقالوا لرسلهم: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون:33- 34] ولا يعلمون أن الرسل وأهل الله، وإن يأكلوا مما يأكل أهل الدنيا ولكن لما يأكلون كما يأكلون هؤلاء، فإنهم يأكلون كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:12] لأنهم يأكلون بالإسراف، وأهل الله يأكلون ولا يسرفون كما قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعي وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاء»[1] بل أهل الله يأكلون ولا يسرفون بأفواه القلوب مما يطعمهم ربهم ويسقيهم حيث يبيتون عند ربهم.

ويقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:35-36] يشير إلى كمال قدرته على الهداية والضلالة ألا ترى أنه كيف أصمهم وأعمى أبصارهم، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه حتى ردكم إلى أعظم التيه بالاستبعاد في أمر الحشر والنشر، ومن أعمى قلوبهم لم يروا أن الإعادة أهون من الابتداء، وأن الذي هو قادر ببديع فطرته على إيجاد شيء من العدم وإعدامه من الوجود يكون قادرًا على إعادته ثانيًا قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:37-39] قد مرَّ من تحقيقها في الآيات المتقدمة.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ

---

(1) رواه البخاري (18 / 129) رقم 5393، ومسلم (13 / 481) رقم 34، والنسائي (4/ 178)، والطبراني في الأوسط (7/ 348، رقم 7689).

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (44)﴾ [المؤمنون:40 - 44].

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون:40] حين لا ينفعهم الندم ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين﴾ [المؤمنون:41] فالإشارة في تحقيقها أن الظلم من شيم أهل الشقاوة والبعد وأنهم كالغثاء في عدم المبالاة بهم، كما قال الله تعالى: «هؤلاء في النار ولا أبالي»(1).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾ [المؤمنون:42] إظهارًا للقدرة ولتعلم كل أمة استغنائنا عنهم، وإنهم إن قبلوا دعوة الأنبياء وتابعوا الرسل تعود فوائد استسلامهم وانقيادهم وقيامهم بالطاعات إليهم ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [المؤمنون: 43] في الخير والشر والسعادة والشقاوة ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:44] مترادفين متعلقين لإتمام سعادة بعضهم ولإتمام شقاوة بعضهم بتصديقهم وتكذيبهم ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً﴾ بالخسارة والشقاوة بعضهم بتصديقهم وإن صدقوه فأتبعنا بعضهم بعضًا بالكرامة والسعادة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ يعني: أهل السعادة والشقاوة ﴿أَحَادِيثَ﴾ ليعتبر منهم أهل السعادة فيقتدوا بهم ويتفائل منهم أهل الشقاوة فلا يعتبرون منهم ﴿فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أبعدهم تعالى إذ لم يؤمنوا ولم يعتبروا وفيه إضمار أي قرب الله المؤمنين المعتبرين.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50)﴾ [المؤمنون: 45 - 50].

ثم أخبر عن حال السعداء والأشقياء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [المؤمنون:45] ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [المؤمنون:46] يشير إلى أن إرسال موسى الروح وأخيه هارون القلب ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ النفس ﴿وَمَلَئِهِ﴾ صفاتها بما يستدل بها على

(1) تقدم تخريجه.

وحدانيته وهو العقل والإيمان ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تمردوا على استعمال العقل في قبول الإيمان ولم يعتبروا بهما ولم يستدلوا ﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ أي: طالبين العلو والغلبة والاستيلاء على الروح والقلب، فنظروا إليهما بنظر معلوم بالوهم والخيال وحقروهما.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ﴾ [المؤمنون:47] أي: نستسلم ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ مخلوقين ﴿مِثْلِنَا﴾ في الخلقية ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ أي: في أوان الولادة وحالة الطفولة كانت صفات الروح وصفات القلب مسخرة لفرعون النفس وتربيتها وتربية صفاتها لاستكمال القالب وقواه إلى حد البلوغ وليستعدوا حمل أعباء التكاليف الشرعية ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ ولم يقبلوا دعوتهما إلى الحق ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بعبادة الهوى وطلب الدنيا وشهواتها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ [المؤمنون:49] أي: ألهمنا موسى الروح إلهامات ربانية ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ النفس وصفاتها بها ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق تعالى وطلبه.

وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون:50] يشير إلى عيسى الروح الذي تولد من أمر كن بلا أب من عالم الأسباب، وهو أعظم آيات الله المخلوقة التي تدل على ذات الله معرفة؛ لأنه خليفة الله وروح منه ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ القالب، فإنه مأوى الروح الأمر بالأوامر والنواهي ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: هو منزلهما ودار قرارهما يعني مادام القالب يكون مأوى الروح فالروح تكون مأوى الأمر ومقره بألا يسقط عنه التكاليف ﴿وَمَعِينٍ﴾ وأما المعين فهو عين الحال الجارية في القلب على اللسان.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون: 51 - 62].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:51] يشير إلى أن المأكول إذا كان مما أحل لهم ومما هو محكوم بأنه طيب من لَوث الإسراف

والشهوات بأمر الشرع لا بأمر الطبع يكون من نتائجه الأعمال الصالحات ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:51] بنياتكم وأحوال معاملاتكم ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون:52] أي: في الإنسانية على طبيعة واحدة وأمر أمتكم وعللكم في الظلومية والجهولية علة واحدة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أي: مربيكم ومعالجكم بعلاج الشرائع ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أي خافون وأطيعوا أمري في المعالجات بعلاج الشرائع ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون:53] أي: فتفرقوا في قبول المعالجة والتداوي، فمنهم مستقيم على حق المعالجة مقيم على التداوي على وفق علاج طبيبهم، ومنهم تائه في غيِّه مُصرٌّ على ترك المعالجة وعصيان الطبيب، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(1) أي: كل مربوط بحده موقوف على ما قسم له في البداية من نشأته كل ينتحل طريقة ويدعي بحسن طريقه حقيقة وهو فرحان بها، وعند صحو سماء قلوب أرباب التوحيد لا غبار في الطريق وهم على يقين معارفهم فلا ريب ولا شبهة تتعالج، وأهل البدع والأهواء في عمى جهلهم وغبار جحدهم وظلمة تقليدهم وغمرة شكهم.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ [المؤمنون:54] من الشك وخذلانهم في الغفلة ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تداركهم العناية الأزلية أو إرادتهم القهارية في الهلاك ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون:55-56] المنجيات ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مطرودون عن الحضرة بسياط القهر في صورة اللطف، فرأوه سرابًا ظنوه شرابًا، وفعلاً في شهودهم صوابًا، فتوهموا عذابًا، وحين لقوا عذابًا علموا أنهم لم يفعلوا صوابًا.

ثم أخبر عن المؤمنين المشفقين، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم

---

(1) واعلم أن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللهم إلا أن يقال: أن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممَّن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيما إذا علِّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد تجتمع الإلقاءات، فيلقي الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهَّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:57] يشير إلى إطراق السريرة في حال الوقوف بين يدي الله بشواهد الأدب واستيلاء سلطان الهيبة في الحضور والغيبة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:58] أي: بما تكاشف لهم من شواهد الحق والسر والعلانية ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:59] أي: في التوجه إلى حضرته بصدق الطلب لا يلتفتون إلى ما سواه من الدنيا والأخرة ومن أعظم الشرك ملاحظة الخلق في الرد والقبول والفرح بمدحهم والانكسار بذمهم، وأيضًا قصور النظر في المسار والمضار على الأسباب عند انقطاع النظر عن الله في أنه المسبب.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:106] يعني: إنهم يتوهمون أن حصول الشفاء من شرب الدواء والشبع من الطعام، فإذا كان الشرب مستكنًا يرد اليقين عن توهم شيء من الخذلان إلا من التقدير فحينئذٍ يتقي من الشرك ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ بهذه الأقدام ومنقطعون عن ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون:60] أي: هم المتوجهون إلى الله تعالى المعرضون عمن سواه المسارعون بقدم الصدق والسعي الجميل على حسب ما سبقت لهم من الله الحسنة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ على قدر سبق العناية.

بقوله تعالى: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون:62] يشير إلى أنه تعالى جعل نفس الإنسان مستعدة لحمل ما كلفها بحمله كما كلف الناس أن يقولوا: لا إله إلا الله، وهم قادرون على قولها وأمرهم بقبول دعوة الأنبياء ما بعثهم وما هم بعاجزين عنها وليس هذا من قبيل تكليف ما لا يطاق لأنه أطاقه كثير من الناس ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يعني: أم الكتاب ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بأنهم قادرون على ذلك ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ لما أخذوا بترك ما أمروا وهم قادرون على إتيانه.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن

فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: 63 - 71].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ [المؤمنون:63] أي: في غفلة وعمى ﴿مِّنْ هَذَا﴾ من قبول الدعوة والمتابعة وتدارك الغفلة بالفكر السليم عن عواقب الأمور وعلاج عمى القلوب بترك الدنيا وشهواتها وتزكية النفس عن صفاتها الذميمة، وتصفية القلب عن شوب تعلقه بما سوى الله تعالى ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون:63] في متابعة الهوى وطلب الدنيا والإعراض عن الهوى ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون:63] أي: مداومون عليها.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ [المؤمنون:64] وهم أكابر المجرمين وقدوة الأصاغر المسرفين ﴿بِالْعَذَابِ﴾ أي: بالعذاب الأدنى في الدنيا والعذاب الأكبر في العقبى ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون:64] أي: يتضرعون في طلب النجاة والقبول بعد فساد استعداداتهم للنجاة والقبول، فيقال لهم: ﴿لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون:65] لعدم الاستعداد في قبول النصرة فلا ينفعكم التضرع والجزع في غير وقته، وقد ضيعتم أوانه حين ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:66] لتنتفعوا بها ﴿فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ بالإعراض عن الانتفاع بها والإقبال على متابعة الهوى وطلب الدنيا ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ [المؤمنون:67] على الأنبياء والأولياء والنصحاء بنعيم الدنيا وزينتها ﴿سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾ أي: سامرين في هجراننا والإعراض عنا.

ثم أخبر عن سوء تدبيرهم وفرط تقصيرهم بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:68] يشير إلى أنهم لو تفكروا بالفكر الصائب في أمر النبي ﷺ وإنزال القرآن إليه لعلموا أنه ما جاءهم بدعاً من الرسل بما لم يأت آباءهم الأولين أنبياؤهم، وأن كل نبي أوحي إليه بالإيمان ونصرة دينه وأخذوا على هذا مواثيقهم، وقد ذكر الله بعثه في الكتب المنزلة أم عملوا أنهم ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون:69] الذي بعثه الله في الكتب المنزلة، كما قال تعالى: ﴿جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:89].

﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون:69-70] فمرة قابلوه بالتكذيب، ومرة رموه بالسحر، ومرة وصفوه بالجنون، ومرة قد عابوه بالفقر وقلة اليسار، فأخبر الله عن تشتتهم، ومرة رموه بالسحر، ومرة وصفوه بمثل أحوالهم في الضلالة

وتقسيم إنكارهم في الجهالة فقال: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المؤمنون:71] في تعاطي مراداتهم الخسيسة على حسب دواعيهم الفاسدة ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [المؤمنون:71] أي: سموات أرواحهن وأرض نفوسهم ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ من القلب والسر، فإن الهوى يهوي بمتابعيه إلى الهاوية ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون:71] أي: بما لهم فيه صلاح في الحال وذكر لهم في المثال ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم﴾ أي: عن صلاح حالهم وشرف مآلهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾ [المؤمنون: 72 - 77].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ [المؤمنون:72] أي: يحسبون أنك تسألهم على الرسالة أجرًا وقبولاً ووجاهة عندهم فكان ما يفهم عن الإيمان بلا ويقول دعوتك لهم وما يعملون إذن ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي ما يجازيك الله به في الدنيا وما فيها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ في المجازاة والمكافأة، وفيه إشارة إلى العلماء الله الراسخين في العلم أنهم لا يدنسون وجوه قلوبهم الزاخرة بدنس الأطماع الفاسدة والصالحة الدنيوية والأخروية، فيما يعملون الله في دعوة الخلق إلى أنه بالله لله.

كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:73] وهو حسن التوجه بصدق الطلب إلى الله تعالى من غير اعوجاج في الطريق بميل الدنيا والآخرة، فكيف يميل إلى شيء مما عندهم فينكب عن الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [المؤمنون:74] أي: بالحشر والنشر أنه لهم من الله مطالبات بحسب ميلان طبعهم إلى ما سوى الله ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ فيقعون عن صراط الفرية في جهنم الفرقة، ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون:75] به يشير إلى حقيقة علمه بحالهم وبما شهد علمه بيان وجودهم، وجاء فيهم ما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الزخرف:50] في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المآل.

ثم يستدل على ما أخبر من أحوالهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون:76] أي: أذقناهم مقدمات العذاب دون شدائدها تنبيهًا لهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(1) أي: فانتبهوا وما انزجروا، ولو أنهم إذا ما رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهال وأظهروا الاستكانة والافتقار والعجز لله تعالى بالصدق والإخلاص طالبين الله زوالها عنهم، ولكنهم على أصروا على باطلهم ﴿لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال:42] ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [المؤمنون:77] وهو عن الخذلان وسدل حجب الهجران ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون كمن ضل عن الطريق آيسون من رحمة الله تعالى لكن ختم على قلبه لئلا يدخل فيه رجاء النعمة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: 78 - 87].

ثم أخبر عن إنعامه العظيم وإفضاله العميم بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ

---

(1) أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظائم غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد. وافهم أن الله سبحانه وقع المريدين في موت الفوت؛ فجاهدوا أنفسهم بأنواع العبادات والرياضات، ولو استعاذوا به، واستعانوا لسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فأين هم من التضرع والبكاء، وتعفير الوجوه بالتراب على فناء وحدانيته وجناب ديموميته؟ وبهذا وصل الواصلون إلى الله. قال سهل: ما أخلصوا لربهم في العبودية، ولا ذلوا له بالوحدانية. [العرائس].

﴿وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:78] يُشير إلى ثلاثة معانٍ:

أحدها: إظهار أنعامه العظيمة بهذه النعمة الجسيمة من السمع والأبصار والأفئدة.

ثانيها: مطالبة العباد بالشكر على هذه النعمة.

وثالثها: الشكاية عن العباد أن الشاكر منهم قليل، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:13]، وشكر هذه النعم في استعمالها في طلحة المنعم وعبودية، فشكر السمع: حفظًا عن استماع المنهيات وأن لا يسمع إلا لله وبالله وعن الله، وشكر البصر: حفظ عن النظر إلى المحرمات وإنه ينظر بنظر العبرة لله وبالله وإلى الله، وشكر القلب: تصفيته عن درن الأخلاق الذميمة وقطع تعلقه عن الكونين ولا يشهد غير لله ولا يحب إلا الله.

وبقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:79] يشير إلى أن الحادثات من الله بدت وإليه تعود وليس لشيء إمكان الرجوع إلى الحضرة إلا الإنسان ودليله قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ [المؤمنون:80]، قلوب عباده بنور من الله وتأييد روح منه ليصلح للرجوع إلى الحضرة وعبث النفوس من صفاتها الذميمة لئلا يزاحم القلب بتكدير صفاته وتدنيسه برين مكاسبها فإنه يمرضه ويمنعه عن الرجوع إلى الحضرة، وأيضًا يحيي بعض النفوس باستيفاء شهواتها واتباع هواها ﴿وَيُمِيتُ﴾ بعض القلوب باستيلاء ظلمات صفات النفوس عليها فإنها سم قاتل للقلوب ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:80] اختلاف ليالي المحبين قصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار لا إلى ونهارهم في قصر ليالي الفراق وطول نهار الوصال، وعلى مثل هذا في معاني الستر والتجلي ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون:81] من غاية الغفلة ونهاية الضلالة.

﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:82] وإنهم لفي غفلة عما يميت القلوب ويحييها، ويميت النفوس ويحييها كما يميت الأرض كل حسنة ثم يحييها، فيقيسوا البعث والنشور على ذلك بل قالوا بجهلهم وعمى قلوبهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:83] فيه إشارة إلى أن

-الناس كلهم أهل التقليد من المتقدمين والمتأخرين إلا من هداه الله نور الإيمان إلى التصديق بالتحقيق فإنه المتأخرين هاهنا يقلدون آباءهم المتقدمين في تكذيب الأنبياء والجحود وإنكار البعث.

ثم استدل بقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون:84- 85] بأن الذي هو قادر على الإبراء والإماتة يكون قادرًا على الإحياء والإعادة فلا تقلدوا جهالة آبائكم ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:86- 87] فيجتنبون التقليد وبهذا استدل على جهلهم وضلالتهم ليكن حجة عليهم.

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المؤمنون: 88 - 92].

ثم أخبر عن استدلال آخر على استقلال عقولهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:88] إلى أن لكل شيء ملكوت وهو روحه في عالم الملكوت الذي هو قائم له يسبح الله تعالى به لقوله ﷺ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:44] وروح ذلك التي بيد الله ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ الأشياء عن الهلاك بالقيومية ﴿وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا مانع ممن أراد هلاكه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أحدًا بهذه الصفة غيره، فأجيبوني به!

﴿سَيَقُولُونَ لله﴾ [المؤمنون:89] اعترافًا بالعجز ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ فقال: أولا فقل أفلا تذكرونهم، قال بعده أفلا تتقون؛ قدم التذكر على التقوى، فإن بتذكرهم يصلون إلى المعرفة، وبعد أن عرفوه علموا الله تعالى عليهم اتقاء مخالفته، ثم قال بعد ذلك: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تخيل لكم الحق باطلاً والباطل حقاً وضوح الحجة، فأي شك بقي حتى تنسبونه إلى السّحر ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْـحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون:90] بين أنهم له على جحودهم وأقاموا على عتوهم فيتوهم بعد أن أُزيحت العلل فَلاتَ حين عذر، وليست [المساهلة موجب بقاء].

وبقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون:91] يشير إلى أن اتخاذ الولد والشريك يوجب المساواة في القدر والصمدية فتقدس عن جواز أن يكون له مثل أو جنس، ولو تصورنا جوازه ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فكل أمر نيط عن اثنين فقد انتفى عن النظام وصحة الترتيب ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تقديسًا وتنزيهًا ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: وصفوه به ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [المؤمنون:92] أي: عالم الملك والملكوت والأرواح والأجساد ﴿فَتَعَالَى﴾ الله وتنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بأن يكون له في العالمين شبيه أو شريك أو ولد.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (98) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)﴾ [المؤمنون: 93 - 100].

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:93] أي: عجلت لهم ما تعدهم ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:94] بأن توصل إلى سوء مثل ما توصل إليهم في العقوبة، وهذا يدل على أن للحق يفعل ما يريد ولو عذب البشرية لم يكن ذلك منه ظلمًا ولا قبيحًا ﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون:95] وهذا يدل على صحة قدرته لا على خلاف ما علم، فإنه أجزى به، وإن تعجيل عقوبتهم وإن لم يفعل ذلك صحة، فصحة القدرة على خلاف المعلوم ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:96] يعني: مكافأة السيئة جائزة لكن العفو عنها أحسن، ويقال: ادفع بالوفاء الجفاء، ويقال: الأحسن ما أشار القلب بالمعافاة والسيئة ما قدموا إليه النفس للمكافأة.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون:98] وهي من سيئاته وتحجب الاستعاذة بالله من الله، كما قال ﷺ: «أعوذ بك منك ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾»[1] ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:99] إذا أخذ

(1) حديث محمد بن يحى بن حبان مرسلاً: أخرجه ابن السني (ص273 رقم 755).

البلاء بحياتهم واستمكن الضر من أحوالهم وعلموا ألا محيص ولا مجير، أخذوا في التضرع والاستكانة في طلب الرجوع ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ يعني: من الخيرات ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:100] عند الضرورة والاضطرار أي: لا يرجع عن أخلاقه الذميمة التي طبع عليها ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:100] وهو ما بين الموت إلى البعث لعل بعض الحجب من أخلاق السوء يندفع عند أيام البرزخ، والله أعلم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: 101 - 106].

ثم أخبر عن ابتغاء الأنساب يوم الحساب بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:101] يشير إلى نفخة العناية الربانية إذا نفخت في صور القلب قامت القيامة وانقطعت الأنساب فلا يلتفت إلى أحد من أنسابه ولا إلى أهل ولا إلى ولد؛ لاشتغاله بطلب الحق واستغراقه في بحر المحبة، فلا يسأل بعضهم بعضًا عما تركوا من أسباب الدنيا ولا إلى ولد لاشتغاله ولا عن أحوال أهاليهم وإخوانهم وأوطانهم إذا فارقوها؛ لأن ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:37] عن مطالبة الغير ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون:102] في طلب الحق سبحانه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الطلب بفوز المطلوب ونيل المقصود.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون:103] عن الطلب وقع عليه طريق الحق بنوع من التعلقات ورجوعه قهقرى ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون:103] بإبطال استعداد الطلب وإفساده، فإن الإنسان كالبيضة مستعدة لقبول تصرف ولاية الدجاجة وخروج الفرُّوج منها، فما لم تتصرف فيه الدجاجة يكون استعداده باقيًا، فإذا

-

حديث محمد بن المنكدر: أخرجه ابن السني (ص270 رقم 747).

حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه ابن السني (ص270 رقم 749)، وأبو داود (4/ 12 رقم 3893).

تصرفت الدجاجة فيه فتغير حاله إلى حال الفروجية، ثم إذا انقطع تصرف الدجاجة تفسد البيضة فلا ينفعها الصرف بعد ذلك لفساد والاستعداد؛ ولهذا قال المشايخ: مرتد الطريقة شر من مرتد الشريعة، وبهذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 103] أي: في جهنم أنفسهم فلا يخرجون حيث ﴿تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [المؤمنون: 104] أي: نار القطيعة.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:104] عابسين عبوس المنقطعين عن مطالبهم المبعدين عن مقاصدهم يقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:105] أي: ألم يكن النصحاء يثبتون لكم بالدلائل الواضحة والنصائح الصادقة كيفية الطريق وسلوكه وكمالية الوصول إلى الحضرة ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون:105] وفي عالم الطبيعة الحيوانية ما يكون قالوا: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي كتبت علينا وقدرتها، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:106] بإضلالك عن طريق الطلب حيث أخطأنا النور المرشرش في عالم الأرواح وإصابة غيرنا.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: 107 - 111]

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون:107] أي: من جهنم أنفسنا ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ أي: ميلان لعالم الطبيعة لمخالفة الشريعة وترك الطريقة ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:107] لأنفسنا، ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:108] لأنكم أفسدتم الاستعداد فإنه ليس من شيئًا أصلاً بعدنا.

ثم بيّن فساده فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ [المؤمنون:109] أي: خواص عبادي وهم العلماء بالله التجأ لله بالله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:109] يعني: الذين كانوا أهل الطلب وأرباب القلوب السائرين إلى الله يدعون الخلق إلى الله بطريق المعاملة مع الله يفصحون بمدحه وثنائه، الهادين للخلق إليه بإظهار آلائه ونعمائه ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون:110] فضربتم أنفسكم على

سيوف هممهم العالية ﴿حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون:110] بهممهم ورد الولاية ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:110] بالاستهزاء لما ماتت قلوبكم فإن كثرة الضحك تميت القلب، فمن لم يمت قلبه لم يضحك على أولياء الله تعالى.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ﴾ [المؤمنون:111] أي: الأولياء ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:111] بالوصول والوصال، وفيه من الطرائف أن أهل السعادة كما ينتفعون بمعاملاتهم الصالحة من الخلة ينتفعون بإنكار منكريهم واستهزاء مستهزئيهم، وأهل الشقاوة كما يخسرون بمعاملاتهم الفاسدة مع أنفسهم يخسرون باستهزائهم وإنكارهم على الناصحين المرشدين.

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨) ﴾ [المؤمنون: 112 - 118].

ثم أخبر عن أحوال أهل الأهوال بقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:112] يشير إلى أن ما ترى الخلق من أهوال القيامة وأفزاعها فينسون ما رأوا من الراحات والشدائد، مرة مقامهم تحت الأرض من أهوال يوم الفزع الأكبر حتى يخفى عليهم كم لبثوا ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون:113] الذين يعدون أنفاسنا وأيامنا ولياليناا من الملائكة الموكلين علينا (الْعَادِّينَ) يعني الملائكة قالوا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [المؤمنون:114] بالنسبة إلى لبثكم في الجنة أو في النار أبد الآبدين ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:114] أنه لا نهاية للبثكم فيها لأصلحتم أعمالكم التي تقربتم بها إلى الله تعالى.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:115] أي: خلقناكم بلا معنى يضركم أو ينفعكم حتى عشتم كما تعيش البهائم فما تقربتم إلينا بالأعمال الصالحة، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:115] باللطف أو القهر، فالرجوع باللطف أن تموتوا بالموت الاختياري من قبل الموت الاضطراري فيرجعوا من أسفل الطبيعة على قدمي الشريعة

والطريقة إلى أعلى عليين عالم الحقيقة والرجوع بالقهر هو أن يرجعوا بعد الموت الاضطراري فتقادون إلى النار بسلاسل تعلقاتكم بشهوات الدنيا وزينتها وأغلال صفاتكم الذميمة.

﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾(1) [المؤمنون:116] بنعوت الجلال، متوحد في إعزازه وعلو أوصافة وعظمة ذاته متفرد، فذاته حق وصفاته حق وقوله صدق ولا يتوجب لمخلوق عليه حق وما يفعل من أشياء بعباده فليس شيء منها بمستحق ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ما يحمد بالعرش ولكن يعزز العرش إلى أنه أضافه إلى رحمانيته إضافة خصوصية وإنما وصف العرش بالكريم لأنه تقسيم فيض كرم الحق ومنه تنقسم آثار الكرم والرحمة إلى ذرات المخلوقات.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون:117] يشير إلى أن من يعبد الله حق عبادته يتقرب إليه حق تقربه بتقرب الله إليه بشواهد فضله وبراهين معرفته فإذا عبد غير الله تقرب إليه بأنواع التقربات لا بتقرب معبوده إليه بشاهد حق ولا برهان صدق على إلهيته ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ بأن يظهر عليه عند المؤاخذة بالعقاب ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ من عذابه .

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ [المؤمنون:118] الخطاب مع محمد ﷺ يشير إلى أنه مع كمال محبوبيته وغاية خصوصيته ورتبة نبوته رسالته محتاج إلى مغفرته ورحمته فكيف من دونه ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [المؤمنون:117] وبقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:118] يشير إلى أنه يحتمل تغير كل راحم بأن يسخط على مرحومه فيعذبه بعد أن يرحمه وأن الله جل ثناؤه إذا رحم على عبد لم يسخط عليه أبدًا لأن رحمته أزلية لا تحتمل التغيير.

---

(1) قال روزبهان: لا يحتمله إلا الحق حجب الكون بالصفات والنعوت، ثم حجب النعوت بالحقيقة. وقال: الحق عجز الخلق أن يدركوه بإدراكهم، وإنما يدرك بإدراكه. قال ابن عطاء: تعالى أن يغيره الدهور أو يجري عليه قوادح الأمور، نفى الأشكال عن نفسه بتعاليه، ونفى الأضداد والنظراء عن نفسه بتمام ملكه عز وعلا. وقال الأستاذ: الحق بنعوت جلاله متوحد، وفي عز آزاله، وعلو أوصافه متفرد فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجب لمخلوق عليه حق.

سورة النور

وهي مدنية وهي أربع وستون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [النور: 1 - 5].

﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾[2] [النور:1] يُشير إلى أن سور القرآن كلها منزلة سورة سورة كل سورة مشتملة على معان وأحكام أخرى، وهذه السورة أنزلناها وفرضناها أي: جعلناها فرضًا واجبًا قبول ما بينا فيها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ من براءة الصديقة ابنة الصديق حبيب رب العالمين، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:1] تتعظون وتحترزون عن مثل هذا الإفك والبهتان العظيم.

وبقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور:2] يُشير إلى أن النفس إذا زنت وزناها بالتسليم لغير الله تسلمت لتصرفات الشيطان والدنيا فنهاها الله تعالى عنه، وإلى الروح إذا زنى وزناه تصرفه في الدنيا وشهواتها فنهاه الله عنها، ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ

---

(٢) قال الشيخ روزبهان: أنـزل الله القرآن من سماء القدم على سيد أهل الكرم، وجعله سرجًا أسرجها من نوار الذات في مشكاة الآيات لألباء الحقيقة، وأدلاء الطريقة لينوروا بأنوارها طرق المعارف، وسبل الكواشف، وأوجب ما فيها من أحكام العبودية على العباد، وأنـزل في هذه السورة آيات دالة على أسرار القدوسية، وأنوار السبوحية بينات واضحات لأولي النهي من العارفين، وأهل الفطنة من الموقنين ليتعظ بمواعظها المريدون، ويقتبس أنوارها العارفون، ويدرك حقائقها الموحدون. قال سهل: جمعناها وبيناها حلالها وحرامها. وقال بعضهم: لو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله لكان كثيرًا؛ فكيف وقد جمعت من الأحكام والبراهين ما لم يجمعه غيرها؟

جَلْدَةٍ﴾ [النور:2] من الجوع وترك الشهوات والمرادات تزكية لها وتأديبًا ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾ [النور:2] يعني: إذا ادعيتم محبة الله فابغضوا مخالفي أمره، ولا ترحموا أنفسكم ولا أرواحكم على مخالفة الله فإنهم يظلمون على أنفسهم لجهلهم بحالهم، وإن رحمتك عليهم في ترك تزكيتهم وتأديبهم كترك الوالد علاج ولده المريض شفقة عليه ليهلك، فيلزم من هذه الرحمة أمران مذمومان: أحدهما: الإعراض عن الله بالإقبال على شفقة مخالفيه، والثاني: السعي في هلاك قاتل نفسه بألا يأخذ على يده ليهلك نفسه فأدبوهما.

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: يجازيكم بالخير خيرًا وبالشر شرًا ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:2] به يشير إلى شهود أهل الصحبة يذكر النفس، ويؤدب الروح بمشهد شيخ واصل كامل؛ ليحفظ من طرفي الإفراط ويهديه إلى صراطه المستقيم وهو صراط الله ويسلكه فيه.

وبقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:3] يُشير إلى أن الحذر من إخوان السوء والحث على مخالطة أهل الصحبة والإخوان في الله، فإن الطبع من التطبع يسرق وإن للناس أشكالاً؛ فكلُّ نظيرٍ مع شكله، وكلٌّ يُساكِنُ شكله، كما قال بعضهم:

عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وَسَل عَن قَرينِهِ فَكُلُّ قَرينٍ بِالمُقارِنِ مُقتَدِ(1)

أهلُ الفسادِ الفسادُ يجمعهم وإنْ تَباعَدَ مزارُهم، وأهل السدادِ السدادُ يجمعهم وإن تناءت ديارهم ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مخالطة إخوان الشر لئلا يؤثر فيهم فساد حالهم وسوء أخلاقهم.

ثم أخبر عن أرباب الغفلات في رمي المحصنات بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور:4] يُشير إلى غاية كرم الله ورحمته على عباده بأن يستر عليهم ما أراد بعضهم إظهاره على بعض، ولم يظهر صدق أحدهما أو كذبهما، فلذا أوجب عليهم الحدود وقبول شهادتهم أبدًا وسماهم الفاسقين، وليتصف بصفاته الستارية والكريمية والرحيمية

(1) البيت لعدي بن زيد، وهو من بحر «الطويل».

فيما يسترون عيوب إخوانهم المؤمنين ولا يتبعون عوراتهم، وقد شدد النبي ﷺ على من يتبع عورات المسلمين فإنه من يتبع عوراتهم يفضحه الله يوم القيامة على رءوس الأشهاد وقال ﷺ: «من ستر على مسلم عورته ستر الله عليه في الدنيا والآخرة»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:5] إشارة إلى كمال عتابه في حق عباده بأنه يقبل توبتهم من ارتكاب الذنوب العظام، وفيه إشارة إلى أن بمجرد التوبة لا يكون مقبولاً إلا بشرط إزالة حاله وإصلاح أعماله وأحواله ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:5] لمن تاب وأصلح حاله.

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [النور: 6 – 9].

وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:6] ويشير إلى ما ذكر في تحقيق الآية المتقدمة وبقوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [النور:7] يشير إلى غاية التهديد والوعيد لمن ستر الله عليه؛ لئلا يفضحه وهو إن كان من الكاذبين اختار عذاب الآخرة الباقية على عذاب الدنيا الفانية، فأوجبه اللعن وهو الطرد عن الباب وعالية الإبعاد.

وبقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [النور:8] يُشير إلى أن من عواطف إحسانه أنه دفع العذاب عن العبد عاجلاً بطريق الشهادة بالله لمن الكاذبين وفتح عليه باب الرجاء بأن يدفع عنه العذاب آجلا كما دفع عنه عاجلاً، وبقوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: 9] يشير إلى أن تخويف العبد باستحقاق غضب الله إن اختار عذاب الآخرة على عذاب

---

(1) رواه أبو داود (14/ 261)، والترمذي (5/ 482)، والنسائي (4/ 309)، والبيهقي في الكبرى (6/ 201).

الدنيا ليكون العبد بين الخوف والرجاء.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٣﴾ [النور: 10 - 13].

وبقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:10] يشير إلى كمال فضله على عباده بأن أجلَهم بالعقوبة إلى الآخرة لعلهم يتوبون في الدنيا فغفر لهم وستر عليهم عاجلًا، ودفع عنهم الحد باللعان حكمة منه، والحكمة في ذلك أنه كما ستر في الدنيا ولم يفضحهم بإظهار صدقهم وكذبهم أجلهم بالعقوبة لدرك التوبة كذلك جعل سنة اللعان باقية بين المسلمين ليكون حكمة باقية بينهم.

ثم أخبر عن عصبة قصة الإفك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور:11] يشير إلى أنه تعالى لا يجري على عباده إلا ما يكون حقيقة اللطف، وإن كان في صورة القهر تأديبًا وتهذيبًا لهم وموجبًا لرفعة درجاتهم وزيادة في رتبتهم، وأن قصة الإفك وإن كانت في صورة القهر كانت في حق النبي ﷺ وفي حق عائشة وأبويها وجميع الصحابة ﷺ ابتلاءً وامتحانًا لهم وتربية وتهذيبًا، فإن البلاء للولاء وكاللهب للذهب، كما قال ﷺ: «إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»(1)، وقال ﷺ: «يبتلى الرجل على قدر دينه»(2) فإن الله غيور على قلوب خواص عباده المحبوبين فإذا حصلت مساكنة بعضهم إلى بعض يجري الله تعالى ما يرد كل واحد منهم عن صاحبه ويرده إلى حضرته، وأن النبي ﷺ لما قيل له:أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة فساكنها وقال: «يا عائشة حبك في قلبي كالعقدة»(3).

وفي بعض الأخبار أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أحبك وأحب

---

(1) تقدم تخريجه.
(2) أخرجه الطيالسي (ص 29، رقم 215)، والبيهقي في الشعب (7/ 142، رقم 9775).
(3) ذكره حقي في تفسيره (6/ 57).

قربك، فأجرى الله تعالى حديث أهل الإفك حتى ردَّ رسول الله قلبه عنها إلى الله تعالى بالخلال عقدة حبها عن قلبه، وردت عائشة - رضي الله عنها - قلبها عنه إلى الله حيث قالت لما ظهرت براءة ساحتها: بحمد الله لا بحمدك فكشف صبابة تلك المحبة وأزال الشك وأظهر براءة ساحتها حين أدبهم وهذبهم وقربهم وزاد في رفع درجاتهم وقرباتهم ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ من أصحاب الإفك ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ على حسب سعايتهم وفساد ظنهم وهتك حرمة حرمانيتهم ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ في الخوض ابتداء.

﴿مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يؤاخذ بجرمه وهو خسارة الدنيا والآخرة لأنه «من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1] .

وفيه إشارة أخرى وهي أن الطريق إلى الله تعالى طريقان أهل السلامة وطريق أهل الملامة، فطريق أهل السلامة: ينتهي إلى الجنة ودرجاتها؛ لأنهم محبوسون في حبس وجودهم، وطريق أهل الملامة: بطريق أهل السلامة ينتهي إلى الله تعالى؛ لأن الملامة مفتاح باب حبس الوجود وبها يذوب الوجود ذوبان الثلج بالشمس، فعلى قدر ذوبان الوجود يكون الوصول إلى الله تعالى فأكرم الله تعالى عائشة -رضي الله تعالى عنها- يخرجه من ظلمات وجوده المخلوقة إلى نور القدم.

بقوله تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:12] يُشير إلى أن شرط الإيمان شرك الاعتراض على حرم النبي ﷺ وترك بسط اللسان بالسوء إليها وظن الخير في حقها، وأن المؤمنين معاتبون على المبادرة إلى ظن السوء بها، وجعل من أمارات الإيمان أن ينظر إلى هذه القصة بنور الإيمان فيعرفوا بإفك وبهتان وعلموا أنه إفك ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النور:13] وبأن يأتوا بالشهادة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن

(1) رواه ابن ماجه (1/ 75، رقم 207)، والطبراني في الأوسط (4/ 343، رقم 4386).

تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور: 14-21].

بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:14] يشير إلى أن أهل العناية في الأزل المنظورين من الفضل والرحمة لا يتغير في أحوالهم، وإن يجري الله عليهم الجرائم العظام الموجبة للعذاب العظيم في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فيحرقهم بنار الغيرة ويهلكهم للغيرة ويهلكهم للعبرة.

وأما في الآخرة: فيهلكهم بنار القطيعة ويهلكهم بالإبعاد عن الحضرة، ولولا أن الله ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه لعله لم يذكر هذه المبالغة في أمرهم فإن الذي يقول الأجانب والكفار في وصف الحق حرمه فذلك عظيم عند الله، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور:15] من عزة الرسول وحرمة حرمه ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ هتك ستر حرمه ﴿وَهُوَ عِندَ الله عَظِيمٌ﴾[1] [النور:15].

﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور:16] من حيث الإفك هلا ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ [النور:16] ولا يجوز لنا أن نظن بمثل هذا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لحرم النبي

---

(1) قال الشيخ روزبهان: يا ليت لو يعلم المدعي الجاهل أن الكل مع شرائف أحوالهم، وفصاحة لسانهم في التوحيد، واطلاع قلوبهم على مراتب الحقيقة مندرجون تحت هذه الآية التي أخبرت عن غيرته بوصف جلاله وعزة عظمته بأنه ممتنعٌ بذاته عن مقالة كل واصفٍ صفته، وكل عارفٍ بقلبه نعته؛ إذ نعته ووصفه لا يدخلان تحت عبارة أهل الحدثان. قال الإمام الحسين في بعض مناجاته: إلهي أُنزِّهك عما يقول فيك أولياؤك وأعداؤك جميعًا. وقال عبد الله بن المبارك: ما أرى هذه الآية نزلت إلا فيمن اعتاد الدعاوي العظيمة، ويجترئ على ربه في الإخبار عن أحوال الأنبياء والأكابر، ولا يمنعه من ذلك هيبة ربه ولا حياؤه. وقال الترمذي: مَنْ تهاون بما يجري عليه من الدعاوي؛ فقد صغَّر ما عظَّم الله إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

ﷺ ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ عند الله التقاول به ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ [النور:17] فضلًا منه ورحمة إذا اقتصر في مجازاتكم على الموعظة ﴿أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:17] فيه إشارة إلى أن العود إلى مثل هذا يخرجهم عن الإيمان ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [النور: 18] أي: العلامات على خروج الإيمان ببسط اللسان في عائشة رضي الله عنها بعد هذا ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يدعي الإيمان ظاهرًا وهو الظاهر في السر ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضى وقدر لعباده المؤمنين والكافرين.

ثم أخبر عن تهديد المعاندين الغافلين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ [النور:19] يشير إلى غاية كرم الله ورحمته وفضله على عباده بأن هذا الصنيع ذكره من هؤلاء ليس من صنيع أهل الإيمان، فإن صنيع أهل الإيمان ما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»(1) وقال:ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كنفس واحدة إذا اشتكى عضو منها تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر»(2).

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(3) ومن أحب إشاعة الفاحشة ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ليس من الإيمان في شيء وإن لهؤلاء في استحقاق الذمِّ أقبحُ منزلةً، وأشدّ وِزْرًا حيث أحبوا افتضاح المسلمين، ومن أركان الدين مظاهرةُ المسلمين، وإعانةُ أولي الدِّين، وإرادةُ الخير لكافة المؤمنين، والذي يودُّ

---

(1) حديث أبي بردة عن أبي موسى: رواه البخاري (2/ 863، رقم 2314)، ومسلم (4/ 1999، رقم 2585)، والترمذي (4/ 325، رقم 1928) وقال: حسن صحيح، والنسائي (5/ 79، رقم 2560)، وابن حبان (1/ 467، رقم 231)، وابن المبارك (1/ 118، رقم 350)، والطيالسي (ص 68، رقم 503)، والحميدي (2/ 340، رقم 772)، وابن أبي شيبة (6/ 163، رقم 30348)، والبزار (8/ 160، رقم 3182)، وأبو يعلى (13/ 279، رقم 7295)، وعبد بن حميد (ص 196، رقم 556)، والروياني (1/ 301، رقم 445)، والقضاعي (1/ 112، رقم 134).

(2) رواه أحمد (4/ 270، رقم 18404)، ومسلم (4/ 1999، رقم 2586)، والبيهقي (3/ 353، رقم 6223)، والقضاعي (2/ 283، رقم 1367).

(3) رواه ابن المبارك (1/ 236، رقم 677)، والطيالسي (ص 268، رقم 2004)، وأحمد (3/ 272، رقم 13901)، وعبد بن حميد (ص 354، رقم 1174)، والبخاري (1/ 14، رقم 13)، ومسلم (1/ 67، رقم 45)، والترمذي (4/ 667 رقم 2515) وقال: صحيح. والنسائي (8/ 115، رقم 5016)، وابن ماجه (1/ 26، رقم 66)، والدارمي (2/ 397، رقم 2740).

فتنةً للمسلمين فهو شرُّ الخَلْق، ثم مع هذه الأوصاف التي هي في غاية الذمامة واستحقاقهم العذاب ﴿أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فالله يفصل بينهم ويرحمهم ويزكيهم عن أوصافهم الذميمة.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:20-21] بفضله ورحمته رعاية لحق الإيمان وحق الصحبة وحق الهجرة ﴿واللهُ سَمِيعٌ﴾ بما قالوا من حديث الإفك ﴿عَلِيمٌ﴾ بالذي قال مسطح البدري، فإن الله اطلع على بدر وقال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:40]، فإني غفرت لكم أفاغفر لمسطح بعد أن كذبه الله تعالى.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور: 22 - 25].

ثم قال تعالى في حقه مع الصديق الأكبر: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْـمَسَاكِينَ وَالْـمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ [النور:22] يعني: أن لم تعفوا عن مقالته ولم تصفحوا عن صنيعه لا يغفر الله لكم ﴿واللهُ غَفُورٌ﴾ لذنب مسطح ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النور:22] على أهل بدر.

ثم ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ لم يكنوا من أهل بدر ومن أصحاب الإفك ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني: عائشة رضي الله عنها ﴿لُعِنُوا﴾ أي: طردوا عن الحضرة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بنار القطيعة إلى الأبد ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ على ما قالوا ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:24] تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا في حديث الإفك، وفيه إشارة أخرى وهي أنها تشهد على المذنبين بذنوبهم وتشهد للمطيعين بطاعتهم.

فاللسان: يشهد على الإقرار وقراءة القرآن.

واليد: تشهد بأخذ المصحف.

والرجل: تشهد بالمشي إلى المسجد.

والعين: تشهد بالبكاء.

والأذن: تشهد باستماع كلام الله تعالى، ويقال: شهادة الأعضاء في القيامة مؤجلة وشهادتها في الجنة اليوم معجلة من صفرة الوجه إذا بدا المحبوب وشحوب اللون ونحافة الجسم وانسكاب الدموع وخفقان القلب وغير ذلك.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:25] يجازيهم على قدر استحقاقهم للعابدين بالجنان والمثوبة على توفية أعمالهم وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفية أحوالهم، وهؤلاء لهم علوا الدرجات وهؤلاء لهم الأنس بعزيز المشاهدات ودوام المناجاة وتصير المعارف ضرورية، فيجدون المعافاة من النظر وتذكره ويستريح القلب من وصفي تردده وتعززه باستغنائه عن تبصره، ويقال: لا يشهدون غدًا إلا الحق فهم قائمون للحق بالحق يبين لهم أسرار التوحيد وحقائقه ويكون القائم عنهم وإلا خذلهم عنهم من غير الذين يردهم إليهم.

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧﴾ [النور: 26 - 27].

ثم أخبر عن خبيثات المخبثات بقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور:26] يشير إلى خباثة الدنيا وشهواتها أنها للخبيثين من أرباب النفوس المتمردة والخبيثون من أهل الدنيا المطمئنون بها للخبيثات من مستلذات النفس ومشتهيات هواها معناه أنها لا تصلح إلا لهم وأنهم لا يصلحون إلا لها، وأيضًا الخبيثات من الحطام الفانية لذوي الهمم الدنية، وأيضًا الخبيثات من الخبث وهي الحظوظ والمنى لأصحابها والساعين لها والساعون لها غير ممنوعي أحدهما من صاحبه، فالصفة للموصوف ملازمة وأيضًا الخبيثات من النعمات الدنيوية للخبيثين من المتمنين من أهل الدنيا أيضًا الخبيثات

من الأهواء والبدع للخبيثين من المبتدعين من أهل الأهواء وأيضًا الخبيثات من الأخلاق الذميمة والأوصاف الردية للخبيثين الموصوفين بها وأيضًا الخبيثات من الملوثات بلوث الحدوث للخبيثين الملوثين بلوث الحدوث.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:26] الطيبات من الأعمال الصالحات للطيبين ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:26] كقوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:119].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[1].

وقال: «خلقت الجنة وخلقت لها أهل وخلقت النار وخلقت لها أهل»[2] أيضًا الطيبات من الأحوال وهي تحقيق المواجيد بما هي حق والحق مجرداً عن الحظوظات النفسانية للطيبين من الرجال وهم الذين سَمَتْ هِمَّتهم عن كلِّ مُبْتَذَلٍ خسيس، ولهم نفوسٌ تسموا إلى المعالي، وهي التجمُّل بالتذلل لِمَنْ له العِزَّةُ، ويهيء الطيبات من الأخلاق الكريمة للطيبين من أرباب القلوب السليم وأيضًا الطيبات المطهرات من لوث الحدوث بتجلي صفات القدم للطيبين الفانين عن لوث الوجود الباقين بطيب الجود.

كما قال ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»[3] ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ من لَوث الحدوث ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أهل الوجود في إثبات وجودهم بحسب سرهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ يعني: وجودهم المجازي مستور بستر الوجود الحقيقي ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولهم هذا المقام ولهم رزق من كرم الكريم.

وبقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:27] يشير

---

(1) حديث ابن عباس: أخرجه الطبراني (11/ 18، رقم 10899)، قال الهيثمي (7/ 195): رجال الطبراني ثقات. والبزار كما في كشف الأستار (3/ 19، رقم 2139). وحديث علي بن أبي طالب: أخرجه البخاري (4/ 1891 رقم 4666)، ومسلم (4/ 2040، رقم 2647)، وأحمد (1/ 82، رقم 621)، والترمذي (4/ 445، رقم 2136)، والبزار (2/ 198، رقم 582). وحديث أبي بكر الصديق: أخرجه البزار (1/ 83، رقم 28). وحديث سعد بن أبي وقاص: أخرجه القضاعي (1/ 393، رقم 674). وحديث سراقة بن مالك: أخرجه الطبراني (7/ 119، رقم 6562).

(2) ذكره حقي (1/ 92).

(3) أخرجه أحمد (2/ 328، رقم 8330)، ومسلم (2/ 703، رقم 1015)، والترمذي (5/ 220، رقم 2989)، والدارمي (2/ 389، رقم 2717).

إلى ترك الدخول والسكون في البيوت المجازية الفانية من الأجساد غير البيوت الحقيقة التي هي لها دار القرار ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور:27] إليها وتطمئنوا بها بل ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ سلام الوداع للسلم والخلاص منهم ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:27] أي: تتعظون ولا تركنون إلى الدنيا الفانية وشهواتها، وترجعون إلى الوطن الحقيقي الذي حبه من الإيمان.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: 28 – 30].

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ [النور:28] يشير إلى فناء أصحاب البيت وهو وجود الإنسانية ﴿فَلاَ تَدْخُلُوهَا﴾ بتصرف الطبيعة الموجبة للوجود ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [النور: 28] بأمر من الله بالتصرف فيها للاستقامة كما أمر ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ [النور:28] الى ربكم ﴿فَارْجِعُوا﴾ [النور:28]، ولا تتصرفوا فيها تصرف المقيمين بها ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ لئلا تقعوا في فتنة من الفتن الإنسانية وتكونوا مع الله ﴿واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الرجوع إلى الله، وترك تعلق البيوت الجسمانية ﴿عَلِيمٌ﴾ أنه خير لكم.

وبقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [النور:29] يشير إلى جواز تصرف السالك الواصل في بيت الجسد الذي غير مسكون فيه صاحبه وهو الإنسانية لفنائها عن وجودها بإفناء الحق تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور:29] من الآلات والأدوات التي تحتاجون إليها عند السير في عالم الله ولتحصيلها بعث الأرواح أو أسفل سافلين والأجساد: ﴿واللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [النور:29] من تصرفاتكم بالآلات الإنسانية ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور:29] نياتكم أنها الطلب مرضاة الله أو لهوى نفوسكم.

ثم أخبر عن أسرار غض الأبصار قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:30] يُشير إلى غض أبصار الظواهر عن المحرمات، وأبصار النفوس عن شهوات الدنيا ومألوفات الطبع ومستحسنات الهوى، وأبصار القلوب عن رؤية الأعمال ونعيم الآخرة، وأبصار الأسرار عن الدرجات والقربات، وأبصار الأرواح عن

الالتفات بها سوى الله، وأبصار الهمم عن العلل بألا يروا نفوسهم أهلًا للشهود من الحق سبحانه غيرة عليه تعظيمًا وإجلالاً ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:30] فروج الظاهر عن المحرمات وفروج البواطن عن التصرفات في الكونين لعلة دنيوية أو أخروية ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور:30] صيانة عن تلوث الحدوث ورعاية للحقوق عن شوب الحظوظ ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يعملون للحقوق والحظوظ.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)﴾ [النور: 31].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور:31] من النفس والقلب والروح ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ عما مر ذكره ولأن المطالبة على النساء كالمطالبة على الرجال؛ لشمول تكليف الجنسين، فالواجب عليهن ترك المحظورات والندب والنفس لمن صون القلب عن الشواغل والخواطر الدنية، ثم إن ارتقينا بالهمم العالية، وهذه الحالة فالتعامي بقلوبهن عن غير المعبود، فإن للنساء نصيب، ويقال: قرن الله النهي عن النظر في المحارم بذكر حفظ الفرج فقال: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:31] تنبيهًا على عظم خطر النظر فإنه يدعو إلى الإقدام على الفعل وقال ﷺ: «النظر سهم من سهام إبليس»[1] سهمي الذي لا يخطئ النظر وأنشدوا:

وأنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائداً لقلبِك يوماً أتعبَتْكَ المناظرُ

وقالوا: مَنْ أرسل طَرْفَه اقتضى حَتْفَه.

﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[2] [النور:31] يشير إلى كتمان ما زين الله به

(1) رواه الحاكم (4/ 349، رقم 7875)، وقال: صحيح الإسناد. والقضاعي (1/ 195، رقم 292).

(2) فيه استشهاد على أن لا يجوز للعارفين أن يبدوا زينة حقائق معرفتهم، وما يكشف الله لهم من عالم

سرائرهم من صفاء الأحوال وزكاة الأعمال، فإن بالإظهار بتقلب الزينة شينًا إلا ما ظهر منها بتصرف ولرد حق أو يظهر عن واحد منهم نوع كرامة تكلف فذلك مستثنى؛ لأنه غير مؤاخذ عالم يكمن بتصرفه وتكلفه ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:31] جيوب قلوبهن ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور:31] أي: يخفون الأحوال ﴿إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ [النور:31] يُشير به إلى الشيوخ المتصرفين فيهم والأحوال المعاونين لهم والمريدين من المتمسكين بهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ [النور:31] يعني: من تملكوا على نفوسهم بحسن الإرادة.

﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ [النور:31] أي: لأتباعهم الذين ليسوا من أهل الدنيا أرباب المناصب، فيكون للنفس في إظهار الأحوال والأسرار ثم إلى طلب الجاه عندهم والرئاسة على غيرهم.

﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور:31] وهم أطفال الطريقة من أهل الإرادة غير مطلع على أسرار الشيوخ لهدايتهم إلى سبيل الرشاد وتشويقًا لهم إلى كمالات العباد على نية النصيحة والمعاونة على البر والتقوى ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:31]، ولا يعتمدوا إلى قول وفعل وإظهار حال ليعلم ما هو المخفي من أحوالهم على الأغيار.

وبقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:31] يشير إلى أن التوبة كما هو واجبة على المبتدئ عن ذنوب مثله فهي لازمة للمنتهي عن ذنوب مثله، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين وكان رسول الله ﷺ يقول: «توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في

-

الملكوت، وأنوار الذات والصفات، ولا المواجيد إلا ما ظهر منهم بالغلبات من الشهقات والزعقات والاصفرار والاحمرار، وما يجري على ألسنتهم بغير اختيارهم من كلمات الشطح والإشارات المشكلة، وهذه الأحوال أشرف زينة للعارفين. قال بعضهم: أزين ما تزين به العبد الطاعة، فإذا أظهرها فقد ذهبت زينتها. وقال بعضهم: الحكمة في هذه الآية لأهل المعرفة أنه من أظهر شيئًا من أفعاله إلا ما ظهر عليه من غير قصد له فيه، فقد سقط به عن رؤية الحق؛ لأن ما وقع عليه رؤية الخلق ساقط عن رؤية الحق. [العرائس].

كل يوم مائة مرة»(1) فتوبة المبتدئ من المحرمات وتوبة المتوسط من ذوائب المحالات وتوبة المنتهي بإعراض عما سوى الله بكليته والإقبال على الله بكليته ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] ففلاح المبتدئ من النار إلى الجنة والمتوسط من أرض الجنة إلى أعلى عليين مقامات القرب ودرجاتها، والمنتهى من جنس الوجود المجازي إلى الوجود الحقيقي ومن ظلمة الخليقة إلى نور الربوبية.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: 32 - 34].

ثم أخبر عن صلاح النكاح بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:32] يشير إلى المريدين الطالبين وهم محرومون عن خدمة شيخ يتصرف فيهم ليودع في أرحام قلوبهم النطفة من طلب الولاية، فندبهم إلى طلب شيخ من الرجال البالغين الواصلين الذين يصل بهم الولادة الثانية في عالم الغيب بالمعنى، وهو طفل الولادة، كما أن ولادتهم الأولى حصلت في عالم الشهادة بالصورة ليكون ولوجهم في الملكوت كما أن عيسى عليه السلام لمن اتبعك؛ لأن كل متابع مؤمن ولم يكن كل مؤمن متابع لئلا يعتبر المؤمن بدعوى الإيمان بمعزل عن حقيقته التي لا تحصل إلا بالمتابعة(2).

---

(1) رواه ابن عدي (3/ 189، ترجمة 690 أبو الجارود)، والطحاوي (4/ 289)، والحكيم (2/ 133).

(2) تنبيه: من آية «32 سورة النور» مرورًا بسورة «الفرقان» حتى آية «216 سورة الشعراء» لم يتعرض المصنف رحمه الله إلى شرحها.

سورة الشعراء

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: 216 - 223].

ثم قال ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ [الشعراء:216] يعني: عشيرتك ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:216] أي: على خلاف الشريعة شريعة ولا تبرأ منهم، وقل لهم قولاً معروفًا بالنصح لعلهم يرجعون إلى طاعتك وقبول الدعوة منك ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ [الشعراء: 217] في جميع حالاتك ﴿عَلَى الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي يرحم على من توكل عليه بالفطرة والنظرة ولا تتوكل على العشيرة والأتباع ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:218] أي: يرى قصدك ونيتك وعزيمتك عند قيامك بالأمور كلها، وقد اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق، فإن من علم أنه يشهد الحق راعى دقائق حالاته وخفايا أحواله مع الحق.

وبقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:219] هون عليه معاناة مشاق العبادات لإخباره برؤية له، ولا مشقة لمن يعلم أنه لمرأى مولاه ومحبوبه، وإن حمل الجبال الرواسي يهون لمن يحملها على شفرة من جفن عينه على مشاهدة ربه بمرأى منا حين نقلبك في عالم الأرواح في الساجدين بأن خلقنا روح كل ساجد من روحك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [الشعراء:220] في الأزل مقالتك: «أنا سيد ولد آدم»(1) ولا في لأن أرواحهم خلقت من روحك العليم باستحقاقك بهذه الكرامة.

ثم قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: 221- 222] لأنهم من جنسهم وبينهم مناسبة بالكذب والافتراء وقطع الطريق على الطلبة وإضلال الخلق بالوسواس، كما قال تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ

---

(1) حديث عائشة: أخرجه الحاكم (3/ 133، رقم 4625)، وحديث جابر: أخرجه الحاكم (3/ 134، رقم 4627)، وابن أبي شيبة (6/ 317، رقم 31728)؛ ومسلم (4/ 1782، رقم 2278)، وأبو داود (4/ 218، رقم 4673)، وأحمد (2/ 540، رقم 10985).

وَالنَّاسِ﴾ [الناس:5- 6] ولأنهم خلقوا للنار لقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف:179] ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ [الشعراء:223] بعضهم إلى كلام بعض ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:223] من السامعين.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: 224 - 227].

ثم أخبر عن أهل الكذب والافتراء أكثرهم من الشعراء بقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء:224- 225] يشير إلى أن الشعراء بحسب مقاماتهم ومطرح نظرهم ومنشأ قصدهم ونياتهم إذا اسلكوا على أقدام التفكر مفاوز التذكر في طلب المعاني ونظمها وترتيب عروضها وقوافيها، وتدبير تجنيسها وأساليها يتبعهم الشياطين الغاوون ويوقعونهم في الأباطيل والأكاذيب فيهيمون في كل وادٍ من المدح والذم والهجاء والكذب والفحش والشتم واللعن والافتراء والدعاء والتكبر والتفاخر والتجاسر والعجب والإرادة وإظهار الفضل والدناءة والخسة والطمع والتكدي والذلة والمهانة وأصنافه والأخلاق الرذائل والطعن في الأنساب والأغراض وغيرك من الآفات التي من توابع الشعر ليصلوا بها إلى أسفل دركات الجحيم وبأنهم يقولون عند التصلف والدعاوى ما يفعلون.

وبقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1][الشعراء:227] إلى قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾

(1) قال الشيخ البقلي: أي: الذين شاهدوا الله بنعت الإيقان والعرفان، وأصلحوا سرائرهم بتقديسها عما دون الله في قربة الله، وذكروا الله كثيرًا أي: سافروا بقلوبهم وأرواحهم وعقولهم في ميادين الآزال والآباد على مراكب الأسرار والأنوار بغير طريان الغفلة وهجوم الفترة، ويفهم الذكر الكثير فناء الذاكر في المذكور بعد أن ينكشف له لوائح أنوار الأزلية والأبدية؛ فهذا غاية المجهود من الذاكرين، وفيه نكتة عجيبة أن الله سبحانه وصفهم بالذكر الكثير، وما أخبر أنهم ذاكرون بالحقيقة؛ لأن حقائق الذكر لا تقع للحدثان في قدم الرحمن؛ لأن الذكر الحقيقي إحاطة ذكر الذاكر بالمذكور، وهو مستحيل في حق الأزل، لذلك قال الواسطي: من ذكره افترى، وانتصارهم بعد أن ظلموا انتصارهم من نفوسهم الأمّارة حين جهلوا حقوق الله بالمجاهدات الكثيرة والرياضات. قال الجنيد: الذكر الكثير هو دوام المراقبة في جميع
=

[الشعراء:227] يُشير إلى أنه كمال أرباب النفوس في الشر سلوك على أقدام التفكر؛ ليصلوا إلى أسفل دركات الجحيم كذلك لأرباب القلوب في الشعر سلوك على أقدام التفكر بنور الإيمان وقوة العمل الصالح وتأييد الذكر الكثير ليصلوا إلى أعلى درجات القرب، وتؤيدهم الملائكة بدقائق المعاني بل يوفقهم الله لاستخلاف الحقائق ويلهمهم بالألفاظ [الدقائق التي] فيه الإلهام في كل واد من المواعظ الحسنة والحكم البالغة وذم الدنيا وتركها وتزيين الآخرة وطلبها وتشويق العباد من المواعظ وتحبيبهم إلى الله وتحبيب الله إليهم وشرح المعارف، وبيان الوصول والحشر على السير والتحذير عن الآفات القاطعة للسير، وذكر الله وثنائه ومدح النبي ﷺ والصحابة وهجاء الكفار استنفارًا كما قال ﷺ لحسان: «اهجي المشركين[1] قال جبريل معك»: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: 227] بالشعر المنهي عنه ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227] يرجعون.

الأحوال، وطرد الغفلة عن القلب. وقال أبو يزيد: الذكر الكثير ليس بالعدد، ولكنه بالحضور دون العاهة والغفلة. قال النصر آبادي: حقيقة الذاكر أن يغيب الذاكر عن ذكره بمشاهدة المذكور ثم تغيب مشاهدته في مشاهدته حتى شاهد حقًا.

(1) رواه الطيالسي (ص 99، رقم 730)، وأحمد (4/ 298، رقم 18665)، والبخاري (4/ 1512، رقم 3897)، ومسلم (4/ 1933، رقم 2486)، والنسائي في الكبرى (5/ 80، رقم 8295)، والروياني (1/ 259، رقم 386)، والطبراني في الصغير (1/ 90، رقم: 119).

سورة النمل

مكية وقيل، ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: 1 - 6].

﴿طس﴾ [النمل:1] يشير بطائه إلى طيب قلوب محبيه وبالسين إلى سرٍّ بينه وبين قلوب محبيه لا يسعهم فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأيضًا يقسم بطاء طلب قلوب طالبيه وسين سلامة قلوبهم عن طلب ما سواه ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ [النمل:1] أي: بدلالات القرآن وشواهد أنواره ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وكتاب فيه بيان كيفية السلوك وطريق الوصول بجذبة طالبيه كما قال: «ألا من طلبني وجدني»[1] من طلبني بدلالات القرآن وجدني بالعيان، فإن القرآن ﴿هُدًى﴾ [النمل:2] أي: هاديًا إلى الله ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالوصول إلى الله بهدايته ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [النمل:3] يديمون بالمواصلات ويستقيمون في المعارج بحقائق الصلاة لنيل القربات ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النمل:3] ويؤدون عن أموالهم وأحوالهم وسكناتهم وحركاتهم الزكاة بما يقومون في حقوق المسلمين أحسن مقام، وينوبون عن ضعفائهم أحسن مناب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل:4] يشير به إلى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لا يؤمنون لأنا ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الدنيوية وحركاتهم النفسانية الحيوانية في أعين نفوسهم فعميت عيون قلوبهم عن رؤية الآخرة ونعيمها؛ لأن عمى القلوب مودعة في بصارة النفوس وعمى النفوس مودعة في بصيرة القلوب، فصمت أذان قلوبهم حين عميت عيون قلوبهم فلم يسمعوا دعوة الأنبياء بسمع القبول، فلم يؤمنوا وذلك لأن

---

(1) تقدم تخريجه.

لصورة الإنسان آلة للبصر دون آلة السمع فيحتمل أن تختل آلة البصير فلا يرى بها شيئًا، وتكون آلة السمع بحالها فيسمع بها ولكن معنى الإنسان ملكوتي لا يحتاج إلى آلة البصر والسمع؛ لأنه بالصفة التي يبصر أيضًا يسمع وبها يتكلم وبها يعقل وبها يفقه، وإن أثبت الله له آلات السمع والبصر والفقه والعقل كما أثبت للصورة، ولكن أثبت لفهم الكلام.

ثم بالإشارة بين أنها واحدة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179] ثم أشار بقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171] ليعلم أنه لا يكون في عالم المعنى أعمى إلا ويكون أصم وأبكم تفهم إن شاء الله تعالى، وبهذا المعنى أشار إليه ﷺ بقوله: «حبك الشيء يعمي ويصم فبحب الدنيا عميت عين القلب وصمت أذنه»(1).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46] ثم اعلم أن من لم يعالج عمى قلبه بأدوية الشريعة وصفة الطريقة؛ ليرى علم الحقيقة هاهنا لا يقبل على العلاج والتداوي في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: 72] يعني عن رؤية عالم الحقيقة والوصول إليه، فهم يعمهون في الدنيا يتحيرون في عالم الحواس لا يهتدون إلى عالم الملكوت وفي الآخرة يترددون في نار جهنم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: 20] وذلك معنى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [النمل: 5] يعني: عمى القلوب وصممه وبكمه ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: 5] لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ولم يربحوا المولى وذلك لأن قومًا من المختصين بتوفيق يحبهم ويحبونه قد خسروا الدنيا والآخرة بتركها وعدم الالتفات إليها في طلب المولى؛ فربحوا المولى فلهذا لما وجد أبو يزيد في البادية قحف رأس مكتوب عليه خسر الدنيا والآخرة بكى وقبل عليه، وقال: هذا رأس صوفي.

(1) تقدم تخريجه.

فلما أخبر الله تعالى عن مقامات المؤمنين والكافرين وشرح أحوالهم أخبر عن مقام النبي ﷺ وحاله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:6] يعني: لا من لدن جبريل به يشير إلى أنك جاوزت حد كمال كل رسول فإنهم كانوا يتلقون الكتب بأيديهم من يد جبريل والرسالات من لفظه وحيًا، وإنك وإن كنت تلقي القرآن بتنزيل جبريل على قلبك تلقى حقائق القرآن من لدن حكيم لقلبك بحكمه بها القرآن وهي صفة القائمة بذاته، فعلمك حقائق القرآن وبيانه وهو العلم اللدني عليم حكيم جعله بحكمته مستعدًا لقبول الفيض القرآن بلا واسطة عليم هو أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: 7 - 14].

ثم أخبر عن هدى موسى ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ﴾ [النمل:7] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل:7] يشير إلى موسى القلب أنه لما كوشف بأنوار شواهد الحق في ليلة الهوى وظلمة الطبيعة، قال لأهله أي: النفس وصفاتها ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ بوادي أيمن السر، كما قال بعضهم: يبدو لي من الصغار برق يخبرني بها قرب المزار ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن كيفية الطريق ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ من نار النور الإلهية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:7] بتلك النار فتخلصون من جمود الطبيعة وظلمة الهوى.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ [النمل:8] على قدمي الشوق وصدق الطلب ﴿نُودِيَ﴾ من الشجرة الروحانية ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ نار المحبة أو في طلب نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: ومن يدور حول هذه النار كالفراش فإنه يقع فيها ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ﴾ [النمل:9] أي: المنادي ﴿أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل:9] الذي السبيل إليه سدوا لطلب ود الحكيم الذي بالحكمة الأزلية يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

وبقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل:10] يشير إلى أن من سمع نداء الحق وشاهد أنوار جماله يلقي من يد همته كل ما كان متوكأ له غير الله فلا يتوكأ إلا على فضل الله وكرمه ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل:10] يشير إلى أنه لما ألقى متوكاه وكوشف بمعناه رآه جانًا وثعبانًا ليعلم أن كل متوكل غير الله في الصورة ثعبان له في المعنى فلما عاينه ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل:10] ولم يرجع إليه بعد عرفانه أي: ففروا إلى الله فرار خائف من الاسترجاع فيقول الله: ﴿يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:10] يعني: من فر إلى الله عما سواه يؤمنه الله مما سواه ويقول له لا تخف فإنك لدي ولا يخاف من القلوب المنورة الملهمة المرسلة إليها الهدايا والتحف من ألطافي ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ [النمل:11] نفسه بالرجوع إلى غيري ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:11] بأن يفر إلي بعد سوء رجوعه إلى غيري ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ﴾ [النمل:11] غفر ذنب رجوعه ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النمل:11] إذا فر أتى أجله ولا إرادة.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ [النمل:12] أي: يد همتك ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل:12] حيث قناعتك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ [النمل:12] نقية من لوث الدارين ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: 12] يصيبك من قناعتك وخلو يدك عما سوى الحق ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ [النمل:12] من أسباب هلاك ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ النفس ﴿وَقَوْمِهِ﴾ أي: صفاتها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل:12] خارجين عن ربقة العبودية والانقياد.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ من الواردات والشواهد واللوامع والطوالع ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:13] فلم يؤمنوا بها ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:14] بتلك الشواهد أنها حق، ولكن النفس وصفاتها المتمردة من خاصية طبعها يجحد بها ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ إباءً واستكبارًا شيطانيًا جبلت النفوس عليها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين أفسدوا استعداد الإنسانية لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة الذي خلق في أحسن تقويم، فكان عاقبتهم أنهم نزلوا منازل الحيوانات من الأنعام والسباع

وقرنوا مع الشيطان في الدرك الأسفل من النار.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل: 15 - 18].

ثم أخبر عن إعداد من لم يفسد الاستعداد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾(1) [النمل:15] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل:15] يشير إلى داود الروح وسليمان القلب وعلمهم إلهام الرباني وعلم الأسماء الذي علمه الله آدم عليه السلام والعلم اللدني لمن هو أهله ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لله الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:15] أي: على الأعضاء والجوارح المستعملة في العبودية، وفيه إشارة إلى تفضيل خواص الإنسان على خواص الملك حيث قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70] أراد بالكثير الجميع كما أراد بقوله: ﴿فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:15] أي: على جميع من عباده المؤمنين لأنه لا ريب في أن

---

(1) قال الشيخ روزبهان: افهم أن العلم علمان: علم البيان وعلم العيان، علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية؛ فما ذكر الله سبحانه فيما أعطاهما، فهو من العلمين البياني والعياني، فالعلم البياني معروف بين العموم، والعلم العياني مشهور بين الخصوص لم يطلع عليه إلا ولي أو نبي؛ لأنه صدر من الحق لأهله، شهوده من المحبين والعارفين والموحدين والصديقين والأنبياء والمرسلين، ومن ذلك العلم العلم اللدني، والعلم اللدني حقائقه علم المجهول، وعلم المجهول ما يكون صورته بخلاف علم الظاهر مثل صنيع الخضر عند موسى -عليهما السلام- من قتل الغلام وغيره، وهو حكم الأفعال وبطون حقائق المقدرات والأمور الغيبية، وما يتعلق بالملك والملكوت الذي هو المرتبة الأولى من علوم المعارف، والحكم المرتبة الثانية علوم الأسماء والنعوت والصفات مثل ما علمه الله آدم بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمرتبة الثالثة العلم بالذات: وهو علم الأسرار وهذه العلوم يجمعها قسمان: قسم مستفاد من الخطاب والإلهام والكلام، وقسم يتعلق بكشف الذات والصفات والأفعال، وما أشرنا إلى هذه، وهو صورتها وحقائقها ذوقي كشفي لا يطلع عليها إلا من شاهد الحق بالحق، ويستغرق في بحارها، وعرف أنها غير محصورة للعقول؛ لأنها صفات قديمة لا نهاية لها؛ فلما عظم شأنها حمدا الله بما نالا منه من الله.

فضيلة الأنبياء على جميع المؤمنين لا على بعضهم، وإذا كان الكثير بمعنى الجميع بتناول الملائكة وغيرهم.

وبقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[1] [النمل:16] يشير إلى أن سليمان القلب يرث من داود الروح، فإن كل وارد وإلهام وإشارة ووحي وفيض رباني يصدر من الحضرة الإلهية يكون عبوره على داود الروح ومن كان لطافته يعبر عنه فيصل إلى سليمان القلب؛ لأن القلب بصفائه يقبله وبكثافته وصلابته يحفظه، فلهذا شرف القلب على الروح ولذلك كان سليمان أقضى من داود وقال ﷺ: «يا واصبة استفت قلبك»[2] ولم يقل استفت روحك.

﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النمل:16] يخاطب النفوس الناسية ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي: الخواطر الملائكية والروحانية ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الاستعداد الفطري، وأسباب السلوك وما يحتاج إليه في الوصول إلى الحضرة ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الذي قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:21] ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ﴾ [النمل:17] أي: صفة الشيطانية ﴿وَالإِنسِ﴾ أي: صفة النفسانية ﴿وَالطَّيْرِ﴾ أي: صفة الملكية ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عن طبيعتهم بالشريعة ليسخروا لسليمان القلب وينقادوا له ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ [النمل:18] وهو هدى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [النمل:18] وهي النفس اللوامة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل:18] أي: الصفات النفسانية ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل:18] محالكم المختلفة وهي الحواس الخمس ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل:18] لا تهلكنكم ﴿سُلَيْمَانُ﴾ [النمل:18] القلب ﴿وَجُنُودُهُ﴾ [النمل:18] المسخرة له ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:18] لأنهم الحق وأنتم الباطل، فإذا جاء الحق وزهق الباطل كما أن

---

(1) ورث ما عند أبيه من علم العشق والمحبة والشوق وخصائص سره زيادة على ما علمه الله، والولي الصادق العارف يرث من شيوخه علوم الحقائق بعد كونه مستعدًا لذلك، فتصير تلك الحقائق مقاماته إذا كان صادقًا مستقيمًا في الإرادة، لذلك قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

قال ابن عطاء: ورث منه صدق اللجوء إلى ربه، وتهمة نفسه في جميع الأحوال. [العرائس].

(2) رواه أحمد (4/ 228، رقم 18030)، والطبراني (22/ 148، رقم 403)، والدارمي (2/ 320، رقم 2533)، وأبو يعلى (3/ 160، رقم 1586).

الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها وهي لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها، وقد أكرم الله سليمان القلب بكرامة على المنطق وفهم كل ناطق من عالم الروحانية والنفسانية.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل: 19 - 22].

فلما سمع كلام نملة النفس تعجب منها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل:19] بتسخير جنودي لي ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل:19] وهما الروح والجسد فأنعمت على والدي الروح بإفاضة الفيض الرباني، وعلى والتي الجسد باستعماله في أركان الشريعة ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي﴾ [النمل:19] بجذبات ألطافك ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:19] في مقام العبودية المختصة بالأنبياء والمرسلين والأولياء المتقين، كما أدخلت نفوسهم عنايتك في مقام العبودية المضافة إلى حضرتك بقولك ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 29 - 30].

ثم أخبر عن تفقد أهل التعبد بقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل:20] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل:20] يشير إلى أن الواجب على الملوك التيقظ في مملكتهم وحسن قيامهم وتكلفهم بأمور رعاياهم تفقد أصغر رعيتهم، كما يتفقدون عن أكبرها بحيث لم يخف عليهم غيبة الأصاغر والأكابر منهم، كما أن سليمان عليه السلام تفقد حال أصغر طير من الطيور، ولم يخف عليه غيبته ساعة، ثم من غاية شفقة على الرغبة أحال النقص والتقصير إلى نفسه فقال: ﴿مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل:20] وما قال ما للهدهد لم أره ولرعاية مصالح الرعاية وتأديبهم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل:20] يعني: من الذين غابوا عني بلا إذني.

ثم هدده إن لم يكن له عذر لغيبته فقال: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[1] [النمل:21] بالطرد عن الحضرة والإسقاط عن عين الرضا والقبول ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل:21] في شدة العذاب، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:21] به يشير إلى حفظ المملكة يكون بكمال السياسة وكمال العمل، فلا يتجاوز عنه جرم المجرمين ويقبل عنهم العذر الواضح بعد البحث عنه، ويشير إلى أن الطير في زمانه كانت من جملة التكليف ولها وللمسخرين لسليمان عليه السلام من الحيوان والجن والشياطين تكاليف تناسب أحوالهم، ولهم فهم وإدراك كأحوال الإنسان في قبول الأوامر والنواهي معجزة لسليمان.

وبقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل:22] يشير إلى أن الغيبة، وإن كانت موجبة للعذاب الشديد وهو الحرمان عن سعادة الحضور ومنافعه، ولكن من أمارات السعادة سرعة الرجوع وتدارك الفائت وبقوله ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل:22] خبر إلى سعة لي وسعة كريم الله ورحمة بأن يختص طائرًا بعلم نبي مرسل، وهذا لا يقدح في حال النبي ﷺ والرسل بأن لا يعلم علمًا غير نافع في النبوة فإن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله منه فيقول: «أعوذ بك من علم لا ينفع»[2].

---

(1) لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية والغيبة في بحر النكرة في المعرفة ليفنى، ثم يفنى عن الفناء أو أذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنور أسرار الأزل، وعلى صورة الظاهر نكتتها أن سليمان أحب الهدهد؛ لأنه رأى ذلك الهدهد في مكان العشق، ورأى عليه آثار العشق؛ فاستأنس به، وكان للهدهد خاصية أنه عرف مواقيت صلاته، ورأى الماء بين الطين والحجر، وكان يدل الجن على الماء لوضوئه وطهارته حيث نزل، وكان بين هدهد سليمان، وهدهد بلقيس عشق، فغاب عن سليمان عند نزوله، وتلاقيا الهدهدان؛ فلما تفقده علم أنه عند معشوقه، فغار عليه إذ اشتغل بغيره من خدمته فطلبه، وأمر العقاب أن يأتي به فطار العقاب، ورأى هدهد سليمان عند هدهد بلد سبأ، فأتى به على سليمان عليه السلام؛ فقال: لأعذبنه عذابًا شديدًا، أي: لأحبسنه في موقع فراقه عن معشوقه، فلما جاء إليه الهدهد تحير في شأنه إيش يقول: فعلم أن سليمان في مقام أنس الله وعشقه، ويحب أن يستأنس بمستحسن فاحتال بأن يذكر عند سليمان ما رأى من حسن بلقيس وعظيم شأنها ليكون ذلك طريقًا له إلى قرب محبوبه، فلما مهد ذلك مع نفسه تعظم في شأنه، واجترأ من حيث جرأة العاشق. [العرائس].

(2) رواه الطيالسي (ص 268، رقم 2007)، وابن أبي شيبة (6/ 18، رقم 29128)، وأحمد (3/ 192، رقم 13026)، وابن حبان (1/ 283، رقم 83)، والحاكم (1/ 185، رقم 356)، والضياء (6/ 346، رقم 2373).

وبقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:22] يشير إلى أن من شرط الخبر ألا يخبر عن شيء إلا أن يكون مستيقنًا فيه لاسيما عند الملوك.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: 23 - 27].

وبقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:23] إلى قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:26] يشير إلى أن سليمان عليه السلام لما ذكر الهدهد حديث بلقيس ومملكتها وما لها من المال والحال والملك والسرير العظيم لم يتغير لذلك ولم يستفزه الطمع لما سمع من مُلكها كعادة الملوك في الطمع في مثل غيرهم فلما قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل:24] فعند ذلك غاظه هذا وجرد الله وأخذته حمية الدين وجعل يبحث عن تحقيق وقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:27] وفي هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم، فيجب التوثيق فيه على حد التجويز، وفيه دليل على أنه لا يطرح بل يجب أن يتعرف هل هو صدق أو كذب، ولما عرف سليمان هذا العذر عذر الهدهد فترك عقوبته، فكذلك سبيل الوالي يجب أن يمنعه عدله من الحيف على رعيته، ويقبل عذر من وجده في صورة المجرمين إذا صدق في اعتقاده.

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: 28 - 35].

وبقوله: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل:28] يشير إلى أنه الكتاب لما كان

سببًا لهدايتها وحصول إيمانها سمته كريمًا لأنها بكرامته لما كان صدق فيما أخبر وبذل النصح لملكه ورعى جانب الحق عوض عليه حتى أهل الرسالة رسول الحق على ضعيف صورته ومعناه وبقوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(1) [النمل: 29 - 31] يشير إلى أن الكتاب لما كان سببًا لهدايتها وحصول إيمانها سمته كريمًا لأنها بكرامته اهتدت إلى حضرة الكريم.

وبقوله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: 32] يشير إلى أن المرء لا ينبغي أن يكون مستبدًا برأيه ويكون مشاورًا في جميع ما سنح من الأمور لاسيما الملوك يجب أن يكون له طغمة قوم من أهل الرأي والبصيرة فلا يقطعون أمرًا إلا بمشاورتهم.

وبقوله: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: 33] يشير إلى أن شرط أهل المشاورة أنهم لما رأوا رأيًا صائبًا في أمر المشاورة وأخبروه بذلك لا يحملون عليه بقوله بل يخيرونه في ذلك، فلعله أعلم بصلاح

---

(1) عرفت أنه كلام الله، ولا يشبه كلام الخلق، وقالت: كتاب كريم؛ فانبسطت من باء ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إشارة بدء القدم والبقاء اللذين هما أصل جميع الصفات القديمة القائمة بذات الحق سبحانه من عرفه بالقدم والبقاء فقد عرفه بجميع الذات والصفات، وتلك المعرفة لا تكون إلا لمن شاهد مشاهدة الأزل والأبد، وعرفت من السين إشارة سنا الحق وأسراره، ومن الميم ملكه ومحبته، وإشارة الهيمنة المشاهدة المحيطة بكل ذرة من العرش إلى الثرى من حروف الله إشارة عين الذات الواحد الفرد من الألف، ومن اللامين الجلال والجمال، ومن الهام الهوية، وغيوبات الغيب، ووجدت في الكلمة وجوب العبودية للربوبية ليصل برحمة الرحمانية العامة في الدنيا والآخرة ورحمة الرحيمية الخاصة في الآخرة لأهل الخصوص، وعلمت أنها بجميعها مقام الاتصاف من اتصف بها سهل عنده بتلفظها مراد أراده من معنى الإجابة القدرة بالأشياء بالآيات والكرامات.

قال الواسطي في قوله: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: مختوم مزين بزينته، وقيل: كرامة الكتاب ابتداؤه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقيل: كرامته عنوانه. وقال الحسين في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: قولك منك بمنزلة «كن» منه، وإذا أحسنت أن تقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تحققت الأشياء بقولك: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كما تحقق بقوله: «كن»، وقيل في قوله: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: لأن الرسول كان طيرًا، فعلمت أن من يكون الطير مسخرة له [فهو] عظيم الشأن. [العرائس].

حاله منهم كما كان حال بلقيس إذ قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[1] [النمل:34] فيه إشارة إلى أن العاقل مهما تيسر له دفع الخصوم بطريق صالح لا يوقع نفسه في خطر الهلاك بالمحاربة والمقاتلة بالاختيار إلا أن يكون مضطرًا، وفيه إشارة أخرى إلى أن ملوك الصفات الربانية إذ دخلوا قرية الشخص الإنساني بالتجلي أفسدوها بإفساد الطبيعة الإنسانية الحيوانية وجعلوا أعزة أهلها وهي النفس الأمارة وصفاتها أذلة لذلوليتهم بسطوات التجلي، وكذلك يفعلون مع الأنبياء والأولياء؛ لأنهم خلقوا لمرآتية هذه الصفات إظهارًا للكنز المخفي تفهم إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر عن الهداية الموجبة للهدية بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل:35] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:35] إلى أن الهدية موجبة استمالت القلوب، ولكن أهل الدين لما عارضهم أمر ديني في مقابلة منافع كثيرة دنيوية يرجحون طرف أمر الدين على طرف منافع كثيرة دنيوية واستقلوا كثرتها فانية واستكثروا قليلاً من أمور الدين؛ لأنها باقية كما فعل سليمان عليه السلام فلما جاءه الرسول بالهدية استقل كثرتها.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ

---

(1) لما وجدت في الكتاب تلك الكرامات، عرفت عظم شأن سليمان وجلاله، وما عليه من أنوار الحسن والجمال، فمال قلبها إلى العشق والمحبة؛ فأرادت ألا تكون مخذولة حين دخل في بلدها سليمان، ولا تتأذى بنفسه في محبته، فإن العاشق لا يريد إيذاء معشوقه، ومن إشارة المعرفة إذا دخل سلطان الوجد والمحبة والمعرفة، والمشاهدة في قلوب العارفين، أغار ما دون الله من العرش إلى الثرى، ولا يبقى فيها إلا نور بلا ظلمة وصفاء بلا كدورة، وجمع بلا تفرقة، وذكر بلا فترة، وعشق بلا شهوة، وصدق بلا غفلة، ويقين بلا شك، وإخلاص بلا رياء، وتصير أوصاف النفس الأمارة محمودة، وصارت أبواب القلوب على الشياطين مسدودة، ويكون الروح مشاهد الحق بلا حجاب.

قال جعفر الصادق: أشار إلى قلوب المؤمنين أن المعرفة إذا دخلت القلوب زال عنها الأماني والمرادات أجمع؛ فلا يكون للقلب محل لغير الله. [العرائس].

فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النمل: 37 - 41].

وقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ﴾ [النمل:36] من كمالات الدين والقربات والدرجات الأخروية ﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ من الدنيا وزخارفها ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أمثالكم من أهل الدنيا بمثل هديتكم الدنيوية الفانية يفرحون بخسة نفوسكم وجهلكم عن الشهادات الأخروية الباقية.

ثم قال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل:37] بهديتهم ليعلموا أن أهل الدين لا ينخدعون بحطام الدنيا وإنما نريد منكم الإسلام وإن لم يأتوني مسلمين ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ [النمل:37] من الجن والإنس والتأييد الإلهي ﴿لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ [النمل:37] من ديارهم ومن أديانهم أذلة وهم صاغرون للإسلام طوعًا وكرهًا.

وبقوله: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 38] يشير إلى أن سليمان ﷺ كان واقفًا على أن في أمته من هو من أهل الكرامة، فأراد أن يظهر كرامتهم ليعلم أن في أمم الأنبياء عليهم السلام يكون أهل الكرامات فلا تنكروا من كرامات الأولياء كما أنكرت المعتزلة، فإن أدنى مصيدة الإنكار حرمان المنكر عن درجة الكرامات كحرمان أهل البدع والأهواء عنها، ولا يظن جاهل أن سليمان ﷺ لم يكن قادرًا على الإتيان بعرضها ولم يكن له هذه الكرامات، فإنه أمرهم بذلك لإظهار أهل الكرامات من أمته، ولأن كرامات الأولياء من جملة معجزات الأنبياء، فإنها دالة على صدق نبوته وحقيقة دينهم أيضًا.

وبقوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:39] وقوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:40] يشير إلى أن الجن إن كان له مع لطافة جسمه قوة ملكوتية يقدر على ذلك بمقدار زمان مجلس سليمان، فإن الإنس ممن عنده علم من الكتاب مع كثافة جسمه وثقله وضعف الإنسانية قوة ربانية قد حصلها من علم الكتاب بالعمل به هو أقدر بها على ما يقدر عليه الجن من الجن، ولما كان كرامة هذا الولي الإتيان بالعرش من معجزة سليمان ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ [النمل:

40] هذه النعمة التي يفضل بها علي برؤية العجز عن الشكر ﴿أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل:40] لأن الشكر يوجب ازدياد النعمة للشاكر ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [النمل:40] بأن لم يعرف قدر النعمة ولم يؤد حقها ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ [النمل:40] عن شكر الشاكرين وكفرانهم ﴿كريم﴾ بإظهار الكرم عليهم.

وبقوله: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:41] من الجاهلين يشير أنها هل تكون من أهل العقل فتهتدي بالفراسة إلى أنه عرشها وإن نكرته وهل تكون من أهل الإيمان فتهتدي بنور الإيمان إلى أن إتيانه بهذه السرعة من إعجاز النبوة أم تكون من جملة [الناس] العرية من العقل والإيمان.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: 42 - 46].

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ [النمل:42] رأته ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل:42] فلم تقل لا ولا قالت بلى فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل:42] فاستدل بذلك على كمال عقلها، ولما رأت أنه أمرنا قصر للعادة استدلت بها على صحة نبوته وقالت: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ [النمل:42] من الله بنبوة سليمان من قبلها أي: قبل رؤية عن المعجزة وأسلمت، كما قال: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:42].

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل:43] فصارت من قوم مؤمنين وفي قوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل:44] دليل على أن سليمان أراد أن ينكحها، وإنما صنع الصرح لتكشف عن ساقيها فيراها ليعلم أن ما قالت الشياطين في حقها صدق أو كذب، ولو لم يستنكحها لما جوز عن نفسه النظر إلى ساقيها وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:44] يدل على أنها

أسلمت نفسها للنكاح مع سليمان لله، وفي الله الذي هو إله العالمين وخالقهم ومربيهم.

ثم أخبر عن الفريقين اللذين على الطريقين بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [النمل:45] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [النمل:45] يشير إلى إرسال صالح القلب بالإلهام الرباني إلى ثمود بقية متولدات الروح والقالب وهي صفات القلب والنفس وصفاتها ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ [النمل:45] مؤمن وكافر، فالمؤمن: صفات القلب فإنها تنورت بنور الإلهام، والكافر: هو النفس وصفاتها ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ واختصامهم في أن القلب وصفاته يدعو النفس إلى عبودية الله ومخالفة الهوى وترك الشهوات، والنفس وصفاتها تدعو القلب وصفاته إلى عبادة الهوى والرغبة في الدنيا وشهواتها ومخالفة الحق تعالى.

ويناديهم صالح القلب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [النمل:46] وهي طلب الشهوات واللذات الحيوانية الفانية ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [النمل:46] وهي طلب درجات الجنان والنجاة عن دركات البرية والوصول إلى قربات الرحمن وحقائق العرفان ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ [النمل:46] فلا تتوبون على طلب الشهوات وترجعون إلى الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:46] بخطاب ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:27 - 28].

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل: 47 - 53].

﴿قَالُوا﴾ [النمل:47] معنى النفس وصفاتها للقلب وصفاته ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل:47] وذلك أن نور الإلهام الرباني ينعكس عن القلب إلى النفس فيمنعها عن استيفاء حظها من الشهوات الدنيوية بالحرص والشدة على وفق طبعها ﴿قَالَ﴾ يعني: القلب ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي أصابكم من نور الإلهام إنما جاء من عند الله

وهذا كرامة منه لكم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بشهوات الدنيا وزينتها فلا تعرفون قدر نعم الله في حقكم.

وبقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل:48] يشير إلى مدينة القالب الإنساني وخواص العناصر الأربعة من الخواص الخمسة، فإنهم ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض القلب بإفساد الاستعداد الفطري الذي فطر الناس عليها لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة وهو مخصوص بالقلب بين سائر المخلوقات، كما قال في حديث رباني: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»[1] ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: ليس في النفس ومفاتنها المتولدة من العناصر والماديات بما داخلها من آفات الحواس وصلاحية قبول الفيض الإلهي إلا بانعكاس أنواره من مرآة القلب عليها فتطمئن بها فيتلون بلون القلب المنور بنور الفيض، وإلى هذا المعنى أشار بقوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29- 30] تفهم إن شاء الله تعالى.

وبقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل:49] يشير إلى موافقة خواص العناصر الأربعة مع الآفات الداخلة من الحواس الخمسة واتفاقهم على تبنيهم القلب وصفاته ساعين في هلاكهم وهو إبطال استعدادهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ [النمل:49] وهو الحق تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل:49] أي: ما هلكناهم وما حضرنا مع النفس الأمارة حين قصدت، فإن غلبت النفس على القلب واستيلائها عليه إنما يكون بمعاونة هؤلاء التسعة ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:49] في هذا القول وهم كاذبون.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ [النمل:50] في هلاك القلب بالهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية وتزيين الشهوات الدنياوية ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل:50] بتواتر الواردات الربانية وتداوم سطوات تجلي صفات الجمال والجلال الإلهية ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 50] أن صلاحهم في هلاكهم بتجلي صفاتنا فإنا من قتلناه بصفاتنا وجبت ديته على ذمة كرمنا فديته أن نحييه بنور صفاتنا.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ [النمل:51] أفنينا خواص التسعة

---

(1) تقدم تخريجه.

وآفاتها وأفنينا ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهم النفس وصفاتها ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ وهي القالب والأعضاء التي هي مساكن الحواس ﴿خَاوِيَةً﴾ خالية عن الخواص المهلكة والآفات الغالبة ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: ما وضعوا من نتائج خواص العناصر وآفات الحواس في غير موضعها وهو القلب، وكان موضعها النفس بأمر الشرع لما بالطبع لصلاح القالب وبقائه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإشارات والحقائق ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لسان القوم ويفهمون إشارات القرآن وحقائقه، ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النمل:53] وهم القلب وصفاته من شر النفس وصفاتها وما مكروا به ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعني: إذا كانوا يتقون بالله عن غير الله وما سواه.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل: 54 - 59].

ثم أخبر عن المقهورين غير المغفورين بقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [النمل: 54] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [النمل:54] يشير إلى أن لوط الروح إذ قال لقومه وهم القلب والسر والعقل عند تغيير أحوالهم وتبدل أوصافهم بمجاورة النفس واستيلائها عليهم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [النمل:54] وهو كل ما زلت به أقدامهم عن الصراط المستقيم وأمارتها في الظاهر إتيان منهيات الشرع على وفق الطبع وهو النفس وعلامتها حب الدنيا وشهواتها والاحتظاظ بها ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: 54] أي: ولكم بصيرة تميزون بها الخير والشر والصلاح من الفساد.

وفي قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [النمل:55] إشارة إلى صرف الاستعداد فيما يبعدهم عن الحق تعالى دون صرفه فيما يقربهم إلى الحق تعالى ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:55] وإن تدعوا أن لكم بصيرة تعرفون بها الحق من الباطل ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وهم القلب المريض بعلة حب الدنيا وانحراف مزاجه عن حب الآخرة، والسر المكدر بكدورة الرياء والنفاق، والعقل المشوب بآفة الوهم والخيال ﴿إِلَّا

أن قَالُوا﴾ من اتصافهم بصفات النفس ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ وهم الصفات الروحانية ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ وهي الشخص الإنساني ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:56] من لوث الدنيا وشهواتها.

ويقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل:57] يشير إلى روح نظر الله إليه بنظر العناية ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وهم قوم القلب والسر والعقل عذاب النفاق بالدنيا ومتابعة الهوى ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ [النمل:57] وهي النفس الأمارة بالسوء ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ في الأزل أنها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(1) [النمل:57] أي: الباقين في عذاب التعلق بالدنيا ومتابعة الهوى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ [النمل:58] أي على النفس وصفاتها ﴿مَّطَرًا﴾ [النمل:58] وهو حجارة الشهوات الدنيوية.

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل:58] بترك الشهوات أي صعب عليهم تركها، فإن الفطام عن المألوف شديد ويقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل:59] يشير إلى أن أمطار مطر الشهوات الدنيوية على النفس وصفاتها هو نعمة من الله مستدعية للحمد والشكر؛ لأن النفس بها قائمة، وبقاء الروح في القالب باستمداده من النفس كاستمداد نور السراج من الزيت ويقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يشير إلى قوم أخصهم لعبوديته دون قوم يعبدون الهوى والدنيا وما سوى الله، ومعنى السلام عليهم توجه بالكلية إلى الحضرة مستسلمين للأحكام الأزلية، ثم قال: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:59] به من الدنيا وشهواتها والآخرة ودرجاتها، يا أهل الدنيا ويا أهل الآخرة.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ

---

(1) وفي قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:57]. أي: المرأة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لَّما كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيَّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولَّما كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النمل: 60 - 63].

ثم أخبر عن حقائق الخلائق بقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النمل:60] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النمل: 60] يشير إلى خلق سموات القلوب والأرض النفوس ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النمل: 60] سماء القلب ﴿مَاءً﴾ [النمل:60] ماء نظر الرحمة ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:60] من العلوم والمعاني والأسرار والحكم البالغة ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ [النمل:60] أي: ما كان من الاستعداد الإنساني ﴿ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لو لم يكن ماء نظر رحمتنا وخصوصية آياتنا به ﴿شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:60] من الهوى ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:60] أرباب النفوس يميلون عن الحق.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ﴾ [النمل:61] أرض النفس ﴿قَرَاراً﴾ في الجسد ﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً﴾ من دواعي البشرية ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ من قوى البشرية والحواس ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [النمل:61] وهما بحر الروح وبحر النفس ﴿حَاجِزاً﴾ وهو القلب لئلا يختلطا، فإن في اختلاطهما فساد حالهما ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:61] من الطبيعة كما زعم الطبائعية ليدبر أمر القالب والروح على وفق الحكمة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ كمال قدرة الله وحكمته واستغنائه عن الشريك ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62] والمضطر هو المقدورات لها من قدر الله خلقها ولا يقدر على إيجادها غيره، فهي تضطر إلى أن تدعو الله بلسان الحاجة في إيجاده فيجيبه بإخراجه عن العدم إلى الوجود ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ من العدم.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل:62] أي: مستعدين لخلافته في الأرض فتعمرون الدنيا وتزينوها بأنواع الصنائع والحرف واستخراج الجواهر من المعارف وغرس

الأشجار واتخاذ الأطعمة المتلونة والأشربة المتنوعة والأدوية والمعاجين المختلفة لإزالة الملاك وللأرض بالعلاج الصالح ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ ليكون له خلق أمثالكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:62] أي: قليلاً منكم من يتذكر ويفهم معنى الخلافة ويقوم بشرائطها ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل:63] يُشير إلى بر البشرية وبحر الروحانية ولهما ظلمات الخلقية وإن كانت الروحانية نورانية بالنسبة إلى ظلمة البشرية ومعنى الآية ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ [النمل:63] بإخراجكم من ظلمات البشرية إلى نور الروحانية وظلمات الخليقة الروحانية إلى نور الربوبية غير الله يدل على هذا المعنى قوله: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257] ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ رياح العناية ﴿بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: سحاب الهداية التي فيها مطر الرحمة، ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل: 62] ليرسل الرياح كما أرسلها الله أو يكون شريكًا له في إرسالها ﴿تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ جماعة يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا يثبتون لله شريكًا من الأنواء.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦٤ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾ [النمل: 64 - 69].

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [النمل:64] بإخراجهم من العدم إلى الوجود ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بإفنائهم إلى عالم الوحدة ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم﴾ أي: يرزق أرواحكم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ سماء الربوبية ﴿وَالأَرْضِ﴾ أرض البشرية يشير إلى تربية الأرواح لاستكمال مقام الخلافة إنما يكون من الواردات الربانية واستمدادها من خواص الصفات الحيوانية ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:64] لتربية الأرواح ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم على أن للأرواح مربيًا غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ حينما ادعيتم أن مع الله إلهًا آخر.

ثم أخبر عن الغيب أنه لا يعلمه إلا الله بغير الريب بقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ [النمل:65]، والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾[1] [النمل:65] يشير إلى أن للغيب مراتب: غيب هو غيب أهل الأرض في الأرض وفي السماء، وللإنسان إمكان تحصيل علمه وهو على نوعين:

أحدهما: ما غاب عنك في أرض الصورة وسمائها؛ ففي الأرض مثل غيبة شخص عنك أو غيبة أمر من الأمور وذلك إمكان إحضار الشخص والاطلاع على الأمر الغائب.

وثانيهما: ما غاب عنك في أرض المعنى وهي أرض النفس، فإن فيها مخبئات من الأوصاف والأخلاق ما هو غائب عنك على الأمر الغائب، وفي السماء مثل علم النجوم والهيئة ومالك إمكان تحصيله بالتعلم، وإن كان غائبًا عنك كيفية وكمية ولك إمكان الوقوف عليها بطريق المجاهدة والرياضة والذكر والفكر وسماء المعنى وهي سماء القلب، فإن فيها مخبئات من العلوم والحكم والمعاني ما هو غائب عنك ولك إمكان الوصول إليه بالسير على مقامات النفس والسلوك في مقامات القلب غيب هو غيب أهل الأرض في الأرض والسماء أيضًا، وليس للإنسان إمكان الوصول إليه إلا بأداة الحق تعالى، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ [فصلت:53]، وغيب هو غيب أهل السماء في السماء والأرض ليس لهم إمكان الوصول إليه إلا بتعليم الحق تعالى مثل الأسماء، كما قال تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:31- 32] ومن هنا يتبين لك أن الله تعالى قد

---

(1) وعن مفاتح الغيب، قال الله تعالى في سورة النمل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:65].

فمن تجلى الله عليه بهذا الاسم الجامع فكان خليفة رسول الله ﷺ في مقام المبايعة التي أنزل في حقها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]، فهو الذي يعلم الغيب، ويشعر أيان يبعث، وهو اللابس لخلعة هذا الاسم إرثًا من محمد ﷺ، فالمراد بهذا الاسم في هذه الآية هو القطب الجامع الذي يدور عليه أمر الولاية، وإنما قلنا ذلك لأن الله لا يقال في حقه أنه من جملة من في السماوات والأرض، واستثني منهم بعلم الغيب؛ لأنه من جهة وجوده المطلق عين المستثنى والمستثنى منه، فلا يتصل بمن في السماوات والأرض حتى يقال: الاستثناء متصل وليس مقطوعًا عنهم، ولا عن شيء، وحتى يقال الاستثناء منقطع، فثبت أن المراد بقوله: إلا الله المظهر الجامع لحقائق هذا الاسم بالتجلي الذاتي، وهو القطب الغوث، وإطلاق هذا الاسم عليه بحكم الخلافة الباطنية عمن قيل له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10]. [كشف الواردات].

كرم آدم بكرامة لم يكرم بها الملائكة وهي اطلاعه على مغيبات لم تطلع عليها الملائكة، وذلك بتعليمه علم الأسماء كلها، وغيب هو مخصوص بالحضرة ولا سبيل لأهل السموات والأرض إلى علمه إلا من قضى الله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26- 27]، وبهذا يستدل على فضيلة الرسل على الملائكة؛ لأن الله استخصهم بإظهارهم على غيبه دون الملائكة؛ ولهذا أسجدهم لآدم لأنه كان مخصوصًا بإظهار الله إياه على غيبه، وذلك ما قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»(1) وغيب استأثر الله بعلمه وهو علم قيام الساعة فلا يعلمه إلا الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:21] بقوله: ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ يُشير إلى أنهم كما لا يعلمون إلا عاجلاً لا يكون شعورهم به آجلاً ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: علمهم في الآخرة عند قيام الساعة.

وبقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ يُشير إلى أنهم لا يثقون بقول الأنبياء وإخبارهم عن الساعة ولا بالقطع يجحدون، وهذه أمارة كل مريض القلب لا حياة لهم في الحقيقة ولا راحة ثم هم من البعث في شك، ومن الإحياء ثانيًا في استبعاد ويقولون: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا﴾ [المؤمنون:83] ثم لم يكن تحقيق فما نحن إلا مثلهم وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:67- 68] وبقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل:69] يُشير إلى سير السائرين في أرض البشرية.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:69] أي: انظروا أرباب السير بدرك الحقائق المودعة في معنى الإنسان أنموذجات من الآخرة وما فيها، فمنها النفس المتمردة لأنها أنموذج من جهنم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي

(1) تقدم تخريجه.

ﭐلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (٧٦)﴾ [النمل: 70 - 76].

ومنها القلوب السليمة لأنها أنموذج من الجنان، فمن تحقق له أن النفس أنموذج من جهنم فيتحقق له أن يكون لهذا الأنموذج أصل هذا نموذجه قوله: ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل:70] أي: على من أنكر أمر البعث أنهم لا يؤمنون؛ لأنهم خلقوا لهذا ﴿وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:70] لأنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله وبقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:71- 72] يُشير إلى استعجال منكري البعث في طلب العذاب الموعود لهم من عناية جهلهم بحقائق الأمر وإلا قد ورد لهم أنموذجات العذاب الأكبر وهو العذاب الأدنى من البليات والمحن.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [النمل:73] فيما يذيقهم العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون إلى الحضرة بالخوف والخشية تاركين الدنيا وزينتها راغبين في الآخرة ودرجاتها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ لأنهم لا يميزون بين محنهم وصحتهم وعزيز من يعرف الفرق بين ما هو نعمة من الله وفضل له أو محنة ونقمة، وإذا تقاصر على العبد عما فيه صلاحه وعسى أن يحب شيئًا ويظنه خيرًا وبلاؤه فيه، وعسى أن يكون شيء آخر بالضد ورب شيء يظنه العبد نعمة يشكره عليها ويستديمه وهي محنة له يجب صبره عنها ويجب شكر الله على صرفها عنه وبعكس هذا كم من شيء يظنه الإنسان بخلاف ما هو فيه.

ثم أخبر عن علمه بالخفيات والمخبئات والمغيبات بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ [النمل:74] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:74] يشير إلى الله تعالى أن الله تعالى عند تخمير طينة آدم بيده أربعين صباحًا أودع فيها زبدة خواص عالم الشهادة، وكانت روحه زبدة عالم الغيب فبازدواج روحه وقالبه بتصرف نفخة الخاص ولَّد منها خواص أخرى بها اصطفى آدم على العالمين وذلك حين تقويمه في قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، وكان متمكنًا فيه هذه الخواص وورثها أولاده منه فصارت هذه الخواص متمكنًا في جبلة كل ولد من أولاده

فيظهر الله تعالى على كل واحد منهم ما قد قدر له ويكنُّ فيه ما شاء أن يكون مكنونًا فيعلم مكنون صدور جميعهم وعلمهم لا يلبس عليه أحوالهم.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ [النمل:75] من الخواص ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ سماء القلب ﴿وَالأَرْضِ﴾ أرض القالب أي باقية متمكنة فيهما ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أي: كتاب علم الله ﴿مُّبِينٍ﴾ بين ظاهر وهذا يدل على أنه ما غاب عن علمه شيء من المغيبات الموجود منها والمعدوم واستوى في علمه وجودها وعدمها على ما هي به بعد إيجادها فلا تغير في علمه عند تغيرها بالإيجاد فتتغير العلوم ولا يتغير العلم بجميع حالاته على ما هو به وبقوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:76] يشير إلى أنه تعالى أودع في القرآن حقائق ومعاني كثيرة لا توجد في غيره من الكتب المنزلة ما يحتاج إليه السالك في سلوكه للوصول إلى الحضرة، وبيان ما اختلفت فيه الأمم الماضية من كيفية السلوك وشرح المقامات وكشف المعارف، وذلك لأن كل كتاب كان مشتملاً على شرح مقامات ذلك النبي وبيان كمال مرتبته ونهاية قربه، فلما لم يكن لنبي من الأنبياء عليهم السلام مقام في القرب مثل مقام نبينا ﷺ ما أودع الله تعالى في كتبهم ما أودع في كتابه من الحقائق والمعاني.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: 77 - 81].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ [النمل:77] يعني القرآن ﴿لَهُدًى﴾ إلى الله ما لا يهدي إليه كتاب آخر ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هذه الهداية رحمة خاصة لهذه الأمة أعني المؤمنين منها ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ [النمل:78] أي: بين هذه الأمة وبين أمة كل نبي ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي: بحكمه بأن يبلغ متابعي كل نبي إلى مقام نبيهم تبعا لهم ويبلغ متابع نبينا بتبعية إلى مقام مخصوص به من الأنبياء وهو مقام الحبيبية يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31]، ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ الذي لعزته لا يهدي كل متمنٍ إلى مقام حبيبيته ﴿العَلِيمُ﴾ الذي هو العالم بمستحق هذا المقام.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [النمل:79] وثق به ﴿إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ﴾ في دعوة الخلق إلى الله ﴿المُبِينِ﴾ أي: إنك المبين فيما تهدي إلى طريق الوصول والوصال ولكن ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى﴾ [النمل:80] الذين أمات الله قلوبهم بحب الدنيا، ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ الذين أصمهم بحب الشهوات، فإن حبك الشيء يعمي ويصم﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الحق ﴿مُدْبِرِينَ﴾ إلى الباطل غلب بقدر أن نهديهم للرشد وفقدهم عن سر النفس ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ تهديهم من حيث الدعاء والدلالة، ولكن لا تهدي واحدًا من حيث إحياء القلب بنور العرفان وإزالة الصمم والعمى بنور الإيمان ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: لا تسمع إلا من أسمعناه من حيث إحياء قلوبهم وأرشدناهم إلى طريق الطلب ووفقناهم لاحتمال التعب ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مسلمو الأحكام الأزلية.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل: 82 - 88].

ثم أخبر عن أمارة الساعة بإخراج الدابة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل:82] الإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل:82] يشير إلى أن قومًا اختصوا بقول ﴿يحبهم﴾، وإن جعلوا خليعي العذار في المراتع البهيمية قبل البلوغ لاستكمال القالب، فلما بلغوا الأوان بقابلية قول ﴿يحبهم﴾ ﴿وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ واستعدوا للكمالية ﴿ويحبونه﴾ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ من تحت أرض البشرية دابة تكلمهم وهي النفس الناطقة والروح الإنساني مختلفة لاسيما وكانت موصوفة بصفة الصمم والبكم والعمى بتبعية النفس الأمارة فلما تداركتها العناية الأزلية أخرجتها من تحت أرض صفات البشرية الذميمة فتكلم القلب والقرآن أن شريعتي الصفات النفسانية كما مر ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالدلائل.

﴿لاَ يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [النمل:82-83] يشير إلى حشر بعض صفات الروح والقلب بعد موتها غلبات النفس وصفاتها عليها وربما يموت الروح والقلب بجميع صفاتها يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾[1] [النمل:80]

---

(1) قلت: لنا في هذه الآية وقفة لمن اعترض على سماع الأموات وحياتهم في قبورهم.
فمن الأدلة القاطعة في حياة روح الولي بعد الانتقال نذكر: أولًا: من القرآن الكريم:
﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران: 168].
معنى حياتهم: أن أرواحهم في حواصل طير تأكل من ثمار الجنة، وتشرب من أنهارها. قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة. انظر: تفسير القشيري (4/ 433)، و زاد المسير لابن الجوزي (1/ 452).
وقال الشيخ إسماعيل حقي -- رحمه الله-: وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم. تفسير روح البيان (2 / 340). وقال الشيخ ابن عجيبة: لأن الله تعالى جعل أرواحهم في حواصل طير خضر، يسرحون في الجنة حيث شاءوا عند ربهم بالكرامة والزلفى، يُرزقون من ثمار الجنة ونعيمها، فحالهم حال الأحياء في التمتع بأرزاق الجنة. وقال أيضًا: شهداء الملكوت - وهم العارفون - أعظم قدرًا من شهداء السيوف. وقال أيضًا: الإشارة: إن يمسسكم يا معشر الفقراء قرح؛ كحبس أو ضرب أو سجن أو حَرج أو جلاء، فقد مس العموم مثل ذلك، غير أنكم تسيرون به إلى الله تعالى لمعرفتكم فيه، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم، أو إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم، ففيهم أسوة لكم، وهذه عادة الله في أوليائه، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم أولًا ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وليعلم الصادق في الطلب من الكاذب، فإنَّ محبة الله مقرونة بالبلاء، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك، كالحلاج وغيره، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبروا حتى ظفروا بالشهود. ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران: 168]. قال الشيخ حقي أي: كالأحياء في الحكم لا ينقطع ثواب أعمالهم لأنهم قتلوا لنصرة دين الله فما دام الدين ظاهرًا في الدنيا وأحد يقاتل في سبيل الله فلهم ثواب ذلك لانهم سنوا هذه السنة. وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154]. كيف حالهم في حياتهم وفيه رمز إلى أنها ليست مماَ يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هى أمر روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحي.
وفي الآية دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه الجمهور. وقال العز بن عبد السلام- رحمه الله-: هم أحياء في البرزخ، وأما في الجنة فإن حالهم معلومة لجميع المؤمنين. تفسير ابن عبد السلام (1/ 330). قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64].فثبت بهذا الدليل أن لكل ذرة من ذرات الموجودات لسانًا ملكوتيًا ناطقًا بالتسبيح والحمد تنزيهًا لصانعه وبارئه، وحمدًا له على ما أولاه من نعمه، وبهذا

اللسان نطق الحصى في يد النبي ﷺ وبهذا تنطق الأرض يوم القيامة كما قال ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:4] وبهذا اللسان تشهد أجزاء الإنسان وأبعاضه يوم القيامة فافهم جدًّا واغتنم. وقال الشيخ إسماعيل: ملكوت هو عالم الأرواح فلكل شيء روح منه بحسب استعداده لقابلية الروح فخلق الإنسان في أحسن تقويم لقابلية الروح الأعظم، فلهذا صار كاملهم أفضل المخلوقات وأكرمها فهو يعلم خصوصية صلاته وتسبيحه على قدر حظه من عالم الملكوت بل على قدر حظه من عالم الربوبية وهو منفرد به عما دونه والملك يعلم صلاته وتسبيحه على قدر حظه من عالم الملكوت والحيوانات والجمادات تعلم صلاتها وتسبيحها بملكوتها بلا شعور منها بالصورة.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42]. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني في «الأوسط» وأبو الشيخ في «العظمة» والضياء في «المختارة» عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:42]. الدر المنثور (8/ 455). وقال الشيخ حقي: تلتقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام فيتساءلون بينهم ما شاء الله تعالى، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا يغلط بشيء من ذلك، فذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:27]. ففي التفسير أن حبيبًا النجار قال هذا بعد موته.

قال الكواشي: تمنى أن يعلم قومه أنَّ الله قد غفر له، وأكرمه، ليرغب قومه في اتباع الرسل، فيُسلموا، فنصح قومه حيًّا وميتًا. تفسير «روح البيان» (16/ 445)، و«البحر المديد» (5/ 201).

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:2]. قسم بمعنى طريق العطف، والنشط جذب الشيء من مقره برفق ولين ونصب نشطا على المصدرية اقسم الله بطوآئف الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين أي: تخرجها من أبدانهم برفق ولين كما تنشط الدلو من البئر يقال: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وكما تنشط الشعرة من السمن، وكما تنسل القطرة من السقاء وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة ونفس المؤمن وإن كانت تجذب من اطراف البنان ورؤس الأصابع أيضًا لكن لا يحس بالألم كما يحس به الكافر، وأيضًا نفس المؤمن ليس لها شدة تعلق بالبدن كنفس الكافر لكونها منجذبة إلى عالم القدس، وإنما يشتد الأمر على أنه لا لتعلق دون أهل التجرد خصوصًا إذا كان ممن مات بالاختيار قبل الموت، وأيضًا حين يجذبونها يدعونها أحيانًا حتى تستريح؛ وليس كذلك أرواح الكفار في قبضها لكن ربما يتعرض الشيطان للمؤمن الضعيف اليقين والقاصر في العمل إذا بلغ الروح التراقى فيأتيه في صورة أبيه وأمه وأخيه أو صديقه فيأمره باليهودية أو النصرانية ذلك نسأل الله السلامة.

ثانيًا: بعض الأدلة من السنة الشريفة:

في التَّشَهُّدِ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ». واضحٌ من أن هذا الخطاب لحي بعد انتقاله.

- وفي التشهد بعد ذلك: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ».

والصالحون منهم الحي ومنهم المتنقل، فيؤخذ منه حياة الصالحين.

- وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ. الترمذي (8/ 500).

- وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ: بَلَى كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا. صحيح البخاري (1/ 362).

- وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ. صحيح البخاري (5/ 113).

- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. صحيح البخاري (5 / 173).

قال الشيخ عبد الغني النابلسي: فلا معنى لذلك إلا أن روحانيات الموتى إما تنعم في قبورهم، أو تُعذب فيها، وذلك باتصال الروحانيات بالأجساد البالية التي خرجت من الدنيا، وهي طاهرة بالإيمان والطاعات، أو قذرة بالكفر والمخالفات، فحينئذٍ قبور المؤمنين محترمة مبجَّلَة معظمة كما كانوا قبل ذلك، وهم أحياء محترمون مبجَّلون، فإن من احتقر عالمًا أو بغضه خيف عليه الكفر، كما صرَّح بذلك الفقهاء. ولا فرق في ذلك بين الأحياء والأموات، ورأيت أن الأحياء والأموات كلهم مخلوقات الله تعالى لا تأثير لأحدٍ منهم في شيءٍ من الأشياء ألبتَّة، وإنما المؤثر هو الله تعالى وحده على كل حال، والأحياء والأموات سواء في عدم التأثير قطعًا من غير شبهة، ولكنَّ الاحترام واجبٌ في حق الجميع. كشف النور في أحكام القبور (ص43).

وقال الشيخ السبكي: عود الروح إلى الجسد في القبر، ثابت في الصحيح، لجميع الموتى فضلًا عن الشهداء، وإنما النظر في استمرارها في البدن، وهو أن البدن يصير حيًّا بها كحالته في الدنيا أو حيًّا بدونها، وهي حيث شاء الله، فإن ملازمة الحياة للروح أمر عادي لا عقلي، فهذا- أي البدن- يصير بها حيًّا، كحالته في الدنيا، مما يجوزه العقل، فإن صح به سمع اتبع.

وقد ذكره جماعة من العلماء، ويشهد له صلاة موسى في قبره، فلا تستدعي جسدًا حيًّا، وكذلك الصفات المذكورات في الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجساد، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات

وقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:122] فإذا وقع قول ﴿يحبهم﴾ بملازمة الذكر على تلك الصفات يحييها بنور المحبة ونور الذكر فوجًا بعد فوج فمتى يكذب بآياتنا لاتصافها بصفات النفس الحيوانية ﴿فهم يوزعون﴾ يجمعون حتى يحييهم الله جميعًا ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا﴾ [النمل:84] أي: إذا رجعوا إلى الحضرة ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:84] أي: بأي عمل صرتم مكذبين آياتي بعد إذ كنتم مصدقيها عند خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] في جواب ﴿بَلَى﴾ ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: وجب عليهم الصم والبكم والعمى ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ حين كانوا خلائف العذاب في المراتع الحيوانية لاستكمال القالب ظلموا على القلب والروح باتباعهما للنفس واستعمالهما في مصالحها، وذلك كان سبب فساد حالهما ﴿فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ﴾ لفساد استعداد النطق.

وبقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل:86] يشير إلى أنه تعالى كما جعل الليل في عالم الصورة سبب السكون والاستراحة والنهار سبب تحصيل المعاش والمنافع، أو لم يروا ببصر البصيرة أنه جعل ليل البشرية سبب استجمام القلب والروح واستراحتهما لحمل أعباء الأمانة وتحمل ثقل القول الثقيل كما قال تعالى لنبيه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:5] وهو يقول: «كلميني يا حميراء»[1] طلبًا للستر بعد التجلي وجعل نهار الروحانية بتجلي شمس الربوبية مشرقًا يبصر به الحق والباطل ويكاشف به أنواع المعارف ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ دلالات إلى المعارف ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إيمانًا عيانًا.

وبقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ

الأجسام التي نشاهدها بل يكون لها حكم آخر. وأما الإدراكات كالعلم والسماع- فلا شك أن ذلك ثابت لجميع الموتى، هذا كلام السبكي. وانظر: «شرح الصدور» للسيوطي (ص204).

وبالجملة فقد أخطأ بوهمه من أنكر بهذه الآية سماع الصالحين، فإن الجمهور على حياة الروح، وسماع المسلمين منهم بالأحياء، وجواز التوسل والاستغاثة بهم بعد الممات، وانظر كتابينا: «الدلائل الواضحات في جواز التوسل والاستغاثة بالأولياء بعد الممات»، وكذا «جمع المقال في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الانتقال».

(1) تقدم تخريجه.

الله﴾ [النمل:87] يشير إلى نفخ إسرافيل المحبة في صور القلب ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ الروح وهم الصفات الروحانية ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ البشرية وهم الصفات النفسانية الحيوانية وهي النفخة الأولى في بداية تأثير العناية للهداية وإلقاء المحبة التي تظهر القيامة في شخص المحبة، وفزعت الصفات هيجانها للطلب بتهييج أنوار المحبة ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ الله﴾ فالمستثنى هو الخفي وهو لطيفة مودعة في الروح قابلة لتجلي صفات الربوبية، وإنما سميت خفيًا لخفائها في الروح بالقوة، وإنما يحصل بالفعل عنه عند طلوع شموس الشواهد وآثار التجلي فلا يصيبه الفزع بالنفخة الأولى، ولا تدركه الصعقة بالنفخة الثانية ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ أي: كل الصفات تهيج عند سطوة آثار المحبة متوجهين لطلب الحق تعالى ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين مطيعين.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ [النمل:88] جبال الأشخاص ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ قائمة على حالها ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ بالصفات وتبديل الأخلاق وقطع المنازل ﴿مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وأحسنه تقديرًا وتدبيرًا ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ طوائف الخليقة من أهل السعادة والشقاوة، فقدر أحوالهم ودبر أسباب أفعالهم ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ من أهل السعادة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ من حسنات يجازيهم بها في الدنيا والآخرة كما هدى الخلق إلى طلبها بقول ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة:201] وهي استعمالهم في أحكام الشريعة على وفق آداب الطريقة بتربية أرباب الحقيقة وفي الكثرة حسنة وهي الانتفاع من عالم الحقيقة انتفاعًا أبديًا سرمديًا.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (90) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)﴾ [النمل: 89 - 93].

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل:89] لأنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر وذلك لأنهم أصيبوا بفزع المحبة فحوسبوا عن فزع يومئذ ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [النمل:90] وهي حب الدنيا الذي يعمي ويصم أهلها من طلب الحق فيقطع طريق الطلب على طالبي

الحق تعالى ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل:90] نار القطيعة وقيل لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:90] يعني طلب الدنيا فإنها مبنية على وجه جهنم ودركاتها.

وبقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل:91] يشير إلى أن العبد مأمور بعبادة رب بلدة القلب فإنه هو الله رب العالمين لا بعبادة رب بلدة القالب فإنه هي النفس الأمارة التي حرمها أي حرم بلدة القلب على الشيطان أن يدخلها ولهذا قال: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس:5] لأنه لا مدخل له في القلب ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من أسباب الألوهية والربوبية.

وبقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:91] يشير إلى أن المسلم الحقيقي من يكون إسلامه في استعمال الشريعة مثل استعمال النبي ﷺ نظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:163]؛ ولهذا قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(1) يعني في الظاهر ولو قال: صلوا كما أنا أصلي لا أحد يقدر على ذلك لأنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء وكان في صلاته يرى من خلفه كما يرى من أمامه ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [النمل:92] أي: بتلاوة القرآن وباستماعه ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:92] فيه إشارة إلى نور القرآن يربي جوهر الهداية والضلالة في معدن قلب الإنسان السعيد أو الشقي، كما يربي ضوء الشمس الذهب والحديد في المعادن يدل عليه قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26] وقال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»(2) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ على ما هداني بالقرآن ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي لو لم يكن الله أن يريكم آياته فتعرفون أنتم بنظركم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:93] كل طائفة من أهل السعادة والشقاوة بل هو الذي خلقهم وخلق منهم أعمالهم كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96] كأنه قال تعالى خلق الشجرة وخلق فيها ثمرتها كما قدر لها لقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:58].

---

(1) رواه البيهقي في الكبرى (2/ 345)، والدارقطني (1/ 273).

(2) رواه مسلم (4/ 2031، رقم 2638). وأخرجه أيضًا: أحمد (2/ 539، رقم 10969).

سورة القصص

وهي خمسمائة ألف وثمانمائة حرف، وألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة، وثماني وثمانون آية، وهي مكية إلا قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ [القصص:52] إلى قوله: ﴿لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾ [القصص:55].

وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص:85].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: 1 - 5].

﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [القصص:1- 2] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿طسم﴾ يشير إلى القسم بطاء طوله تعالى، وطاء طهارة قلب حبيبه ﷺ عن محبة غيره، وطاء طهارة أسرار موحديه عن شهود سواه، وسين سره مع محبه، وبميم منه على كافة مخلوقاته بالقيام بكفاياتهم على قدر حاجاتهم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ أي: يبين المستقيم إلى الله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى﴾ [القصص:3] القلب ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص:3] النفس ﴿بِالْحَقِّ﴾ [القصص:3] ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:3] يعني بالحاجة الضرورية في معرفتها لمن يؤمن بطلب الحق تعالى ووجدانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص:4] النفس الأمارة ﴿عَلا فِي الأَرْضِ﴾ أي: استولى من في الأرض الإنسانية ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا﴾ وهم الروح والسر والعقل ﴿شِيَعاً﴾ أصنافًا تبعًا به في استعمالهم في هواه واستيفاء شهواته ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل صفات القلب.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص:4] أي: يفني الصفات الحميدة المتولدة من ازدواج الروح والقلب ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص:4] أي: يبقي الصفات الذميمة المتولدة من ازدواج النفس والبدن ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ يعني: فرعون النفس ﴿مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ بإفساد الاستعداد الأصلي الروحاني ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [القصص:5] أي:

ننعم عليهم وهم بنو إسرائيل صفات القلب ونخلصهم من استيلاء فرعون النفس وأسره ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص:5] قدوة يقتدي بهم جميع الصفات الإنسانية في السير إلى الله ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ بعد هلاك فرعون النفس وقومه أي: صفاتها يرثونهم خواص صفاتهم وقوى البشرية وخواص الحواس.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص: 6 - 11].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:6] أرض الإنسانية ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ النفس ﴿وَهَامَانَ﴾ الهوى ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ من الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية ﴿مِنْهُم﴾ يعني: من موسى القلب وبني إسرائيل صفاته ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:6] من الهلاك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص:7] أي: إلى السر فإنه أم موسى القلب لأنه تولد من أزواج الروح والسر ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:7] من لبن الروحانية فإنه إذا أذاق طعم الروحانية حرم الله عليه المراضع الحيوانية الدنياوية ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ [القصص:7] من أعدائه: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص:7] الدنيا مع تابوت القالب ﴿وَلاَ تَخَافِي﴾ عن هلاكه من عدو فإنا نربيه في حجر عدوه فرعون النفس ﴿وَلاَ تَحْزَنِي﴾ [القصص:7] على مفارقته ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص:7] أي: مقام السر ونخلصه عن فرعون نفسه، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7] يعني: من القلوب المحدثين حتى يكون كليم الله يحدثه ربه وهو محدث ربه، كما قال بعضهم: حدثني قلبي عن ربي.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص:8] وهم صفات النفس وقوى البشرية من المتغذية والماسكة والهاضمة والذائقة وأمثالها، فإنها أسباب تربية طفل صورة معدن القلب ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً﴾ أي: عاقبة أمره أن يصير لهم عدو فيجازيهم ومعادنهم بطريق

الرياضات والمجاهدات ومخالفات الهوى، ويجزيهم بترك الشهوات واستيفاء اللذات، وإن يدعوهم إلى طاعة الله وعبوديته وإلى ما لم يلائم طباعهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ النفس ﴿وَهَامَانَ﴾ الهوى ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ من الصفات الذميمة الحيوانية ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ عاصين لله طبعًا.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص:9] النفس وهي الجثة ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص:9] يعني موسى القلب ﴿لاَ تَقْتُلُوهُ﴾ بسيف الشهوات الحيوانية ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ [القصص:9] بأن ينجينا من النار ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فكما كان اعتقاد الجثة في تربية موسى القلب كان قرة عينها وقد نفعها بالنجاة ورفع الدرجات ولما لم يكن لفرعون النفس في حقه هذا الاعتقاد بل كان متوقع الهلاك منه كان هلاكه بيده بسيف الصدق وسم الذكر ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:9] أنه لو لم يوفق لإهلاكهم لكان هلاكه على أيديهم ولما كان القرآن هاديًا يهدي إلى الرشد والرشد في تصفية القلب وتوجهه إلى الله تعالى وتزكية النفي ونهيها عن هواها وكانت قصة موسى عليه السلام تلائم وفرعون أحوال القلب والنفس فإن موسى القلب بعصا الذكر غلب على فرعون النفس وجنوده مع كثرتهم وانفراده قد كرر الحق سبحانه في القرآن ذكر قصتهما تفخيمًا لعظم الشأن ثم زيادة في البيان لبلاغة القرآن ثم إفادة لزوائد من المذكور قبله في موضع يكرره ثم أخبر عن أم موسى وفراغ فؤادها بقوله ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص:10] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص:10] يشير إلى أن لوحي الحق تعالى وإلهامه تأثيرًا في قلب كل من أوحى إليه بالسكينة والفراغ والاطمئنان بنور الوحي لما يوحى به إليه وتصديقًا به وبقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص:10] يشير إلى أنها لو لم يوح إليها تسكينًا لقلبها لكادت أن تجزع لابنها ولتبدي من ضعف البشرية بموسى أنه ابنها دليله قوله: ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص:10] يعني بتأثير الإيحاء إليها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:10] بما وعدها الله بقوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص:7] وفيه إشارة إلى أن الإيمان من مواهب الحق بأن يربط على القلوب ليؤمنوا كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة:22] وفي الآية إشارة أخرى بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص:10] وهو سر السر ﴿فَارِغًا﴾ [القصص: 10] من هم موسى القلب لما وقع بيد فرعون النفس وآله أي: صفاته وآسية القالب أنه لم

يقع في بحر الدنيا، فإن آسية القالب تنجيه لأنه قرة عين لها، وباستوائه يقوم القالب بإصلاح حاله، وإن كان فرعون النفس على استرداد موسى القلب إلى أمه يعني: السر فإنه أرضع بلبان السر وهو النوادر الروحانية يوحي الحق حين قال لأمه ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:7] فلا يقبل ثدي الأجانب، كما قال ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60] في عدوًا لي ﴿وَلاَ تَخَافِي﴾ أن يقتله فرعون النفس، بل يربيه في حجر.

وبقوله ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص:11] يشير إلى أن أم موسى القلب وهي السر قالت لأخت موسى القلب وهو السر أي العقل اتبع أثره حتى آل فرعون النفس ﴿فَبَصُرَتْ﴾ أخته العقل ﴿بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ أي: عن بعد ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ إن العقل أخت القلب أرضعا بلبان واحد.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: 12 -16].

وبقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾(1) [القصص:12] يشير إلى أنه لو لم يحرم على موسى القلب المراضع من النفس والهوى بأن أرضعناه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن يقذف في تابوت القالب مار به في بحر الدنيا بلبان الروحانية لقبل ثدي مرضعه الحيوانية فلم يرد إلى أم السر، فلما لم يقبل موسى القلب ثدي المرضعات الحيوانية ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته العقل ﴿هَلْ

---

(1) سقى الله روح موسى ألبان المعرفة من ثدي الوصلة، حين أخرجنا من العدم بنور القدم، وحرم عليها مراضع الأكوان والحدثان، ومنعها من الاستئناس بغيره من العرش إلى الثرى، لذلك أشار في القصة ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ولولا رضاعه الأول لاشتغل بألبان غير مرضعته، فسقيه لبن المعرفة فطامه عن كل شيء سواه. قال بعضهم: إشارة إلى العارف؛ فإنه لا يصلح لبساط القربة من لم يكن مرضعًا برضاعة الأنس، فمن كان رضيع مخالفة، أو رضيع وحشة، فإنه لا يصلح لبساط القربة، ألا ترى الكليم لما كان فيه تدبير الخصوصية بالكلام كيف حرم عليه المراضع؟

﴿أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:12] ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ [القصص:13] بدلالة أخته العقل ﴿إِلَى أُمِّهِ﴾ [القصص:13] وهي السر ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص:13] بوجوده وحسن استعداده لقبول الفيض الإلهي ﴿وَلاَ تَحْزَنَ﴾ [القصص:13] على فوات ولد مثله ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ لا يجوز فيه الخلف وأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ [القصص:13] من النفس والصفات ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:13] ولو علموا ما تركوا الموعود الشريف الباقي للنفس الخسيس الفاني ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ موسى القلب ﴿أَشُدَّهُ﴾ بآلة بيته وهو استعداد لقبول الفيض ﴿وَاسْتَوَى﴾ للتوجه إلى الحضرة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ [القصص:14] أي: حكمة وعلمًا وفهمًا لكلامنا ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:14] الذين أحسنوا لأنفسهم وأحسنوا في الطلب يجزيهم بالإحسان في العطاء بالأجر العظيم كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:60]، وقوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:40] وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] يعني: هذه قضية عامة لا خاصة.

ثم أخبر عما قضى ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ [القصص:15] بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ [القصص:15] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ يُشير إلى أن موسى القلب دخل مدينة الإنسانية: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص:15] وهم الصفات النفسانية ولو لم يكن على حين غفلة من الصفات لما أمكن له الدخول فيها لعداوتها إياه ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ﴾ أي: صفتين ﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أي: من صفات القلب ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: من صفات النفس ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ [القصص:15] القلب بقوة الروحانية ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: عليها وفزع منها وبقوله: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص:15] يشير أن قبل صفات النفس والجهاد معها إن لم يكن بأمر الله تعالى وسبيل المتابعة يكون من عمل الشيطان و﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ويجب الاستغفار عليه كما قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص:16] إذ جاهدتها بأمر الشيطان لا بأمرك ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص:16] لمن

يستغفره وتاب إليه.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص: 17 - 21].

﴿قَالَ﴾ موسى القلب ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالمغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:17] وهم الذين أجرموا بأن جاهدوا كفار صفات النفس بالطبع والهوى لا بالشرع والمتابعة كالفلاسفة والبراهمة والوهابيين وغيرهم وبقوله: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18] يشير إلى أن موسى القلب في ابتداء أمره إذا لم يكن محلاً لوارد الغيب مستظهرًا بالإلهامات الربانية واثقًا بظهور الآيات عليه مطمئنًا بإمداد شواهد الحق لديه فيتعدى على بعض صفات النفس مكرهًا بقوة مساعد الصدق، فيذكر سطوة سلطنة فرعون النفس واستيلائه عليه يصبح خائفًا يترقب سطوة قهره أو يترقب نصرة الله إياه ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ﴾ من صفات القلب ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ لإغاثته وإعانته على قهر صفة أخرى من صفات النفس ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ القلب على خيفة من فرعون النفس لئلا يعاقبه على ما صدر منه ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:18] بأنك تنازع ذا سلطان قوي قبل أوانه، ثم هزَّ موسى القلب حمية الدين ورجولية الطبع الروحانية، فهم بتقوية صفته على قهر صفة النفس، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ [القصص:19] يعني: موسى القلب ﴿أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ يعني: صفة القلب من خوف سطوات فرعون النفس: ﴿قَالَ يَا مُوسَى﴾ يعني موسى القلب مداهنًا ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾ [القصص:19] أحال القتل إلى صديقه ومعاونه خوفًا من عدوه ومعاداته دفعًا للضرر عن نفسه والمعنى أتريد أن تقهر هذه الصفة النفسانية، كما قهرت صفة أخرى بالأمس تهييجًا للفتنة وتحريكًا لفرعون النفس لتقوم بالانتقام، فيبدأ بقهر صفات القلب ثم يقهر القلب ﴿إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:

19] عاليًا على الأعداء ﴿الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:19] مع الأعداء مداهنين رعاية لصلاح الوقت.

وبقوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص:20] يُشير إلى العقل وهو جاءه من أقصى مدينة الإنسانية، وهو من أعلى رتبة الروحانية ساعيًا في طلب نجاته ﴿قَالَ يَا مُوسَى﴾ [القصص:20]، يعني يا موسى القلب ﴿إِنَّ الْمَلَأَ﴾ [القصص:20] يعني: فرعون النفس وقومه أي صفاتها ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص:20] يتشاورون ويحتالون في أمرك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:20] ليهلكوك ويغلبوك فاخرج من مدينة البشرية إلى صحراء الروحانية ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص:20] المرشدين إلى صلاح مالك ﴿فَخَرَجَ﴾ [القصص:21] موسى القلب ﴿مِنْهَا﴾ أي: من مدينة البشرية بنصح العقل وإرشاده وترك مألوفات الطبع ﴿خَائِفاً﴾ من سطوات فرعون النفس ومكائد جنوده من الهوى والأوصاف الذميمة الحيوانية والشيطانية ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ مكائدهم بل ينتظر هداية الحق ونصرته ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:21] بدفع شرهم عني واستيلائهم علي بل بنصرتي عليهم وتصرفي فيهم.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص: 22 - 26].

ثم أخبر عن توجه موسى القلب من مدينة البشرية الحيوانية تلقاء مدين الروحانية بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:22] يُشير إلى توجه موسى القلب إلى مدين عالم الروحانية مجتنبًا شر فرعون النفس ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:22] ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص:23] من أوصاف الروح ﴿يَسْقُونَ﴾ موسى

أخلاقهم من ماء الفيض الإلهي ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ﴾ [القصص:23]، وهما السر والخفي وهما ابنتا شعيب الروح في البداية بالتدريج فتنشأ منه الخفي وهو لطيفة ربانية مودعة في الروح بالقوة، فلا يحصل بالفعل إلا بعد غلبات الواردات الربانية ليكون واسطة بين الحضرة والروح في قبول تجلي صفات الربوبية، وإفاضة الفيض الإلهي على الروح فيكون في هذه المدة بمعزل عن الاستيفاء، وكذلك السر وهو لطيفة روحانية متوسطة بين القلب والروح قابلة لفيض الروح مؤدية إلى القلب، وهو أيضًا بمعزل عن استيقاء ماء فيض الروح عند شغل القلب بمعالجات النفس وصلاح القالب إلى حين توجه موسى القلب إلى مدين عالم الروحانية فقال لهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فارغتين من الاستقاء ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص:23] وهم صفات الروح ويصرفوا ومواشيهم وهي الصفات الإنسانية عن ماء فيض الإلهي، فإذا صدرت سقينا مواشينا من أوصافه والأخلاق ما أفاضت في حوض القوى ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:23] وهو شعيب الروح لا يقدر على سقي مواشيه من الأوصاف الإنسانية إلا بالأجر أو الوسائط، وإنا لا نطيق أن نسقي لضعف حالنا ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القصص:24] أي: سقى موسى القلب لمواشيها بقوة استنادها من الجسد وقوة استنادها من الروح؛ لأنه متوسط بين العالمين ولهذا سمي قلبًا؛ لأنه في طلب العالمين جسماني وروحاني: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [النمل:24] إلى ظل العناية فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ [القصص:24] وهو الفيض الإلهي ﴿فَقِيرٌ﴾(1) [القصص:24] فيه إشارة إلى أن السالك إذا بلغ عالم الروحانية لا ينبغي أن يقنع بما وجد من معارف ذلك العالم بل يكون طالبًا للفيض الإلهي بلا واسطة ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص:25] يشير إلى صفوة الخفي وهي بنت شعيب الروح الكبرى منهما ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾

---

(1) قال روزبهان: استظل ظل العناية وطلب من هناك حقائق الكفاية بنعت الرضا والتسليم وأظهر افتقاره إلى وصول المشاهدة حين عاين كنوز القدم مفتوحة وجلابيب الصفات مكشوفة فانبسط إليه بالسؤال حين انفرد من الخلق والخليقة. قال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من أنوار الربوبية، فافتقاره افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله لا افتقار سؤال ولا طلب. قال بعضهم: تولى إلى كهف الرعاية فإن فيه الراحة والاسترواح.

[القصص:25] به يشير إلى أن موسى القلب وإن يسلك طريق الوصول إلى صفوة شعيب الروح فإنه لا يصل إليه إلا باستحضاره لديه وهو أيضًا مشتمل من عحضري الحق الذي هو مورد الفيض الإلهي وحركاته أيضًا من نتائج الفيض وجذبات الحق تعالى وبقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص:25] يشير إلى أن القلب إذا وصل إلى مقام الروح، كما يستفيد من صفات الروح وخواصه كذلك يفيد الروح من خواص صفاته ومما استفاد من النفس وصفاتها، وبقوله تعالى: ﴿قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:25] يشير إلى أن القلب مهما يكون في مقام يخاف عليه أن يصيبه آفات النفس وظلم صفاتها.

وبقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص:26] يشير إلى أن الخفي بإشارة الحق تعالى فإنه مهبط أنواره وأسراره وإلهامه يشير إلى الروح بأن تتصرف في القلب ويستعمله في رعاية مصالحه ومصالح نفسه بقوله ﴿اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ﴾ [القصص:26] استعملت من النفس في الجسد القوي الأمين؛ لأنه يستمد القوى من الجسدانية والأمانة من الروحانية، وأنه ذو النسبين بينهما له صورة جسدانية ومعنى روحانيًا.

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص: 27 – 29].

وبقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص:27] يشير إلى الروح في تبليغ القلب على مقام الخفي يحتاج إلى سيره في مقامات صفاته الثمانية المخصوصة به في خلافة الحق تعالى وهي: الحياة والإرادة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والبقاء، فإن القلب باتصافه بهذه الصفات وقوة فوائدها يرتقي إلى مقام الخفي ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص:27] لأن هذه الاثنين تمام العشرة راجعة إلى خصوصية القلب، وهما المحبة والأنس مع الله وفي تلك الثمانية كما أن

القلب في الاتصاف بها كمالية، كذلك للروح في ازدواج صفاء القلب مع صفاته كمالية، ولهذا ذكر بلفظ الإنكاح وبقوله ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ [القصص:27] يشير إلى أن تلك الصفتين ليستا مما اختص به فلا يشق عليه بها ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص:27] الوافين بالوعد والعهد ﴿قَالَ﴾ [القصص:28] موسى القلب مع شعيب الروح ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ بالتسليم والتسلم ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص:28] في التخلق بأخلاقك الثمانية وفي المحبة والأنس مع الله ﴿فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص:28] أي: ليس لك علي أن تمنعني به عن مقامك؛ لأنك من خصوصيتك بالخلافة مجبول على هذه الأوصاف الثمانية، وأما المحبة والأنس مع الله صفتان مخصوصتان بالحضرة ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:21] ولهذا كل إنسان من المؤمن والكافر مجبول على تلك الصفات الثمانية، وليس إلا مؤمن موحد من قوم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] له هاتان الصفتان ﴿واللهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ في عقد المؤاجرة ﴿وَكِيلٌ﴾ لنا وعليه توكلنا ليوصلنا إلى أقصى مقاصدنا.

ثم أخبر عن قضاء الأجل بصدق في العمل بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ [القصص:29].

والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ [القصص:29] يشير إلى موسى القلب أنه لما اتصف بالصفات الثمانية للروح كما مر ذكرها وغلبت عليه محبة الله واستأنس به ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أي: سار بجميع صفاته متوجهًا إلى مصر حضرة الربوبية ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ طور الحضرة ﴿نَاراً﴾ وهي نار نور الإلهية: ﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص:29] يُشير به إلى أن التجريد في الظاهر والتفريد في الباطن، فإن السالك لابد له في السلوك من تجريد الظاهر عن الأهل والمال، وخروجه عن الدنيا بالكلية فقد قيل أن الكاتب عبد ما بقي عليه درهم، ثم من تفريد الباطن عن تعلقات الكونين فبعدما تفرد عن التعلقات يشاهد شواهد التوحيد، فإذا ما تبدو له في صورة شعلة النار كما كان لموسى والكوكب كما كان لإبراهيم عليهما السلام، أكوكب ما أرى يا سعد أم نار تشبها سهلة الخدين معطار، ومن جملتها اللوامع والبروق والطوالع والسواطع والشموس والأقمار إلى أن ينجلي نور

الربوبية مع مطلع الإلهية نور ببدور إذا بدا استمكن وشمس طلعت ومن رآها آمن.

وبقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:29] يُشير إلى أن أوصاف الإنسانية جامدة من برودة الطبيعة لا تسخن إلا بجذوة نار المحبة بل بنار الجذبة الإلهية.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص: 30 - 34].

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [القصص:30] أي: أتى موسى القلب بعد التفريد متوجهًا إلى رتبة التوحيد ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ﴾ [القصص:30]، وهو السر ﴿فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ شجرة الإنسانية ﴿أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [القصص:30]، وبقوله ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص:31] يشير إلى إلقاء كل متوكأ غير الله للسالك ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا﴾ [القصص:31] لأنه شاهد أنه ما اتخذ للاتكاء من دون الله هو حية فيها هلاكه فلما ولى عنه: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع إلى اتخاذه متكأ راجعًا إلى الله بالكلية نودي موسى القلب، ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ﴾ [القصص:31] بعد التولي عنه والرجوع إلى ﴿إنك مِنَ الآمِنِينَ﴾ [القصص:31] عن مكائد الخائنين ملتجأ بحضرة رب العالمين.

وبقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص:32] يشير إلى مسك اليد عن التصرفات في الكونين وقطع التعلق عنها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ [القصص:32] نقية من لوث الطمع ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص:32] أي: من غير مضرة يعيبها في ذلك الترك وقطع التعلق عنها ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص:32] جناح همتك عن طيران شر النفس في طلب صفة الدنيا وعن طيران بازي القلب في طلب طاووس نعيم الآخرة ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: رهبة من فوات وصلات الحضرة وصلاتها ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ في الإعراض

عن الدنيا والآخرة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ النفس ﴿وَمَلَئِهِ﴾ من الصفات بأن تظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص:32]، خارجين عن طاعة الله وعبوديته ﴿قَالَ﴾ موسى القلب ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ [القصص:33] أي: صفة من صفات النفس ﴿فَأَخَافُ﴾ إن رجعت إليهم للدعوة إلى الحضرة أو لإهلاكهم ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:33] بالاستيلاء والغلبة فإن لهم أعوان من الشيطان والدنيا وإخوان السوء ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:34] به يشير إلى هارون العقل فإنه معدن الأسرار ومنبع الأنوار ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ فيما أقول مع من يكذبني تقوية لي على المكذبين وذلك قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:34]، فإن من خاصية تمرد فرعون النفس تكذيب الناطق بالحق، ومن خصوصية هارون العقل تصديق الناطق بالحق.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص: 35 - 39].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [القصص:35] به يشير إلى أن القلب وإن كان مترقيًا إلى الحضرة الربانية يحتاج إلى العقل المشدد عضده به ليكون كامل الاستعداد في قبول الفيض الإلهي، ويكونا مؤيدين بالتأييد الإلهي، ولهما سلطان على غيرهما، ولا يصل إليهما سلطان الأغيار وتكون الغلبة لهما ولمتابعيهما وذلك قوله ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص:35].

ثم أخبر عن إنكار الأسرار على الأخيار بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ﴾ [القصص:36] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [القصص:36] يشير إلى أن موسى القلب وإن بلغ مقامات القرب الرباني وصار كالمرآة المصقولة المتجاذبة للشمس قابلة لانعكاس أنوار الشمس، فتظهر آياتها البينات فإن

فرعون النفس وملأ صفاته يرونها سحرًا مفترٍ كما ﴿قالوا مَا هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص:36] لأن النفس خلقت من أسفل عالم الملكوت متنكسة، والقلب خلق من وسط عالم الملكوت متوجهًا إلى الحضرة فما كذب الفؤاد ما رأى، وما صدقت النفس ما رأت، فيرى القلب إذا كان سليمًا أن من الأمراض والعلل الحق حقًا والباطل باطلاً والنفس يرى الحق باطلاً والباطل حقًا ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه»(1).

وكان ﷺ في ذلك سلامة القلب عن الأمراض والعلل وهلاك النفس وقمع هواها وكسر سلطانها ويقوله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ [القصص:36] الذي تدعونا إليه يعني من التوحيد ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص:36] يشير إلى طبائع الكواكب السبعة فإنها آباء النفس وأساسها العناصر الأربعة، والطبائع منكوسة إلى عالم السفل متوجهة إلى التفرقة متباعدة عن التوحيد فلا تسمع متولداتها عن التوحيد بل تسمعها عن شرك الشركاء بحسب نظرها في رؤية الوسائط وتقيدها بها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ [القصص:37] القلب بعد إنكار فرعون النفس وتكذيبها إياه ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْـهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾ [القصص:37] أنه صادق فيما جاء به متوكلاً على الله فيما يجري على فرعون النفس من الإنكار حكمة منه تسليمًا لأحكامه طالبًا لرضا الحق تعالى لا هاربًا من سخط الخلق قال قائلهم:

فَلَيْـتَكَ تَحْلُـو وَالحَيَـاةُ مَرِيـرَةٌ وَلَيْـتَكَ تَـرضَى وَالأَنَـامُ غِـضَابُ
وَلَيْـتَ الَّـذِي بَيْنِـي وَبَيْـنَكَ عامِـرٌ وَبَيْنِـي وَبَيْـنَ العالَمِـينَ خَـرابُ(2)

وبقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يُشير إلى أن الواجب على كل نفس السعي في نجاتها ولو هلك غيرها لا يضرها فإنها متحققة في ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:26]، ويقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:38]، يشير إلى أن استعداد فطرة الإنسان الذي

---

(1) ذكره حقي (10/ 152).

(2) البيتان للحلاج، وهما من بحر «الطويل»، وأيضًا قالها أبو فراس الحمداني.

خلق في أحسن تقويم إذا فسد تصير معرفته نكرة وإقراره بالعبودية يستدل به بالألوهية، ويسعى بعد إثبات الإله في نفسه حتى يقول لوزيره وهو هامان الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:36] ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ﴾ بنفخ الوساوس والغرور ﴿عَلَى الطِّينِ﴾ طينة البشرية ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص:38] من الشبهات المخيلة الموهومة ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ هل له وجود أم لا ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ [القصص:38] أي: مع أني أتيقن أنه ﴿مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [القصص: 38] في ادعاء إله غيري.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ [القصص:39] أي: فرعون النفس وصفاتها ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أرض الإنسانية ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ أي: بغير أمر الحق، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ﴾ [القصص:39] طائعين أو كارهين كسائر الموجودات، ولم يعلموا أن الرجوع إلى الحضرة من خصوصية الإنسان طوعًا أو كرهًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: 8]، وقال: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [القصص: 40 - 45].

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ [القصص:40] أي: النفس وصفاتها ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ﴾ وهو بحر الدنيا وماؤها الغفلة والشهوة، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 40]، إذا غرقوا في ماء الغفلات والشهوات كيف ادخلوا نار الحسرات والقيعان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ [القصص:41] أي: النفوس المتمردة الفرعونية ﴿أَئِمَّةً﴾ [القصص:41] أي: رؤساء وقادة يدعون بالمعاملات الطبيعة أهل الطبيعة إلى النار نار القطيعة، ويوم القيامة قيمة العشق والطلب لأربابها لا ينصرون أهل الطبيعة المتمكنة فيها المستهلكة في

بحر الشهوات أي: لا ينفعهم نصره أرباب الصدق والمطلب لإفساد الاستعداد الفطري للطلب باستعماله في طلب الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص:42] أي: طردًا وإبعادًا بسوط مخالفات الشرع وموافقات الطبع ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾؛ لأنهم قبحتهم معاملاتهم القبيحة كما أحسن وجوه المحسنين معاملاتهم الحسنة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:60] جزاء السيئة إلا السيئة.

ثم أخبر عن الرسالة أنها موجبة للهدى من الضلالة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [القصص:43]، والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص:43].

يشير إلى أن استحقاق موسى القلب مقام القرب ونزول الوحي والإلهام والمكالمة وكشف العلوم بعد هلاك فرعون النفس وصفاتها بصائر للناس ليبصروا أن المجاهدات تورث المشاهدات وأن القلوب محجوبة عن الله بحجب النفس وصفاتها فإذا فنيت دفعت الحجب وظهرت المواصلات والمشاهدات والمكاشفات: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [القصص: 43] أن هذا المعنى يكون سبب خروج الناس عن الضلالة في تيه الدنيا وطلبها ويرحم الله تعالى عليهم بهذه الهداية ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنهم كانوا في عالم الأرواح إذ لم يكونوا محتجبين بالنفس وصفاتها مستمعين بخطاب الحق تعالى مجيبين له حين قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، فكذلك الآن لو تخلصوا عن حجب النفس لعادوا مكالمين الحق والمخاطبين له.

ويقوله ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص:44] يُشير إلى أنك ما كنت في غرب العدم بل كنت في شرق الوجود بعد في عالم الأرواح: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ في اتخاذ عهده أن يؤمن بك ويأمر أمته بالإيمان بك والنصرة لك كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:81]، وما كنت من الشاهدين الذين شهدوا على الميثاق في عالم الغيب من الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً﴾ [القصص:45] في عالم الشهادة ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ محجوبين بحجب النفس وصفاتها متعينين للهوى

في ارتكاب المعاصي واستيفاء الشهوات، فنسوا تلك العهود والمواثيق بقساوة القلوب جحدوا ما أقروا به.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مقيًا بينهم كشعيب وموسى ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص:45] كما كان شعيب وموسى يتلوان عليهم كتبنا المنزلة إذا أخذت من شعيب وقومه ميثاقهم أن يؤمنوا بك وما كتب بعد الرسول المرسل ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الذي أخذنا منهم ميثاقهم للإيمان بك، وما كتب بعد الرسول المرسل بك وهذا كله تسلية للنبي ﷺ، وإظهار العناية في حقه بما لم يكن مع نبي آخر، ومما كان الرسل يتلون على أممهم من آيات ربهم نعت نبينا ﷺ بالثناء الجميل، وذكر الله بحسن السيرة كرامةً لهم في غيبتهم.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص: 46 - 50].

كما قال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص:46] يعني حين سأل موسى ربه: إني أرى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا من هم؟ فقال: أمة محمد ﷺ حتى سأل عن أوصاف كثيرة وعن الجميع كان يجيب أنه أمة أحمد فاشتاق موسى إلى لقائهم فقال: إنه ليس اليوم وقت ظهورهم فإن شئت أسمعتك كلامهم كما مر ذكره ثم نادى فقال: يا أمة محمد فيه إشارة لطيفة وهي أن الله ﷻ لكرامة محمد ﷺ وشرفه أخذ الميثاق من موسى للإيمان به في غيبته وفي حضور موسى ما نادى محمدًا لأجله بل نادى أمته له ومن عليه باستماع كلامهم إياه وكما نادى موسى في الوجود حاضرًا نادى أمة محمد ﷺ وهم في العدم غائبين فهو كائن لهم حين لم يكونوا لأنفسهم كما قيل:

كُـــــنْ لي كـــــما كُـــــنْتَ في حـــــالٍ لم أكُـــــنِ

وبقوله ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يشير إلى أن ما أنعمنا به عليك وعلى أمتك في

النداء بجانب الطور مباهاة بك وبأمتك على موسى وأمته لم يكن لكسبكم وسعيكم فيه مساعًا، ولكن كان رحمة خاصة من ربك أي: من كرم ربك ونعمه عليك وعلى أمتك ومن نتائج تلك الرحمة أنه لو لم أسمعهم ندائي وأمتك في العدم بلا هم لم استعدوا لقبول إنذار أمر دعوتك لهم إلى التوحيد في الوجود إذ لم يكونوا متعودين بدعوة الأنبياء ولا بقبول دعوتهم وذلك قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:46] يعني: يتذكرون من خاصة استماع ندائنا واستعداد أجابتنا فيما ناديناهم وإنما أفردهم بالنداء دون محمد ﷺ لأنهم كانوا محتاجين إلى تصرف خصوصية النداء فيهم لا محمد ﷺ لكمال استعداده الفطري بخصوصية حبيب الإلهية.

ثم قال: ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [القصص:47] أي: مصيبة الجحود في قبول الدعوة إلى التوحيد ﴿فَيَقُولُوا﴾ بلسان الحال ﴿رَبَّنَا لَوْلا﴾ أي: هلا ﴿أَرْسَلْتَ﴾ نداءك ﴿إِلَيْنَا﴾ أي: إلى أسماعنا ونحن في العدم نستعد لقبول الدعوة في الوجود ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ في قبول دعوة نبيك ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين جعلتهم مستعدين للإيمان وقبول الدعوة وهم في العدم وجواب ﴿لَوْلا﴾ محذوف تقديره لولا أن تقتضي العناية الأزلية في حق هذه الأمة دفع حجتهم علينا ما ناديناهم وهم في العدم وما أسمعناهم نداءنا ولم نوفقهم وهم بلا هم لإجابة ندانا ثم أخبر عمن لم تدركهم العناية في البداية بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ [القصص:48].

والإشارة في تحقيق الآيات بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ [القصص:48] يشير إلى محمد ﷺ إنما بعث بعد وصوله إلى مقام العندية واستحقاقه أن يسميه الله الحق وهو اسمه تعالى وتقدس ففيه إشارة إلى كمال فنائه عن أنانيته وبقائه بهوية الحق تعالى وله ﷺ أن يقول: أنا الحق وإن صدرت هذه الكلمة عن بعض متابعيه فلا عدوان أن يكون من كان صفاته مرآة قلبه في قبول عكس ولاية النبوة إذ كانت محاذية لمرآة قلبه ﷺ فكان منبع ماء هذه الحقيقة قلب محمد ﷺ ومظهره لسان هذا القائل بتبعيته ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:21].

وبقوله: ﴿قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ [القصص:48] يشير على أنهم لما كفروا بمحمد ﷺ احتجبوا بكفرهم عن رؤية كماليته وإلا لقالوا: أوتي موسى مثل ما أوتي

محمد من الكمالات في القربة والمعرفة والمحبة والفضائل السنية التي فضله الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين والمقام المحمود الذي خصه به ثم قال: ﴿مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ [القصص:48] أي: من قبل أن يكفروا بمحمد، فكان كفرهم بمحمد ثمرة بذر كفرهم بموسى عليهما السلام فقالوا: ﴿سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص:48] أي يعاون بعضهم بعضًا في تمشية السحر ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص:48] أي: بكلية وجودنا بالكلية فإن ظلمة الكفر على الكفر أعني الكفر بموسى والكفر بمحمد اتخذت أجزاء وجودنا بالكلية، فلم يبق منها موضع إلا وقد وصلت ظلمة الكفر إليه، وهذا معنى الختم الذي ذكره الله بقوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:7] وكذلك هو الدين الذي قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14].

وبقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص:49] يُشير إلى أن من كان مرجوعه إلى الله متقربًا إليه فإن الله على تعينه: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا» يفتح عليه أبواب فضله وكرمه، ويلهمه حقائق العلوم وأسرارها ودقائقها ويكشف له معان ولطائف، وإن كان من الغيب ما لا يحصل بالدراسة من كتب الله وهو أهدى إلى الحضرة مما يحصل بالقراءة والسماع والمطالعة؛ لأنه يحتمل أن يسمع خطاب الحق تعالى بلا واسطة أو يكلمه صريحًا، فمن لم يكن له هذه الرتبة عند الله ولم يكاشف بنوع من هذه المقامات فإنه محجوب عن الحضرة بهوى نفسه تدل عليه ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ [القصص:50] أي بإتيان نوع مما ذكرنا ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص:50] وفي قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص:49]، إشارة أخرى وهي أن لو كان لطالب صادق ومريد حاذق شيخ يقتدي به وله شأن مع الله ثم استعد بشيخ كمثله كامل هو أهدى إلى الله منه وجب عليه اتباعه والتمسك بذيل إرادته حتى يتم أمره ولو تجدد له في أثناء السلوك هذا الاستعداد بشيخ آخر كما من الأول والثاني هلم جرا يجب اتباعه إلى أن يظفر بالمقصود الحقيقي وهو الوصول إلى الحضرة بلا اتصال وانفصال.

وبقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ﴾ [القصص:50] يشير إلى أن أهل الحسبان لو لم يعدوهم الذين يحسبون أنهم لو جاهدوا أنفسهم على ما دلهم به العقل

بغير هدى من الله أي بغير متابعة الأنبياء - عليهم السلام - أنهم يهتدون إلى الله ولا يعلمون أن من يجاهد نفسه في عبودية الله بدلالة بالعقل دون متابعة الأنبياء هو بتابعية هواه ولا يتخلص أحد عن أسر الهوى بمجرد العقل فلا تكون عبادته مقبولة إذ هي مشوبة بالهوى ولا يهتدي أحد إلى الله بغير هدى من الله كما أن نبينا ﷺ مع كمال قدرته في النبوة والرسالة احتاج في الاهتداء إلى متابعة الأنبياء كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90] ولهذا السر بعث الأنبياء واحتاج المريد للشيخ المهتدي وإلى الله يهدي من الله وهو المتابعة ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:50] وهم الذين وصفوا متابعة الهوى في موضع متابعة الأنبياء وطلبوا الهداية عن غير موضعها.

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: 51 - 55].

ثم أخبر عن البيان والتفصيل أنه في التوصيل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص:51] والإشارة عن البيان في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص:51] يشير إلى توصيل القول في الظاهر بتفهيم المعنى في الباطن أي فهمناهم معنى القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:51] عهد الميثاق إذا آمنوا بجواب قولهم ﴿بَلَى﴾ وأقروا بالتوحيد فيجدون الإيمان عند سماع القرآن.

وبقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ [القصص:52] يشير إلى قلوب من آتاهم حقيقة الكتاب في عالم الأرواح قبل أن يؤتي النفوس في عالم الصورة والأشباح كما كان حال عيسى عليه السلام إذ قال في المهد ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ﴾ [مريم:30] يعني حقيقة الكتاب قبل أن يؤتيه في عالم الصورة صورة الكتاب فبهذا الاعتبار ومن أوتي حقيقة القرآن في عالم الأرواح ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمن به النفوس في عالم الصورة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:53] أي القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ [القصص:53] أي: تؤمن قلوبهم لعرفانهم بحقيقة كلام الله، فهو من نفوسهم بتبعية

القلوب إذ سمعوا منهم قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ [القصص:53] أي: قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:53] مؤمنين به ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص:54] مرة في عالم الأرواح إذا أوتوا حقيقة الكتاب، فذلك أجر القلوب ومرة في عالم الأشباح إذا أوتوا صورة الكتاب وذلك أجر النفوس ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:54] على مخالفة هواهم وموافقة أوامر الشرع ونواهيه ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [القصص:54] أي بأدائهم الحسنات من الأعمال الصالحة يدفعون ﴿السَّيِّئَةَ﴾ أي ظلمتها وهي مخالفة الشريعة كما قال النبي ﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تمحوها»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:114] وهذا لعوام المؤمنين ولخواصهم أن يدفعوا بحسنة ذكر لا إله إلا الله عن مرآة القلوب سيئة صدأ حب الدنيا وشهواتها وأخص خواصهم أن يدفعوا بحسنة ففي لا إله سيئة شرك وجود الموجودات بقطع تعلق القلب عنها وغض بصر البصيرة عن رؤية ما سوى الله لإثبات وجود إلا الله كما كان الله ولم يكن شيء ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [القصص:54] من الوجود المجازي ﴿يُنفِقُونَ﴾ [القصص:54] في طلب الوجود الحقيقي ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ [القصص:54]، وهو طلب ما سوى الله ﴿أَعْرَضُوا وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ [القصص:55] في بذل الوجود المجازي لنيل الوجود الحقيقي ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [القصص:55] في اكتساب مرادات الوجود المجازي به واستجلاب مضرات الشهوات وترك الوجود الحقيقي والحرمان عن سعادة الانتفاع بمنافعه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص:55] سلام مودع مفارق لا تحية مواصل موافق لأنا لا ينتفي الجاهلين الغافلين عن الله، وطلب المحجوبين عن الله بما سواه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى

(1) رواه أحمد (5/ 228، رقم 22039).

يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: 56 – 60].

ثم أخبر عن أهل الهداية في الهداية بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:56] يشير إلى أن الهداية في الحقيقة فتح باب العبودية إلى عالم الربوبية وذلك من خصائص قدرة الله تعالى لأن لقلب العبد بابين: باب إلى النفس والجسد وهو مفتوح أبداً وباب الروح في الحضرة وهو مغلوق لا يفتحه إلا الفتاح الذي بيده المفتاح.

كما قال تعالى لحبيبه ونبيه ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ﴾ [الفتح:1، 2] أي بأن يهديك ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:2] إلى الحضرة كما هداه ليلة المعراج إلى قرب أو أدنى وقال في حق المغلوق أبواب قلوبهم ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24] وقال ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبله كيف يشاء فإن يشاء أقامه وإن شاء أزاغه»[1] فالنبي ﷺ مع جلال قدره لم يكن آمنًا على قلبه وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلب عبدك على دينك وطاعتك»[2] والهداية عبارة عن تقليب القلب من الباطل وهو ما سوى الله إلى الحق وهو الحضرة فليس هذا من شأن غير الله كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:56] وهم الذين أصابهم رشاش النور المرشش على الأرواح كما قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليه من نوره فمن أصابه ذلك النور قد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل»[3].

وبقوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص:57] يشير إلى مقالة النفس وصفاتها تحت القلب لقالوا اتبعنا هدى الله معك نتخطف بجذبات الألوهية من أرضنا أرض الأنانية قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾[4]

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

(4) وقال الشيخ روزبهان: حرمهم بالحقيقة قلب محمد ﷺ، وهو كعبة القدس، وحرم الأنس، وسرادق مجد

[القصص:57] في الهوية ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:57] أي حقائق كل ثمرة روحانية وجسمانية ولذائذ كل شهوة راجعة إليه إذ هي صارت منه وفي حقيقة لذائذه وإليه يعود ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:57] لا من لدن المخلوقات ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ [القصص:57] أن أكثر الخلق ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:57] كمالية ذوق الرزق اللدني كما لا يعلمون أكثر العلماء دون العلم اللدني؛ لأنهم لم يذوقوه ومن يذق لا يدري.

ثم أخبر عن هلاك البشر في دعوى البطر بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ﴾ [القصص:58]، فيه الإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص:58] يشير إلى قلوب أفسد شمورها عيش النفوس البطرة المتنعمة ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [القصص:58]، وهي الصدور ﴿لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ﴾ [القصص: 58] أي: من فساد حالهم ما يسكن فيها نور الإسلام ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [القصص:58] من نور الإسلام، ذلك أن مسكن نور الإسلام الصدر قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:22] ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:58] بأن يرجع نور الإسلام إلى الحضرة لعدم استعداده لقبول الأنوار ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ [القصص:59] أي قرى القلوب ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ [القصص:59] أي روحها فإن القلب من سر تلك الروح ﴿رَسُولاً﴾ [القصص:59] أي: ورده من نفحات الحق ﷻ.

كما قال تعالى: «ألا إن في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها»[1] ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: تصل روائح النفحات إلى سويداء القلوب هواء حب الدنيا وضيم شهواتها فأعرضت عن نفحة الحق وتعرضت لنفحات الشيطان وهو حبس النفس، فأدركتها الغيرة الإلهية وأهلكتها نفحة الحق تعالى المتعرض لنفحة الشيطان الرجيم وذلك معنى

- تجلي جلاله وجماله يجبى إليه ثمرات جميع أشجار الذات والصفات، من دخل ذلك الحرم بشرط المحبة والموافقة كان آمنا من آفات الكونين والعالمين، وكان منظور الحق في العالم، وهكذا كل من دخل في قلب وليٍّ من أوليائه، وقلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات، من دفع عنه خاطر الوسواس والهواجس يجبى إليه من أشجار الأنوار ثمرات الأسرار. [العرائس].

(1) ذكره حقي فس تفسيره (1/ 37).

قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:59]، وبقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم﴾ [القصص:59] يا أرباب القلوب المهلكة والنفوس المتمردة أي: وما أوتيتم من مستلذات النفس وشهوات الدنيا ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص:59] أي هي فانية موجبة لعذاب الأبد ﴿وَمَا عِندَ اللهِ﴾ [القصص:59] كما قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(1)، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: 60] لكم وهو موجب لسعادة الأبد ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:60] لكي لا يؤثر السعادة الأبدية على الشقاوة الأبدية.

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص: 61 - 65].

ثم أخبر عن الفرق بين العاقل وبين الغافل بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾(2) [القصص:61] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ﴾ [القصص:61] يشير إلى ما وعد لعوام المؤمنين وهو الجنة ولخواصهم وهو الرؤية ولأخص خواصهم وهو الوصول والوجدان. كما قال: «ألا من طلبني

---

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 313، رقم 8128)، والبخاري (3/ 1185، رقم 3072)، ومسلم (4/ 2174، رقم 2824)، والترمذي (5/ 346، رقم 3197) وقال: حسن صحيح.

(2) قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ﴾ الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة، والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية، والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة، فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلَّ عليه قوله: «وصنف لا يتستّر الرب عنهم»، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة.

وجدني»(1).

وأوحى إلى عيسى عليه السلام: تجوع تراني تجرد تصل إلي ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ﴾ الفانية ﴿الدُّنْيَا﴾ التي يبدل طعوم عسلها سموم حنظلها، وليس من أكرم بوجدان مولاه كمن مني بالوقوع في الجحيم في عقباه بإزاء شهوة ساعة وجدها في دنياه ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ مع الشياطين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ربهم وهو عليهم غضبان: ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:74] أنهم شركاؤكم تعبدونهم كما تعبدونني أهم يخلقون كما أخلق؟ أم هم يرزقونكم كما رزقتكم؟ أم هم ينصرونكم اليوم ويخلصونكم من قهري وعذابي؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص:53] في الأزل بأن يكونوا من أهل النار والمراد وبين يدل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:13] ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ بتقديرك ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ بما قضيت لنا ولهم الغواية والضلالة مساكين بنو آدم إنهم من خصوصية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] يحفظون الأدب مع الله في أقصى البعد كما يتأدبون الأولياء على بساط أقصى القرب ولا يقولون أغويناهم كما أغويتنا كما قال إبليس صريحًا ولم يحفظ الأدب قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ [الأعراف:16] ومن يحفظ الأدب يقولون ربنا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ تبرؤا منهم ومن عبادتهم إياهم ندامة على ما جرى عليهم بتقدير الله بلا جهدهم وقصدهم وإبليس من أعوان نكرانه عاند الحق تعالى وتكبر على من كرمه وشرفه بقوله: لما خلقت سيدي وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:76] وحقره وقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ﴾ [الحجر:33] من طين واعترض على الحق تعالى وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:76] وأبى واستكبر وما ندم عما صدر منه ولم يقل أنا أتبرأ مما فعلت وأسجد لآدم الآن وبقوله: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص:64] يشير إلى أنكم أشركتم من دعوتهم فلم يستجيبوا لكم وأعرضتم عن توحيدي وأنا قلت لكم ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:

(1) تقدم تخريجه.

60] بل كنت أنزل كل ليلة من غاية الكرم والرحمة إلى السماء الدنيا مع تنزهي عن نزول وصعود هو من شأن المخلوقين وصفاتهم وأنادي: هل من داع فاستجيب له وهل من تائب فأتوب عليه، فما كنتم من الداعين لي ولا من التائبين إليَّ.

وبقوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:64] يشير إلى تحقق نفوسهم أنهم لو كانوا يهتدون إلى الحق وسبيل الرشاد ليرون عذاب الفطام عن المألوفات وترك الشهوات واللذات النفسانية الحيوانية ومشقة التزكية عن الأوصاف المذمومة وأذية الخروج عن طبيعة البشرية، وتحمل أعباء الشريعة على خلاف الطبيعة، وهذا كما قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ كما مرَّ شرحه وبقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:65] يشير إلى حقيقة مطالبة الحق تعالى عباده في إجابتهم المرسلين على حسب أحوالهم وحسب دعوى الأنبياء فإنهم كانوا يدعون الأمم إلى التوحيد؛ ليستعدوا لدخول الجنة ونيل درجات القرب، وأما نبينا ﷺ مختص بالدعوة على الله.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:45- 46] فمن أجاب الدعوة بالرغبة فسؤاله سؤال المحبة ومن لم يجب الدعوة إلا بالوهية فسؤاله سؤال الهيبة، فلا تبقي لهم تميز لهم ولا قوة عقل ولا مكنة جواب.

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القصص: 66 - 70].

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص:66] لا يحتجون بحجةٍ لاستيلاء الحيرة عليهم واستكان المدهش منهم فلا نطق ولا عقل ولا تميز ولا فهم ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ رجع إلى الحضرة على قدمي المحبة وصدق الطلب ﴿وَآمَنَ﴾ بما جاء به النبي ﷺ من الدعوة إلى الله، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ليتمسك بذيل متابعة دليل كامل واصل

صاحب قوة وقدرة يوصله إلى الله تعالى ﴿فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الفائزين عن أسرار النفس المخلصين من حبس الأنانية إلى فضاء وسعة من الهوية.

ثم أخبر عن المختار لنيل هذه الأسرار بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [القصص:68] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:68] يشير إلى مشيئته الأزلية في الخلق والاختيار في خلق، وأنه مختار يخلق ما يشاء كيف يشاء ثم يشاء ولا يشاء متى يشاء وله الاختيار في خلق الأشياء، فيختار وجود بعض الأشياء على عدمه فيوجده، ويختار عدم بعض الأشياء على وجوده فيعدم، ويختار بقاء بعض الأشياء في الوجود فيجعله باقيًا ولا يفنيه، ويختار بعض الأشياء في العدم فينشئه فانيًا في العدم ولا يوجده.

وله الخيرة في أن: يخلق بعض الأشياء جمادًا وبعض الأشياء نباتًا وبعض الأشياء حيوانًا وبعض الأشياء إنسانًا. وأن يخلق: بعض الإنسان كافرًا وبعض الإنسان مؤمنًا وبعضهم وليًّا وبعضهم نبيًّا وبعضهم رسولاً. وأن يخلق: بعض الأشياء شيطانًا وبعضها جنًا وبعضها ملكًا وبعض الملك كروبيًا وبعضهم روحًا.

وله أن يختار: بعض الخلق مقبولًا وبعضهم مردودًا وليس لشيء من هذه الأشياء اختيار فيما هو به ولا أن يكون شيئًا آخر بعدما اختار له الله، كما قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:68] من أمرهم أي: في وجودهم على ما هم به لا على غير ما هم به، ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى﴾ منزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويشاركون له في الاختيار.

وبقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:69] يشير إلى مكنونات الأوصاف النفسانية والأوصاف القلبية والأوصاف السرية والأوصاف العقلية والأوصاف الروحية، فإنه هو الذي أودع في وجود هذه الودائع حين خمر طينة آدم بيده أربعين صباحًا فهو العالم الخبير به، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14] هو الخبير بما أودع فيه من الأوصاف وهي على ضروب ثلاثة:

ضرب منها: ما هو فيه بالقوة ولم يحصل فيه بالفعل فلا يطلع عليه صاحبه إلا بعد حصوله بالفعل فيظهر فيه داعية استعمال فيطبع عليه أن فيه هذه القصة وإن لم يستعملها حتى يصير علنًا فيبقى فيه سرًا مكنونًا فالله يعلم سره وعلانيته، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا

تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ [القصص:69] أي: ما يخفون ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:69] أي: ما يظهرون.

والضرب الثاني: منها ما قد حصل فيه بالفعل ويظهر عليه بما يحضر بباله داعية استعمال في العلن وإن لم يعلنه.

والضرب الثالث: منها ما يعلنه بالاستعمال في الظاهر ﴿وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ﴾ يصلح للألوهية ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ وهو المتفرد بعز الهيبة والمنفرد بجلال ربوبية لا شبيه يساويه ولا نظير يضاهيه، ﴿لَهُ الحَمْدُ﴾ [القصص:70] استحقاقًا على عظمته والشكر استحبابًا على نعمه ففي الدنيا المحمود الله، وفي العقبى الشكور الله ﴿لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ﴾ [القصص:70] فيما يخلق ويختار فهو بالرجوع إلى الحضرة بطريق ويعز ويذل ويحيي ويميت ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:70] بالاختيار والاضطرار فأما بالاختيار فهو الرجوع إلى الحضرة بطريق السير والسلوك والمتابعة والوصول وهذا مخصوص بالإنسان دون غيره، وأما بالاضطرار فقبض الروح والحشر والنشر والحساب والجزاء بالثواب والعقاب.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: 71 - 75].

ثم أخبر عن الليل والنهار أنهما من نعمته وآثار رحمته بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ﴾ والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [القصص:71] يُشير إلى ليل الفراق عند استعلاء ظلمة البشرية أن جعله عليكم سرمدًا لا نهارًا للوصال له إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [القصص:71] يخرجكم من ليل الفراق إلى نهار الوصال، وفيه إشارة أخرى وهي أن تعلم أن ليل الفراق ونهار الوصال بإيتاء الحق ليس لغيره تصرف فيهما هو الذي يولج

الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ بسمع الحقيقة لتشكروا الله الذي ينعم عليكم بذهاب ليل الفراق وإيتاء نهار الوصال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ﴾ [القصص:72] نهار الوصال بطلوع شمس التجلي ﴿سَرْمَدًا﴾ لا ليل له ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾ [القصص:72] ستر ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ عن وعثاء سطوة التجلي وتستريحون فيه من نصب تحمل أعبائه، فإن النبي ﷺ مع كمال قوته عند حمل أعباء الوحي لما غلب كان يقول لعائشة رضي الله عنها: «كلميني يا حميراء»[1] وذلك لتخرجه من سطوات شمس التجلي إلى سر ظل البشرية ليستريح من التعب والنصب وليس هذا الستر من قبيل الحجاب، فإن الستر يكون عقيب التجلي وهو سحاب الرحمة والمحبة لا حجاب الرحمة والمحبة، وذلك من جملة ما كان النبي ﷺ محميًا به إذ كان يقول: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[2] به يخبر عن الستر والتجلي وذلك من غاية اللطف والرحمة والحجاب ما يكون العبد محجوبًا عن الحق تعالى وذلك من غاية القهر والعزة.

كما قال تعالى في المقهورين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:15] وبقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يشير إلى أنكم لا تنظرون ببصر البصيرة أن الجبل لم يستقر مكانه عند سطوة تجلي صفة الربوبية وجعله دكًا وخر موسى مع قوة نبوته صعقًا، وذلك التجلي في أقل مقدار طرفة عين، فلم دام كيف يعيش الإنسان الضعيف، وهذا كما أن فلك الشمس تدور في بعض المواضع وجوبًا لا غروب للشمس فيه فنهاره من شدته فلا يعيش الحيوان فيه، ولا ينبت النبات فيه من قوة حرارة الشمس فيه، وكذلك يدور فلك الشمس في بعض المواقع بعكس هذا تحت الأرض ليس للشمس طلوع فليله سرمدي لا يعيش الحيوان أيضًا فيه ولا ينبت النبات، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص:73] أي: ليل الستر ونهار التجلي ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في ليل الستر

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه أحمد (4/ 211، رقم 17881)، وعبد بن حميد (ص 142، رقم 364)، ومسلم (4/ 2075، رقم 2702)، وأبو داود (2/ 84، رقم 1515)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 144، رقم 446)، وابن حبان (3/ 211، رقم 931)، والبغوي (1/ 124، رقم 89)، والطبراني (1/ 302، رقم 887).

لتستريحوا وتسكنوا بسكون حاشتكم ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ في نهار التجلي ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: فضل وصاله وفيه معنى آخر أن تسكنوا إلى الوصال في نهار التجلي نظيره قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:189] ولتبتغوا من فضله فضل وصاله في ليل الستر متطلعين لطلوع شمس التجلي في نهار الوصال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة فإن الشكر موجب الزيادة في النعمة كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7] وحقيقة الزيادة وهي الرؤية لقوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26].

قال النبي ﷺ: «الحسنى هي الجنة والزيادة هي الرؤية»[1] فمعنى الآية ولعلكم تشكرون لكي يكون نعيم الدنيا موصلاً بنعيم الآخرة، وذلك تحقيقه قوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:201] أي: حسنة الوصال ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:201] نار الفراق وفائدة تكرار قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:74] أنهم لعلهم تذكرون بخطاب ويوم يناديهم نداء كل ليلة يناديهم هل من داع هل من تائب فيجيبونه ويرجعون إليه.

وبقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [القصص:75] يشير إلى مقتضى نظر العناية ينزع من كل أمة من أرباب النفوس شهيدًا وهو القلب الحاضر في بعض أهل النفوس المتمردة الذين لهم قلوب حاضرة بلا شعور نفوسهم فنظر الله، وبقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص:75] يشير إلى أن لتلك القلوب براهين التوحيد بالقوة لا يحصل فيها بالفعل إلا بجذبة خطاب الحق وتأييد أمره وهو قوله: ﴿هَاتُوا﴾ عند حصول البراهين بالفعل في قلوبهم فعلموا بتلك البراهين القاطعة أن الحق هو حقيقة الإلهية لله تعالى وتعالى له وليس له في ذلك شريك ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ [القصص:75] أي: زال وبطل عن القلوب ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص:75] النفوس المتمردة من الشبهات في إثبات الشركاء لله تعالى، ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:43].

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ

(1) ذكره السمرقندي في «بحر العلوم» (2/ 291).

بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: 76 - 78].

ثم أخبر أن قارون كان نسيب موسى كهارون فأدركت العناية هارون وأدرك الخذلان قارون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾ [القصص:76] والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:76] يشير إلى أن قارون النفس من قوم موسى القلب تحقيقه أن الله تعالى جعل النفس تبعًا للقلب وسعادتها في متابعته، وشقاوتها في بغيها عليه وترك متابعته وسبب بغيها قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي القُوَّةِ﴾ [القصص:76] وكنوزها ما يودع في خزائن صفاتها فإن في خزائن كل صفة من صفاتها كنزًا من خواصها المودعة فيها فبإيتاء الكنوز يشير إلى تهيج دواعيها وغلبات خواصها من البطر والنشاط والغرور، وأما بغيها الإباء والاستكبار والعجب والتمرد عن قبول النصح. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ [القصص:76] بنو إسرائيل صفات القلب ﴿لاَ تَفْرَحْ﴾ [القصص:76] بشهوات الدنيا وزينتها ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾ [القصص:76] بها، وإنما يحب من يفرح بإقامة العبودية وطلب السعادة الأخروية، كما قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:58].

ومن جملة النصيحة قوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ﴾ [القصص:77] أي: من الاستعداد الإنساني ﴿اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ باستعماله في العبودية المأمور بها لنيل السعادة الأخروية الباقية ﴿وَأَحْسِن﴾ يعني: في العبادة بأن تعبد الله كأنك تراه شوقًا إلى لقائه ومن الإحسان أن تطلب الله بجميع مساعيك ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ بأن طلبك من العدم ودعاك إلى الوجود بجميع صفاته ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ﴾ [الرحمن:60] طلبه إياك ﴿إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:60] إحسان طلبك إياه ليحسن إليك في جزاء إحسانك إليه بوجود الوصال

والوصول كقوله: «ألا من طلبني وجدني»(1) ﴿وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: 77] أرض الروحانية بما آتاك الله من استعداد الروحاني والإنساني ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾ [القصص:77] من الصفات النفسانية التي تفسد استعداد الروحانية الإنسانية القابلة لفيض الصفات الربانية.

ويقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:78] يشير إلى أن نظر قارون النفس لقصوره ومناسبة طبعها لا يقع إلا على نفسه وكسبه بمحجوب نظره عن القدرة الإلهية والمواهب الربانية ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ [القصص:78] قارون النفس ﴿أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ﴾ [القصص:78] أي: من قبل إهلاكه ﴿مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ [القصص:78] في الفساد والإفساد كنمرود ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص:78] للطاعة والعلم مثل إبليس وأتباعه ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ﴾ [القصص:78] عند إهلاكهم كيلا يشتغلوا بالاعتذار، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36].

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (82)﴾ [القصص: 79 - 82].

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص:79] يُشير إلى أن قارون النفس مهما خرج على قومه أي: بني إسرائيل صفات القلب في إظهار ما ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:14] واستعماله في الصورة يفرز من تلك المعاملات ظلمات مسودة وجوه الصفات القلبية وتكدر صفوها وتقلب أحوالها وتغير طبعها حتى تتصف بصفات

---

(1) تقدم تخريجه.

النفس، وتتبدل إرادة الآخرة بإرادة الدنيا وشهواتها إلى أن ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص:79] النفس، ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:79] من نعيم الدنيا وزينتها وإنما وقع نظرهم على عظمة الدنيا وزينتها مع دناءتها وخستها وهوانها وقلة متاعها؛ لأنه اعتل بعلة سب حب الدنيا وزينتها المولد من تراكم شهوات ظلمات صفات النفس بعضها فوق بعض فهم ينظرون بنظر ظلمات صفات النفس بعد أن كانوا ينظرون بنظر نور صفات القلب ويبصرون عزة الآخرة وعظمتها وخسة الدنيا وهوانها، فإن الرضاع بغير الطباع.

وبقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [القصص:80] يشير إلى صفات الروح الباقية على حالها غير متصفة بصفات النفس إذ قالوا: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ [القصص:80] لصفات القلب المتغيرة توبيخًا لهم ﴿ثَوَابُ اللهِ﴾ [القصص:80] أي: ما يجازي الله من القربات والوصلات من دون الجنة ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ﴾ بوحدانية الله تعالى ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ للوصول إلى الوحدة ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا﴾ المرتبة ﴿إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:80] عن الدنيا وزينتها والآخرة ونعيمها والصابرون على مخالفات النفس وموافقات الشريعة على قانون الطريق إلى الوصول بعالم الحقيقة.

ويقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص:81] يشير إلى أن حاصل قارون النفس إذا بغى على موسى القلب وصفاته وخرج عن المتابعة وعن زينة الحياة الدنيا واستيفاء لذاتها وشهواتها ومتابعًا لهواه أن يخسف به الأرض أرض دركات السفل وأسفل سافلين النار ثم يخسف بداره وداره قالبه والأرض أرض جهنم فيها خالدين أبدًا.

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص: 83 - 88].

ثم أخبر عن نجاة أهل الدرجات عن الدركات بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ والإشارة في تحقيق الآيات بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يشير إلى عالم الغيب والأرواح ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:83] أي: للأرواح المقدسة عن دنس الصفات الحيوانية المؤيدة بالتأييد الإلهي الذين لا يريدون علوًا في أرض البشرية كالنفوس المتمردة كنفوس الفراعنة والجبابرة والأكاسرة ولا في أرض الروحانية مثل نفوس الأبالسة وبعض الأرواح الملكية مثل هاروت وماروت ﴿وَلاَ فَسَادًا﴾ [القصص: 83] بالنظر إلى غير الله يعني نجعل مملكة عالم الغيب والملكوت في تعرف الأرواح المذللة بالعبودية الخاضعة الخاشعة المطيعة المتواضعة المخلصة للربوبية غير الطالبة للعلو في الدارين ولا الناظرة إلى غير الله بنظر المحبة ليتصرف فيها بالكلية، يدل عليه قوله تعالى في بعض الكتب المنزلة: «**عبدي أنا ملك حي لا أموت أبدًا أطعني أجعلك ملكًا حيًا لا تموت أبدًا، عبدي أنا ملك إذا قلت لشيء كن فيكون أطعني أجعلك ملكًا إذا قلت لشيء كن فيكون**»[1] وقال النبي ﷺ: «**عنوان كتاب الله إلى عباده المؤمنين من الملك الحي الذي لا يموت إلى الملك الحي الذي لا يموت**»[2].

وبقوله ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يشير إلى أن عاقبة الأمور أن يكون ملك الوحدة لمن اتقى بوحدانية الحق عما سواه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [القصص:84] أي: بمثل هذه الحسنة أي الإعراض عما سوى الله ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [القصص:84] من مواهب الحق بإفاضة الفيض الإلهي الذي يورث ملك الوحدة لأنه ما أعرض عنه فهو مخلوقه، فافهم جدًّا.

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:84] يشير إلى جزاء السيئات على حسب ما يعملون من السيئات فإن كانت السيئة الشرك بالله فجزاؤه النار للأبد، وإن كانت المعاصي فجزاؤه العذاب بقدر المعاصي صغيرها وكبيرها، وإن كان حب الدنيا والرئاسة والسلطة الدنيوية فجزاؤه الذلة والصغار

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره النيسابوري في تفسيره (6/ 169).

ونيل الدركات، وإن كانت طلب نعيم الآخرة ورفعة الدرجات فجزاؤه الحرمان عن كمالات القرب وكشف شواهد الحق تعالى، وإن كانت التلذذ بفوائد العلوم العقلية واستجلاء المعاني المعقولة فجزاؤه الحرمان عن كشف العلوم اللدنية والمعارف الربانية، وإن كانت ببقاء الوجود فجزاؤه الحرمان عن الفناء في أمد البقاء بالله بتجلي صفات الجمال والجلال.

وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص:85] يشير إلى كمالية قدرها للنبي ﷺ وخصه بها دون سائر الخلق في مقام الوحدة فبشره بها إن الذي ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أوجب عليك أن تتخلق بخلقه وهو صفتي فيفني نورها ظلمة صفتك، فتكون فانيًا عن صفاتك باقيًا بصفاتي عند تجلي صفاتي لصفاتك، وإنا ﴿لَرَادُّكَ﴾ أي: راد مرآتك بتجلي ذاتي ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ خرجت من العدم لتكون فانيًا عن أنانية ذاتك بأنانية ذاتي باقيًا بأنانيتي كما أن صفاتك صارت فانية عنا باقية بصفاتي لتبقى بالذات والصفات فانيًا عنك باقيًا بذاتي وصفاتي ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْـهُدَى﴾ ببذل الوجود المجازي في الوجود الحقيقي ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ﴾ [القصص:85] وجوده باقيًا ﴿مُّبِينٍ﴾ [القصص:85] ضلالته في أفعاله وأحواله.

وبقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ﴾ [القصص:86] يشير إلى أن العلوم الإنسانية والفهوم الروحانية قاصرة عن إدراك ما أخفى من قرة أعين، ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد أيضًا ﴿تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ﴾ أي: القرآن الإكسير على النحاس لتبديل جوهر نحاس أنانيتك بإبريز هويته ما كان ذلك ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: 86] اختصك بهذه الرحمة على جميع الأنبياء؛ لأن كتبهم أنزلت في الألواح والصحف على صورتهم وكتابك نزل به الروح الأمين على قلبك ألقاه كإلقاء الإكسير ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص:86] بل تكون ظهيرًا للمؤمنين بالدعوة إلى ربهم.

وبقوله: ﴿وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص:87] يشير إلى أنه بعد إلقاء إكسير الكتاب وتبدل الجوهر يحتمل الصدود عن آيات الله؛ لأن القدرة به باقية لئلا يأمن مكر الله ويكون أعلم منا بالله وإحسانًا منه.

ثم قال دفعًا لآية الصدود ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [القصص:87] وهذا أيضًا من

اختصاصك به أن له الدعوة إلى الحضرة الربوبية بإفناء الوجود المجازي في الوجود الحقيقي ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الدعوة بأن تدعو طلاب الحق وعشاقه إلى الجنة والحضرة فادعهم إلى ربهم خالصًا عن شرك الجنة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5] ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ من الهوى والدنيا والآخرة لأنه ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا معبود ولا مطلوب ولا مقصود إلا وجهه أي لا محبوب إلا هو فإن ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ دونه ﴿هَالِكٌ﴾ أي: قابل للهلاك؛ إهلاكه بقدرته ﴿إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[1] أي: ذاته تعالى نظيره.

قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:26- 27] أي: ذات ربك ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ فيما قضى وقدر وخلق ودبر وبحكمته البالغة جعل أسفل السافلين إلى أعلى عليين القرب ومقام قاب قوسين أو أدنى من حضرة رب العالمين دركات ودرجات، وجعل كل دركة مقام مردود من المبغضين وكل درجة مقام مقبول من المحبين والمحبوبين ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وأرباب الدركات بالقهر للعذاب الأليم، وأرباب الدرجات باللطف للإكرام.

---

(1) في هذا التجلي الذاتي تقديس صور الوجود، فيكون الله فيها هو الموجود والمشهود، كما قال باب مدينة العلم على المصطفى وعليه التحية: إن غبت بدا وان بدا غيبني، فلذلك قال الشيخ ﷺ: إني عجبت لمثلي كيف ما عبدا؛ أي: أنا هالك ووجه الله هو الظاهر لا أنا، فلو عبدت لكان هو المعبود، فما المانع من جواز عبادتي؟ وقد بيّنا لك أن المانع من ذلك هو كمال في العارف لا نقص؛ لأن الحق متنزل فيه لمرتبة العبودية، كما أن باطنه عين مرتبته الربوبية.

سورة العنكبوت

وهي مكية وهي آخر ما نزل بمكة في قول ابن عباس - رضي الله عنهما- وهي تسع وستون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: 1 - 6].

﴿الـم * أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ [العنكبوت:1-2] والإشارة في تحقيق الآيات تعالى ﴿الـم﴾ يشير بالألف إلى تفرده عن كل شيء بوجه الفناء، وعدم لعدم الاحتياج وتوحده بالاستغناء كالألف عن الاتصال بالحروف واحتياج الحروف بالاتصال به، وباللام يشير إلى لطفه بعباده، وبالألف واللام يشير إلى الآية فكأنه أقسم بفردانيته وآلائه ونعمائه، وبالميم يشير إلى منه وإلى من أي العبد ومن الرب يعني: أنه أقسم بالآية مهما يكون من العبد التقرب إلى الرب بأصناف العبودية يكون من الرب التقرب إلى العبد بألطاف الربوبية، فمن العبد أداء العبادة بشكر النعم ومن الرب إعطاء السيادة بمزيد الكرم ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ يعني: الناس من أهل الغفلة والبطالة ﴿أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ بالتقليد والجهالة بمجرد الدعوى دون المطالبة بالبلوى ﴿وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[1] بأنواع البلاء

---

(1) أقسم الحق سبحانه بإشارة الألف إلى استواء فردانية أزليته على قلوب المفردين من أهل التفريد، وبإشارة اللام إلى كشف جماله للأرواح العاشقين الذين استقاموا مع الله بنعت التجريد، وبإشارة الميم إلى محبة القدمية السابقة لسباق المحبين الذين استغرقوا في بحار التوحيد أنه تعالى لا يدفع من ادَّعى محبته ومعرفته في مقام وصاله، وكشف جماله في الدنيا بوصف السرمدية إلا ويبتليهم بعد التجلي بالاستتار وبعد كشف الأنوار بتعذيب الأسرار؛ لاستيفاء حق الربوبية من العبودية وغيرة الأزلية على كون الحدث بالأسامي والنعوت في نعوته الأبدية.

قال ابن عطاء: ظن الخلق أنهم يتركون مع دعاوي المحبة، ولا يطالبون بحقائقها، وحقائق المحبة هي
-

لتخليص إبريز الولاء، فإن البلاء للولاء كاللهب للذهب، وإن المحبة والمحنة توأمان فلا تمييز بينهما إلا نقطة الباء به يشير إلى أن أهل المحبة إذا أوقعوا أنفسهم كنقطة الباء تحتها تواضعًا لله رفعهم كالنقطة فوق النون، ومن تكبر وطلب الرفعة والعلو في الدنيا كالنقطة فوق النون وصفه بالذلة كالنقطة تحت الباء، وقيل: عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، فمن زاد قدر معناه زاد قدر بلواه.

كما قال ﷺ: «يبتلى الرجل على حسب دينه»[1].

وقال: «البلاء موكل للأنبياء فالأمثل والأمثل»[2] فالعاقبة لمن لا يعرف قدرها كالدواء والبلاء لمن يعرف قدره كالدواء، فالبلاء على النفوس: لإخراجها عن أوطان

صبُّ البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء، فبلاءٌ يلحق جسده، وبلاءٌ يلحق قلبه، وبلاءٌ يلحق سره، وبلاءٌ يلحق روحه، وبلاء النفس في الظاهر الأمراض والمحن، وفي الحقيقة منعها عن القيام بخدمة القوي العزيز بعد مخاطبته إياه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في الوقت بعد الوقت من ربه والمحافظة على أحواله مع الحرمة والهيبة، وبلاء السر هو المقام مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه، وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة، وهذا ما لا طاقة لأحدٍ فيه، ثم بيَّن سبحانه أنه لا ينجو أحدٌ من الأولين والآخرين من دركات الامتحان بقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾، ميز بالتبوء بين الصادق والكاذب؛ فتبين شكر الشاكرين في النعمة وصبر الصابرين في المحنة ودعوى الكاذبين بفرارهم عن البلاء والطاعة.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، من شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين، ثم بيَّن سبحانه أن الذين عاشوا في البطالة لم يبلغوا منازل الصديقين بالتمني والتجلي وأبواب مقادير سعادة الأزال مسدودة عليهم، أيحسبون أن ينقضوا قضيات الحق السالفة فيهم بوصف الشقاوة والطرد والقطيعة، ويبدلوها بقضياته السابقة بنعت الاصطفائية في حق المحبين المطيعين؟! كلا ليس كما يحسبون؛ فإن أحكام الأزلية مقدسةٌ من النقوض والنقائض بهوسات المفلسين البطالين. [العرائس].

(1) رواه الطيالسي (ص 29، رقم 215)، وأحمد (1/ 172، رقم 1481)، وعبد بن حميد (ص 78، رقم 146)، والدارمي (2/ 412، رقم 2783)، والترمذي (4/ 601، رقم 2398) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (2/ 1334، رقم 4023)، وابن حبان (7/ 161، رقم 2901)، والحاكم (1/ 100، رقم 121).

(2) تقدم تخريجه.

الكسل وتصريفها في حسن العمل، وعلى القلوب: لتصفيتها من شين الرين لقبول نقوش الغيوب، والبلاء على الأرواح: لتجردها بالبوائق عن العلائق، والبلاء على الأسرار: في اعتكافها في مشاهدة الكشف بالصبر على آثار التجلي إلى أن تصير مستهلكة فيه بإفنائه، وإن أشد حفظ وجود التوحيد؛ لئلا يجري عليه مكر في أوقات غلبات شواهد الحق فيظن أنه هو الحق ولا يدري أنه من الحق ولا يقال أنه الحق وعزيز من يهتدي إلى ذلك.

وبقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:3] يشير إلى أن صدق الصادقين وكذب الكاذبين الذين عجنوا في تخمير طينتهم لا يظهر إلا إذا طرح في نار البلاء تصاعدت فيها روائح الضر وفوائح الشكر عن عود جوهر الصادقين ويصده بصدتين الضجرة وكفران النعمة عن رشيق جوهر المذنبين، وأنهم في البلاء على ضروب منهم: من يصبر في حال البلاء ويشكر في حال النعماء وهذه صفة الصادقين، ومنهم: من يصبح ولا يصبر في البلاء ولا يشكر في النعماء فهو من الكاذبين، ومنهم: من يؤثر في حال الرخاء لا يستمتع في العطاء ويستريح إلى البلاء فيستعذب مقاساة الضر والعناد وهذا أقل الكبراء.

وبقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت:4] يشير إلى أنه من موجبات عمل السيئات سواد وجوه مرآة القلوب بصداء الحسبان، ورين الكفران ليتوهموا أنهم يسبقونا بالعدول عن طريق متنافي الانتقام عن المجرمين، وينجو من سطوات بإلقاء جلباب الحياء ونقض عهد الوفاء ولزوم الجفاء اغتروا بإمهالنا اليوم إياهم في رياض الغفلات مسرحين عشب الشهوات ناسين يوم الحسرات ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:4] بالنجاة عن الدركات باتباع الشهوات ونيل الدرجات هيهات هيهات أفلا يعلمون أن ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت:5] أي: من أقبل الثواب يؤمن أعمال تورث العذاب ويعانق المجاهدات فإنها تورث المشاهدات، ومن زكى عمره في رجاء لقائنا فسوف ينج وله النظر إلى جمالنا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأنين الشاقين ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحنين الواقفين الصادقين.

﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ [العنكبوت:6] أي: سعى في طلبنا ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت:6] وليزكيها عن الأخلاق الذميمة ويحليها بالأوصاف الحميدة، فيتخلص

عن سجن الأمارية ويستأهل لجنته المطمئنة فيستحق لجذبة العناية بخطاب: ارجعي إلى ربك، فإني خلقت الخلق ليربحوا علي لا لأربح عليهم هنا لي عنهم، وذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1] والعالمون هم الفقراء إلى الله والمحتاجون إليه في الدارين.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: 7 - 10].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العنكبوت:7] أي: أخلصوا قلوبهم لمحبتنا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العنكبوت:7] بجميع وجودهم لبذله في طلب وجودنا ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت:7] لنفنين عنهم سيئاتهم أي: سيئات وجودهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت:7] أي: لنعطينهم وجودًا حقيقيًا ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: 7] بذل وجودهم لنيل جودنا.

ثم أخبر عن وصية الإنسان لوالديه بالإحسان يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ [العنكبوت:8]، والإشارة في تحقيق الاثنين بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت:8]، يشير إلى تعظيم الحق تعالى، وعظيم شأنه وعزة الأنبياء وإعزازهم، وعرفان قدر المشايخ وإكرامهم؛ لأن الأمر برعاية حق الوالدين المعنيين:

أحدهما: أنهما كانا سبب وجود الولد.

والثاني: أن لهما حق التربية، فكلا المعنيين في إنعام الحق تعالى على العباد حاصل

---

(1) نبّه الخلق أن ربوبيته منزَّهةٌ عن عبودية الخلق، وأن صفات الحدث يرجع بنعوتها إلى الحدث؛ لأنه مقدسٌ عن النفع والضر، وهو غنيٌّ عن وجود الخلق وعدمه، فبيّن قيمة المجاهدة أنهم إذا جاهدوا ولم يظفروا بمأمولهم يعلمون أنهم يدورون حواليهم، وأن الفضل من الله خاصٌّ لأهل الخصوص ممن عرفهم الله نفسه بلا كدٍّ ولا عناءٍ. قال الواسطي: بالنعم ابتدأ الحق الخلق تفضيلاً من غير استحقاقٍ، جلت نعمه وعطاياه أن تستجليها الحوادث بحال الكنه المبتدئ بالنعم والمتفضل بها.

بأعظم وجه، وأجل حق منهما لأن حقهما كان مشوبًا بحظ نفسهما وحق الله تعالى منزه عن الشوب، وأنهما وإن كانا سبب وجود الولد لم يكونا مستقلين بالسببية بغير الحق تعالى وإرادته؛ لأنهما كانا في السببية محتاجين إلى مشيئته وإرادته بأن يجعلهما سببًا لوجود الولد، فإن الولد لا يحصل بمجرد سببهما بالنكاح بل تحصيل بمُوهبة الله تعالى.

كما قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:49] فالسبب الحقيقي بإيجاد آدم عليه السلام.

وأما الشريعة فنسبتها إلى الله حقيقية بأنه رب كل شيء ومربيه، ونسبتها إلى الوالدين مجازية؛ لأن صورة التربية إليهما حقيقة التربية إلى الله تعالى كما ربى نطفة الولد في الرحم حتى جعلها علقةً ثم مضغة ثم عظامًا ثم كساها اللحم ثم أنشأه خلقًا آخر، والله تبارك وتعالى أعظم قدرًا في رعاية حقوقه بالعبودية من رعاية حق الوالدين بالإحسان، وإن الواجب على العبد أن يخرج من عهدة حق العبودية بالإخلاص ولا ثَمَّ يحسن بالوالدين.

كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23] وأما النبي والشيخ لما كان سبب الولادة الثانية بإلقاء نطفة النبوة والولاية في رحم قلب الأمة والمريد وتربيتها إلى أن يولد الولد عن رحم القلب في عالم الملكوت.

كما أخبر النبي ﷺ رواية عن عيسى عليه السلام أنه قال: «لم يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين»(1) فكانا أحق برعاية الحقوق من الوالدين؛ لأنهما كانا سبب ولادته في عالم الأرواح وأعلى عليين القرب والوالد إن كانا سبب ولادته في عالم الأشباح وأسفل سافلين البعد، ولهذا السر كان يقول النبي ﷺ: «إنما أنا لكم كالوالد لولده»(2) وقد كانت أزواجه أمهات للأمة وقال ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»(3) ولما كان لله تعالى في الإحسان العميم بالعبد والامتنان القديم الذي خصه به قبل وبعد أحق وأولى برعاية حقوقه عن الوالدين.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت:

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

8] وفيه إشارة إلى أن المريد الصادق والطالب العاشق إذا تمسك بذيل إرادة شيخ كامل ودليل واصل بصدق الإرادة وعشق الطلب بعد خروجه عن الدنيا بتركها بالكلي جاهها ومالها، وقد سعى بقدر الوسع في قدر تعلقات تمنعه عن السير إلى الله متوجهًا إلى الحضرة بعزيمة كعزيمة الرجال، فإن كان له والدان وهما بمعزل عما يهيجه من الصدق والمحبة فهما بجهلهما عن حال الولد يمنعان عن صحبة الشيخ وطلب الحق بالإعراض، ويقبلان به إلى الدنيا ويرغبانه في طلب جاههما ومالها ويحثان على التزويج في غير أوانه، فالواجب على المريد أن لا يطيعهما في شيء من ذلك فإن ذلك بالكلي طاغوت وقته وعليه أن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، وهما يجاهدانه على أن يشرك بالله لجهلهما بحاله وحال نفسهما وأنه يريدان أن يخرج عن عهدة العبودية الخالصة لربه، كما قضى ربه أن لا يعبدا إلا إياه، ولا يعبد ما دونه من الدنيا والآخرة وما فيهما، وما يعلمان مهما يكن أنهن عبدة الهوى وأنهما يدعوانه إلى عبادة غير الله، فالواجب عليه أن لا يطيعهما في ذلك، ولكن عليه أن يردهما باللطف، ولا يزجرهما بالعنف إلى أن يخرج عن عهدة ما قضى به من العبودية بالإخلاص، ثم الواجب عليه أن يحسن إليهما ويسمع كلامهما ويطيعهما فيما لا يقطعه عن الله على وفق أمره.

ثم أوعد الجميع بالمرجع إليه فقال ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾ [العنكبوت:8] أيها الولد والوالدان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:8] من العبادة الخالصة لله، ومن عبادة الهوى على لسان جزائكم ليقول لكم أن مرجع عبدة الهوى الهاوية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ المحبة الحق وطلبوه بأن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أعمالاً تصلح للسير إلى الله والوصول إلى حضرة جلال ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:9] أي: ندخلهم مقام الأنبياء والأولياء بجذبات العناية تفهم إن شاء الله، وتؤمن به ثم أخبر عن صورة إيمان بلا معنى ولا إيقاف بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10] يشير إلى أن حقيقة الإيمان نور إذا دخل قلب المؤمن ينظر الله تعالى وعنايته لا تخرجه أذية الخلق بل يزيد بالصبر على أذاهم والتوكل على الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173] وكقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي

سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:146] وذلك لأن المحن تظهر جواهر الرجال، وهي تدل على قيمتهم وأقدامهم فقدر كل أحد وقيمته تظهر في محنته من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها، أو كانت محنته بموت قريب من الناس أو فقد حبيب من الخلق فحقر قدره وكثير من الناس مثله، ومن كانت محنته في الله ولله تعزيز قدره وقليل من كان مثله بقدر الوقوف في البلاء يظهر جواهر الرجال يصفوا عن الخبث مرآة قلوبهم، ويتزكى عن رذائل أخلاق نفوسهم كما تخلص جوهر نعم العبدية عن معدن الإنسانية بمدة أيام البلاء لأيوب ﷺ مستعين بالصبر على البلاء، فالمؤمن من يكف الأذى، والولي من يجلي عن الخلق الأذى ويتشرب ولا يترشح عنه الشكوى عن البلوى ولا إظهار الدعوى كالأرض يلقى عليها كل قبيح فينبت منه كل مليح، ومن كان إيمانه لسانيًا لا جنانيًا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فإذا أوذي في الله ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ وإذا هم ﴿كَعَذَابِ اللهِ﴾ في الآخرة فتستولي عليه حرفة البشرية إذا لم يكن في حماية خوف الله وخشيته يفترسه خوف الخلق.

كما قال ﷺ: «من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله يخوفه من كل شيء»(1) فإنه كان في معدن القلب جوهر القلب مودع يخرجه بسببين البلاء والجزع منه وذلك معنى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:11].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ

(1) أخرجه البيهقي في الشعب (984)، والرافعي (2/ 187).

يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: 12 -19].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت:12] يشير إلى أن كافر النفس، ومنه أنهم يقولون بلسان الطبيعة الإنسانية للمؤمنين من القلب والسر والروح بجميع صفاتهم (ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا) في طلب الشهوات الحيوانية لاستيفاء الحظوظ بمددهم وموافقتهم ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: نرفع عنكم ضرر ما يرجع إليكم في متابعتنا لنيل الشهوات ومستلذات الطبع ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ [العنكبوت:12] أي: ضرر ما يحصل من خطاياهم ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ [العنكبوت: 12] لأنه من الضرر الذي يحصل للروح والقلب في متابعة النفس العمى والصم والبكم والجنون والاتصاف بجميع الصفات النفسانية ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حمل هذه الآفات والضرر عنهم ولكن ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ [العنكبوت:13] هذه الآفات التي بها أنفسهم متصفة ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:13] يعني: يضعّف الضرر الذي يحصّلون لهم من متابعتهم مع الضرر الذي يحصّلون لأنفسهم في تتبع الشهوات واستيفاء اللذات من غير أن يحملوا عنهم مما عليهم، ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: 13] يعني: النفوس، وآخذون بما يوعدون الأرواح والقلوب في الاستتباع ويؤمنونهم من سطوات قهر الله بأن يحملوا خطاياهم، ويعزونهم بذلك.

ثم أخبر عن ابتلاء أهل الولاية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت:14] إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت:19] يشير إلى أنه تعالى كما بدأ الخلق بإخراجهم عن العدم إلى عالم الأرواح، ثم أهبطهم من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح عابرين على الملكوت والنفوس السماوية والأفلاك والأنجم والفلك الأثير والهواء والبحار وكرة الأرض، ثم على المركبات والمعادن والنبات والحيوان إلى أن يبلغ أسفل سافلين الموجودات وهو القالب الإنساني، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين:5] أي: بتقدير النفخة الخاصة كما قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ [الحجر: 29] فكذلك نعيده بجذبات العناية إلى الحضرة راجعًا من حيث هبط عابرًا على المنازل والمقامات التي كانت على ممره بقطع تعلق نظره إلى خواص هذه المنازل، وترك الانتفاع بها فإنها حالة العبودية على هذه المنازل استعاد خواصها وبعض أجزائها منها لاستكمال

الوجود الإنساني روحانيًا جسمانيًا، فصار محجوبًا عن الحضرة فعند رجوعه إلى الحضرة بجذبة (ارجعي) يرد من كل منزل ما استعاد منه، فإن العارية مردودة إلى أن يعاد إلى العدم بلا أنانية بتصرف جبة العناية ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي: على العبد العود إلى الله بلا جذبة العناية عسير غير ممكن.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت: 20 - 25].

وهذا الرجوع والعود معنى قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أرض الوجود الإنساني ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ بالعبور على المنازل المذكورة من العدم كذلك الرجوع بالعبور عليها إلى أن يعود إلى العدم ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ بعد انخلاعه عنه من كسوة الأنانية يلبس خلعة الهوية لاختصاصه بمنزلة الخلافة.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:20] إن الله قادر على أن يجعل المستقر هذه الكرامة عند إظهار القهر لشر البرية ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:21] بعذاب البعد والقطيعة والهجران ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:21] بتجرده عن كسوة الوجود، وتوقده بالوحدانية في الوصول والوصال ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [العنكبوت:22] أرض البشرية ﴿وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:22] سماء الروحانية لاستجلاب مقامات قرب الملكوتية ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ [العنكبوت:22] تتولونه ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:22] يستخلصكم عن بطشه بجذبة العناية إذ لم يعرفوا قدر هذه النعمة الجسمية، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ﴾ [العنكبوت:23] يشير إلى طائفة من أرباب الطلب وأصحاب السلوك العابرين على بعض المقامات،

المشاهدين آثار شواهد الحق الكاشفين ببعض الأسرار، ثم أدركتهم القربة بحجاب العزة فابتلاهم الله للغيرة بالالتفات إلى الغير، فحجبوا بعد أن كوشفوا، واستتروا بعد أن تجردوا، واستدرجوا بعد أن رفعوا، وبعدوا بعد أن قربوا، وحاروا بعد أن كاروا نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

ثم أخبر على حالهم ومآلهم فقال: ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت:23] عند قسمة الرحمة على المرحومين دون المرجومين ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: 23] وهذا عذاب الطرد والهجران والقطيعة والحرمان.

ثم أخبر عن جواب قوم إبراهيم له بغير الصواب بقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت:24] يشير إلى أن من شأن إبراهيم الروح أن يدعو نمرود النفس وقومه أي: صفاتها إلى الله ونهاهم عن عبادة الأوثان من الهوى والدنيا وما سوى الله، وأن من شأن نمرود النفس الأمارة بالسوء وصفاتها أن يجيبوه من لوم طبعهم وغاية سفههم بقولهم: ﴿اقْتُلُوهُ﴾ بسيف الكفر والشرك وترك عبادة الله ولزوم عبادة غير الله، ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ بنار الشهوات والأخلاق الذميمة، فإن هاتين الحالتين أسباب هلاكه مودعة فأوقدوا عليه نار الشهوات والأخلاق الذميمة ﴿فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت:24] وجعلها عليه بردًا وسلامًا إذ أخلص جوهر الروحية من حرقة نار الشهوات والأخلاق، ومتعه بالخصائص المودعة فيها مما لم يكن في جِبلة الروح مركوزًا وكان به محتاجًا في سيره، ولهذه الاستفادة بعث إلى أسفل سافلين القالب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [العنكبوت:24] أي: في قصة إبراهيم وقومه ﴿لآيَاتٍ﴾ [العنكبوت:24] لعبرة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:24] بحقائق القرآن وأسراره وأن له ظهرًا وبطنًا.

وبقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت:25] يشير إلى ما هو من خصائص إبراهيم الروح إذا كان مؤيدًا بالتأييد الإلهي وإلهامات الحق؛ إذ عاين ما هو من مصالحه ومفاسده ولغيره منها في الدنيا والآخرة، ويرى أحوال الآخرة كأحوال الدنيا عيانًا، وأن تحدثها النفس نصيحة لها، كما قال ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم﴾ الهوى والدنيا معبودًا بخصوصية الظلومية والجهولية التي أنتم مجبولون عليها ﴿مَّوَدَّةَ﴾ طبيعية ﴿بَيْنِكُمْ﴾ أي: بين النفس وصفاتها وبين شهوات الدنيا في

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي من بقائكم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [العنكبوت:25] بعد الخروج عن الدنيا ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت:25] أي: يكفر النفس بشهوات الدنيا إذا شاهدت وبال استعمالها وخسران حرمانها عن شهوات الجنة ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:25] أي: ويلعن النفس على الدنيا أنها كانت سبب شقاوتها ويلعن الدنيا عليها.

﴿ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: 26 – 30].

كما قال ﷺ: «إن أحدكم إذا لعن الدنيا قالت الدنيا لعن الله أعصانا لله»(1) ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [العنكبوت:25] يعني: مأوى النفس والدنيا ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت:25] في الخلاص من العذاب وبقوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:26] يشير إلى إيمان لوط القلب لأجله أي لعلاج إبراهيم الروح؛ لأنه لا يتخلص من أذى نمرود النفس وصفاتها إلا بعد إيمان القلب؛ لأن بنور الإيمان تندفع ظلمات النفس وصفاتها عن الروح فيستعد للمهاجرة إلى الله وذلك قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت:26] وهجرته إلى ربه بقطع تعلقاته عما سوى الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:26] أي: إن الله هو أعز من أن يصل إليه أحد إلا بعد مفارقته عن غيره ﴿الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:26] الذي لا يقبل بمقتضى حكمته إلا طيبًا من لوث أنانيته كما قال ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»(2).

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ [العنكبوت:27] يشير إلى أن الروح إذا هاجر بالسر والنفس

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (11/ 178).

(2) تقدم تخريجه.

متوجهًا إلى ربه يهب له ﴿إِسْحَاقَ﴾ الخفي، ومن تولده ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ الإخلاص ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:27] ذرية روح الخفي والنفس وبالقلب أي: نجعلهم مجال الوحي والإلهام، إشارات الحق تعالى ومعادن العلوم وينابيع الحكمة وخزائن الأسرار والحقائق ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت:27] من المواهب الربانية واللذائذ الروحانية والاحتظاظ بلطائف الحظوظ النفسانية محفوظًا عن آفاتها، وتبعها بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:27] لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: 28 – 40].

ثم أخبر عن تفرق قوم [لوط] من التمرد بقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [العنكبوت:28] إلى قوله: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[العنكبوت:40] وقومه إشارة في تحقيقها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: 41 - 45].

ثم أخبر عن وهن ولاة أهل الولاية فيما اتخذوه أولياء بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:41] يشير على أن مثل النفس وصفاتها في اتخاذها من دون الله أولياء من الهوى والدنيا والشيطان كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا لمعانٍ:

أحدها: معنى قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:41] أنه سريع الزوال وشيك الانفصال، وإن حاصل ولايتهم اليوم العداوة في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67] يعني إلا الذين اتقوا عن اتخاذ الأولياء دون الله.

والثاني: أن العنكبوت كلما زاد على نسجه في بيته ازداد بعد أمن الخروج فهو يعني ولكن سجنًا على نفسه وقيدًا على رجله بحيث يتوقع هلاكه، كذلك من اتخذ الهوى والدنيا والشيطان أولياء سجن فيه بسلاسل الإضلال والإغواء على طريق الشهوات إلى مهلكة النيران، ولا ينفعه استغاثة ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:28- 29].

والآخر: هو أن بيت العنكبوت أوهن البيوت؛ لأنه بلا أساس ولا جدار ولا سقف، فلا يمسك على أهون دفع، كذلك الكافر لا أصل لشأنه ولا أساس لبنيانه ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ [النور:39].

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت:42] من الهوى عن الحق تعالى وطلبه الخشية وركاكةٍ ودناءةٍ جبلت عليها ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ [العنكبوت:42] لا

يطلبه ولا يقبل عليه إلا عزيز، وهو أعز من أن يطلب الأذلاء ويهتدي إليه الأخشياء ﴿الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:42] فبالحكمة يعز من يشاء بالهداية ويذل من يشاء بالضلالة.

وبقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت:43] أي: للناسين عهد الميثاق ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43] يشير إلى أن الكل مشتركون في سماع الأمثال، ولكن يتفرقون ويجتمعون في إدراك وفهم دقائقها ومعانيها وأسرارها ليسمعوا بسمع القول فما يعقلها إلا العالمون بالله؛ لأن عقولهم مؤيدة بأنوار العلوم، وكل فعل لم يكن مؤيدًا بالأنوار الإلهي لا يدرك حقائق القرآن وأسرارها، ولا يعد العاقل في زمرة العقلاء، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171] أي: صم عن سماع حقائق الأمثال بكم عن الإقرار بقبول فوائدها عمي عن رؤية آثار وكمالها فهم لا يعقلون لطائف خصائصها ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْـحَقِّ﴾ لمراتب صفات الحق تعالى ليكون مظهرها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: في السموات والأرض آية الحق مودعة ولكن ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:44] الذين ينظرون بنور الله تعالى، فإن النور لا يرى إلا بالنور، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

وقوله: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْـمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:45] يشير إلى أن الله قبل تلاوة القرآن حق تلاوته ذلك بأن يعمل به حتى يتخلق بخلق القرآن لا يقدر على إقامة الصلاة والاستدامة لتنهاه عن الفحشاء، وهي الالتفات إلى الدنيا والمنكر وهو طلب غير الله وكل صلاة ليست موصوفة بهذه الصفة فهي خداع، ثم أشار بقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾(1) [العنكبوت:45] أي: أن

(1) من أن يكون أحدٌ فيه بحق العبودية، فكيف بحقوق الربوبية؟! وقيل: ذكر الله لكم في الأزل أكبرُ وأحكمُ وأقدمُ وأتمُّ.

وقال ابن عطاء: ذكر الله أكبر من ذكركم؛ لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوبٌ بالعلل والأماني والسؤال.

قال القاسم: ذكر الله أكبرُ من أن يحويه أفهامكم وعقولكم، وحقيقة الذكر طرد الغفلة، وإذا لم تكن الغفلة فما وجه الذكر؛ لأنه أكبر من أن يلحقه ذكرٌ أو يدنيه إشارةٌ؛ لأن الإشارة تطلب الأين، والأين يلحقه الحين.

وقال الأستاذ: لذكر الله أكبر من أن يعرف قدره أحدٌ وأكبر من أن يعارضه ذكرٌ، ويقال: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه وحشةٌ.

موجب تلاوة القرآن وإقامة الصلاة تنهي العبد عن الفحشاء والمنكر وهما من أمارات مرض القلب ومرضه لعلة نسيان ذكر الله.

كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:67] إنما كان لإزالة مرض النسيان فعلى وصية العلاج بالأضداد، ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:45] من إزالة مرض النسيان عن القلب من تلاوة القرآن وإقامة الصلاة؛ لأن تلاوة القرآن على نسيان القلب الساهي، كما قال: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه»(1)، وكذلك الصلاة هي مصليها مستوجب للويل، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:4-5] وأما الذكر فله اختصاص في إزالة مرض النسيان عن القلب بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28] وعند الاطمئنان توجب سلامة القلب من الأمراض ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لما نظر نظرة في النجوم، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:89] كان طلبه من الله في إزالة سقمه وسلامة قلبه اطمئنان القلب مع وجود الإيمان قال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260] إنما اختص الذكر بإزالة مرض القلب دون تلاوة القرآن وإقامة صفته؛ لأنهما صادرتان من قلب مريض معلول بالنسيان الطبيعي للإنسان، ورأي العليل عليل، وأما الذكر وإن كان أيضًا صادرًا من القلب المريض ولكنه مختص بطرح إكسير ذكر الله فأبطل خاصية المعلولية وجعله إبريزًا خالصًا مخصوصًا بخاصية المذكورية بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152] فذكر العبد قد فني في ذكر الله فلا جرم، ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ في إزالة مرض النسيان عن القلب بإقامة الصلاة وتلاوة القرآن وجميع أركان الإسلام بحضور القلب المتنور بنور الذكر صارت صادرة بجميع شرائطها موجبة للفلاح الحقيقي، وهو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:1] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 14 - 15] والفلاح الحقيقي الإخلاص من جبل الوجود بجود واجب الوجود.

وبقوله: ﴿واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:45] يشير إلى أن نظر إليه لا يدرك

(1) ذكره الحجة الغزالي في «الإحياء» (2/ 32).

كمالية الجزاء المعد له بمباشرة أركان الشريعة وملازمة آداب الطريقة للوصول إلى عالم الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:17] ولكن يعلم ما تصنعون باستعمال مفتاح الشريعة وصناعة الطريقة لفتح أبواب طلسم الوجود المجازي والموصل إلى الكنز المخفي من الوجود الحقيقي.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: 46- 51].

ثم أخبر عن جلال أهل الكتاب بأحسن الخطاب وطريق الصواب بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:46]، يشير إلى أهل العلم الظاهر إذا جادلوا أرباب القلوب وأصحاب العلوم الباطنة، فالواجب على أرباب القلوب مجادلتهم بالتي هي أحسن، وذلك بأن يكون منهم للخصم تمكين وفي خطابهم ثابتين، وفي قبول الحق أنصاف واعتقادًا نصرة لما راؤه صحيحًا بالحجة، وترك الميل إلى شيء باطل بتعقب المذهب، وفي تقرير الحق والدلالة له - يعني الحقيقي - رفق وفي سكونه للتفهم، ولين في الكلام بحيث لم تتبرم النفوس وتهيج فيها البقية الأمارية بالسوء وعصبية المذهب، فيمنعهم عن قبول الحق ويحرضهم على الجلال بالباطل فحينئذ لا تجادلوهم؛ لئلا يزدادوا إنكارًا وفتنًا ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [العنكبوت:46] من العلوم الباطنة وكشف الحقائق ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من العلوم الظاهرة والأحكام الزاهرة بالحجج الباهرة ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ والدين واحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

[العنكبوت:46] لقبول الحق وترك الباطل.

وبقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾ [العنكبوت:47] يشير إلى أنه كما أنزلنا الدلائل والبراهين العقلية على أهل الظاهر كذلك أنزلنا على أهل الباطن الدلائل والبراهين الكشفية بما رآه من الشواهد الخفية، ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ [العنكبوت: 47] يعني: أرباب القلوب الذين علومهم في أنباء الحق موحية لاندراسهم الكتب وتحصيل العلوم بالتكرار فإنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يصدقونكم بما تظهرون من حقائق العلوم وتشيرون إلى وقائعها ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ﴾ يعني: على الظاهر على أنواع فمن حرم بنظرنا إليه بالعناية فمنهم: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بصدقكم بما تقيمون عليه من الدلائل الكشفية والبراهين بالواردات الحقيقية دلالة لهم إلى الحق تعالى، ومنهم محروم وسَمْنَاهم بالشقاوة فما استقبلتم إلا بالإنكار جحود، وذلك بالجهالة والضلالة.

ثم أخبر عن رعاية أهل العناية عن زلات السلوك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ المُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:48] يشير إلى أن القلب إذا تجرد عن المعلومات والسر تقدير عن يومان والروح تنزه عن الموجودات بالكافر أقرب إلى الفطرة، ولم يشتغلوا لقبول النفوس السفلية من الخسيسات والخيالات والوهميات، فكانوا لما صادفهم من المغيبات قابلية من غير ممازجة طبع ومشاركة كسب وتكليف وتكيف بشرية، ولما كان قلب النبي ﷺ في البداية ممزوجًا بعمل جبريل إذ أخرج منه ما أخرج، وقال: هذا حظ الشيطان منك. وفي النهاية محفوظًا عن النفوس التعليمية بالقراءة والكتابة قابلًا لإنزال القرآن عليه مختصًا به عن جميع الأنبياء.

كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:193- 194] ثم أثبت هذه الرتبة بتبعية لمتابعيه فقال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت:49] يعني: أوتوا من الغيب لا من التعلم به يشير إلى قلوب الخواص من العلماء بالله خزائن الغيب فيها أودع براهين حقه وبينات سره ودلائل توحيده وشواهد ربوبيته فقانون الحقائق لقلوبهم، وكل شيء يطلب من موطنه ومحله فالدر يطلب من الصدق؛ لأن ذلك مسكنه، كذلك المعرفة، ووصف الحق يطلب من قلوب خواصه؛ لأن ذلك قانون معرفة، ومحل تجلي صفاته بل يطلب حضرة جلاله عند حضائر قدس قلوب

خواص عباده كما سأل الله تعالى موسى عليه السلام قال: «إلهي أين أطلبك؟ قال: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»[1].

وبقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:49] يُشير إلى أن الحرمان من رؤية الآيات من خصوصية دين الجحجة والإنكار إذا غلب على القلوب، فتصدأ كما تصدأ المرآة، فلا يظهر فيها نقوش الغيوب وتعمى عن رؤية الآيات وبقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت:50] يُشير إلى عمى بصر قلوبهم؛ لأنه تعالى أنزل عليه آية واضحة وهو القرآن فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾ [العنكبوت:51] وهو إتيان بدلالة:

أحدهما: أن نفس القرآن آية لأنه لا يمكنهم معارضته ولا الإتيان شيء من مثله.

والثاني: أن تيسير قراءة مثل هذا القرآن لا من غير كاتب وقارئ وإنزاله عليه وحفظ أدبه وأحواله وجزالة بيانه آية واضحة وعليها دلائل لائحة وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ﴾ [العنكبوت:50] أي: من عند الله والقرآن آية نزلت من عند الله وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:50] أي: صدور الإنذار والتبشير على وجه الرسالة من مثلي وأنا أُمِّي آية صادرة من عند الله وسراج منير ذلك لا يبصره إلا عيون قلوب منزهة عن عمى الكفر والشرك وسبل حب الدنيا سورة بنور الإيمان مختصرة بالرحمة الخاصة متذكرة بواعظ الله، وذلك تحقيق قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:51] ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت:52] أي: مشاهدًا إلى أنه من آياته كما كان ابن مريم وأمه آية والقرآن آية وأنهم عمي لا يبصرون الآيات.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (52) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ

---

(1) تقدم تخريجه.

تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: 52 - 57].

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ﴾ [العنكبوت: 52] إنها آمنوا بالباطل لأنهم عموا بعين القلب لم يروا الحق والآيات ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:179]، فلم يؤمنوا بها وأبصروا بعين النفس فرأوا الباطل وآمنوا به وكفروا بالحق، فإن في عمى القلب بصارة النفس وفي عمى النفس بصارة القلب، وفي بصارته سعادة الدارين وفي عماه خسارة الدارين، فالعميان بعيون القلب، والأبصار بعيون النفس ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت:52].

ثم أخبر عن أمارة خسارتهم بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: 53] يشير إلى ظلومية الإنسان وجهوليته بالاستعجال بالعذاب يعني من استعجل بالعذاب ولا يصبر على العاقبة لجعل خلق منه، وهو مركوز في جبلته فكيف يصبر على السراء والضراء لو لم يصبره الله تعالى كما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:127]، وبقوله: ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت:53] يشير إلى أن الإرادة القديمة بالحكمة القديمة سميت لكل مقدور وكائن آجلاً في تعلق القدرة به فلا تقدم له ولا تأخر عن المضروب المسمى، وفيه إشارة أخرى أن الاستعجال في طلب العذاب في غير وقته المقدر لا ينفع وهو مذموم كيف ينفع الاستعجال في طلب مرادات النفس وشهواتها في غير أوانها وكيف لم يكن مذمومًا ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ ما استعجلوا به في وقت المقدر: ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ لأن لهم فيه خيرًا أو شرًا.

وبقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:54] يُشير إلى أن استعجال العذاب لأهل العذاب وهو نفس الكافر واقع لا حاجة إليه بالاستدعاء؛ لأن جهنم الحرص والشره والشهوة والكبر والحسد والغضب والحقد ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:54] أي: بنفس الكافرين أو بالنفوس الكافرة، والآن ينعقد الوقت ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت:55] بإحاطة هذه الصفات ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ الكبر والغضب والحسد والحقد ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الحرص والشره والشهوة، ولكنهم بنوم الغفلة قائمون ليس لهم خبر عن رزق العذاب كالنائم لا شعورا له

بها يجري على صورتها؛ لأنه نائم بالصورة فإذا انتبه يجد ذوق ما يجري عليه من العذاب.

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ﴾ [العنكبوت:55] يعني: يوم القيامة ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:55] أي: ذوقوا عذابي ما كنتم الخلق والخالق به، والذي يؤكد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:14] يعني: في الوقت ولا شعور لهم: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:15] يكون الصلي والدخول يوم القيامة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:16] اليوم، ولكن لا شعور لهم بها فمن تطلع لهم شمس العناية من مشرق القلب فتخرجه من ليل الدين إلى يوم الدين ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾ [الزمر:69] بشريته ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69] يرى نفس محاطة جهنم أخلاقها، فيحذرون ألمها ويقصد الخروج والخلاص عنها، فتؤذي أهل طلب الخلاص.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدقوا وعاينوا بأن جهنم العبد محيطة بهم ووجدوا ذوق ألمها وضيق موطنها ﴿إِنَّ أَرْضِي﴾ [العنكبوت:56] أي: أرض حضرة جلالي وعظمتي ﴿وَاسِعَةٌ﴾ فهاجروا بالخروج عن حبس وجودكم إلى سرادقات هُويتي ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:56] أي: فإياي فاطلبون، وإلى هويتي فارجعون بالاختيار شوق أو محبة وموتوا عن أوصاف وجودكم بالإرادة قبل أن تموتوا بالكراهة فإن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:57] بالاضطرار الذين اعتادوا منا بالفرار مقيدين بسلاسل التعلقات إلى الدنيا وأربابها مغلولين بأغلال الشهوات فيسجنون بسجن نيران الحسرات ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العنكبوت:58] بحقيقة الوصول والوصال.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: 58 - 62].

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مهاجرين عن أوطان الوجود ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ جنة الوصال ﴿غُرَفًا﴾ من غرف المعارف ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار الحكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [العنكبوت:58] في جنات القرب والوصول.

﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت:58] القاصدين بالخروج عن حجب الأنانية للوصول إلى كعبة الهوية في السير فيها مجذوبين عنهم به ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [العنكبوت: 59] في البداية: صبروا على حبس النفس بفطامه عن لبن مرامها، وفي الوسط: صبروا على تجرع القلب كاسات التقدير من غير تعيين، وفي النهاية: صبروا على بذل الروح لنيل الفتوح من مواهب المعيشة وكرامة المحبوبية ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:59] بإعراض القلب عن غير الرب واثقين بربوبيته قائمين بقيوميته وبقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾[1] [العنكبوت:60] يُشير إلى أن من كانت همته في أرض الدنيا طلب شهوات النفس، فإن رزقها مقسوم لها، وهو لا يحمل النظر عنها فهو متابعة الدابة، الله يرزقها بما هو متمناها، ويرزق إياكم أيها الطالبون الصادقون ما هو متمناكم من مشاهدات الجمال ومكاشفات الجلال والاستغراق في بحر الوصال، وهو السميع لتمني كل متمن، العليم بمطارح نظرهم فيعطي كل متمن على قدر هممهم.

ثم أخبر عن سويتهم في الإقرار بوجوده واختلاف طبيعتهم في مطالبة وجوده بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:61] يشير إلى أن بين الخلق في الإقرار بوجود الله وخالقيته سوية، وفي أنوارهم بالتوحيد اختلاف فمنهم من يثبت له الشرك، ومنهم من يثبت له الوحدة وينفي عنه الشركة، ولكل واحد من الفريقين موجب في الإثبات والنفي وموجب للتسوية في الإقرار، فأما موجب التسوية في الإقرار فقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ فتساووا هاهنا

---

(1) قال روزبهان: حثَّ سبحانه العباد على التوكل عليه والتيقن بلطيف صنعه والكرم العميم منه على جميع البرية، وبأن يرضى العباد بما يجري عليهم من الأقدار السابقة في الأزل، ولا يكونوا مهتمين بما يستقبلون من الأيام الباقية والأعمار الماضية بجهة الرزق؛ لأنه تعالى قدَّر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، وما قدَّر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين وجهد الجاهدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور لا تدَّخر شيئاً إلى الغد «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»؛ لاتكالها على الله بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، كيف يكون الإنسان يهتم لأجل رزقه ويدَّخِر شيئاً لغده ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره ولا يصل إلى غده؛ لذلك كان ﷺ لا يدَّخر شيئاً لغدٍ؛ إذ الأرزاق مجددةٌ كالأنفاس المجددة في كل لمحة، ولذلك وصف الله سبحانه في أوائل الآية أهل التوكل والرضا.

بالإقرار بوجود الله وخالقيته، وأما موجب إثبات الوحدة ونفي الشركة فقوله ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى»(1).

فالإقرار بالوحدة وإثباتها ونفي الشرك من موجبات تلك الإصابة، فأما موجب إثبات الشركة فقوله ﷺ: «من أخطأه فقد ضل»(2) فإثبات الشركة له من موجبات ذلك الإخطاء وحصول الضلالة، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [العنكبوت:62] بإصابة ذلك النور المرشش ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ بإخطاء ذلك النور ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:62] يعلم استحقاق كل طائفة من الفريقين لإصابة رشاش النور وإخطائه وبقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ [العنكبوت:63] يُشير إلى طائفة قد أخطأهم في البداية رشاش النور وإخطائه ذلك، فوقعوا في الضلالة وماتت قلوبهم، فإن الضلالة سم قاتل للقلوب ثم أحياها بنور الإيمان ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:63] سماء الروحانية.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: 63 - 69].

﴿مَاءً﴾ [العنكبوت: 63] أي: ماء الإيمان ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ [العنكبوت: 63] أرض القلوب ﴿مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: 63] بسم الضلالة ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ [العنكبوت: 63] الذي أنعم عليهم بنعمة الإحياء لقلوبهم الميتة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

﴿يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: 63] أي: لا يفهمون تحقيق هذه الإشارة وأيضًا لا يعقلون؛ لأنه ليس هذا المعنى مناسبًا لقولهم بأن من أخطأه رشاش ذلك النور في البداية وهو موجب للضلالة كيف يهديه الله في النهاية، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40] وذلك لأن عقولهم بمعزل عن فهم أن الله تعالى نور مصباح زجاجة قلب نبيه وحبيبه ﷺ بنور جماله وجلاله، ثم بعثه إلى الخلق وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ﴾ [المائدة:15] وهو سراج منير، فمن آمن به واتبع سراج قلبه المنطفئ من ذلك النور سراج قلبه المنير، نور الله سراج قلبه بذلك النور فأحياه بعد موته.

كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:122] أي: في الظلمات التي خلق فيها، ولم يصبه رشاش النور وبقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:64] يُشير إلى هذه الحياة الدنيا يعيش بها المرء في الدنيا بالنسبة إلى الحياة التي يعيش بها أهل الآخرة في الآخرة، وجوار الله تعالى لهو ولعب، وإنما شبهها باللهو واللعب لشيئين:

أحدهما: أن اللهو واللعب سريع الانقضاء لا يداوم، فلهذا المعنى أن الدنيا بشهواتها كظل زائل لا يكون لها بقاء، فلا تصلح لاطمئنان القلب بها والركون إليها.

والثاني: أن اللهو واللعب من شأن الصبيان والسفهاء دون العقلاء وذوي الأحلام؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «ما أنا من ددٍ ولا دد مني»[1] والدد اللهو واللعب فالعاقل يصون نفسه منه وبقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:64] يشير إلى أن دار الدنيا لهي الموت؛ لأنه تعالى سمى الكافر وإن كان حيًا بالميت بقوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى﴾ [النمل:80].

وقال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:70] فثبت أن الدنيا وما فيها لهي الموتات إلا من أحياه الله بنور الإيمان، فهو الحق والآخرة عبارة عن عالم الأرواح والملكوت فهي حياة كلها، وإنما سماها الحيوان؛ لأن الحيوان ما يكون حيًا وله حياة فيكون جميع أجزائه حيًا في الآخرة حيوان؛ لأن جميع أجزائها حية، فقد ورد في الحديث أن الجنة بما فيها من

(1) ذكره حقي في تفسيره (10/ 293).

الأشجار والأثمار والغرف والحيطان والأنهار حتى ترابها وحصاها كلها حية، فالحياة الحقيقية التي لا تشينها الغصص والمحن والأمراض والعلل، ولا يدركها الموت والفوت هي حياة أهل الجنات والقربات لو كانوا يعلمون قدرها وغاية كماليتها وحقيقة عزتها لكانوا أشد حرصًا في تحصيلها هاهنا، فمن فاته لا يدركها في الآخرة ألا ترى أن من صفة أهل النار أنه لا يموت فيها ولا يحيا يعني ولا يحيا بحياة حقيقية يستريح بها فإنهم يتمنون الموت ولا يجدونه.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:65] يشير إلى أن الإخلاص تفريغ القلب عن كل ما سوى الله والثقة بأن لا نفع ولا ضرر إلا منه، وهذا لا يحصل إلا عند نزول البلاء في معرض التلف دوامة الهلاك؛ ولهذا وكل البلاء بالأنبياء والأولياء لتخليص الجوهر الإنساني القابل للفيض الإلهي من فيها التعلقات بالتكوين والرجوع إلى حضرة المكون، فإن الرجوع إليها مركون في الجوهر الإنساني لو خلي إلى طبعه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:8] فالفرق بين إخلاص المؤمن وإخلاص الكافر أن يكون إخلاص المؤمن مؤيدًا بالتأييد الإلهي، وأنه قد عبد الله مخلصًا في الرضا قبل نزول البلاء فنال درجة الإخلاص المؤيد من الله بالسر.

قال تعالى: «الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»(1)، فلا يتغير في الشدة والرخاء ولا في السخط والرضا، وإخلاص الكافر إخلاص طبيعي قد حصل عند نزول البلاء وخوف الهلاك بالرجوع الطبيعي غير مؤيد بالتأييد الإلهي عند خمود التعلقات ككواكب الفلك: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: 65] دعاء اضطرار فأجابهم من يجيب المضطر بالنجاة من ورطة الهلاك، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ وزوال الخوف والاضطرار عاد المشئوم إلى طبعه ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ليكون حاصل أمرهم من شقاوتهم أن يكفروا بنعمة الله ليستوجبوا العذاب الشديد، ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ أيامًا قلائل، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:66] أن عاقبة أمرهم دوام العقوبة على الأبد.

---

(1) تقدم تخريجه.

ثم أخبر عن شقاوة أهل العناد وسعادة أهل الجهاد بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:67] يشير إلى حرم القلب فإنه آمن من دخول الشيطان فيه بأن الله حرم عليه دخوله فيه؛ ولكنه تتخطف الناس الصفات الناسوتية النفسانية من حولهم أي: حول القلب وصفاته ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما سوى الله مشارب النفس ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصرفون صدقهم في طلبه ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ﴾ وهي مشاهدة الحق تعالى ﴿يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:67] بألا يطلبون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ [العنكبوت:68] بأن يرى نفسه بأن له مع الله وقتًا أو حالاً أو كشفًا أو مشاهدة، ولم يكن له من ذلك شيء وقالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: 28] به يشير إلى الإباحية وأكثر مدعي زماننا هذا إذا صدر منه شيء على خلاف السنة والشريعة يقولون: إنا وجدنا مشايخنا عليه، والله أمرنا بهذا أي: مسلم لنا من الله هذه الحركات لمكانة قربنا إلى الله وقوة ولايتنا، فإنها لا تقربنا بل تنفعنا وتقيدنا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: 68] أي: بالشريعة وطريقة المشايخ وسيرتهم.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ [العنكبوت: 68] النفس ﴿مَثْوًى﴾ [العنكبوت: 68] محبس ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 68] أي: لكافر نعمة الدين والإسلام والشريعة والطريقة بها يفترون ويدعون بلا معين القيام كذابين في دعواهم، وقد وعد الله الصديقين المجاهدين بها وعدهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] [العنكبوت:69] أي سبل وجداننا كما قال: «ألا من طلبني وجدني ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً...

---

(1) قال البقلي: قال الجنيد: لنهدينهم سبيل الإخلاص. قال ابن عطاء: المجاهدة صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه. قال النهرجوري: والذين جاهدوا في خدمتنا لنفتحنَّ عليهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا والمشاهدة لنا، ومن لم يكن أوائل أحواله المجاهدة كانت أيامه وأوقاته موصولة بالتواني والأماني، ويكون حظه البعد من حيث يأمن القرب. قال عبد الله بن منازل: المجاهدة علم أدب الخدمة لا المداومة عليها، وأدب الخدمة أعزُّ من الخدمة. قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف: وكل محتملٍ لثقل العبودية في اختلاف ما وضع الله من عوضٍ وفضلٍ فهو داخلٌ في أحوال المجاهدين. قال الأستاذ: شغلوا ظواهرهم بالوظائف، فأوصل إلى سرائرهم اللطائف.

الحديث»[1].

وقد قالت المشايخ: المجاهدات تورث المشاهدات، ولو قال قائل: ما للوهابيين والبراهمة والفلاسفة أنهم يجاهدون النفس حق جهادها، ولا يورث لهم المشاهدات؟

قلنا: لأنهم أقاموا بالمجاهدات فجاهدوا وتركوا الشرط الأعظم منه وهو قوله: ﴿فِينَا﴾ أي: خالصًا وهم جاهدوا في الهدى والدنيا والخلق والرياء والسمعة والشهوة وطلب الرئاسة والعلو في الأرض والتكبر على خلق الله فأما من جاهد في الله جاهد أولاً بترك الحرمات ثم بترك الشبهات ثم بترك الفضلات، ثم بقطع التعلق تزكية للنفس، ثم بالتنقية من شواغل القلب على جميع الأوقات وتخليته عن الأوصاف المذمومات تصفية للقلب، ثم بترك الالتفات إلى الكونين وقطع الطمع عن الدارين تحلية للروح، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ في قطع النظر عن الأغيار بالانقطاع والانفعال لنهدينهم سبلنا بالوصول والوصال.

ثم اعلم أن الهداية على نوعين: هداية تتعلق بالمواهب فمن وهبه الله، فهي سابقة والتي تتعلق بالمكاسب فمن كسب العبد وهي مسبوقة ففي قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت:69] إشارة إلى أن الهداية الموهبة سابقة على جهد العبد وجهده ثمرة تلك البذرة، فإن لم يكن بذر الهداية الموهبة مزروعة بنظر العناية في أرض طينية العبد لما نبت منها خضرة الجهد، ولو لم يكن المزروع مزكى بسقي جهد العبد لما أثمر ثمار الهداية المكتسبة.

---

(1) تقدم تخريجه.

فهرس المحتويات

AL-TAʾWĪLĀT AL-NAJMIYYAH

by

Najmuddīn al-Kubrā

Followed by

ʿAYN AL-ḤAYĀT

by

ʿAlāʾuddawlah al-Simnāni

Edited by

Aḥmad Farīd al-Mizyadi

Volume IV

